

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال
المكتوبة

مسئف الكائنات

الشاعر أوقيك

نقله إلى العربية وقدم له

د. ثروت عكاشة



الحديث
العصرية
العامة
للكتاب

منتدى مكتبة الإسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

مسح الكائنات

الطبعة الثالثة

الشاعر أوقييد
رسوم بييكاستو

مسح الكائنات

”ميتمورفوزس“

ترجمه و قدم له
د. شروت عكاشه

راجعه على الأصل اللاتينى
د. مجدى وهيبه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

صمم الغلاف : حسن عثمان

تقديم

١

إني إذ أقدم هذا العمل « مسخ الكائنات METAMORPHOSES » من تأليف « بوبليوس أوفيدديوس ناسو PUBLIUS OVIDIUS NASO » إلى قراء اللغة العربية أحسن بالحاجة إلى أن أمهد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى ، كما أعرف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً ، وما تركه من أثر في شتى المجالات . وحسبي فيها سأقدم من أعمال أوفيد أننى سأتيح للقارئ أن تقع عيناه على قصص يسحر الوجدان ولغكه أن يشرد في عالم أسطوري رحب . ولست أحسب في ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوران ويترنج محلقاً في عالم الخيال الخصب .

ويروى هذا الكتاب جملة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق السابقة ومن التراث الشعبي الرومان نفسه ، تجعلنا نتبين حقيقته ونقف على مدى صلته بثقافتنا الحاضرة . وكم كان الدارس لثقافة اليونان والرومان في فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثر في دراسته لتعدد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزحمتها ، ولكثرة أسماء الآلهة المتكررة هنا وهناك . وقد أدنى الجهل بحقيقة الأسماء وصلتها بحضارة اليونان أو بعقائدهم الدينية إلى قلة الإقبال على دراستها . ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذى حال بين العرب الأقدمين وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم ، والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها تخلو من الأساطير المعقدة التى تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية .

ودور الأسطورة في الأدب القديم والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان ، أفاض فيه الكتاب والمؤرخون بما لا يحتاج إلى مزيد . والواقع أن الأسطورة قامت بأكثر من دور ، فكانت في صورها المحلية حكايات يقصد بها التريية والتثقيف ، واعتاد التلاميذ في المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب . ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرتة للمفسدين للفكر .

غير أن الأسطورة عادت وظهرت في شكل جديد وقد تحوّلت إلى تراجيديا ، وصار هذا التحول نفسه نقطة تغيير واضحة ووجهة نظر جديدة في الأسلوب الأسطوري نفسه . ولم تعد التراجيديا حكاية من الحكايات ، بل تأملا في موضوع بذاته أو في حدث من أحداث روائية مسلسلة ، وامتاز هذا التأمل أول الأمر بالغنائية معبراً مع ذلك عن مآسى الحروب وويلات الحياة الإنسانية في صراعها الضارى .

ولم يلبث كل من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريبيدس أن أسهموا في كتابة التراجيديا غير أن عنايتهما بأن تكون هذه التراجيديا عملاً أدبياً عدلت كثيراً من تكوين الأسطورة نفسها وغيّرت من طريقة سردها . فكانت بعض الشخصيات تحظى باهتمام لم تحظ به في الحكاية الأصلية ، كما كان الضوء يُسلط فجأة على بعض المظاهر أو الطباع التي ليس لها نظير في القصة القديمة . ولا شك أن الأهداف الأدبية التي كان يتطلع إليها المؤلف المسرحي هي التي كانت تؤدي إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر . ولكن لا شك أيضاً في أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسعى إلى تثبيت عدد من المعاني الفكرية والفنية قد أسهما في إحداث تغيير جوهري في طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبي والفنى .

ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد أثر في تخوير الأسطورة من أجل استخدامها الفكرى استخداماً لم تعرفه من قبل ، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة في حمل أعباء الفكر الفلسفى إلى جانب الاهتمام بالمعاني الأدبية الخالصة . وعندما اتسع المجال في استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التي تُقِلُّ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية .

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معان معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبرة وطاقة روحية تهدف إلى تغيير القيم في المجتمع . ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وسأيرت التاريخ ، حتى إن كُتِبَ عصر النهضة وكتب القرن الثاني عشر بأوروبا ورواد الآداب الحديثة والمعاصرة لجأوا إلى إحياء الأساطير القديمة وتناولوا وقائعها وشخصياتها في رواياتهم الحديثة في ظلّ فلسفات العصر .

ومن الصعب أن نتعقّب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتاب المسرح ، ولكننا لا نكاد نلقى نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين : أولهما أثر الأسطورة في إحياء بعض المعانى ، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأساء الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعانى الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً ، فنجد راسين مثلاً يعيد في مسرحيته « صحرَاء طيبة » أو « الأخوة الأعداء » عام ١٦٦٤ إحياء الموضوع القديم نفسه الذى أثاره أيسخولوس في مسرحيته « السبعة ضد طيبة » ، وهو الموضوع نفسه الذى تناوله أوريبيدس في مسرحية « الفينيقيات » ، كما تناول راسين أيضاً موضوع « إيفيجينيا » الذى تناوله أوريبيدس من قبل . وصار من المألوف حتى أيامنا هذه مشاهدة

تفسير حديث للتراجيديا القديمة ممثلة في الأسماء الأسطورية أو في الأبطال القدماء أو الآلهة . ولهذا تناول جيرودو « إلكترا » تناولاً جديداً ، كما تناولها سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً في مسرحيته « الذباب » .

ولست أحاول هنا أن أتبع كل الأماد والمجالات التي استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً مستحدثاً ، ولكني أحاول أولاً أن أؤكد أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور في مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر ، وأحاول ثانياً أن أفتح القارئ المعاصر بأنه بحاجة ماسة إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة ، حتى يتسنى له قراءة الآداب الحديثة وفهمها ومعرفة ما يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد في المناسبات المعاصرة . ويكفى أن نعرف مدى المرونة التي تحملها الأسطورة القديمة في التعبير عن الأفكار والمعاني من استخدام سارتر لأسطورة « أورستيس » في شرح بعض مبادئ فلسفته الوجودية ، وذلك في أحلك الأوقات التي مرت بها فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن احتلتها ألمانيا النازية .

٢

ولد أوفيد في مدينة سولونيه على بعد تسعين كيلو متراً شرقى روما ، وكان مولده سنة ٤٣ قبل الميلاد ، ويعدّ آخر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطين » ، وهم جملة من الشعراء الرومانيين الذين سجلوا أشعارهم وأتموا أعمالهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ، وهي المدة التي كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطوراً لروما . وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة باستثناء ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق ، وهو العصر الذي عرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطى هو ما حققه فيرجيل في « الإنيادة » ، [٧٠ ق.م. - ١٩ ق.م.] ، تلك الملحمة المشهورة التي أعدت على نمط إلياذة هوميروس ، ثم أشرّبت بعض المعاني والملاحم الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة ، وقد كان فرجيل صديقاً لأوفيد .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [هوراتيوس] الذي عاش بين سنة ٦٥ ق.م. وسنة ٨ ميلادية ، وتميز شعره بروح غنائية ، واستخدم عروضاً شعرية يونانية خاصة بالأغاني القديمة ، وأعاد تناول بعض الموضوعات والأفكار التي سادت في أشعار الإغريق القدماء ، وكان هو الآخر صديقاً لأوفيد . ومن الشعراء المبرزين أيضاً في هذه الفترة پروپيرتيوس المعاصر للشاعر هوراس ، وكان شعره تقليداً ومجازة للشعر المتأغرق .

أما شاعرنا أوفيد المتوفى سنة ١٨ م بمفناه « توميس » على البحر الأسود [كونستانزا برومانيا حالياً] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپيرتيوس ، وما لبث أن واصل رسالته الفنية متمسكاً ببساطة ميزته عن كل من عدهاء من شعراء تلك الفترة .

ونستطيع استقاء كل شيء عن حياة أوفيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره . فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه ، وهو القائل في كتابه « فن الهوى » : « فليسعد غيرى بأن يجترّ ذكريات الماضي ، أما أنا فأهنيء نفسي لاني وُلدت في هذا العصر الذي يلائم طبعي ومزاجي » .

وكان أبوه قد أعده ورياء ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية في الدولة ، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث كان يختلف إلى المدارس ، يتلقى العلم على أيدي الأساتذة المشهورين غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسه فيما كان يتعلمه على أيدي هؤلاء المعلمين ، وأحس بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحققة وعن ميوله الذاتية في صناعة الشعر ونظمه ، فقد كان يشعر في قرارة نفسه بأنه خلُق للشعر وأن الشعر يتدفق من بين شفتيه كما يتدفق الماء الراق من الينبوع الصافي . وأخذ بعد ذلك يلقي رجال الأدب في روما وشغل بالتعرف عليهم دون أن يُغفل متع الحياة ولذاتها في مدينة كبيرة مثل روما ، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلّان على حظ من الدعابة والمرح .

وكان عهد الإمبراطور أغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح ، وعهد تنفيذ للمشروعات المعيارية الكبرى وتشجيع للآداب والفنون بعد أن أشاع روح السلام في ربوع البلاد . ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس ، فاشدوا يلهون من ألوان السعادة والمتعة دون تحف أو قلق . وامتلات ردهات الأدب بالعديد من الكتاب ، كما اكتظت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التي تناسب مواهبهم وتصادف هوى في نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة .

وهكذا هيأت الظروف لأوفيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه أن يتحرر من ثقل الوظائف الإدارية ، فترك لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى .

٣

وكانت أولى أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمى « بالغزليات » Amores وهو مجموعة من القصائد التي تدور موضوعاتها حول المعاني الغزلية — كما يشي عنوان الديوان — أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة في غضون القصائد ، الأمر الذي ينبىء عن مدى إلمام أوفيد المبكر بالأساطير اليونانية التي



ديلا كرا : اوليند في منقاه بسكونيا

مجموعة خاصة - سويسره

اعتاد أن يقتبس منها في أشعاره الغزلية بما يجعلها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية ، إلا أن أوفيد كان يعتمد أن يسبغ على هذه العناصر الأسطورية التي يقتبسها في أشعاره نضارة فياضة ، كما اعتاد أن يصفى على الأساطير القديمة حيوية وشباباً متجلداً . وقد نظم قصائده على الوزن الإيليجي ، وهو الوزن الذي يتكون من بيتين أحدهما سداسي والآخر خماسي .

وقد سبب في « غزلياته » بعشيقته أسماها « كورينا » يعتقد النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية ، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتي عرفهن . وقد كان أوفيد سريع الوثوب إلى المغامرات العاطفية ، ولو أنا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلاً من الحقيقة لاستقر في نفوسنا أنه هام بمُحصّنات إلى جانب العذارى ، وأنه عرف الخليعات كما استمال إليه الخرائر .

وقد قسم غزلياته إلى كتب ثلاثة^(١) : تحدث في أولها عن وقوعه في أسر كيويدي إله الحب ، الذي صرفه عن الحديث الحرب إلى الخوض في قصص الهوى ، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعبا بوجوده وبخليعة حاول أن يطهرها من دنسها . وتحدث في الكتاب الثاني عن عبوديته لمعشوقته التي اجتاحتها رغبة في هجر المدينة التي كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها ، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيانتة لعشيقتة مع وصيفتها . ثم نجد في الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته ، كما يصف لحظات أخرى نَمَ فيها بمتعة اللقاء .

وجاء ديوانه الثاني « البطلات » Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على لسان نساء شاعت مأسى غرامياتهن في عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، فضمّن رسالة « بئيلوي » إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تباريح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذي احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته . وعرض في رسالة الحورية « إينونية » مأساة انصراف حبيبها « باريس » عنها وانشغال قلبه « هيلينا » التي اتخذ منها زوجة له . ونقرأ في رسالة الأسيرة « بريزيس » عتاباً لأخيّل الذي سعدت بأن تكون محظيته فلم يتحمس لاستردادها حين طمع فيها الملك « أجاممنون » . وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لتلك البراعة التي لا تجارى في السرد القصصى وعمق الإلمام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة .

ثم ظهر كتابه الثالث « فن الهوى » Ars Amatoria^(٢) في العام الميلادي الأول في أسلوب تعليمي جذاب ، وقد قسمه إلى ثلاثة كتب تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصص الثالث للنصائح الموجهة للإناث .

(١) جرت العادة لدى الكتاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم « كتاب Liber » .

(٢) « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ، وراجعته على الأصل اللاتيني د . مجدي وهبي . الطبعة الأولى : دار الشروق ببيروت ١٩٧٣ . الطبعة الثانية والثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و ١٩٩١ على التوالي .

والأول توجيه للرجل إلى البحث الذكي الدعوب عن المرأة الجديرة بهواه ، ثم عن طريقة التعرف بها واستيانتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة الباردة والاهتمام بأناقة المظهر .

والكتاب الثانى تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه ، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرزين .

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد أن تتغزو بهاها القلوب وإرشادها للطريق المثالى الذى يجعل منها امرأة جذابة فى كلمتها ومشيئها ولفتها وزيتها .

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى الغرام بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتحقى بالمعارف والفنون التى يعتبرها أوفيد أشد تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الخلى والجواهر . هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تنمو فيه أسمى العلاقات بين الرجال والنساء ، وترقى فيه العادات والتقاليد ، ويصقل فيه الحس ويكتمل فيه الذوق الرفيع .

ثم فاجأ أوفيد قراءه الذين كانوا يتلقفون كتبه السابقة بكتاب يمثل الوجه الآخر لكل ما سبق وقدمه ، فطالعهم بـ « سلوان الحب » Remedia Amoris يستحث فيه الناس على أطراح الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالزراعة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة ، وينصح فيه العشاق بنسيان تجارب غرامهم والتخلص من ذكرياتهم ، رسائل كانت أو صوراً . ولم يكن إقدام أوفيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلا محاولة لتهدئة الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمترمّنين من الحكام ممن ثاروا عليه واعتبروا كتبه دعوة إلى الفجور والانحلال .

ثم تحدث أوفيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليمية طويلة مقسّمة إلى إثني عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصاً بشهر من شهور السنة وسأها « التقويم » Fasti ، ورجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك . غير أنه للأسف لم يُعثر إلا على ستة أجزاء منه ، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم وفقد نصفه أو احترق ضمن ما حرقه يوم نفى من روما ، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة .

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراجمية أهّلته لكتابة مأساته الرائعة عن « ميلديا » التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً ضخماً آنذاك ، وإن لم يبق منها شيء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الرومانى . ويبدو من حديث المعقّنين فى ذلك الوقت أنها كانت نفحة شعرية متميزة ، وإن لم يشجع ذلك على الاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبى . ثم ما لبث أن ظهر كتاب « مسخ الكائنات » الذى نقدم ترجمته العربية هنا .

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس أوفيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب « فن الهوى » ، وكذب شاعرنا هذا ، وقال إنما نفى لإذاعته مراً من الأسرار لا لهذا الادعاء .

ومما يذكر عن أوفيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً في لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة قد ألقي بكتابه كله عن « مسخ الكائنات » في النار معبراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعري . ولعله كان يحاول تقليد الشاعر فيرجيل الذي مات قبل أن يحتتم ملحمة « الإنيادة » ، وإذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا حاول التخلص منها ولكن جيل بينه وبين ذلك . غير أن أوفيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية في التخلص من الكتاب .

وواصل أوفيد بعد ذلك الكتابة من منفاه ، فدوّن أشعاراً كثيرة جميلة مصقولة ملتصا العفو والغفران ، وسجّل في أشعاره كل ما شهدته في منفاه من صور الهول والفرع . ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذي كان يرجوه ، وظل يواصل كتابة أشعاره ، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والاكتئاب في كتابيه « المنظومات الحزينة » و « رسائل من بونتس » ، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكتابة التي انتابته أول الأمر ، وإن لم تكن مع ذلك نخطيء نغمة الحنين التي ظلت واضحة في كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة ، فقد طبعنا كل ما نظمته من القصائد في منفاه ، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم في حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية .

وقد استهل « أوفيد » أعمال منفاه بمدينة « توميس » بكتاب « المنظومات الحزينة » Tristia الذي يصوّر عنوانه مضمونه المثلث بأسى الوحدة وشقاء الغربة ، وقسمه إلى خمسة أجزاء وجه ثانياها إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التي ألصقتها به بعضهم بعد نشره كتاب « فن الهوى » الذي اعتبر تحريضاً على الفسق والفجور ، ويستعطف الامبراطور أن يخفف من قسوة عقابه وأن يبدله من « توميس » مدينة أرحب وأفسح لمواهبه الأدبية .

أما أجزاء الكتاب الأخرى فهي مجموعة من الرسائل الشعرية وجهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه ، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه في محنته التي كانت تطحنه بلا رفق .

وكأنما لم يخفف كتاب « المنظومات الحزينة » شيئاً من وحدة أوفيد ، فوضع كتاباً ثانياً أسماه « رسائل من بونتس » Epistulae ex Ponto يضم أربعة كتب تحوى رسائل شعرية وجهها هي الأخرى إلى أصحابه ، لكنه في هذه المرة صدّرها بأسئلتهم الحقيقية . وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما يحمله من عذاب تدوُّب له القلوب ، لولا ما فيها من إسهاب يهون من وطأة أساه في نفس القارئ .

ولم تكن كتابات أوفيد في منفاه كلها حزناً وشكوى ، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها « إيبس » Ibis أي طائر أبو منجل المائي المعروف باسم أبي قردان ، وفي هذا الكتاب يصبّ جام غضبه على رجل لم يسمّه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله في غيبته . ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة في السباب لأنه

يضم مجموعة نادرة من اللغات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .

ومات أوفيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته .

* * * *

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدة :

أولها : إحساسى بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثل فيها الأساطير وتشيع فيها الحكايات الخرافية التى تجلو لنا ما كانت عليه آلهة الإغريق والرومان وغيرهما من أبناء الحضارة القديمة .

ثانيا : أن هذا الكتاب يروى قصة هذه الأساطير بأسلوب شعرى متدفق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارئ وترسخ أساء الآلهة والأبطال فى ذهنه ، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة أخرى فى قراءته للآداب القديمة أو الآداب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز والإيماء إلى أدوار محددة أو وقائع معينة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العالمى عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبى رائع أو لما اختص به من موضوع جذاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية على مرّ التاريخ وتذوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوفيد يعنى هنا بموضوع واحد يخلص عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السمة المميزة ، وهو موضوع تغير صور الكائنات الحيّة وأشكالها وتحولها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر قصص هذه التحولات ويروىها عن أصلها مع ما يضيفه على أسلوبها من الأداء الأدبى الممتاز ومن الشاعرية الملهمة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى أنتجها الأدباء والشعراء الرومان .

وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسى هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيتهم خلال المراحل الأولى . ولكننا لا نملك بعد قراءتها إلا أن نعتز بقيمة المجهود الفدّ الذى بذله الشاعر أوفيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة وبعث فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة ويُسر حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجماع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرؤها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبياً ثراً يعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لا يزال يقرؤه ويتطلع إليه الجميع في كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام في فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البياني فهو ينبض بنضارة العالم الأسطوري الذي يصفه شعره القصصي الجذاب .

وقد وصف كوينتيليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحمة لخلوّه من التكوين الموحد الضروري في حالة الملحمة . وفي الحق إن أوفيد قد نجح في أن يخلّق من هذا العمل الشعري الذي يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغة في وزن سداسي التفعيلات بناءً عكماً أتاح للقارئ الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط في ترتيب الكتاب .

وفي هذا الكتاب يبدأ الشاعر بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود ، ثم يمضي فيتحدث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العباء إلى انبثاق الحياة ، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصر بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام . وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة : العصر الذهبي والعصر الفضي وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذي تجلّى فيه للبشرية وجودها الكامل . وكان چوبيتر [زيوس] هو الذي أنهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمى إلى حيوان ، وهو ليكاوون ، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وآثام . وعندنا شرع العالقة في هرّ عرش الآلهة إلا أن چوبيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع أن يقضى على محاولتهم . وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشري بأكمله قاصداً إنهاء عصر ويده آخر ، فراح يرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض ، فلا يبقى سوى ديوكاليون وبيرا لتعمير الأرض من جديد بعد الطوفان .

وقد بدأت أول ما بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث ، ثم استرسلت بعد هذا ، فنرى أبوللو وهو يفتك بالأفعوان يثون الهائل ، ثم إذا هو يقع في غرامه بدافنى . ومن هنا أخذت تبدو غراميات الآلهة وغدت تتوالى في صور مختلفة وصفها أوفيد خلال الكتب الخمسة الأولى [أى الفصول الخمسة] في كتابه عن مسخ الكائنات حتى منتصف الفصل السادس ، لينتقل بعد ذلك إلى موضوعات تتصل بأبطال اليونان القديمة مثل چاسون وثيسيوس وأضربهما حتى حرب طروادة .

ويستمر أوفيد على هذا النحو في سرد البطولات الخالدة ابتداء من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتصل بحياة الملوك . وفي نهاية الكتاب ترد على لسان أوفيد قصة تحول يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة ، التي كتبها على سبيل الإطراء للإمبراطور الحاكم واستندرازا لعطفه .

ولقد تميّز هذا الكتاب « مسخ الكائنات » في مجموعه بحشد هائل من القصص الخرافية المصوغ في أسلوب شعري توقّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافئة . ولا يكاد المرء

يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال بيجاليون أو كاليستو أو فينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة في تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء كبير في النفاذ إلى الطبيعة البشرية في خضم المعارك اليومية .

وليست أحداث الأساطير كلها التي جاءت على لسان أوفيد ذات صلة بالتحولات الخلقية وحدها ، بل كان الكثير مما يرد في غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة في بعث السرور في القلوب ، من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هذه العشق والهوى . ويمضي أوفيد فيربط بين هذه القصة وبين قصة الإله سيريس وپروسيرينا [پيرسيفون] رغبة منه في إحداث تأثير ما في نفسية القارئ بما امتلأت به هذه القصة من ألم دافق وحزن عميق على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات .

وهذه الفكرة في انتقاء مجموعات من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوفيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصر المتأخر ، فقد شاعت بينهم مجموعات خرافية تتناول موضوع تحول الأدميين إلى طيور ، كما وُجدت مجموعات أخرى لأساطير مشابهة في اليونان القديمة . ولا شك في أن أوفيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره ، لأن فكرة المجموعات الأسطورية من هذا القبيل عُرفت من قبله ، ولكن من العسير أن نعرف إلى أي حد كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على عمله . غير أنه مما يبعث على الإعجاب بشخصية أوفيد طريقته الفنية الحاذقة في ربط هذه الحكايات بعضها ببعض الآخر ، فليس ثمة رباط بين الحكايات التي يرويها أوفيد ، ولكنه استطاع بما أوتيها من المهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة ، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف . فيستغل أوفيد هذه المشابهات في إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها ، وليس فيما بين هذا الربط الفنى تلفيق أو تكلف إلا في القليل النادر . ومن هنا تحلّت في الكتاب وحدة جامعة ، خاصة أنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً درامياً سليماً . لقد استطاع أن يربط بين الأساطير بطريقة شاعرية كي يبعث في نفوس المستمعين إحساساً واضحاً بالصلة العميقة القوية بين حياة البشر والوجود الطبيعي من حوله الذي يضم سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد في وقت واحد ، تلك الرابطة التي تصل بين الإنسان والكون المحيط به ، وهى الأساس الذى بنى عليه هذا الموضوع ، وأصبح عاملاً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفتي الكتاب ، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان في عالم الطبيعة الحية هى الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها في هذا الأسلوب العذب الجزل .

ويتكرر ورود أسماء الآلهة لأنها تكاد تشترك في معظم الأحداث ، فجوپيتر هو مصدر التهديد الدائم للحواريات من ناحية وللعداوى من ناحية أخرى ، كما يرد دائماً ذكر أبوللو وميروكوروس دون أن يُحاطا خلال الأقاصيص التي يرويها أوفيد بهالة القدسية والتقدير . وليس هذا الموقف مستحدثاً فقد جرت العادة على ذلك منذ أقدم العصور كما هى الحال مع هوميروس الذي لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة

الأوليمبوس الذين يرتكبون كل الخطايا التي يرتكبها البشر ، ويظهرون مثل الناس ويقعون أحياناً فريسة للغيظ والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراسة . وهو ما أتاح لأوفيد أن يستغل خياله في تصوير هذه الأحداث المتصلة بالآلهة ، وأن يستفيد من هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة – فضلاً عن السخرية – لدى قرائه ومستمعيه . فَيَرِدُ كلام الآلهة كما يَرِدُ كلام البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطال في مسرحية كبيرة يعدها القدر ، ويرسم خطوطها المصير المحرَّك لكل ما يجري في الكون من أحداث ، ويسيرها القضاء المحتوم بإرادته ، ويخضع لها الصغار والكبار بما في ذلك الآلهة والأبطال على السواء .

واعتماد أوفيد أن يَكرِّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارئ غضاظة في ذلك ، بل قد يجد في هذا التكرار نوعاً من الأُنس والطَّرَب المستحب ، فلم يكن ينقص أوفيد براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب في بعض الأحيان .

ولم يتخلف أوفيد عن أن يسمو بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع الجميل المزهف . فيبدأ الفصل الأول – كما أسلفت – بعبارات عليها مسحة من جلال إذ هي تتصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو في مرحلة النشوء والتطور ، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة ، وهو ما يصدق أيضاً على الفصل الخامس عشر ، لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية . ومن هنا تهلَّرت الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ربح الشال ، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ديونيسوس] إله الخمر ، وفيما بين هذا وذاك تمضي الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة وديعة حتى تكاد تبلغ في غزوبتها همس الموسيقى .

ويسرد أوفيد في الفصل الخامس عشر حديثاً مُسهباً للفيلسوف اليوناني پيثاجوراس ، متبنيًا فلسفته الشاعرية الحاملة مُعارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التي كانت شائعة في وقته . وقد أورد قبل ذلك بعض الآراء التي تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التي قال بها پيثاجوراس خلال حديثه عن مسخ الكائنات ، كأنما يلتمس فيها تعصيذاً وتبريراً لما يتعرض له موضوعه الشعري في هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال ، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً . ولكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حق جلالة لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية ، ثم ما كان منه من عدم ميل إلى أن يضحى بأناقة العمل الشعري من أجل بسط بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية ، وكان أوفيد يتجنب دوماً أن تطفئ الأفكار أو الموضوعات على التعبير الشعري أو على جماله وإبداعه . وهذه الميزة في الواقع هي التي عملت على وقاية شعره من الإسفاف ومن التحول إلى نظم تعليمي فحسب خال من روح الشعر .

وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوفيد الشعرية فامتألت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعها . ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوفيد أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلاق . وستظل أوصافه للطبيعة غمطاً فذاً لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين ،

فلقد أدت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميز به من دقة التعبير ومن القدرة الخارقة على الأداء الشعري . وهكذا نال شاعرنا تقدير كل من دانتي وشكسبير ، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى في كتابة الشعر . فهذه الأبيات تحدثت دانتي عن أوفيد :

سمعت وقتئذ صوتاً يقول : « مجدوا الشاعر الأعظم : فطيفه يعود بعدما ارتحل » . وبعد أن توقّف الصوت وسكت ، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة . بدأ أستاذي الطيّب يقول « انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ، ويتقدّم ثلاثة كأنه السيد . ذلك هو هوميروس أمير الشعر ، والثاني الذي يأتي بعده هو هوراتيوس الساخر ، والثالث أوفيد يوس والآخر لوكانوس . ولأن كلا منهم يشترك معي في الاسم الذي نطق به الصوت الوحيد ، فهم يشرفوني ، وبذا يحسنون صنعا »^(٣) .

لقد ظل شعر أوفيد مثلاً فريداً في الأداء الفني ، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمّقوه وفهموه أن يجدوا في قراءته متعة حقّة وأن يتبنّوا في ثنائه أعماله فناً أصيلاً ملك قلوب الناس في كل البقاع وفي كل اللغات . ولعلّ أسهم هنا إسهاماً ما في إتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا حتى يشاركوا أبناء العالم أجمع في الاطلاع على هذا الكنز النادر .

وقد تناول الكثيرون كتاب « مسخ الكائنات » بالدراسة والنقد العميقين ، وتعدّ الدراسة التي عرضها الأستاذ هرمان فرانكل في كتابه « أوفيد شاعر بين عالمين » من أهمّها جميعاً ، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته في أمور ثلاثة :

أولها : أن هذه الملحمة أول محاولة لأوفيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية ، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التي تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذي التفعيلات الست والاسترسال في القصّ خلال ملحمة طويلة ضمت أكثر من إثني عشر ألف بيت في خمسة عشر فصلاً [أو كتاباً] . فقد فرض عليه تسلسل القصص في ملحمة أن يربط بين أجزائها بروابط لا يحسّ معها القارئ هذا الربط فلجأ إلى حيل شتى ، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص ، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة .

ثانيها : أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذي تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له في الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطوري بما فيه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يسّج بها على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع في شيء ، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له في ذلك العالم السحري الذي لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل ، وفي هذا سلوان للنفس ، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا ، إذ فيه فناء كل شيء لاسيما في عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسسة على القهر والطغيان . ومن

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتي : الجحيم . النشيد الرابع ٩٠ . ترجمة حسن عثمان . دار المعارف ١٩٥٩ .

ناحية أخرى يكشف أوفيد عن إيمان بـ « وحدة الروح » فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج ، وينصب كل جزء منها في كائن آخر غير الذى فى ، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة . وهذا يفسر لنا اهتمامه فى الجزء الخامس عشر بخطبة نيشا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود ، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لانجاء أوفيد فى قصص هذا الكتاب .

ثالثها : أن عقيدة أوفيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدوية منها إلى الإيمان الإيجابى ، وهو ما يكشف عنه بيت فى الكتاب الأول من منظومة « فن الهوى » حيث يقول : « حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة . فلنؤمن إذن بوجودهم » . غير أن القراءة الدقيقة للنص تبين أنه يقر عبادة الآلهة بل يحذرها بشرط ألا يظن الناس — كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون — أن الآلهة فى علالهم لا يكثرثون بما يحدث على الأرض . فأوفيد يعتقد أن الآلهة يشغلون بأمور البشر من وقت لآخر ، ومن ثم يعمل بنا عبادتهم فى خشوع ، فهم من يمنحون جزء البر والثواب لمن لا يعتدى على غيره . والراجع أن أوفيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه . ولم تكن الديانة التى يعتنقها أوفيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية ، بل هى الديانة الإغريقية العامة بالأساطير الذكية اللامحة الرامزة لحياة النفس وحالات الطبيعة ، باستثناء ربة الحظ « فورتونا » فى الديانة المحلية القبلية التى لم ترق إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفذ إرادتهم فى أمور الدنيا . ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى الديانة القديمة من توير لفكرة النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم من تقلبات الدهر والطبيعة . ولذلك عدت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لرب الأرباب جوبيتر على الأرض ولقبتة « بالآله المائل بيننا » . هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء دينى موحد ومشارك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحدة فغداً الآلهة حلفاء للدولة ، والدولة حليفة الآلهة . وقد حاول أوفيد مجازاة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يهتم كثيراً بأمور السياسة والمملك ، فهو لا يؤمن إلا بأمرين اثنين : الفن والإنسان . وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها .

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل شيتين هامين :

أولهما : التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر ، فى الأول وصف لبدء الخلق من حيث هو تحول من حالة فرضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام . وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحول من مغامرات فردية إلى نظام سياسى يصبح فيه الإمبراطور الها ، فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقى النظام الكونى ، إذا « النظام السياسى » فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشرية إلى الربوبية .

ثانيها : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوي في الأحد عشر جزءاً الأولى ، تفقد قدراً من حيويتها في الأربعة الأخيرة .

٥

وبالرغم من أن أوفيد قد أنهى حياته في المنفى بعيداً عن جمهور قرائه في روما ، وبالرغم من أن كتاب « فن الهوى » الذي كان قد ألفه قد حُرِّمَ تحريماً قاطعاً ، وأن كتاب « مسخ الكائنات » كان قد أُلقي به صاحبه في النار ، إلا أن نسخاً من هذين المؤلفين كانت في متناول القراء في روما نفسها أثناء السنين الأولى من الإمبراطورية . وهناك شعراء من القرن الأول الميلادي من أمثال مارتياليس وستاتيوس چوفيناليس كانوا يطالعون دواوين أوفيد بحماس ، وكذا تحدّث عنه الناقد كوينتيليانوس في كتبه كما أسلفت على أنه شاعر ملحمي وغنائي ومسرحي وامتدحه وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه ، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقريظ بل بعضه . ثم ما لبث ذوق العصر أن تغيّر وأخذ قراء أوفيد ينقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عصر انكماش لأوفيد ، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأوّل الخطأ من كافة الكتاب الوثنيين وخاصة الشعراء منهم بوصفهم أشدّ الكتب خطراً على عقول القراء ، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوي على عريضة واستهتار . وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تحوّل رجال الدين من أثر هذه الكتب في نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبيّة وتشويق . وبالرغم من ذلك كله مضى النسخ ينقلون شعره سرّاً فيطالعه الناس من جميع الطبقات في الخفاء . بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه ، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور « لكتانتايوس » إلى كتاب « مسخ الكائنات » مستشهداً ، ليبرهن على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم ، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثني !

فلقد وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوي اسمه « لكتانتايوس بلاكيدوس » تحوى ملخصات نثرية لبعض الأساطير التي ذكرها أوفيد ، وأغلب الظن أن هذه الملخصات كانت تدريبات لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية . وفي عصر الإمبراطور شارلمان قرّطه « ثيودولفوس » أسقف أورليان – وكان من أهم رعاية التعليم في بلاط الإمبراطور – تقرّظاً مُعجِجاً ، هذا إلى أنه ذكره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألف قراءة ما يكتبون طوال حياته . ثم أضاف قولاً له شأنه ، هو أن مطالعة كُتب أوفيد لا شك تفيد القارئ لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال .

ومع ذلك كان فرجيل هو الشاعر الأشهر ، ولم يرق أوفيد إلى درجته ليحلّ محله في كافة أنحاء أوروبا إلا مع بدء العصور الوسطى . وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات . ويبدو أن شعره الغزلي قد اجتذب جمهوراً كبيراً ، فعنّه شعراء « الجوليارد » وهم الطلاب الرُّحل ناظمو

الشعر المأجور راعاهم . وما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجر قد وجدوا في أعماله ينبوعاً ثراً لأشعارهم .

وقد ورد اسم أوفيد في القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية في مدن ألمانيا . كذلك ظهر اسمه في فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، فوضع « ألكسندر نيكام » أستاذ الآداب بجامعة باريس وأكسفورد كتاب « مسخ الكائنات » لأفيد ضمن الكتب المقررة في منهجه الدراسى . وقد سعى البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر « بالعصر الأوفيدى » Aetas Ovidiana ، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت في فجر القرن الثالث عشر إلا أنها لم تصل إلينا . كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير في إسبانيا خاصة في « ملحمة الإسكندر » Libro de Alexandre الشهيرة في أواخر القرن الثالث عشر . وفي فرنسا ترجم « كرتيان دى تروا » أول شاعر فرنسى جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات ، كما نسبت إليه معالجة موسعة لأسطورة فيلوميلأ عنوانها « فيلومينا » . وثمة معالجات بالشعر الفرنسى القديم ترجع إلى نفس العصر لأسطورة نارسيسوس وأسطورة بيراموس وثيزى ، والثابت أن أوفيد هو أول من دون الأسطورة الأخيرة للآداب اللاحقة على عصره .

وكذا نتين لكتاب مسخ الكائنات في المنظومة المشهورة المسماة « قصة الوردة » Roman de la Rose وهى من روائع الأدب الفرنسى القديم التى يتجلى فيها تأثير أوفيد الغزلى . وهناك أيضاً قصيدة بلغة بروفانس في القرن الثالث عشر عدداً من القصص التى ينبغى على كل شاعر أن يتعرف عليها ، منها قصص كثيرة لم ترد في غير كتاب مسخ الكائنات ، وفي الوقت نفسه تقريباً حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه ، فلكى تتاح للقارئ فرصة الاطلاع على الكتاب دون المساس بقيمه الأخلاقية جمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوفيد وقصص الكتاب المقدس حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً . بل لقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير غيراً لو وصلت إلى علم أوفيد لأصيب بالدهشة والعجب . وثمة نص فرنسى قديم من أوائل القرن الرابع عشر فيه تأويل رمزى لما جاء على لسان أوفيد Ovid Moralise فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت في التوراة بنظيرتها في « مسخ الكائنات » ويجعل من حديث أوفيد ما يدل على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الأثمون ، كما ذهب إلى أن مُراد أوفيد بالأفعوان ييثون هو الشيطان ، وأن مراده بأبوللو الذى قضى عليه هو المسيح ، واحتملت أسطورة أبوللو وادفنى ما لا يقل عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة . وثمة أيضاً كتاب إيطالى لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر يحاول أن يفسر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها ، فوصف أكتايون بأنه صياد يذهب إلى أن الصيد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيد ، غير أنه رحمة بكلاب الصيد احتفظ بهم ، فإذا هذه الكلاب تكثر عليه بمطالبتها الشره ، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه . وقد شاع هذا النوع المؤول من التفسيرات شيوفاً كبيراً وقتذاك .

وفي القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية ، وهي اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير ، وبقيت هذه الترجمة الهامة التي قام بها الراهب البيزنطي « بلانوديس » حتى يومنا مرجعاً أساسياً في تحقيق الأعلام الجغرافية .

وفي إيطاليا نفسها جاءت ملحمة دانتي العظيمة عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفاته أوفيد وإعجابه بها . ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتي لما جاء في ملحمة عن الأساطير الكلاسيكية ، بل إنه يتحدى أوفيد في أحد مواضع ملحمة بأنه سيبيزه في حقل اختصاصه ، بأن ابتكر غطا مزدوجاً من التحول هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحول الثعبان إلى إنسان من جديد . وكان « بوكاتشيو » أيضاً من المولعين بأوفيد ، ففي قصيدته الطويلة « الرؤيا العاشقة » *Amorosa Visione* يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوفيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة ليراموس وثيزبي .

وان لم يكن كتاب ديكامبيرون « الأيام العشرة » لبوكاتشيو قد أخذ عن أوفيد مباشرة فهو في إطاره العام يوحى بأسطورة من أساطير أوفيد ، فقصص ديكامبيرون هي ميسامرات لبعض الأشراف للتخفيف من ملل حياة الريف بعد أن هربوا من طاعون كان يعم المدينة ، مما يذكرنا بأسطورة بنات مينياس في كتاب مسخ الكائنات اللاتي أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس .

وكان أوفيد حاضراً في أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثاني عشر ، فذكره المؤرخ « وولتر ماب » ، غير أن « تشوسر » في القرن الرابع عشر هو الذي تأثر تأثراً كبيراً بشاعرنا الروماني ، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوفيد أثناء وجوده في فرنسا . ففي قصيدته الطويلة « دار الشهرة » *The Hous of Fame* كرس أحد أعمدة الدار لأوفيد « أديب فينوس » . ولا شك أن لشعر أوفيد الغزلي تأثيراً كبيراً على كتابات تشوسر إلى جانب شعره القصصي ، ففي « أسطورة الفاضلات » *The Legend of good Women* نجد قصة ليراموس وثيزبي شديدة الصلة بالأصل الأوفيدى ، كما نتبين أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات . ولا شك أيضاً أن أروع ما كتبه تشوسر وهو « قصص كانتربري » *Canterbury Tales*^(٤) كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوفيد . وفي الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوفيد في منظومته الكبرى « اعتراف عاشق » *Confessio Amantis* .

وما لا شك فيه أن شهرة أوفيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر . ومع ذلك فقد استمر عالماً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكي ، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تكثر شيئاً فشيئاً في لغات أوروبية مختلفة على الرغم مما شاع في بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ وتأويلات رمزية خلقية ، فظهرت ترجمات عدة في القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية . والمعروف أن الشاعر الإيطالي « أريوستو » كان مولعاً

(٤) انظر « حكايات كانتربري » لتشوسر : ترجمة د. مجدى وهبه و د. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب

بأوفيد وينسج في شعره على منواله ، وأن الفيلسوف الفرنسى « مونتيني » قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة . وظهر تأثير قصص أوفيد واضحاً في كتابات « ثيرفانتيز » ، وبصفة خاصة في مسرحيات الكتاب المسرحيين الإسبان في القرن السابع عشر . وقد ترجم الشاعر الفرنسى لافونتين بعض أساطير أوفيد في كتابه « القصص » ، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات في مراثيه عن أدونيس . وكانت أول أوبرا ظهرت في العالم والتي قدمت في فلورنسا عام ١٥٩٤ هى « دافنى » المشتقة من أسطورة بنفس الاسم في كتاب مسخ الكائنات .

وترجم كتاب مسخ الكائنات في إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاكستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صنعت في إنجلترا . أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهى ترجمة آرثر جولدنج التى نُشرت عام ١٥٦٧ . وكان شعر أوفيد يُقرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية في كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج .

واقبس « إدموند سبنسر » الكثير من كتاب مسخ الكائنات في ملحمة « ملكة الجان » The Faerie Queene . أما شكسبير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوفيد في الأصل اللاتينى غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة . وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى « أن نفس أوفيد العذبة الذكية مازالت حية عند شكسبير ذى اللسان المعسول » ، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوفيد أكثر مما يشير إلى موضوعات مؤلفاته . ومع ذلك فثمة مواضع في أعمال شكسبير تدل على التأثير المباشر بموضوعات أوفيد . وقد تكون أشهر الأمثلة ذلك التقليد الساخر لقصة بيراموس وثيزى التى أدخلها شكسبير في مسرحيته « حلم ليلة منتصف الصيف » . وثمة مثل آخر في مسرحيته « العاصفة » حيث نُبئ أن دعوات بروسيريو لأرواح الجان شديدة القرب من تعاويد ميديا في الكتاب السابع من مسخ الكائنات ، وتحكى أول قصيدة كتبها شكسبير وهى « فينوس وأدونيس » حكاية واردة عند أوفيد .

ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر فيرجيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً ، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُدبّل بها مجموعة من الصور المطبوعة على لوحات محفورة تمثل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات .

وظهرت في عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية مشهورة لكتاب مسخ الكائنات « لجورج ساندز » بعنوان طويل هو « مسخ الكائنات لأوفيد مترجمة إلى الإنجليزية ومعالجة علاجاً أسطورياً ومزودة بصور تفسيرية » . وفى أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزى « جون درايدن » أجزاء كثيرة من مسخ الكائنات وكان الجزء الخامس عشر يُعد أرفعها شأنًا ، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشوهر وبوكاتشيو تحت عنوان « حكايات قديمة وجديدة » .

وفى القرن الثامن عشر كان الإلمام بكتاب مسخ الكائنات لأوفيد جزءاً من تربية كل مثقف . وكان كتاب ذلك العصر كثيراً ما يترجمونه إلى الشعر الإنجليزى ، وذكر « ألكسندروپ » أنه ترجم أكثر من ربع

كتاب مسخ الكائنات كتمارسة أدبية ولكنه لم يُعدّ للنشر إلا مقطوعتين هما قصة « دريوى » وقصة « بومونا وفيرتوموس » . وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوفيد في الازدهار ، فلم يتحمس له شعراء العصر الرومانسى ولو أن استلهامه واضح بعض الشيء في شعر كيتس وشيل وبايرون وبراوننج .

٦

وإذا كان لعبرية أوفيد التصويرية في شعره أثر كبير في آداب أوروبا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه في الفنون التشكيلية . وكانت موضوعات الفن التشكيلى في أوروبا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى تختلف بين اثنين : قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام خاصة بحياة المسيح وموته ، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى . كذلك اختلطت التصاوير الذاتية التى بدأت تظهر في ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدسة أو بتصوير الحياة اليومية .

وقد شهد بدء عصر النهضة في إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصى في شعر أوفيد الذى غدا موضوعاً جديداً يُصور بجانب الموضوعات الدينية والاجتماعية ، وذلك بعد أن تحول رجال الكنيسة عن تحريمهم الأول لموضوعات أوفيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسنة . وقد سائر هذا الاتجاه الجديد في الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ « المذهب الإنسانى » التى تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكرى والنووى لما يسمى بعصر النهضة في أوروبا .

وكان « لمسخ الكائنات » بطبيعة الحال أثر كبير في تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل ، وخاصة أن تعدد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذبوعه بين العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوعاً من اليونانية ، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه . كما أن وجود الأساطير مجتمعة في كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها في سهولة ويسر .

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة « بيرسيوس » وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كتبت لها الحياة في خيال العصور التالية لعصر النهضة في تمثال برونزى « لينفونوتو تشللىنى » ، وأن أسطورة مسخ « دافنى » شجرة غار قد كتبت لها الحياة هي الأخرى في تمثال « برينى » المرمى ، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف « أوروبا » لا تنصوّرها إلا من خلال لوحات « بولوفرونزى » و « كوريجيو » و « بيرو دى كوزمو » . أما قصة مغازلة « فيرتوموس لهومونا » فقد أصبحت ترتبط في أذهان الناس بتصويرها في النسيجيات المرسمة التى أنتجتها مناسج بروكسل في القرن السادس عشر .

ومن أدلة ذبوع كتاب « مسخ الكائنات » ما قاله أحد نقاد الفن واسمه كارلوريدلفي في كتاب له عن فنون عصره سماه « روائع الفن » (١٦٤٨) من أن فناني عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخيالهم من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب ، بل لأن أوفيد في شعره الواصف يهْدِي الفنان إلى الطريقة المثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظي لمواقف الأساطير المختلفة .

ولا مجال هنا لأن أستطرد في اختيار نماذج التصوير أو النحت التي استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب « مسخ الكائنات » وإلا لاقتضى ذلك مجلداً بأكمله ، ولذلك فقد اجتزأت بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتها في دليل لحقته بهذه الترجمة^(٥) . وأغرائي هذا البحث عن تأثر الفنانين التشكيليين بأعمال أوفيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التي استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه^(٦) .

يقول كنيث كلارك في كتابه « المناظر البرية تتحول إلى فن » : هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوفيد وفرجيل اللذان ملا غيئة الفنانين في عصر النهضة . وعلى حين كان أوفيد أحب الشعراء إلى مصوّري الشخصيات لما في شعره من وصف واضح وتفصيلي للقصص الخرافية كان فرجيل هو مصدر الوجدى لمصوّري المناظر البرية .

ويقول إروين بانوفسكى في كتابه : [مشاكل إيقونوغرافية متعلقة بتسيانوا] : « كلما أراد تسيانوا أن يقصّ حكاية حقيقية كان يستوحاها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذي كثيراً ما اجتذبه ، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التي لا تمت إلى الأساطير بصلة . وحسبنا في هذا الصدد أن نقدر جهد أوفيد حتى قدره الذي بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تعنى به منذ حوالي عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا . فليس ثمة كاتب كلاسيكي آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية ، وليس ممن كتبوا في هذا الموضوع من يضارعه في إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير . وليس في هذا ما يدعو إلى العجب ، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد والتعليقات عليه كما ذكرنا قبل ، وقد تضمن عنوان أغلب هذه الطبعات عبارة « إنجيل الشعراء » بين الفرنسيين و « إنجيل المصوّرين » بين الألمان .

وكانت صلة تسيانوا بهذا الشاعر الذي « عاش بين عالمين » كما كان يدعى صلة خاصة ، فمما لا شك فيه أنه أحسّ بالوشائج القوية التي تربطه بكاتب يتميز بالعمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسية في الوصف ، كما يتميز أيضاً بإيمانه بمأساة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر . وكانت هذه الصلة الروحية هي التي أتاحت لتسيانوا أن يؤوّل نصوص أوفيد تأويلات تجمع إلى الحرفيّة التصرف ، كما كان

(٥) انظر الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

(٦) انظر الملحق الثاني : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

يُعنى عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع في جوانبه دون كبت . وليس ثمة فناء كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوفيد ، فهو يستطيع من جملة واحدة في النص أن يصورها وقد أودع فيها انطباعات شتى لها شأنها . ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوفيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمد منها إلهامه ، باستثناء حالة فريدة استطاع فيها أن يغير من دلالة النص تغييراً جوهرياً . فلا عجب إذن إذا كان تيتسانو بوصفه مترجماً لأوفيد قد كانت له الحرية المطلقة في استخدام جميع أنواع النماذج الميثية القديمة كانت أم حديثة ، غير متأثر بالتيار التصويرى في هذا المجال الذى ازدهر من حوله في كثير من الطباعات المصورة والترجمات والتفسيرات المرقنة لكتاب مسخ الكائنات .

وكنت قد ضمنتُ إلى مقدّمة الطبعة الأولى من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تيتسانو تمثل بعض الأساطير التى جاءت بالكتاب ، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويرية إيضاحية أبدعها الفنان ب . بيكار يعاونه فنانون آخرون في طبعة قديمة لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت عام ١٧٣٢ بأستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وتعليق باللغة الفرنسية للأب بانيه ، وقد طُبعت على أصل حجرى محفور^(٧) . وهو كتاب من القطع الكبير فيه النص اللاتينى في نهر ، وفي نهر أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير چون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) والبعض الآخر للشاعر الشهير ألكسندر بوب (١٦٦١ — ١٧٩١) . وقد كانت هذه الصور التى ضممناها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد في ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره فعزّ اقتناؤه على الجماهير ، وهو ما دفعنى إلى أن أستبدل بها في الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً ، فجاءت في ثلاثين تصويرية خطية نادرة للفنان بابلو بيكاسو رسمها خصيصاً لكتاب « مسخ الكائنات » ، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لى بنقلها عن نسختهم الفريدة ، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالفصل الحادى عشر .

وكان بيكاسو قد أخذ حوالى عام ١٩٢٣ فى رسم بعض اللوحات المستقلة التى تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبين أو متجاورين على جسد واحد ، ضارباً صفحاً عن المظهر الحقيقى المرنى للشخص طاملاً أننا لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها . غير أن بيكاسو التأثير المتمود لم يلبث أن

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هى استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم شمعى أسود على سطح الحجر الجبرى الأملس الدقيق الذرات والمسام ، ثم يُغمّر الحجر فى الماء حتى ينتشع به ، مع ملاحظة أن السطح المغطى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء ، فإذا دارت الأسطوانة المشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطاة بالطبقة الشمعية التى مرّ عليها القلم ، على حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبللة ، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تحميره والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسى بنفس اللقطة التى رُسمت بها بالشمع على الحجر . وقد ابتكر هذه الطريقة سويسرى يُدعى سينغلدر سنة ١٧٩٦ فغلّت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إنفاناً [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية . لوندجان ١٩٩٠ م . ط . ١ ، ص ٤٠] .

عدل عن هذا الاتجاه ، مُهملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرئى إليه ، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة ، محققاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية - المكانية للموضعات المختلفة في الفراغ . ثم عاد في عام ١٩٢٧ فهجر هذا الأسلوب متمسكاً بأهذاب التقاليد الفنية ، وخاصة في لوحاته التي استخدم فيها طريقة الحفر الحمضي Eau - Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق^(٨) ، مضمناً رسومه نماذج لنساء عاريات أو مكتسيات ولشخص تُعد إرهاباً للأسلوب الموفق الذي استخدمه في رسومه الثلاثين الخطئية^(٩) لكتاب « مسخ الكائنات » وغيره من الروائع .

وفي عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا في لوزان ثلاثين لوحة من تصاوير بيكاسو مع النص الكامل لكتاب « ميتامورفوزس » في نسخ محدودة هي الآن مبعثرة في جهات مختلفة من أنحاء العالم ، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدي الهواة ، وأصبح جمع هذا السَّنات اليوم من الصعوبة بمكان . وقد استطعت بعد تذليل مصاعب جمة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها في الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وأعيد نشرها هنا في الطبعة الثالثة^(١٠) .

وأغلب الظن أن بيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة ، وهي تستمد قوتها وأناقتهما - كما يلمس القارئ - من الخطوط المحوطة^(١١) النابضة بقوة التعبير ، ومن تلقائية الفنان الجياشة ، ومن تركيزه الذي كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها .

وقد أصاب بيكاسو التوفيق في الإفصاح عما أحسّه وتخيَّله ، فالرسم - فيما أظن - إذا خلا أحياناً من التحوير كان رسماً جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير . ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين بيكاسو وأنجر مصور القرن التاسع عشر الذي عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية^(١٢) المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكيان حين تعلو على أنغام جوقة الأوركستر ، فأضاف فقرات إلى العمود

(٨) Etching الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة (الخربشة) على سطح معدن . هي نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو بربيقية تشققها أداة الحفر ، وهي سن مدببة رفيعة . ثم تغمر الصفحة بطناً لوجه في الحامض الذي يتخلل الحُدُوس فينفذ إلى السطح المعدن ليغور في مواضع تلك الأخاديد . وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الأحماض ، ثم تُمرر الأسطوانة المشبَّعة بالخبر على الصفحة المعدنية حتى تمثل الفجوات الغائرة بالخبر الذي يبقى فيها . وبعد ما يُجفّف السطح الخارجى ، وهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع في المكبس لتطبع الأخاديد المشبَّعة بالأحبار على سطح الورقة [م.م.م.ث] .

(٩) Linear التشكيل الذي يعتمد في تأثيره على المشاهد على الأشكال المكونة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتل اللونية والتظليل [م.م.م.ث] .

(١٠) ظهرت هذه اللوحات في طبعة سكيرا في غير أماكنها من فصول الكتاب ، ولقد حاولت جهدى أن أضعها في أماكنها الحقّة من فصول الكتاب في هذه الطبعة مستعيناً بالنص .

(١١) Outlines أو الحواف المحوطة أو الحدود الخارجية ، وهي ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أى منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطية أو فوارق لونية [م.م.م.ث] .

(١٢) Arabesque الخط الرشيق المتأوّد المتسق المنمّم [م.م.م.ث] .

الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق ، كما هى الحال فى لوحة « المحظية » المشهورة بمتحف اللوفر ولوحة « إيفيجينيا وثيتيس » بمتحف إكس ، وهكذا انتصر الخط المنعم (الأرابيسك) وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة . فأنجر لم يبال بأى تحريف تشريحي حتى يتيح لخطوطه البروز بكاملها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقتها للواقع ، فكان قصاره أن يحفظ لهذا الخط المحووظ تأثيره النوراني ، وجاء من بعده بيكاسو فاستعار هذا الخط النوراني فى رسومه كافة . ولا ندرى أكان أشد تمسكاً بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرك للعواطف ، أم أنه استوحى الفن الإغريقى فى تمسكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التى قد تهون من شأنه ؟

على هذا النحو استطاع بيكاسو بمهارة أن يقدم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية . ويتجلى لنا هذا الجهد فى هذا الإنسجام الذى بلغ أقصاه وكذا جمال الخط فى لوحة « يورديكى » بعد أن لدغت الأفعى كاحلها [الكتاب العاشر] ، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير فى الصورة الجزع والهلع ، غير أننا لا نرى فى التصوير غير جسد بديع يتهاوى فى رفق يُحدده خط منحرف لطيف يفيض حسية زائراً يعطف تابعاتها وهن يترعن إلى حملها وامتصاص السم من موضع اللدغة . ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميحة جاءت غاية فى البساطة . لامرأة تستدير بجسدها طلباً للنجدة .

وثمة عناصر فى هذه التصاوير تشترك كلها فى الإيجاء بقلة أكتراث الفنان بما يمس دخيلة نفوس الشخص المصوّر ، كالوجوه التى يغشاها السكون والدعة ، ومجموعات النساء والرجال التى تضم — فيما تضم — الرؤاة والمستمعين . وهو ما يدفعنى إلى مناقشة القارئ ألا يعبأ كثيراً بخروج بيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليتة فى رؤيته الفنية الذاتية . ويصل بيكاسو قمة البلاغة الخطية فى لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور ردفى أنثى فيها لا يجاوز أقواساً أربع تحوى كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة .

ويستعين الفنان لما يأتراء الملابس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة ، أو بالإيجاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة ، كما هى الحال فى لوحة مطلع الكتاب التاسع ، حيث يعبر عن الضوء والغبش والعتمة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكة تارة أخرى .

غير أن كافة الرسوم تحملو لنا ثقة الفنان بنفسه وتشبعه بالإحساس بالموضوع المصور ، وعدم التردد فى إسقاط الخطوط على اللوحة ، وتعمده تجنب استخدام الظلال ، مانحاً التفرد بالبطولة للخط فى التعبير ، مما يُكسب اللوحات شفافية أثرية تربطنا بأساطير الماضى . وبالرغم من السكينة التى يوحى بها الخط إلا أنه فى تقويهِ يُعرب عما يعتلج فى نفوسنا من أحاسيس دفينية .

وكلمة « ميتامورفوزس » التي هي عنوان الكتاب تعني حرفيا الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حال دنيا ولا حال عليا . وإذ كان الكتاب كله تحوّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة : هي تحوّل رومولوس وأينياس مؤسسي روما إلى الألوهية ، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين ، ثم حالتا تآليه يوليوس قيصر وابنه بالتبني قيصر أوغسطس ، وكان ذلك فيها ييدولي نوعاً من التملق للإمبراطور ولم يجر مع الأسلوب الذي ألف المؤلف الكتاب من أجله أو مع مساق سائر حديثه . من أجل هذا حين أثرت أن أسمى الكتاب « مسخ الكائنات » لا تحوّلها أو انتقالها غير ملتزم في ذلك بما جرى عليه من ترجم هذه الكلمة ، جنحت إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا ، ثم مسترشداً بما جاء في القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التي توحي بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى . يقول الحق : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً » (يس ٦٧) . ومن هذا كله أجدني لم أحد في ترجمتي لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوّل ولا الانتقال ، وغاية ما فعلت أني استوحيت الترجمة من معنى الأساطير الواردة في الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ .

كذلك يرى أصحاب التناسخ أن « النسخ » هو نقل الروح إلى جسم أرفع ، و « المسخ » هو نقل الروح إلى ذوات الأربع ، و « الفسخ » هو نقل الروح إلى الحشرات ، و « الرسخ » هو نقل الروح إلى النبات والجماد (١٣) .

وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء المعري (١٤) في التناسخ :

تَعَوَّذْ بِالْإِلَهِ مِنَ الْمَسْخِ وَسَلُّهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ النَّسْخِ
لَقَدْ خَابَ امْرُؤٌ يُمَسَّى وَيُضْحَى يُنْقَلُ فِي فُسُخٍ أَوْ رَسْخٍ

* * * *

وترجمتي هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التي قام بها الأستاذ « ميلر » في مجموعة « لويب » الكلاسيكية التي ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت في مجلدين ، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت

(١٣) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٤ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

(١٤) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٥ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

في مجموعة پنجوين للسيدة « ماري إينيس » فيها شيء من التصرف ، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطاً وهي في الأصل فقرات خطابية . كذلك اعتمدت على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ « شامونار » ظهرت في مجموعة الإخوان جازنييه لترجمات روائع الأديبين اللاتيني واليوناني ، في مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية في صفحات متقابلة . واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ جورج لافاز في سلسلة « مجموعة جامعات فرنسا » نشرت بباريس عام ١٩٢٨ في ثلاثة مجلدات . وقد أثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت في النص الأوفيدى ، وهي الأسماء اللاتينية ، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليوناني .

وكانت الرغبة التي استأثرت بوجداني طوال صياغتي لهذه الترجمة هي أن أقدم نصّاً يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارئ ويشيعان في نفسه الإحساس بالمتعة التي يجدها قارئ النص الأصلي في لغته اللاتينية . وقد واجهتني خلال هذه المهمة عقبتان : كانت أولاهما هي ازدحام النص بأسلوب الالتفات ، وهو الانتقال المفاجيء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة الخطاب أو عكس ذلك ، وهو أسلوب لا يشيع في العربية بقدر ما يشيع في الشعر الملحمي اللاتيني . وقد حاولت قدر جهدي أن أقلل هذه الانتقالات حيث يصعب فهمها أو تكون مصدراً للبلبه القارئ . وكانت ثانيتهما إفراط المؤلف في الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التي كانت معروفة أيامها للقارئ العادي في حين أنها لا تعطى نفس إيجاءاتها ودلالاتها للقارئ العربي المعاصر الذي لم تتح له قراءة معمّقة في الكلاسيكيات والأساطير القديمة . ومع أني قد أضفت في نهاية كل فصل تعقيبات وشروحاً تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشيئاً لهم إلا أنني سمحت لنفسى أن أقحم هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارئ متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه . ولعل أكون بذلك قد أعنت القارئ غير المتخصص على مواصلة المطالعة الميسّرة ، دون أن أكون قد أثقلت القارئ المتخصص بوقفات هو في غير حاجة إلى التريث عندها .

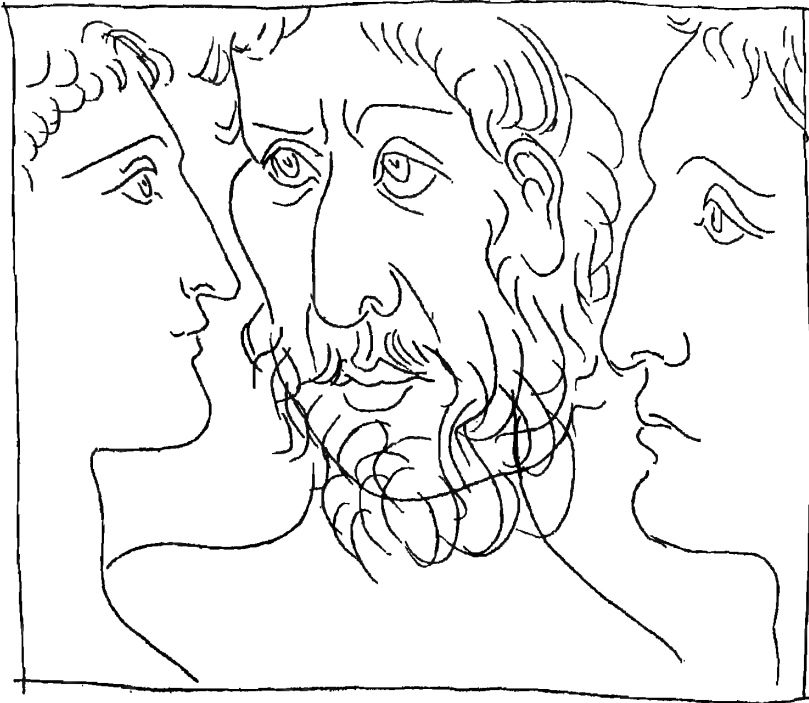
وقد قام الأستاذ الدكتور مجدى وهبه بجهد العالم المدقق الأمين مشكوراً بمقابلة النص اللاتيني لضبط الترجمة وهو النص المطبوع في مجموعة « جيوم بوديه » بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة « مارسيانوس ٢٢٥ » المحفوظة بمكتبة « لاورنتيانا » بفلورنسا ، كما رجع في حالات اللبس إلى الطبعة التي حققها الأستاذ « ميركل » في لايبزج ، وهي الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ .

وحين فكرت في طبع الكتاب طبعة ثانية رأيت ألا ألزم بالصياغة الأولى ، فأحوّرها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلت أولاً بل أنفذ إلى روحه ، فهذا أجلى للقارئ العربي الذي سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير ، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً في الطبعة

الثالثة . وبعد أن راجعها الأستاذ الدكتور مجدى وهبه استأنست بالأستاذ الدكتور أحمد عثمان الذى له هو الآخر ضلّاعته فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلُ مسيراً للنص بشاعريته . وكم أسعدنى أنه رآنى على الجادة لم أنحرف قيد أنملة ، فله منى جزيل الشكر .

ثروت عكاشة

فولياغمينى فى ١٧ يوليه ١٩٩١



بيكاسو

الكتاب الأول

ها أنذا أخذُ في الحديث عن تحوُّلِ لكائناتٍ كانت على صورة ثم إذا هي صُورٌ أخرى . وإن أبتهلُ إليكم أيتها الألهة - وإليكم زمام ما يجري في الكون من تحولات - العون على بلوغ مقصدي بوحى من إلهامكم أقوى به على أن أنسخ في قصيدي هذا خيطاً من الشَّعر لا ينقطع ، تنتظم بين طرفيه أحداث الكون منذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم .

أصل العالم

قبل أن تكون أرضٌ ، وقبل أن تكون بحارٌ ، وقبل أن تكون سماءٌ تُظَلَّ هذا الكون أجمع ، كان ثمة عياء يلفَّ العالم كله بردائه ولا يستتين منه غير شكل واحد لا سواه . فكان كتلة مضطربة لا شكل لها ، جاداً لا حياة فيها ، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء ، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة . ولم تكن ثمة

شمس « تيتان » يفيض نورها على العالم ، كما لم يكن ثمة قمر « قُبي » له مع كل يوم وجهٌ جديد ، يكملُ ثم يعودُ ناقصاً كما بدأ . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمَّها الفضاء تنهادى فيه بثقلها ، كما لم تكن المياه « أمقرتي » قد بسطت ذراعيها على شطآن البرّ ، فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها بمنزلة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعوّزها الصلابة والبحر تُعوّزه السيولة ، كما كان الفضاء في عَوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شيء له شكلٌ مميّز ، وكانت هذه العناصر رغم اختلافها لا تنافر بينها . ثم إنهما مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة ، وبين الوَمد والجفاف ، وبين اللبونة واليُبس ، وبين الخفّة والثقل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم ، فتجنّى الإله — أو الطبيعة الأكثر طواعية — كي يفصل بين الشيء ونقيضه ، ففصل ما بين السماء والأرض ، وما بين الأرض والماء ، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشّفيف .

وما إن تم له فصل هذا كله وخلّصه من فوضى الكُتلة حتى غرس الوثام والسلام بين هذه العناصر فخصّ كُلّاً بمكانه المميّز ، فإذا اللهب المتأجّج المعلوم الوزن يحتل قبة السماء ويتلألا في ذروة بناء العالم ، وإذا الهواء الذي يضارع اللهب المتأجّج خفّةً يحتل مكاناً إلى جواره ، وإذا الأرض وهي أكثف منها ممّا تشدّ إليها العناصر المتسائكة فتتراكم بعضها فوق بعض ، وإذا الماء الذي كان يحيط بكل شيء يحتلّ ما خلا في الوجود ويلفّ تلك الكتلة الصلبة الأسطوانية .

وما إن فرغ الإله — أى إله كان — من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التي لم تكن على شكل ما ، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة في تماسك كي يجنب الأرض أن يختل أى قطر منها ، من أجل ذلك سوّاها كرويةً ضخمة . وكان أن امتدت مياه البحر بفعل أنفاس الريح الهوجاء ، فإذا هي تُنطق الأرض . ولكي يبلغ الأمر مداه فَجَرّ الينابيع وأفاض المستنقعات التي لا حصر لها ، وشقّ البحيرات ، وحبس الأنهار بين ضفافها كما ورّعها على سطح الأرض . فمنها ما يُفضى إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتنفى في ذاك الخضمّ ، ثم تعود نائرة فترتطم بالبرّ ، ومنها ما لا ينتهي إلى بحر وتبتلع الأرض في جوفها . كما بسط السهول وخدّد الوديان ، وجعل الغابات تُونع بأوراق الأشجار الوارفة ، ورفع قنن الجبال الصخرية . وإذا كان قد قَسَمَ السماء مناطق : اثنتين إلى اليمين واثنين إلى اليسار ، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدّ حرارة ، كذلك قَسَمَ الأرض التي تُظللها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدداً ، فالوسطى لا حياة فيها لشدة قِيظها ، وغطّت الثلوج منطقتين من هذه المناطق ، وبقيت الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخ بين البرودة والحرارة^(١) .

وفوق هذا كله حلّق الهواء بما رُزق من خفّة لم تُرزقها الأرض والمياه بثقلها ، وكانت خفّة الهواء دون خفّة النار . وأقرّ هذا الإله الضباب والسحاب مقرّهما في الهواء ، كما جعل للرعد مقرّاً ، هذا الرعد الذي يثير الخوف في أئمة البشر . وكذلك جعل للرياح مقرّها ، تلك الرياح التي تتحد مع الصواعق فينفذ من خللها البرق . غير أن هذا الإله مهندس الكون — حرصاً على بقاء العالم — لم يترك تلك الرياح تجري على

أعنتها تهب من حيث نشاء وكيف نشاء بل جعل لكل ريع مهابها ، على الرغم من أنها إلى اليوم عصية على أن تخضع لنظام في مهابها ، إذ أن ثمة تنافر شديد بين الرياح الإخوة : فريح « إيوروس » تهب من مناطق ربة الفجر وملكة النبط في بلاد الفرس ومن سلاسل الجبال التي تكفل أشعة الفجر قمعها . وريح النسيم « زفيروس » تهب من مكان نجمة الليل والشيطان التي تشع عليها الشمس في غروبها فتخلّفها دافئة . أما ٦٠٠
الريح اللافة « بورياس » فهب من بلاد السكوثيين [السكيثيين] وشتى نواحي الشمال . وريح « أوستير » على غير مهاب الرياح كلها وتجلب إلى الأرض سُحباً لا تفتأ ممطرة في غزارة . ثم خلق الإله الأثير الذي لا وزن له ولا تعلق به شائبة من شوائب الأرض . وما كاد يفصل بين هذه العناصر أجمع ويجعل لكل منها حداً حتى أخذت الكواكب تتألق في رقعة السماء بعد احتجابها طويلاً في طيات الكتلة التي كانت تُكنّها .

ولكى تستمتع الكائنات الحية بوجودها أجرى الكواكب في فسيح السموات في رعاية آلهة مجسدة . واتخذت الأسماك بحراشفها البراقة المياه مسارب لها ، واحتضنت الأرض الحيوان منذ نشأته الوحشية الضارية ، كما احتضن الهواء في تموج الطير . وكان ثمة كائن غاب عن هذا كله ، على الرغم من أنه كان أكثر المخلوقات انطباعاً بطابع الآلهة ، هذا إلى ما تميّز به من ذكاء مفرط فرض به سلطانه على سائر المخلوقات ، فكان الإنسان . ومن يدرى لعل إله هذا الكون الذي صوّر العالم على تلك الصورة البديعة هو الذي خلق الإنسان من بذرة ! أو من يدرى لعل الأرض في عنفوانها حين نبذت عنها طبقات الأثير ٨٠
كانت قد انطوت على بذرة من صلب أخيها رب السماء ! ثم أتى پروميثيوس بن بيبتيوس^(٢) فقبض قبضة من تراب الأرض وعجنها بماء المطر وسواها إنساناً على صورة الآلهة المهيمنة على كل شيء . وعلى حين خلق الحيوان مكباً بوجهه على الأرض لا يطالع سواها ، خلق الإنسان مشرباً بوجهه إلى السماء متأملاً فيها داعياً ربه أن يشد بصره بالكواكب . وهكذا تحولت الأرض من كتلة غليظة غير مميزة إلى أشكال جديدة ، هي أشكال البشر .

وكان ثمة عصر ذهبي في بدء الخلق أظّل قوماً على إيمان عميق ومبادئ سامية ، لم يشترع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه ، وعاشوا ليس لهم وازع غير الضمير : فلا قضاة يفصلون بينهم ، ولا حكام يجازونهم ، إذ لم يكن ثمة نزاع أو عدوان ، وكان الناس حيث هم : لا هجرة ولا نزوح عن أرضهم . ولم يكن جذع شجرة الصنوبر قد اقتلع بعد من مكانه فوق الجبال ليطفو فوق الخضم المائج ويطوف حول العالم ، ولم يكن البشر على علم بغير تلك الشواطئ التي نشأوا عليها . ولم تكن القلاع تحوطها الخنادق المغمورة بالمياه ، ولم تكن قد ظهرت تلك الأنابيب النحاسية التي اتخذت بعد أبواباً مستقيمة ولا القرون المعوجة . ولم تكن ثمة خوذات ولا سيوف ، إذ كان الناس آمنين لا تفرعهم حروب ، ولا هم في حاجة إلى جيوش تدفع عنهم شر المعتدين . وكانت الأرض تؤثى أكفها دون عرق أو حرث والناس بما ١٠٠
لديهم من طعام قانون . فهم وادعون لا يكتون ولا يعملون ، يأتيهم رزقهم رغداً من بلوط هوبيرتر^(٣) الممتدة فروعه ، ومن ثمار الشجيرات ، وتوت الجبال ، وأعناب البراري العالقة بالغصون الشائكة . وكانت

النسبات الرّخية تحمل عبق الزهرات في ربيع لا ينتهى فتنتشر في الجوّ أريجها . . ومَرّت الأيام ، فإذا الأرض
تكسى بعيان القمح ، وإذا سنابله الثقيلة البيضاء تحيل رقعة الأرض ناصعة ، وساد الربيع الأعوام فلا
برد ولا مطر ، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا [شراب الآلهة] ، وسالت الأشجار شُهداً ذهبي اللون .

ووقع ساتورن^(٤) [كرونوس] أسيراً في يد جوبيتر [زيوس] فألقى به في ظلام تارتاروس وانفرد هو
بحكم العالم ، وكان من هذا بداية العصر الفضي الذي حلّ محل العصر الذهبي وإن كان مع ذلك في مرتبة
أدنى منه وأرقى من عنصر البرونز المُصَفَّر السُمرة الذي تلاه . واختصر جوبيتر فصل الربيع الذي كان يمتد
على مدار السّنة في العصر السابق ، وقسّم السنة إلى فصول أربعة : شتاء وصيفا وخريفاً ومقلباً وريبعاً قصير
الأمَد ، وجعل الهواء بين بارد وحار ، وظهرت الثلوج بين الأعاصير العاتية ، وأخذ الناس يبحثون عن
مأوى يقيهم المطر ، فلبجأوا إلى الكهوف والأدغال . ومضى الناس يكدّون في فلاح الأرض وحرثها ،
ويبدرون فيها حبوب الحنطة التي جادت بها عليهم سيريس [ديميتر عند الإغريق] ، وأخذت الثيران تنن
تحت نير المحارث .

ثم كان العصر الثالث ، وهو عصر البرونز ، الذي طُبع الناس فيه بطابع من الغلظة والقسوة
فاستسلموا للمنازعات وشاعت بينهم الخصومات ، غير أن الشر لم يكن قد غلبهم على كل أمورهم .

ثم كان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذي اشتق اسمه من معدن أقل قلراً ، حين برزت الجرائم في
أبشع صورها وغاب الحق وانمحى الصديق ووُتد الوفاء واختفت الطاعة وطفئت الغطرسة والحيانة وساد
الطمع والخداع وتفشّت القسوة . وأعدّ البحارة أشرعة ينصبونها للريح وهم بعد على غير معرفة معمّقة
بالسفن وأشرعتها ، واصطنعوا من الأشجار التي كانت تُزحَم سفوح الجبال الشاخبة سفناً تمخر عباب البحر
بفعل قلاعها المتنفخة وأثر الرياح ، تنقّاذفها أمواج المحيطات وتأخذها بعيداً بعيداً عن موطنها . وتجرّأت
الأرض وراء حدود بعد أن كانت ملُكاً مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء ،
وجرى الناس يكدّون بحثاً عن القوت ، ويحفرون الأرض منقبين عن معادنها المخبئة في أحشائها ، وامتد
بحثهم حتى أدركوا مملكة الظلال قرب نهر ستيكس ، وانتزعوا من أعماق الأرض تلك الأشياء التي غدت
مصدر آلامهم ، فاستخرجوا الحديد وكانت معه الوليات ، وأتبعوه بالذهب وكان أشد من الحديد ويلاً ،
إذ كان كل من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال . وبالأيدى الآثمة شُهرت السيوف لتلقى
السيوف مصلصلة مجلجلة .

وعاش الناس على السلب والنهب لا يأمن الضيف مضيفه ، ولا يطمئن الزوج لحميه ، ولا يثق الأخ
بأخيه ، وغاض الوء من صدور الناس ، وأصبح كل من الزوج والزوجة مصدر شقاء للآخر ، وغدت
زوجات الآباء تسمسن السّم في الطعام لأبناء أزواجهن ، والأبناء يتآمرون على موت آبائهم وعلى الخلاص
منهم ، وحلّ العقوق بالوالدين محل البرّ بهم ، ولم يعد للتقوى مكان في القلوب ، كما خرج الناس على

طاعة آلهتهم ؛ نعمّ الأرض البلاء وسالت الدماء ، فهجرتها أسترايا العذراء^(٥) آخر من كان على الأرض من أرباب السماء .

العَمَالِقَة

وتطلّع العمالقة إلى الأثير لا يبيغون أن يكون أمناً كما لم تعد الأرض أمناً ، ولكي يغزوا ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم . وعندها أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه : فتداعى جبل أوليمبوس ، وتزحزح جبل بيليون من فوق جبل أوسا ، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جنث العمالقة هامة ، وإذا الأرض قد غُطيت صفحتها بدماء أبنائها العمالقة . ١٦٠

ولكى تبقى الحياة متصلة ، قيل إن الأرض قد نفثت من روحها في هذا الدم الدافئ فكانت مخلوقات لها سيات البشر عمرت الأرض من جديد . غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارت فيهم نائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه ، فغلظت قلوبهم وعدا بعضهم على بعض^(٦) .

ليكاوون

ورأى ربّ الأرباب ، ابن ساتورن ، ما حاق بالأرض فثار مغضباً وزفر زفرة مدوية وقد تمثّلت في ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم علمها أحد من أفراد ملكوته ، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين ، سالكين سبيل المجرة التى ترى وضاءة عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل . وكانت من حوالهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الغاصة بهم ، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أوتيت شيئاً من الجرة فى أن أطلق عليه اسم بالاتينوس السموات العلى^(٧) ، على حين كانت دور صغار الأرباب موزعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف . وفى قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب ، وقام كبيرهم على منصته معتمداً على صولجان من العاج ، وهزّ خصلة ١٨٠ شعره الرهيبة مرات ثلاثاً أو أربعاً فارتجت الأرض واضطربت النجوم ، ثم خطبهم بقوله : « لم أحسن قط بمثل ما أحسّه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمى من اضطراب ، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذبال الأفاعي أن يلفت كلّ منهم أذرعته المائة حول السماء لكي يستولوا عليها ، ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة من يشاركهم هذا الشرّ . وإن أخوف ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخطب ، لذا كان لا مبدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد فى العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة . أقسىم بأنهار العالم السفلى التى تسرى فى غيضة ستيكس المندسة فى أعماق الأرض أنى قد

جهدت في أن أقوم أمرهم ما استطعت ، غير أن ذلك لم يُغن شيئاً وكان لزاماً أن يُبحث الشرّ من جذوره . غير أن أنصاف أرباب وأرواحاً وحوريات وسائيرا وجناً في الغابات والتلال^(٩) لم تكن قد أفسحنا لهم مكاناً في السماء ، لذا كان علينا أن نهيء لهم حياة على الأرض ، وما ظنّي بأنهم ناجون من شرّ ليكاوون الذي أعقب خمسين من الجاحدين وحاك اللسائس من حولى ، وأنا ربّ الصواعق وزمامها في يدي ، بل وربكم أيضاً » .

وهمهم الأرباب وزيجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذي غمر الناس حين حاولت فئة متمردة إخماد شعلة روما عندما انتهى إليهم خبر مقتل قيصر^(٩) ، فلقد ألقى في روعهم أن ثمة دماراً سيحيط بالعالم يهزه من جميع أركانه . من أجل هذا نادى الأرباب بإزالة العقاب على من كان سبباً لهذا البلاء . وكما أن ولاء رعياك يُشيع السرور في قلبك يا أوغسطس ، فكذلك كان يسعدُ چوپيتر بولاء أتباعه من الأرباب . ولكن چوپيتر ربّ الأرباب ردّهم إلى سكوتهم بإشارة منه ثم قام فيهم خطيباً فقال : « لقد نال جزاءه ولم يعد يُخشى بأسه ، وإليكم ما فعل وما ناله على ما فعل . فلقد انتهى إلى أن ثمة مرجفات تؤذن بنذر في هذا الزمان الذى يُظلنا فهبطت من عليائها في الأوليمپوس على الأرض في صورة آدمى ، ورأيت ، ويا هول ما رأيت ! فلقد سمعت دون ما وقع عليه بصرى . وجرّت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحيوانات المفترسة ، ومنها إلى كيلينيّه ، ثم إلى ليكاپوس القارسة البرد حيث غابات الصنوبر^(١١) . وما إن أذنت الشمس بمغيب وأوشك الليل أن يرخي سدوله ، حتى كنت على باب منزل ليكاوون طاغية^(١١) أركاديا . وعندها خلعت عنى صورة الأدمى وعُدّت إلى ألوهيتى . وما إن رأتى الناس حتى ازدحموا حولى مصليّن خاشعين ، فأثار ذلك سخريه ليكاوون وقال للناس غاضباً : سترون إن كان من التفقّم حوله لها أم غير إله ، وكان في عزمه أن ينقضّ على غرة منى فيقتلنى وأنا نائم ، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلان ألوهيتى وأنى من البشر . وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس^(١٢) ، فإذا هو إمعاناً في فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتار ، ويلقى بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة في النار ، يجعل منه شواء . وأعدّت المائدة وصُفّت الصُحاف وجلس يلتهم ما فيها في نهم وشره . فنقمّت عليه فعله وأرسلت على بيته شواظاً من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهة زوراً وهتاناً . غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو ، ففرّ هارباً إلى الريف وهو نائر غاضب . وهناك وجد نفسه أحرص لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة ، وألقى ما عليه من ثياب قد استحالت شعراً شائكاً ، وإذا ذراعاه قد استحالتا ساقين ، وإذا هو قد مُسيخ ذئباً من أشرس ما تكون الذئاب ، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشاً ويقتلها تقتيلاً . وكان على الرغم من صورته تلك التى استحال إليها لا يزال يحمل شيئاً من ملامحه الأولى ، فلقد بقى له شعره الأشيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته ، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيها من نظرات مرهوية . ولم تحرق الصاعقة التى أحرقت داره غيرها من دور الفساد ، وهكذا سوف يظل في أنحاء الأرض أثر لربّة الانتقام^(١٣) التى لا تمارس غير القسوة . ألا إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجرام ، لذا قرّ قرارى الذى لا رجعة فيه أن يوفى كلّ جزاءه » .

وهنا صاح بعض الآلهة مناصرين چوپيتر فيما قرّر مطالبين إياه بالمزيد ، على حين لزم آخرون الصمت . غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقى البشر من عذاب ، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضى على هذا الجنس البشرى كله ، وما سوف تكون عليه معابدهم في الأرض بعد أن لن تهمد منهم من يختلف إليها مقدّماً القرابين ، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكم چوپيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية . وأحسّ ربّ الأرباب ما يساور أربابه من خوف فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجري دون إضرار ، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله ، وسيولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات .

وكان چوپيتر على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض لتأتى على من فيها أجمع ، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الملتهبة أن تشبّ النار في طبقات الجو العالية التي يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها ، كما ذكر ما جاء في لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع ، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الدمار التي أعدها « الكيكلوبيس »^(١٤) ، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتي على البشر أجمع . فحشد رياح الشمال في كهوف أيولوس ، وضمّ إليها الأعاصير التي تبدّد السحب الكثيفة ، ثم أرسل رياح الجنوب من محبسها ، فثارت تضرب بأجنحة مبلّلة في غياهب الظلمات وثيدة لثقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب ينذر بمقدمها ، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفقاً عمّ الأرض وفاض في أرجائها . وكانت إيريس رسولة چونو [هيرا] وراء هذا في ثوب يجمع بين ألوان قوس قزح تنشئ السحب الأولى إنشاءً وترسل بها مدداً في إثر بعضها ، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر يُقتلع ، وإذا المزارعون يصلّون من أجله طويلاً ويبكون في حسرة لذهاب جهدهم طوال العام سدى . ولم يقع چوپيتر بما تحت يديه من عوامل الدمار التي يسخرها حسب هواه في مملكته بل طلب إلى شقيقه نپتون [پوزيدون] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازوردية على الأرض ، فإذا البحار والأنهار والسماء بما ترسل من أمطار كلها حرب على الأرض لم تترك فيها ركنًا مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلا أنت عليه ، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه .

وأرسل كبير الآلهة يستدعى الأنهار ، وما إن مثلوا أمامه في قصره حتى ابتدعهم قائلاً : « ليس أمامنا وقت نبذّه الآن في مُسهب العظّات ، فامامكم مهمّة عاجلة : أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدّين إلى أوطانكم تكتسحون ما بها من أسوار ، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان » .

هكذا كانت أوامره ، فعادت الأنهار إلى مواطنها ، ويعد أن فتحوا أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر في سيول عاتية .

وضرب نپتون الأرض بعصاه الثلاثية [صولجانه ذى الشُعَب الثلاث] فارتجفت واهتزت ، وانشقّت مجار للمياه تدفّقت فيها وفاضت على الجانبين ، فإذا هي تقتلع النباتات من جذورها ، وتغرق المحاصيل ٢٨٠

والكروم والناس والماشية ، وتهدم البيوت على من فيها والمعابد على المصلين بها ، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوْقًا ، وتغمر الشاهقات فلم يعد يُرى منها غير قممها . ولم يفلت مبنى من هذه الكارثة إلا دمرته موجة أعنت من الأولى فنهاوى سطحه تحت الماء ، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر ، بل غدت الأرض كلها بحرًا بلا شطآن . وفُرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصمًا من الغرق ، ونفرٌ إلى السفن ذوات الحيازيم^(١٥) المقوسة يضربون بالمجاديف فوق أرض كانوا يخطون فيها بالمحاريث ، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التي غمرت الحقول وكانت تعجّ بالأمس بحنطتها والبيوت التي كانت فيها مضي مأواهم . وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقة بغصون أشجار الدردار . وأرسى بعض الملاحين سفنهم حيث كانت المراعى الخضراء ، وأحيانًا كانت السفن المسطحة القاع تمسّ الكروم التي ترقد تحتها . وفي الأماكن التي كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها أمانة انسابت كلاب البحر القبيحة تشقّ طريقها بين الأمواج ، وانتابت الدهشة حوريات النيريايس حين رأين الفيضات والمدن والدور مدفونة تحت المياه ، واحتلت الدلافين الغابات تلوى الأغصان العالية وتهزّ جذوع أشجار البلوط التي ترتطم بها . وسبحت الذئب بين قطعان الماعز ، وحملت الأمواج النمر والأسود المصفرة السمرة . أما الخنازير البرية فلم تُغن عنها أنيابها القاطعة ، كما لم تسعف الأوعال سيقانها القوية على العدو ، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعًا . وحلّقت الطيور في الجو ما شاءت أن تحلّق حتى كلّت أجنتها فهوت في ذلك الخضم ، وإذا هذا الفيض قد غطّى التلال وبلغ ذروة الجبال ، وإذا الجنس البشرى قد فنى أكثره ، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع^(١٦) .

ديوكاليون وبيرا

وكان فيها غمر الماء أرض فوكيس^(١٧) الخصبة التي كانت حدًا فاصلاً بين حقول بويوتيا وحقول أوتيا . وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمتان تكادان تلمسان النجوم وتخترق سطحه السحب ، رسى عليه الفلك الذي كان يحمل ديوكاليون وزوجته . وكان ديوكاليون بن پروميشيوس^(١٨) خير البشر وألزمهم للطريق السوى ، وكانت زوجته بيلا ابنة إيميشيوس أكثر النساء إجلالاً للآلهة . وكان أول شيء فعله الزوجان أن أعجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا ، وإلى تيميس ربّة الوحى الكاشفة عن الغيب ، فقاما يصليان لهن من أجل نجاتهما . ورأى جوبيتر الأرض وقد غطتها المياه الآسنة ، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عدّتهم آلافًا غير واحد هو ديوكاليون ، وأنه لم يبق من النساء اللاتي بلغت عدّتهن آلافًا غير واحدة هي بيلا ، وكانا من عباد الآلهة المخلصين لذلك نجوا من الهلاك وسلمت لهما حياتهما .

وأطلق جوبيتر رياح الشمال من محبسها فبددت السحب بدداً ، وانفثع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة ، وسكنت الأمواج وهذأت ثورة البحر بعد أن ألقى ربّ البحار والأمواج صولجانه ذا الشعب الثلاثة من يمينه . وكان نبتون قد طلب إلى تريتون أن يتفخ في صورهِ

الخلزوني ، ذلك الصّور الرنان الذي يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ غرج الصوت . وما إن جلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض ، وهدأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصّور إلى اليوم . ثم صمّ تريتون شفّيته على الصّور ثانية ، فصدر عنه صوت غمر الشيطان التي يطلع عليها ٣٤٠ فوبيوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية في الفضاء ومتنهاها . وتشتّت لحية تريتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطر منها وأمر المياه بالانحسار ، فإذا مياه الأرض كافة ، ومياه السهول التي لم تنحسر والأمواج في أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر السامى . واستقرت الأنهار في مجاريها والبحار في هداتها ، وبدت تربة الأرض نديّة ، وبرزت التلال والجبال ، وكلما تراجعت للمياه اتسعت مساحة الأرض ، ومضت أيام طويلة قبل أن تنفض الأشجار الطّين عنها . وعادت الحياة سيرتها الأولى .



بيكاسو : ديوكاليون وبيرا

ونظر ديوكاليون فرأى نفسه وحيداً ، ليس إلى جواره في الفضاء الممتد غير ييرا فجزع ، وإذا عيناه تدمعان ، فقال إلى ييرا يقول لها « يا ابنة عمى وزوجتى ، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدر لها أن تبقى بعد فناء النساء كلهن ، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجته . لقد جمعت ما بيننا الأهوال ، فليس ثمة على الأرض غيرنا ولا تطلع الشمس غيرنا في مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليم البشر . وإن على ذلك غير مطمئن فقد يصيبنا ما أصاب أخوتنا بالأمس ، فلازال خيال السحب في مخيلتى يروعن . ترى ، على أية حال كنا سنكون لو قُدر لنا ألا نلتقى ، وهل كنت ستقوين على مغالبة المخاوف وحدك ، ومن كان سيقف إلى جنبك ليعينك على المخاطر ؟ أقسم لك غير حاث أن أراك بحياتى ، وأنى لا أملك غير أن أقذف بنفسى في اليم لو عجزت عن أن أدفعه عنك ورأيت يبتلعك يا زوجتى الحبيبة . كم أتمنى لو أنى أعدت العالم عامراً كما كان ناهجاً النج نفسه الذى انتهجه أبى ، وكم أتمنى لو استطعت أن أنفخ في الصلصال الذى تصنعه يداى روحاً . إن بقاء الجنس البشرى أمره إلينا وحدنا ، ولهذا جمعت بيننا مشيئة الآلهة .

ويكت ييرا لكللمات ديوكاليون ، ثم وقفت إلى جانبه يضرعان إلى الرب أن يلهمها العون . ثم مضيا إلى مياه نهر كيفيسوس [فى بويتيا] التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم ، فغسلابمياه رأسيهما وملابسهما ، ثم تقدما إلى مذبح الإلهة المقدسة ثيميس ، وكان سقفه المستنم قد أحالت لونه الأعشاب المتخلقة عن المياه المنحسرة وساد الظلام هيكله ، فركعاً ولثم أرضه الندية خاشعين وتوجهها إلى الإلهة ثيميس قائلين : « هل من مطعم فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الخالصة فترفع عنا غضبها ، ألهمينا يا ثيميس كيف نقوى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى ، أيتها الربوة الرحيمة كونى لنا عوناً فى محنتنا . وأخلدت الربوة الشفقة بهما فتمتعت بهذه النبوة : « أخرجنا من معبدى ، وضعا على رأسيكما غطاء ، وتحققا من تلك الأحزمة التى تشد ملابسكما ، واتركا وراءكما عظام أمكما الجليلة » (١٩) . وكان كلام الربوة غير بين فتملكهما العجب ، وعز على ييرا أن تستجيب لأمر الربوة خشية الإساءة إلى طيف أمها إذا هى أزعجت عظامها فى مرقدها ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفيتها الراجفتين بالدعاء للربوة أن تغفر ترددها . غير أنها أخذت يتدبران كلمات الربوة الغامضة ، وانتهى ديوكاليون بن پروميتيوس إلى أن قال لييرا ابنة إليميتيوس : « إن الربوات على حق ، وهن لا يُشِيرْنَ بما لا تُحمد عقباه ، وإنى لأخال أن الأم الجليلة التى جاءت على لسان الربوة ليست غير الأرض ، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى باطنها ، وأن علينا أن نترك هذه الأحجار وراءنا » .

وآمنت ييرا بما خال ديوكاليون ، غير أنها بقيت يخالجهامنى من الشك فيها أشارت به الربوة ، وكان لابد لها من أن يمضيا فى التنفيذ ليبن لها صدق ما قالت . فهبطا من على رأس الجبل ورأساهما مغطيان ، وقد تحققا من تلك الأحزمة التى تشد ملابسهما ، وأخذتا يُلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الربوة . من يصدق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به ؟ فإذا الأحجار تلين ، وإذا هى تتشكل أشكالا ، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سمات واضحة بل كانت أشبه بتناثيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصقل بعد . ثم ما لبث أن استحالت الحجر لحماً فكسا تلك الهياكل

العظمية ، كما استحالت العروق التي كانت تتخلَّل الصخور عروقاً في تلك الأجسام الأدمية ، وكان كل حجر يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة الرجل ، كما أن كل حجر كانت تُلقيه پيرا يأخذ صورة المرأة .
وإلى هذه النشأة القاسية الصلبة يُعزى كل ما في الجنس البشرى من عنف وغلظة وقسوة ، فكما نشأ كان .

پيشوت

عندما أطلقت الشمس المشرقة أشعتها بالدفء بُدِّد الوَمَد المتلبث من عهد بعيد أخذت الأرض تنشق عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع ، وبدأت الوحول والمستنقعات النَّدية تعلو لتفسح للبذور الدفينة أن تَطلُّ سيقانها بعدما تنشق باطن الأرض الذي كان أشبه بالرحم يضمُّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه ، ٤٢٠ ومع مرور الزمن تعددت تلك النباتات ألواناً وأصنافاً . وإنا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبَّات السبعة حين يفيض تاركاً على الأرض الغرين ، فما يلبث ذلك الغرين بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعتها أن ينفرج عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقلِّبون الأرض بفؤوسهم ، منها ما اكتمل نموه ويات على وشك أن ينبض بالحياة ، ومنها ما دبَّت الحياة في عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلباً لم يتشكَّل بعد . ثم ما تلبث الهوام أن تتدرج في سلَّم الحياة بين الدفء والوَمَد وهما قوام الحياة ، كما هي الحال في النار والماء ؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد ، فمرَّة حياتنا إلى دفء هذه ونداوة ذاك . وهذا التوازم القائم على التضاد بين الدفء والنداوة هو سرُّ الحياة على الأرض (٢٠)

وحين بعثت الشمس الحاتية في السموات بالدفء إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثت على الأرض ذراري كثيرة ، منها ما جاء على أنماط ما كان ، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها ، ومنها يشون المهور الذي ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض . ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب في قلوب الجنس البشرى الجديد ، فقد كان في جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفترش سفح الجبل أجمع ، فهالت أبوللورامى السهام ضخامته وخافه على الموجودات التي على سطح الأرض . ولم يكن أبوللو يطلق سهامه قبل ذلك إلا على شارد الظباء أو مخلوع الفؤاد من قطعان الأغنام البرية ، غير أنه ما إن وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سلَّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً ، فإذا هذه السهام تنفذ في جسمه وتمزقه جميعه ، وإذا الدم يتدفق غزيراً من جراحاته العديدة أسود قائماً . وخُلِدَ الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمى الألعاب البيشوتية (٢١) نسبة إلى هذا الأفعوان الذي قهره . وكانت ثمة تيجان من أغصان شجر السديان تمنح للفائزين في تلك المباريات التي كانت تنتظم ألواناً من العلو والمصارعة وسباق المركبات ، ولم يكن الغار قد عُرف بعد . ومن ثم مضى فوبيوس [أبوللو] يبحث عن

شجرة تزوده بإكليل من أغصانها الخانية يحوط رأسه ويتوج هامته ذات الشعر السَّبَط المسترسل ، وكانت السنديانة أول شجرة صادفته فانتزع منها أوراق الإكليل .

دافنى

ووقع فوبيوس لأول مرة في غرام دافنى ابنة إله النهر بينيوس^(٢٢) ، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان ذلك من تدبير كيوييد الذى شاء أن يثار من أبولو لسخريته منه ساعة أحسن الزهو لفتكه بالثعبان يثون ، ورأى كيوييد يجتذب قوسه المشدود فقال له : « فيم تطاولك أيها الصبى العرييد باستخدام أسلحة المحاربين ؟ إن كنتى وحدهما هما اللتان خلقتنا لحمل مثل هذه السهام ، إذ أنا وحدى الذى يقوى على أن يصيب فيصمى من يعترضه من الحيوان الضارى أو يناوئه من بنى الإنسان . وحسبك شاهداً على ذلك آثار سهامى العديدة النافذة في جسد يثون السام ، ذلك الثعبان الذى كان يقرش المساحات الفسيحة . دع عنك السهام واقنع بشعلتك وسيلة تؤجج بها الهوى ، فما أقصر باعك عن أن تبلغ حظى من الثناء » . فردّ عليه كيوييد بن فينيوس قائلاً : « على رسلك يا أبوللو ، فأنت إن قويت على أن تصيب بسهامك الحيوان والإنسان فإنى بقومى وسهامى قادر على أن أصيبك فلا أخطئك ، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان من مجدى أنا حين أبلغ بسهامى الآلهة ؟ » .

وما إن فاه كيوييد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء ، وإذا هو يحطّ على قمة جبل پارناسوس . عندها نثر كنانته واختار سهمين : أحدهما ذهبى اللون محدّد الطرف يُشعل جذوة الحب في القلوب ، وثانيهما رصاصى اللون تلمّ الحدّ يخمدها . وسدّد كيوييد هذا السهم الأخير إلى دافنى ابنة بينيوس ، على حين رمى أبوللو بالسهم الأول فنفذ في لحمه إلى النخاع ، فإذا أبوللو قد هام حباً ، وإذا دافنى تفرّ هاربة إلى الغابات وقد ضمّت شعرها بشريط كما فعلت الآلهة ديانا حين أبت أن تستجيب للحب .

ومن قبل هام كثيرون بدافنى ابنة بينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مُلقية بالآلما يدور حولها من هيام الرجال بها ، وما دار في خلدها شيء عن الحب أو عن الزواج . وما أكثر ما لامها أبوها على عزوفها عن الرجال وحقى عليها لو تزوجت وأعقبته بنين وبنات ، وكم كان وجهها يحمرّ خجلاً حين كان يجذّنها في شيء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث جرماً ، وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال في موضوعه الأثير ، إذ كانت تؤثّر أن تعيش حياة عذرية كما عاشت ديانا ابنة جوبيتر منذ الأزل . ولم يجد الأب بدا من أن ينصاع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها في هذه الأمور ، غير أن جمالها الفتان وشبابها الطاغى ما لبث أن غلبها فقادها إلى غير ما تنشده وتريد . وكان أن وقعت عينا فوبيوس على دافنى فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبنى بها ، وأخذ يسعى سعيه لأن يظفر بقلبها إذ كان

حبها قد ملأ عليه قلبه كله وملأ عليه جوانحه . فكان إذا نظر إلى شعرها متهذلاً على جيدها إلى كتفها غمى ٥٠٠
أن لو كانت عقصته حتى لا تولمه ، وكذلك كانت تُسبِّيه عينها البرأقتان بريق النجمتين الساطعتين ،
وتغريه شفتاها الحمراء ، وتفتنه أناملها الدقيقة ، ويدها البضتان ، وذراعاها العاريتان ، كما كانت
تشغل خياله مفاتها المحجبة عن الأنظار .

وما إن أحست دافني متابعة فوبيوس لها حتى ولَّت الأدبار في سرعة الريح ، ولم تلبث لحظة لتستمع
إلى توسلاته وهيئها قائلاً : « أيتها الحورية يا ابنة بينيوس لا تفرى منى فما أنا بعدو تخشينه . رفقاً بى ،
ولا تفرى منى فرار الحَمَل من الذئاب ، أو الغزال من الأسد ، أو الحَيامة من الصقر ، فما يحفزنى إلى
ملاحظتك غير الحب الذى يتأجج فى صدرى . كم أشفق عليك وأنت تفرين أن تزل بك قدمك فتدئبها
الأشواك وأكون أنا الذى جررتك إلى هذا المصير . رفقاً ولا تسلكى سبيلاً غير سوية ، وقرى حيث أنت ،
وإن أعدك أن أقصر خطاى وألا أسرع . وما عليك إلا أن تسألى نفسك : من هذا الذى خلبت لبه
وسحرت قلبه ؟ فلست فلاحاً يعيش فى الوديان ، ولا راعياً يرعى أغنامه بين هذه المراعى . أيتها الفتاة ٥٢٠
الغريبة ، إنك لا تعرفين ممن تهربين وإلا لما هربت . إننى سيدٌ دلفى وكلاروس وتينيدوس وقصر
پاتارا^(٢٣) ، أنا ابن جوبيتر . بدهائى أعرف ما كان وما يكون وما سيكون ، وبقدرك تردّد أوتار القيثارة
أنغام الموسيقى . إن سهامى لا تطيش على الرغم من أن ثمة من هو أقدر منى على التسديد . أنا الطبيب
الأسى ، والطب أنا ابتدعته ، وما من خاصة لعُشب تبدوا وعندى علمها . ولكن وأسفاه ليس ثمة من
الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب ، وما أشقانى بقدرك إذا ما أعجزتنى عن عون نفسى على حين أقدر على
عون الآخرين . »

وكان فوبيوس على وشك أن يسترسل فى قوله ، غير أن ابنة بينيوس ولَّت عنه فراراً حياءً وحلراً
وخلفته حيث هو ، ولم تتح له فرصته ليقول ما يريد ، وعبثت الرياح بثوبها فجعلته يَعْصُ بجسدها فيجسّد
مفاتها ، كما عبثت بشعرها فإذا هو يتهدّل متموجاً ، وإذا هى بهذا وذاك أبهى ما تكون . ولم يقنع الإله
الشاب بهذا الغزل ، فدفعه الهوى إلى أن يسرع خطاه ويطاردها ، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال^(٢٤)
الذى يلمح أرنباً برياً عن بُعد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو فى إثره ويلاحقه ، وكلما خال أنه أدركه ومدّ
خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه ، وهكذا يمضيان لا يدرك أحدهما الآخر . وكانت هذه هى حال الإله
والفتاة .

وما إن أحسَّ الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خَفَّ فى إثرها ، وإذا هما يعدوان ، كلٌّ يريد
تحقيق هدفه ، العذراء يجدوها الأمل فى أن تنجو ، والإله يملؤه الخوف من أن يخفق . وكان الإله أسرع
عدواً لأن أجنحة الحب كانت تعينه ، فإذا أنفاسه تقع على شعرها للمتطاير ، وإذا هى تكلّ ولا تقوى على
العدو ، فتقع خائفة القوى إلى جانب مياه بينيوس تصرخ قائلة : « أمدد لى يد العون يا أبتاه ، ودع ٥٤٠
مياهاك - إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً - أن تمسخ جمالى هذا الذى أثار الإعجاب فى بى قلوب
الجميع . » وما إن أتمت كلماتها حتى استرخت ، وإذا صدرها قد استحال جذع شجرة ، وإذا شعرها

أوراقاً ، وإذا ذراغها أغصاناً ، وإذا قدماها جذوراً ، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة ، ولكنها على هذا بدت رائعة .

ولم يُثن هذا المصير فويوس عن حبه لها ، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فنى . ينبض تحت اللحاء ، وأخذ يحتضن الأغصان ويغرق الشجرة بقبلاته ، فإذا هى تتضاءل وتضمّر فصاح بها قائلاً : « إذا كان ثمة ما يحول بينك وبين أن تكونى عروسى ورفيقة حياتى ، فابقى لى كما أنت شجرة أهيم بها وأطوف ، ولسوف يكون شجرى فى وصفك ، ولسوف تتغنى قيثارتى بمدحك ، كما سوف تكون سهامى فى الذود عنك ، ولسوف أجعل من أغصانك تيجاناً لهامات المحاربين عندما يشهد الكايتولينيوس فى روما مواكب النصر ، ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفيّة غلصة ، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوط العالقة بها . وكما سيقى رأسى يزينة الشباب ، فكذلك سيظل رأسك تجلله الخضرة التى لن يعتورها ذبول » .

وما إن انتهى الإله من حديثه هذا حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرخت غصونها ، وكأنها بهذا رذاك تعلن عن رضاها بكلامه وقبولها لمطلبه .
ولم يعد بعدها عند الإله المخلص أبوللو ما يقوله .

إيو وأزجس وسيرينكس

وثمة غيضة فى بلاد هاميونا^(٢٥) تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تسمى نيمى . وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر بينيوس فتخلف على صفحتها زبداً رايباً . وهذا النهر تتجمع مياهه أول ما تتجمع من تساقط الأمطار على جبال پئلوس ، ثم تنصبّ منحدره على سفوحه فتستحيل أبخرة ثم سحباً متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات ، فإذا لها صوت مدوّ يصم الأذان ويتردد صدها فى الأرجاء البعيدة . وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر ، كان ثمة كهف قد شقّ فى الصخور يُعدّ محراباً لهذا النهر الكبير ، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجرى كل نهر إلى حيث كُتب له ويقضى بين الأمواج كما يقضى بين الحوريات اللاتي يقطن مجراه . وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده : نهر سيرخيوس الذى تحفّ به أشجار الحور ، ونهر الإنبيوس ذو المياه الفائرة ، ونهر أيبداونوس العجوز ، ونهر الأفريزوس الهادئ ، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى ، لا يدرى أىّ منهم هل يتقدم إلى نهر بينيوس والد دافنى مهتئاً أم مواسياً . ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجدال الأخرى التى تجرى كلها متدفقة لتلقى بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة . ولم يتخلف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس فقد قبع فى الكهف لم يغادره ، ولبت يغدئ مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيرو وغابت عنه أخبارها ، فلم يعد يعرف لها مقراً ولا يسمع عنها كلمة ، ولم يعد يدرى أمع الأموات هى أم مع الأحياء .

ولقد كان من قصة إيو هذه أن رآها چوييت مرة وهي آية من شاطئ نهر أبيها إيناخوس ، فتصبّدت لها يقول : « أيتها العذراء ، إنك لست أهلاً لغير چوييت ، وسوف يسعد بك من تكوين له ، ولكن ترى من سيكون هذا السعيد ؟ تعالى نمض معاً في ظلال تلك الغابات الباسقة ننعيم ونهنا . ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظاً من نار ألهبت به وجه الأرض فلم تعد تقوى على مسّه قدم ؟ هنالك في ظلال أشجار الغاية سوف تجدّين من نفحات الهواء ما يعوّضك عن لفح الشمس ، سوف تجدّين من ثريتها النديّة موطناً سهلاً ، ولكن حذار أن تمضى إلى الغابة وحدك فإني لا آمن عليك من شرّ الحيوانات الضارية . أما في صحتي فسوف تكونين في رعاية إله ليس كغيره من عامة الآلهة ، بيده مفاتيح السماء ، فهو الذي يطلق الرعد والبرق ، تعالى إلىّ ولا تحاولي أن تهربي مني . »

وما إن سمعت إيو كلمات چوييت حتى ولّت هاربة تطوى مراعي ليرنا ثم حقول لوريون الزاخرة بالأشجار . غير أن چوييت ما لبث أن أرسل السحب فغشّت وجه الأرض فإذا هي ظلام كلها ، وإذا إيو ٦٠٠ أعجز ما تكون عن أن تمضى في هربها فوقع فريسة لچوييت ، وإذا هو يعدو عليها .

وتطلّعت چونو زوجة چوييت من مكانها في السماء إلى أرجوس ، ودهشت إلى هذه السحب التي أحالت النهار ليلاً فججبت ، وزاد من عجبها أن هذه السحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض . وإذا كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مرات عدة مثلبساً بما لا ينبغي له أن يقترفه ، ولمّا لم تجده حولها في السماء ساورتها الظنون بأنه لا بد مرتكب شيئاً إداً ، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمرت السحب أن تنقش ومضت تبحث عن زوجها فيما حولها . وكان چوييت قد توقّع أن زوجته لا بد قادمة ، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرة ذات أرداف وضّاءة ، غير أنها على الرغم من هذا التحوّل ظلت جميلة فاتنة .

وتقدّمت ابنة ساتورن إلى البقرة تطوّرها زيفاً وتمتدح جمالها وكأنها لا تعلم من الأمر شيئاً ، وساءلت چوييت قائلة : « أتى لك بهذه البقرة ، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمي ؟ » . ويفطن چوييت إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن ، ويسعى إلى الحيلولة بينها وبين الخوض في الموضوع فيقول لها كاذباً : إنها ابنة الأرض . ولكن ابنة ساتورن كانت أدهى منه ، فطلبت إليه أن يعطيها البقرة هدية . ويغمّ الأمر على چوييت ، فهو إن نزل عن البقرة فقد ضحّى بأعزّ ما يملك ، وإن هوّضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير بارّ بها إذ لم يسعفها بحاجتها . وتنازعه عاملان ، عامل الحب يُثنيه ، وعامل الوفاء لزوجته التي تعقد بينه وبينها صلة من دم ومولد ، غير أنه أثر ثانيهما ووهب زوجته — التي هي شقيقته في آن معاً — البقرة حتى لا يكون ٦٢٠ عاقاً ، وجوّضاً على ألاّ يثير في نفسها شكّاً بأنها كائن أسمر من مثل هذه البقرة .

وتلقّت الزوجة الإلهة الهدية في شيء من الحذر ، فلقد كانت تخشى أن يكون چوييت قد بيّث شراً وأن قد يعود فيسلبها إياها . من أجل ذلك وكلت إلى ابن أريستور ، وكان يدعى أرجس حراستها . وكان لأرجس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالي على حين تبقى سائرهما بقطعة ، أي أنه كانت من تلك

العيون المائة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً . وكانت تلك العيون تمتد إلى كل مكان فترى ما بين يديه وما خلفه ، وما عن يمينه وما عن يساره . وهكذا ظلَّت إيو في محيط بصره استقبلها أو استدبرها . وكان يدعها مع النهار ترعى من أوراق الأشجار والأعشاب المُرَّة ، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع في رقبتها رباطاً .

وكانت إيو إذا ما عنَّ لها أن تستريح افترشت أرضاً لا عُشب فيها ، وكان شرابها من مياه كدرة . وكم حاولت أن تشكو إلى أَرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعين ترفعها إليه بالشكوى ، فكانت ترسل في الجو خواراً تنزعج هي نفسها له . وحين قصدت يوماً إلى شواطئ إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيها مضى ، هاها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولَّت خائفة مذعورة . ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفنها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها . وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها ، يُطعمها الأب بيديه الأوراق التي يقتطفها فتلثم يديه بفيها وتلعقها بلسانها ، وهي لا تملك أن تُفصح عن شيء ، وتلمس هذا العجز من نفسها فتتهمر دموعها . واهتدت أخيراً إلى أن تخطَّ على الأرض قصتها ، ويطالع إيناخوس ما خطَّت فيعرف أنها ابنته ، فيتعلّق بقرونها ورقبتها وهي ترتجف بين يديه فينجيها قائلاً : « ما أشقائي ، أنت ابنتي التي مازلت أطلبها في كل مكان ؟ لقد كان ففدك أهْوَنَ عليَّ من أن أراك على تلك الصورة ، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبيني ، وكل ما أسمع منك تهديدات تصدر عن صدرك المحزون ، ثم ذلك الخوار الذي يذكّرني بخوار البقر . لقد كان همّي أن أركّك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات ، وأن أهنيء لك بيت عُرمك بفراشه ومشاعله ، أما الآن فلن يكون لك زوج إلّا من أبناء جنسك ولن تلدى غير ذرية من البقر . لو لم أكن إلها لأثرت الموت هرباً مما أرى . وعلى هذا النحو سأظل في غمرة الحزن إلى الأبد » .

وبينما كان الاثنان في حزنهما يبتُّ كل منهما لواعجه للآخر ، طلع عليها أَرْجُس برأسه ذى الأعين المائة ، وانتزع الفتاة من يدي أبيها وساقها أمامه إلى المرعى ، وارتقى جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك .

ولم يعد سيّد الآلهة يطيق احتمال كل هذه الآلام التي ألّت بحفيدة فورونبوس ، فصباح بابنه ميركوربوس [هرمس] من مايا لإحدى نجوم اليلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضى على أَرْجُس . وسرعان ما لبّى الابن أمر أبيه فضمَّ جناحيه إلى رجله وأخذ صولجانه في يديه ، ذلك الصولجان الذي يُغرَق من مسّه في نوم عميق ، كما ألقى على رأسه غطاءه ، حتى إذا ما أشرف على المكان الذي يضمُّ أَرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكَّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه في يده وشقَّ طريقه فوق دروب متعرّجة متنكراً في صورة راعٍ من الرعاة يهشُّ على غنمه ، وأخذ ينفخ في مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع ، كما شدّه بها أَرْجُس فناداه قائلاً : « إلى يا هذا ، ولتكن من تكون ، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصخرة ، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير ، كذلك

لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره » . وجلس حفيد أطلس يحدث أَرْجُس حيناً وينفخ في مزماره حيناً ، علّه بتلك النغمات الرتيبة يجعل أَرْجُس يجمع فينام ويغمض عيونه . وغالب أَرْجُس النوم ما استطاع ، يغمض بعض عيونه ويفتح بعضها ، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف أبتدع إذ لم يكن له عهد به . فأخذ رفيقه يحدّثه ويقول : « ثمة في جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد^(٢٦) في نوناكريس^(٢٧) حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس ، كثيراً ما كانت تغلت من مطاردة الساتير والجان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصيبة ، وكانت تدين بلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكيها في عفتها ومسلكها ، كما كانت أشبه ما تكون بآبنة لاتو [ديانا] في تشمير دائها بحزام ، ومع أن قوسها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذهب غير أن اللبس بينها كان ممكناً . وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكيوم ، رآها بان ٧٠٠ وعلى رأسه إكليل من الصنوبر » .

وانبرى ميركوريوس يروى قصة هرب الحورية التي لم تحفل بتضرعات بان وفرارها إلى ضفاف لادو^(٢٨) . وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توسلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسحها ، وذكرت لمن كيف كان بان يمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها ، وكيف أن القصبات كانت تنقل صدى أشجانه وترسلها في الهواء أنات رقيقة حزينة . وفطن بان بحسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها : « فليبقين حديثي معك على هذا النحو إلى الأبد » . وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طولاً ، والتي ضُم بعضها إلى بعض برباط من الشمع .

وحين أخذ ميركوريوس يتهيأ لاستكمال قصته وجد أَرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه كلها ، فأمسك عن الحديث ، وأخذ العناس يشتد شيئاً فشيئاً بأَرْجُس حين مسه بصولجانه السحري . وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوس فأطاح برأسه وطوّح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلطّخت الصخرة كما تلطّخ سطح الهاوية ، ثم وقف يقول : « ها أنتذا الآن يا أَرْجُس جثة هامدة بلا ٧٢٠ حراك ، قد ذُبل خذاك فلم تعد لها نضرتها ، واظلم نور عيونك المائة وكانه عليها غشاوة » . غير أن ابنة ساتورن جمعت بعد تلك العيون المائة ورصّعت بها ريش طاووسها كما رصّعت ذيله بجملته من الأحجار البراقة^(٢٩) .

وتصدّت نجومو لغريمتها الأرجوسية وهي أشد ما تكون غضباً ، فوكلت بها إحدى « الإيرينات » ربّات الانتقام ، وزوّدت البقرة بمنخاس خفى في صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصططحة دُعرها أنّى حلّت . وبقيت أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة . وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه ، رافعة رأسها متجهة إلى السماء — وما كانت تملك غير ذلك — وعيناها تذرفان الدمع ، وهي تطلق خواراً شديداً ، وكأنها تجار إلى جوبيتر ضارعة أن يجعل لهذه الآلام نهاية . وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشهد على نفسه مستنقعات نهر ستيكس : « لا تخشى بعد هذا اليوم منها بأساً » . واطمأنت الإلهة إلى ما قطعته الإلهة على نفسه ، وعادت ٧٤٠

إيو إلى صورتها الأولى ، فتساقط ذلك الشعر الذى كان يكسو جلدها ، وغابت القرون شيئاً فشيئاً ، وارتدت عينها إلى استطالتها بعد أن كانتا مستديرتين ، وأخذ فمها يصغر ، واستوت لها كتفها ويدها ، وانخلعت عنها حوافرها وحلّت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها ، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع . عندها هبت واقفة على قدميها وهى تردّد فى فيها بعض الكلمات تختبر بذلك صوتها مخافة أن يكون كما كان خواراً ، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام ، وغدت إلهة بين الإلهات الشهيرات ، تُقدّم إليها القرابين حشودٌ من الناس قد التفوا بأردية من الكتان^(٣٠) .

فايثون

ووضعت إيو لبناً هو إيبافوس^(٣١) يقال إنه كان ثمرة اجتماع چوبيتر الجليل بها ، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لآله . وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيبافوس طبعاً وأقرب إليه سنّاً غير أنه كان معتزلاً بأبيه فوييوس ، فجرّه ذلك يوماً إلى الزهو على إيبافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخلاء فقال له : « أيها المخدوع يا من يثق بكل كلمة تقولها له أمّه ، ويا من أوهموك فاصطنعوا لك أبا عزوك إليه » . فاحمرّ وجه فايثون خجلاً وكنم غيظه فى نفسه ، وسارع إلى أمه كليمينيه وأخبرها بما قاله له إيبافوس ، ثم أردف قائلاً : « جديرٌ بك أن تألمى لما أصابنى من هوان ، وإنه لعزيز على أن ينالنى ما نالنى وأنا صامت لا أفوه بكلمة ، فقد كنت أختشى أن يكون إيبافوس صادقاً فيما رمانى به ، وعليك أنت وحدك إن كنت حقاً من النساء انحدرت أن تعطينى الحجة على ذلك . عندها سوف تمسح عنا معاً هذا العار الذى لحقنا » . وانكفاً على أمه يطوّق جيدها بذراعيه ، ويستحلفها بحقه وحق ميرويس^(٣٢) وبشعالات أفراس أخواته ألا أخبرته عن أبيه من هو ؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثرت فى نفسها توسلاته ، وانجذبت إلى قرص الشمس الوضاء رافعة ذراعيها فى الفضاء لتقسم وتقول : « أقسم لك يا بنى بحق هذا الكوكب الذى يبهرننا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد ، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعننا ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم . وإن كنت كاذبة فلتعش الشمس على بصرى فلا أعود أتطلع إليها ، ولتكن هذه نظرك الأخيرة إليها . وما عليك يا بنى كى تعرف أسلافك من الآلهة إلا أن تمضى غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد » . وملاً الاطمئنان قلب فايثون وعمّه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً إثيوبيا موطن شعبه ، وبلاد الهندود القريبة من قرص الشمس الملتهب .

التعقيبات

- (١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالها وجنوبها مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين . وذكر فرجيل في كتابه « فن الفلاحة » هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى في السموات .
- (٢) يابيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وبيروميثيوس ، وكان الأخير يُعدّ راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة وماتنهم خيرات الحضارة وأهمها النار ، ويقال إنه قد خلق الإنسان من تراب .
- (٣) كان القدماء يتصورون أن الشّهد قطرات ندى تساقط من السماء ثم يجمعها النحل من ورق شجر البلوط الذي كان مكرّساً للإله جوبيتر .
- (٤) ساتورن الذي يتحدث عنه أوفيد يقابل كرونوس اليوناني الذي خلقه ابنه جوبيتر « زيوس » عن عرشه وألقى به في بحر تارتاروس بالعالم السفلي . أما ساتورن للإله الذي كان يعبد الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلّى به من صفات طيبة ومن خلق ينجح إلى السلم .
- (٥) هي بنت زيوس وديميس ، وكانت قد عاشت في الأرض بين البشر طوال العصر الذهبي إذ كانت تمثّل العدالة ، وقد ذكر فرجيل نفس الحادث في كتابه « فن الفلاحة » .
- (٦) العالقة كائنات بشعة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة . وذكر هزويديوس أن العالقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبهم من الدم الذي انتثر من جرح أورانوس « السماء » الذي ألحقه به ابنه كرونوس . وقد جمع عالم لغة يوناني في القرن الثاني قبل الميلاد اسمه أبولودوروس كل ما يتعلق بقصة صراهم ضد الآلهة . وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأخرين ، الأمر الذي نلمسه بوضوح على إفريز منبرج بوجامون الكبير .
- (٧) كان الإمبراطور أوغسطس يعيش فوق تل البلاتينوس في روما ، وهو التل الذي شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال سبتيموس سيفيروس وفلافيانوس . ويبدو من هذه العبارة مدى التعلق الذي ذهب إليه أوفيد .
- (٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك اللين عهدناهم في عصر الإغريق .
- (٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس عام ٤٤ ق.م .
- (١٠) أساء جبال ثلاثة في أركاديا بالمورة وكان لجوبيتر معبد مشهور في ليكاويس .
- (١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش في المدن اليونانية التي خضعت لنظام حكم القلة « الأوليغاركية » بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق.م . وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة . غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة منتصفاً بالطغيان والإرهاب ، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد ، خاصة في عهد دولة المدينة « بوليس » الديمقراطية في القرن الخامس ق.م . حيث ظفر تلة الملوك الطغاة بالتمجيد والتكريم . كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام في « الجمهورية » بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة .
- (١٢) كان الأريون يقطنون منطقة جبلية شمال شرق اليونان ، ويقال إن نيريتليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطئ مولوسيا « إبيروس الآن » أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماني أرملة هكتور .

(١٣) كانت ربات الانتقام المسماة « إيزيس » عند الإغريق و « فوراي » عند الرومان مسئولات عن عقابة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادئ الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية . ويقصد أوفيد هنا أنهن يعاقبن المذنبين بيت الجنون فيهم ، الأمر الذى يدفع إلى الإفراط فى ارتكاب الجرائم .

(١٤) الكيكلوپس الثلاثة هم برونس وستيرويس وأرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس ، وكانوا حلفاء لجوبيتر فى قتاله ضد المعلقة بل هم الذين زودوه بالرعد والصواعق .

(١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها فى الكتب الساوية . وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما ترى فى ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جده الذى نجا وحده من الغرق بتشبيده سفينة بأمر الإله « إيا » .

(١٧) تفصل فوكيس بين بويوتيا وأويتا جنوب ثيساليا . وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر .

(١٨) كان ديوكاليون بن عم پيرا فهو ابن پروميتيوس وهى ابنة إلمپيتيوس شقيق پروميتيوس . وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وپيرا قد وضعاً فى صندوق مغلق أرسته المياه على قمة جبل پرناسوس ، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس .

(١٩) يذكر هرمان فرانكل فى كتابه عن أوفيد صحيفة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا « جايا » الأم الأرض ، أما العظام فهى الصخور والحصى التى كان ديوكاليون وپيرا يقلغانها من وراء ظهرهما فيولد منها جنس جديد من البشر .

(٢٠) استمد أوفيد هذه النظرية من فلسفة الرواقين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس .

(٢١) كان الشعبان عند الإغريق تمسداً لألهة الخصوبة . وكان فوز أبوللو على پيثون رمزاً لخلق جايا من الألوهية . والمعروف أن عبادتها ظلت فى پيثو ، وهو الاسم القديم للدلفى إلى أن وفدت عبادة خليفتها أبوللو على نفس المكان ، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل . وكانت الألعاب البشوية التى تقام فى دلفى تكريماً لأبوللو مجرد مباراة موسيقية فى بادئ الأمر ، ثم تحولت فى عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات فى الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال فى الألعاب الإغريقية الأخرى .

(٢٢) ينفرد نهر پينيوس إقليم ثيساليا ويحاذ عند نهايته وادى تمهى المشهور .

(٢٣) كانت كلاروس على شواطئ « أيونيا » وتنبؤوس جزيرة فى مدخل الملبسيونت ، وياتارا مدينة كبيرة على شواطئ ليسيا وكلها تضم معابد أبوللو .

(٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدو .

(٢٥) هائمونيا اسم آخر لثيساليا .

(٢٦) حوريات الأشجار .

(٢٧) جبل بأركاديا .

(٢٨) نهر فى أركاديا .

(٢٩) كان الطاووس هو طائر جونو المقدس .

(٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيووين إيزيس الإلهة المصرية الممثلة دائماً بقرى بقرة . وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها فى الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول ، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان فى حين يرتدى الإغريق ثياباً صوفية . ويرى أيسخولوس قصة مسخ إيو فى مسرحيته « الضارعات » وفى « پروميتيوس مغلول » . أما المؤرخ هيرودوتس فيقرر أن إيو بنت إيتانخوس ملك أرجوس قد اختطفها نهار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر .

(٣١) اعتبر الإغريق إلمپافوس هو العجل أبيس المصرى .

(٣٢) كليمنيه هى بنت أوقيانوس وتيثيس ، وهى زوجة ميرويس ملك إثيوبيا « النوبة » ، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فائتون وهيلياديس بنات الشمس .



بيكاسو

الكتاب الثاني

فايشون

كان قصر الشمس شامخ الأعمدة متألقاً ببريق ذهبه وبرونزه وأسطحه العاجية المصقولة ، تنعكس الأضواء من أبوابه الفضية ذات المصراعين التي كانت صُنعتْها أكثر قيمة من جواهرها ، فقد نقش مولكيير^(١) [فولكانوس أو هيفايستوس] فوقها البحار وهي تضمُّ الأرض بين أحضانها ومن فوقها السماء . وفي خضمِّ الموج ظهر آلهة البحر : تريتون^(٢) الشاذى ، وپروتیوس^(٣) ذو الأشكال المختلفة ، وأيجيون^(٤) المتكئ بلذائعه على ظهر حوتين ، ودوريس^(٥) وبناتها بين سباحة في الماء أو ممتطية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تحفّف شعرها الذى كساه البحر من زُرقتة ، وكُنَّ على الرغم من تحالف ملامحهن يربط بينهما ما يشبه الأخوة . وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والحيوريات وجنّيات

الريف ، تَظَلُّهُمْ جميعاً السماء بيروجها الإثني عشر^(٦) ، ستة على المصراع الأيمن للباب ، والأخرى على مصراعه الأيسر .

٢٠ وأصعد ابن كليمينيه إلى قصر ذلك الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التي بينه وبين إله الشمس ؟ وتقدّم إلى أبيه ، غير أنه لم يقو على أن يقترب منه فقد بهره بشدة نوره . وكان إله الشمس جالساً في ثوب أرجواني على عرش يتألق بزمرده ، واصطفّت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن : « اليوم » و « الشهر » و « السنة » و « القرون » و « الساعات » . وهناك أيضاً كان الربيع الغضّ مكلّل الرأس بالزهور ، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه ، والخريف بقدميه المبلّتين بعصير الكَرَم الأرجواني الذي هرسه ، والشتاء القارس الأشهب بخصلات شعره البيضاء .

وتعلّكت الصّبي رعدةً ذهلاً من غرابة ما يراه ، واستدار إليه الإله الشمس وهو في جلسته بين حاشيته وحده بعينه التي ترى كل شيء ، وسأله : « فيم جئت ؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون ، يا من لا يقوى أبوك على أن ينكر بنوتك » ، فأجابه قائلاً : « أبى ، أيها الإله فوبيوس ، يا من يهنا كل ما في الكون الفسيح بنورك ، إذا كنت قد أجزت لى أن أناديك « أبى » ، وإذا كانت كليمينيه لا تكذبني ولا تخفي عني أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتقدّم لى دليلاً على صدقها وبرهاناً يثبت بنوتى لك ويبدّد كل شكوكى » .

٤١ وما إن انتهى من كلماته حتى طرح الأب عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه ، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً : « إنك حقيق بأن تكون ابناً لى ، وقد صدقتك كليمينيه فيما حدثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أى طلب لك كي أبثّد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التي يُقسم عندها الآلهة ، والتي لم يقع عليها بصرى قط » .

٦٠ وأسرع فايثون فطلب من أبيه أن يتخلّى له يوماً عن مركبته ليركبها ويدفع خيولها المجنحة الأقدام . عندها ندم إله الشمس على وعده ، وهزّ رأسه المتألّفة مرات ثلاث ، وقال : « إن استجابنى لطلبك تكشف عن اندفاعى وتسرعى ، وكم وددت لو نقضت ما وعدت . ولتعلم أن هذا الذى تطلبه منى هو ما أباه عليك وأحول دونك ودونه ، فانت مُقدّم على عمل خطير تُقصّر عنه قوتك ويعجز عنه شبابك الغضّ . وهل أنت غير بشر ، وما فى قدرة البشر الفانى فعّل ما تريد ، وإن جهلك بالأمور هو الذى يجعلك تطمع فيما لا يناله الآلهة أنفسهم ، فهم على ما بلغوا من قوة لا يشاركوننى ارتقاء هذه المركبة النارية التي لا يقوى على قيادتها كبير آلهة الأوليمپوس نفسه رغم بأسه وامتلاكه الصواعق يطوّح بها بيده العاتية ، فمن تراه يفوق جوبيتر قوة ؟ والخيل لا تقوى على ارتقاء الطريق الصاعد إلّا بجهد حتى فى الصباح وهى مازال فى عنفوانها ، وكم أصاب أن بالهللع ويخفق قلبى حين تبلغ المركبة سمّت السموات العليا وأطلّ على الأرض والبحار . ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخيل فى حاجة إلى يد قوية وصلابة وثبات ، وما أكثر ما كانت الإلهة تيثيس^(٧) التي تستقبلنى فى مياها تخشى أن أسقط من علّ . هذا إلى ما كان يعمل فى

السماء من حركة أبدية تدفع بها النجوم في دورتها العجلة في الأفلاك^(٨) . وكان على أن أشقّ طريقى وسطها دون أن تهوى بها عند صدامها بي ، فأنا وحدى القادر على السير ضد مدار الكواكب الدائرة في أفلاكها . وماذا تملك أن تفعل أنت لو أسلمتلك المركبة ؟ أترأى قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً فبّة السماء الدوّارة ؟ هل تحال السماء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُذّن الآلهة والمحارِب التي تفيض ثراء ؟ ما أبعد ذلك عن الواقع يا بئى ، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شرك خطر وحجرات ضارية ، ولو قدّر لك أن تسلك طريقك السوى دون أن تنحرف هنا وهناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنب قرن برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامى » وأنياب الأسد الهائج ، وأذرة العقرب التي قد تُطَبّق عليك من ناحية على حين تهذّك أذرة السرطان من ناحية أخرى^(٩) . ثم كم ستثقل عليك قيادة خيّل حين تشتعل النيران المخترنة في صدورهما وتنفضها من خطمها وخياشيمها ، فهي لا تكاد تطبق كفى ساعة ثور حماسها ولا تستسلم رموسها لأعنى . إننى أحذرك خشية أن يكون في استجابتي لطلبك ما يجرّك إلى الهلاك ، وإن الفرصة لاتزال سانحة بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما ينفعك . فليس ثمة دليل على أبوق لك أوضح من لفهتي عليك ، وخوفى عليك شاهد أبوق ، فلنلتطع إلى وجهي لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقي ورؤية ما يختلج فيها من قلق عليك . تلفت إلى خيرات الكون حواليك وتشه ما شئت من طبيّات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشيء منها ، واعلم أنى لن أرجع عما وعدت به ، غير أنه لن يكون تكرّماً لك بل عذاباً تشقى به . فيم إذن معانقتك لى تستعطفنى وأنت لا تعى كنه طلبتك ؟ ولكن على الرغم من هذا فلا تخشى ألا أحقق لك ما طلبت فقد أقسمت على الوفاء بنهر ستيكس ، ولكنى أريد منك أن تنعم النظر فيه » .

وضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عرض الحائط ، فقد كان توّاقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس . وحين أحسّ الأب ذهاب محاولاته عبثاً في أن يُثني ابنه عن عزمه أخذه إلى مركبته الهائلة التي صنعها له فولكانوس وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأطر عجلائها ، كما جعل أقطار العجلات من الفضة ، ووشى نيرها بالزبرجد ، ورصّ بها صفوفاً من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فوبيوس . وحين أخذ فايشون الطُمُوح يتحسّس أجزاء المركبة في إعجاب كانت « أورورا » ربّة الفجر المشرق قد بدأت تفتح في أقصى الشرق أبواب قاعاتها المترعة بالورود ، فانسَلّت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزهرة^(١٠) التي كانت آخر من تركت مكانها في السماء . وما إن رآها إله الشمس تغرب مع قرن القمر وسط السماء الوردية حتى أمر ربّات « الساعات » السريعة الخطى بشدّ الجياد إلى النير ، فاستجابات « الساعات » لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السماوية ، تنفث اللهب مُتخمة بما ألهمتهم من الأمبروزيا [طعام الآلهة] ، وربطتها إلى المركبة .

١٢٠

وطلى الأب وجه ابنه بدهن مقدس كى يُعينه على احتمال وهج النيران ، وتوّج رأسه بحزمة من أشعة الشمس ، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يترقبه من فجعية محزنة ، وقال : « فلنطع نصائح أبيك ما استطعت . كن مترقفاً في استعمال السوط ، واقبض على الأعنة بكل ما تملك من قوة ، ودع الجياد تمضى في

عَدُوها فالويل لك إن هي أبطأت ، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمسة ، واتبع الطريق المنحدر الدائري الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاثة الوسطى متجنباً القطبين الشمالي والجنوبي وعواصفها الشديدة البرودة ، وسوف تتبيّن في هذا الطريق آثار عجلات المركبة . ولا تمنح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى ، ودع الدفء قسمة عادلة بين الأرض والسماء ، فإنك إن ارتفعت عالياً أشعلت النار في قبة السماء ، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض ، وإن آمن الطرق أوسطها . ولا تنحرف يمينا صوب كوكبة الأفعى الملتفة حول نفسها ، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجرة ، وكن بينها على بُعد وسط . وسوف أترك ما وراء ذلك لإلهة الحظ « فورتونا » سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك ، وهياً الآن فقد بلغ الليل الشاطيء الغربي وما في استطاعتنا أن نتلبّث ، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبجج وأخذت الظلمة تتبدّد . اقض بقوة على الأعنة ، برغم أني مازلت أمل أن تستجيب إلى نصحي ولا تقدّم على ركوب هذه المركبة ، فما برحت أنت قادراً على التراجع عن رغبة فيها هلاكك ، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصلبة . إنك مازلت قليل الخبرة ، وإذا شئت أن تتعم عيناك بالنور وأنت آمن ، فدعني أسكب لك على الأرض . غير أن فايثون اندفع في حماسة الشباب واعتلى المركبة التي لم تنو بجسده الغض ، وأخذ الأعنة من يد أبيه فرحاً ، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون .

أخذت خيول إله الشمس الأربعة بيروس وإيوس وأيثون وفليجون^(١١) تملأ الأجواء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة ، وتضرب الحواجز بحوافرها ، وسرعان ما أزاحت الإلهة تيشيس الحواجز من طريق الخيل وهي تجهل المصير الذي ينتظر حفيدها ، فتفتحت أبواب السماء أمام الجياد التي اندفعت صاعدة في الفضاء بحوافرها المجنحة متخطية رياح الشرق العاصفة في مهادها . وأحست الجياد بالمركبة أكثر خفة مما كانت حين كان يعتليها إله الشمس ، وبدت المركبة كالسفينة التي يتلاعب بها الموج لحفتها ، فأخذت تتأرجح وتعلو وكأنها فارغة ، وما إن أحست الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المعهود . واستولى القلق على قائد المركبة الذي كانت تعوزه المهارة في القبض على أعنة الخيل فانفلتت زمامها من يديه ولم يعد يعرف طريقه ، ولو قدّر له أن يعرفه فلن يُقدّر له أن يملك السيطرة على الجياد . عندها انتهت كوكبة الدب الأكبر الثلجية للمرة الأولى ، وعبثاً حاولت أن تبتد في مياه البحر المحرّم عليها ، ودبت ثورة محمومة في كوكبة الثعبان التي كانت برودتها تثبط من حركتها ، ويقال إن كوكبة « راعي الشاء » قد ولت فراراً وقلبيها مشحون قلقاً رغم بطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهايدة .

ووقع بصر فايثون التمس من السماء الشاهقة على الأرض التي على بُعد سحيق ، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً ، وغشّى الوهج عينيه ، وتمنّى لحظتها لو لم تلمس يده قط جياد أبيه ، وعراه الندم على محاولته تعرّف نسبه وعلى استجابة أبيه لرغبته ، ووّد لو كان ابناً لميوس بدلاً من فوبيوس^(١٢) وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفتها رياح الشمال العتية ، فأسلم ربانها لها القيادة تاركاً رعايتها للإلهة يضرع إليها بالدعاء . ماذا ترى فايثون فاعلاً ؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت

ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يقطعها ، وأخذ ينظر إلى الغرب الذى لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه ، وهو بينها حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجلياد التى كان يجهل حتى أساءها . وزادته خوفاً تلك الوحوش الضخمة التى وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصعة بالنجوم ، ورأى العقرب يمدّ إليه مخالبه على شكل قوسين مُرخياً ذيله ، باسطاً أذرعه المستديرة على جنبيه فوق نجمين . ولم يكذ الفتى يراه فى صورته البشعة يتقاطر منه السم القاتل حتى جُمَدَ الدم فى عروقه وعراه فزع أسقط من يده العنان على ظهور الجياد التى وجدت نفسها طليقة مُرسلة الرِّمام ، فأنحرفت عن طريقها المألوف واتطلقت على هواها خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة ، وانجهت إلى النجوم العالية تحبّز المركبة وراءها منتقلة من هوة إلى أخرى ، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض . وأمسك العجب بـ «لونا» ربّة القمر وهى ترى جياد أنحيها تهوى والدخان ينطلق من السحب المحترقة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتشتقّق وتبرز فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعى فتقلب هشيماً ، وألسنة اللهب تأكل الأشجار وأوراقها متخذة من حصاد الحقول وقودها . ولم يكن هذا كله غير شيء حيناً إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحترق الأسوار وتهدمها وتحول شعوب بأسرها إلى رماد ، واشتعال الغابات على سفوح الجبال . وقد أكلت النار جبل أثوس^(١٣) ، وجبل الثور^(١٤) فى سيليسيا وجبل تيمولوس^(١٥) ، وجبل أويتا^(١٦) ، وجبل إيدا^(١٧) الذى كانت ينابيعه دائمة الشهرة قبل جفافها ، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون ، وجبل هيموس^(١٨) الذى ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أورفيوس ، وتأنّجت نيران بركان إتنا^(١٩) فتطاوالت ألسنتها إلى أفاق عالية . واشتعلت القمم التوائم بجبال پارناسوس ذات القمّتين وإيريكس^(٢٠) وكيتشوس^(٢١) وذاب جليد جبال أوتريس^(٢٢) ووردوى^(٢٣) وميباس^(٢٤) ودينديا^(٢٥) وميكالى^(٢٦) وكيثايرون^(٢٧) مهد الطقوس الدينية ، ولم ينجّم الصقيع جبال سكيثيا من أن تلتهمها النيران ، وكذلك كان مصير جبال القوقاز^(٢٨) وأوسا وبيندوس ، وتوهج اللهب فى الأوليمپوس^(٢٩) أعظم هذى الجبال شأناً ، وبلغت الجرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الإبين التى تتّوج السحب قمّتها .

ورأى فايثون العالم كله مشتعلًا بالنار فغشيته حرارة عجز عن احتياها وأرسل زفرات حارة كذلك التى تُطلقها الأفران المشتعلة ، يحاصره وهج مركبته فيضيق بالشرّ المتطاير منها ، ويلقّ الدخان الساخن وتعميه الظلمة الحالكة فلا يدرى أين هو ولا أين يسير ، تجمع خيوله العجلى على هواها حيث تقودها أقدامها المجنّحة . وشاع بين الناس أن بشرة الإثيوبيين قد استحالَت سوداء فى هذه اللحظة إذ انبثق الدم إلى بشراتهم . وفى هذه اللحظة أيضاً جفّفت الحرارة مياه ليبيا فغدلت صحراء ، وأخذت الحوريات يتزعن شعورهن ناثحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة ، وعبثاً حاولت بويوتيا البحث عن ينبوع ديكرى^(٣٠) بين ظهرانيتها ، وأرجوس عن ينبوع أميمونيّه^(٣١) ، وإفري^(٣٢) عن مياه پيرفى .

ولم تسلم مياه الأنهار المتدفقة فى مجراها السوى من لفح النيران الذى جفّف الينابيع ، فقد تبخّرت مياه نهر تانايس^(٣٣) حتى بدا جافاً ، كما جفّ نهر بينيوس^(٣٤) العتيق ، ونهر كايكوس^(٣٥) فى ميسيا ، ونهر

إسمينوس^(٣٦) السريع الجريان ، وحاق المصير نفسه بنهر إيريمانثوس بأركاديا ، ونهر زانروس^(٣٧) الذى غاص ماؤه بعد . وكذا نهر ليكورمارس^(٣٨) الأصفر ، ونهر مياندر^(٣٩) الذى يتلوى مجراه فى منحنيات شبيهة بالدوائر ، ونهر ميلاس بطراقيا ، ونهر إيروتاس بأسبرطة ، وكذلك نهر الفرات ببابل ، والعاصى بسوريا ، وثرومودون^(٤٠) الجياش ونهر الجنج بالهند ، وفازيس^(٤١) ، وهيستر^(٤٢) وغلت مياه نهر ألفيوس^(٤٣) والتهمت النيران شواطئ نهر سبيرخيوس^(٤٤) ، وذاب الذهب المكنوز بأعماق نهر ناهه ، واحترقت طيور نهر مايونيا^(٤٥) وطيور نهر كايستر^(٤٦) التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوفا لصيته ، وأمسك الذعر بنهر النيل فولى هارباً وأخفى رأسه فى أقاصى الأرض حيث استقررت هناك ، وخلّف مصابه القنوات السبع جافة لا يغمرها غير التراب ، وبقيت سبع وديان بلا مياه . وحاق هذا المصير بنهرى الهيبير^(٤٧) ، وستريمون^(٤٨) الراقيين فى بلاد الإيزماروس^(٤٩) ، وكذلك أنهار منطقة هيسپيريا^(٥٠) وهى الراين والرون وپو والتير الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون .

٢٦٧ أخذت الشقوق تغشى الأرض ويتسرب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس ، مُلقياً الرعب فى قلوب عاهلى العالم السفلى . وتقلّصت المحيطات مخلّفة مساحات شاسعة غطتها أكوام الرمال ، ومُبرزة جبالاً كانت مستورة تحت المياه العميقة^(٥١) ، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى العالم ، وانقلبت الأساك تغوص فى أعماق المستنقعات ، وجبن الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته ، وطفئت جثث عجول البحر فوق سطح البحار ، وقيل إن نيريوس وزوجته دوريس وبناتها قد استشعروا وهج الحرارة وهم فى أغوار كهوفهم ، وعجز نبتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاث لاشتعال الهواء خارج البحار .

٢٨٠ وحينما نفذت مياه البحار والمحيطات المحيطة « بالأرض » إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم أخرجت « الأرض » رأسها من بين الرماد وأحاطتها بيديها اتقاء للفتحات الحارة ، فاهتز كل شيء اهتزازاً عنيفاً ، وهوت الأرض عن مكانها المعتاد وهى تنبث فى ألمٍ مهممة : « إذا كانت هذه هى مشيئة القدر ، وإذا كان هذا مصيرى ، فلم لا تعجل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلك على يديك إن كان قد قُدر لى أن أهلك بالنار ، فأية كارثة تبعث بها أنت يهون على حملها » . وكانت حرارة الأجواء تسلسل حلقها حين تتحدث ، فأردفت تقول : لكم يشقّ على أن أفتح شفتى لأتحدث . وها هو ذا شعرى قد احترق ، وانساب الرماد إلى عيني بعد ما غطى وجهى . أهذا هو جزاء خصوبتى ؟ أهذا هو التكريم الذى أناله على خدمتى ؟ أمن أجل هذا احتملت الجراح التى شقّتها فى جسدى المحارث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من الراحة طوال العام ؟ أهذا ما أجازى به عن تدبيرى الأوراق والأعشاب الرطبة للماشية ، والغلال للبشر ، وإنباى الأخشاب العطرية التى تُحرق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة ؟ . وإذا كنت مستحقة للهلاك ، فأى ذنب جنته المياه ؟ وماذا جنى أخوك حتى تنضال البحر التى مُنحها ساعة تقسيم الكون ؟ . فإذا لم تكن بى مُشفقاً ولا بأخيك ، فلتلتفت حواليك ولتشفق على مملكتك الساوية ، لقد أمسكت النار فى القطين ولو أتت عليهما لانهدم قصرىك . ولتنظر إلى أطلس^(٥٢) يعانى مُثقلاً بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه ، وتذكر

أنه لو هلكت الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى الشاملة . فبادر إلى إنقاذ ما يسعك .
إنقاذه من الدمار أيها الإله الأجل ، وأدرك الكون واكتب له النجاة .

٣٠٠

ولم تكد تنته ضراعة إلهة الأرض حتى حنت رأسها ودفنتها في الكهوف المتاخمة لعالم الموت عاجزة عن احتمال مزيد من الحرارة . ودعا ربّ الأرباب الألهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذى أسلم مركبته لولده فايثون ، ويعد أن أشهدهم جميعاً على أن نجاة العالم من الفجيعة رهن بمعونة فوييوس صعد عالياً في السماء إلى ذلك المكان الذى اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرعود والصواعق الخاطفة ، غير أنه لم يرسل سحبا ولا أمطاراً وإنما أطلق رعداً مدوياً ، ورفع يده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوبها إلى قائد مركبة الشمس فأفقدته توازنه وحياته معاً . وكان هيب الصاعقة أعظم أثراً من نيران مركبة الشمس فأحرقت المركبة وانطلقت خيولها موليةً الأدبار على غير هدى ، وتناثرت أجزاء المركبة فراحت عُدّة الجياد يُنثنها بينها ذهب عريش المركبة يسرة ، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة . وهوى فايثون في الفضاء والنار المشتعلة في خصلات شعره تتلوى خلفه كأنها نجم لامع في السماء الصافية ، حتى هبط في بقعة قصية من الأرض بعيدة عن مسقط رأسه ، وتلقاه نهر إيريدانوس^(٥٣) العظيم قبلل وجهه المحترق بمياهه ، وقامت الحوريات الإيطاليات بدفن رفاته التى التهمتها النيران ذات الألسنة الثلاثة ، ثم نقشن على شاهد قبره هذه الأبيات :

٣٢٠

« هنا يثوى فايثون قائد مركبة أبيه .

وهو وإن لم يُكتب له النجاح في قيادتها

إلا أنه قضى نجه شهيد شجاعته الخارقة » .

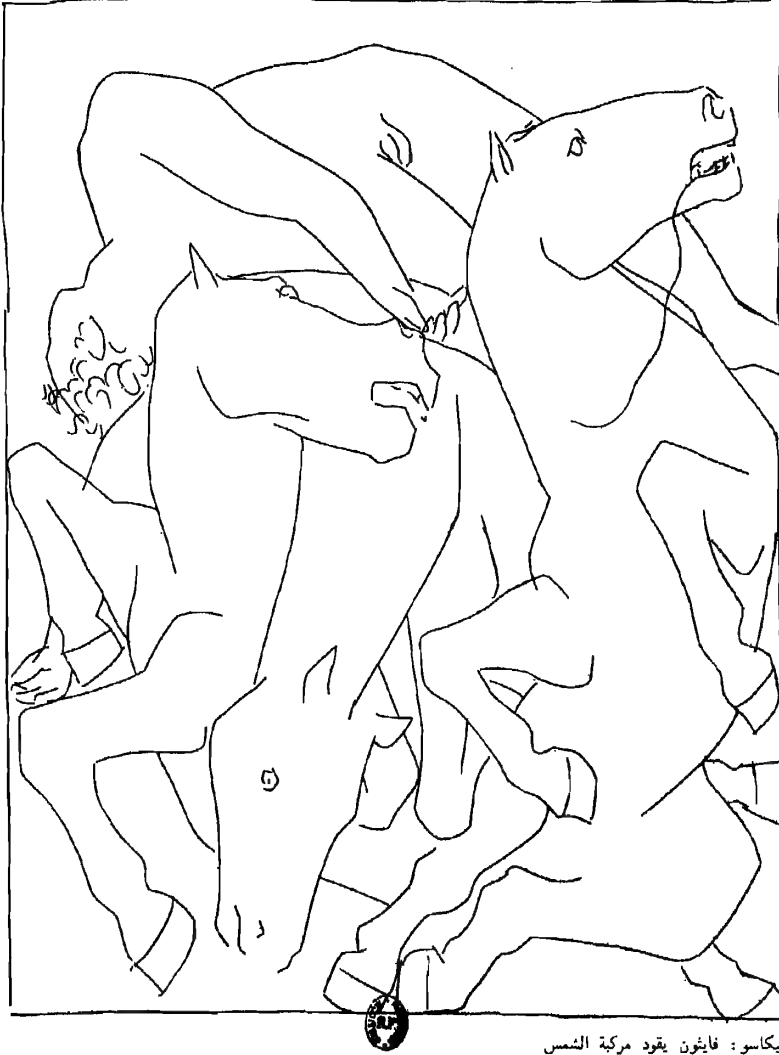
وأدت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذى أمضه الأسى فغطى وجهه وأخفاه عن جميع الأنظار .

وإذا كان حقاً ما يقول الراوى ، فقد احتجبت الشمس في ذلك اليوم فأضاءت النيران المشتعلة العالم ، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفع ما .

وكانت كليمنيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة ، فلقد أفقدها حزنها وعيها فشقت ثوبها عن صدرها ، وراحت تضرب في الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدت مدفونة بشاطئ ذلك النهر البعيد ، فاحتضنت الصخرة التى نُقش عليها اسمه وبللتها بدموعها مُلصقة صدرها العارى بها^(٥٤) .

٣٤٠ ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقل من حزن أمهن عليه ، فاستسلمن للبكاء والوعيل ، وضربن صدورهن بأكتفهن وألقين بأنفسهن على قبر فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن . ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقيات عند القبر يؤذِن طقوس الحداد التى أصبحت من كثرة تكرارها إحلى العادات . وفى أحد الأيام تهاوت على الأرض كبراهن فايثوزا وشكت عجزها عن تحريك قدميها ، فخفت لنجدتها أختها الشقراء لامهيتيه ، غير أنها وقعت في قبضة جذور شجرة نبتت فجأة ،

واكتشفت الثالثة وهي تشد شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة ، وأطبق جذع شجرة على ساقى
واحدة ، بينما تحول ذراعا أخرى إلى غصنين طويلين . وعلى حين أخذتني الدهشة بما يجري لمن كان لحاء
الأشجار يلتف حول أفخاذهم ويغطي أجسادهم شيئا فشيئا فكسا أرحامهم وأثداءهم ثم أكتافهم
وأبليسهم ، ولم يبق غير شفاهن التي كانت تنادى عبثا أمهن .



بيكاسو : فايثون يقود مركبة الشمس

ولم يكن يوسع هذه الأم الملتاعة غير أن تهول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كي تختلس من بناتها القبلات ما أمكنها ذلك . لقد حاولت في أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإفقادهن من جذوع الأشجار ، وهشمت الأغصان غصناً غصناً ، وكانت كلما هشمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح يتزف ، وصاحت إينة لها وهي تكسر غصنها قائلة : « رفقاً بي يا أماه ، ناشدتك ألا تؤذيني بما تفعلين ، إنك تصيبين بالأذى جسدى الذى يستحيل إلى شجرة ، فوداعاً يا أماه » .

٣٦٠

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة ، وانساب دموع جمدتها الشمس فإذا هي كهرمان^(٥٥) أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضأة ، فتحملها مياهه بعيداً كي تصبح في الأيام القريبة زينة عرائس الرومان .

سيجنوس

وشهد هذه المعجزة سيجنوس [كيجنوس] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايتون بمواطفه منه بقرباته ، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا^(٥٦) ومدائنهم العظيمة ، غير أنه ترك مملكته ليردّد نهر إيريدانوس^(٥٧) وشطآنه الحضر صدى أناته وأحزانه ، ولتمتلئ بعويله الغابات التى كثرت أشجارها بعد أن استحال شقيقات فايتون أشجاراً ، ويحّ صوته من طول نحيه فهزل جسمه ، وتحول شعره ريشاً أبيض ، واستطالت رقبته ، واحمرت أصابعه وغما فيها بينها غشاء ، وبرز من جنبه جناحان ، وتحول فمه إلى منقار غير مدبّب . وما لبث سيجنوس أن تحول إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع ، ولم يعد يثق بالسما أو بجويتر ، وظل يذكر فى أسى إرسال جويتر لصاعقته ، ولشدة بغضه للنيران أثر بعد ذلك أن يعيش فى الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على أن يحلّق فى السماء .

٣٨٠

وارتدى والد فايتون ثياب الحداد وانطقاً بريقه المألوف وكأثما غشاه الكسوف ، وسخط على الضياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « لشدة ما سئمت على المحلّد الرتيب الذى حرمت معه الراحة منذ بداية الكون ، وتولّأت الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً . إذن فليقم غبرى بمن يعينهم الأمر بقيادة مركبة الفضاء ، فإن أحجم الآلهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوع فليقدّها جويتر نفسه ، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتى السيطرة على زمام جيادى فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم ، ولأدرك وهو يمسك بأعنة هذه الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يجعل أن يكون جزءاً من يعجز عن قيادتها » .

وتحلّق الآلهة حول إله الشمس يلحّون فى الرجاء ألا يدع العالم أسير الظلمة ، واعتلر جويتر عن إرساله الصاعقة ، وشارك بدوره فى الرجاء المشوب بالوعيد على غرار ما يفعل الملوك . وتقدّم فريوس

٤٠٠

فأمسك بزمام جياده التي كانت مازال تُرْعَدُ خوفاً فألبظ ظهورها بسوطه ، ووخرها وهو في غمرة الحزن ووقدة الغضب وكأنها المسئولة عن تلك الفاجعة التي نزلت بولده .

كاليستو

وهبَ كبير الآلهة الواسع القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرّف الأضرار التي ألحقتها بها ضراوة النيران ، وحين اطمأن إلى أنها لا تزال على حالها صلبة مدّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعتها أيدي البشر . وحرّكت أركاديا^(٥٨) التي يؤثرها قلقه ، فأسرع يعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التي كانت قد كَفَّت عن الجريان ، وكسى الأرض بالخشرة وأنبت الأوراق في الأشجار ، وبث النماء والخضرة في الغابات المحترقة من جديد .

ونخلال تطوافه وقع بصره على حورية أركادية فإذا هو يُجْمَدُ أملها وقد احتدمت في نفسه الرغبة . ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المُغْرَمات بتصفيفات الشعر المتنوعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فوبيه [ديانا] ، رداؤها فضفاض بُتت بمشيك ، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّه شريط أبيض ، وقد أمسكت في يدها رمحاً أو قوساً ، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة « مفترق الطرقات » ، غير أن الحظوة لا تدوم طويلاً^(٥٩) .

ومالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ، ودلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس حطّاب ، وحطّت جعبة سهامها عن كتفها وأخرجت منها قوسها الطّيع وتمدّدت على العُشب مُسنّدة رأسها إلى جعبتها الصارخة الألوان ، وأبصرها جوبيتر في هذا الوضع عزلاء فحدّث نفسه قائلاً : « سيكون لي معها أمر لن تعرف به زوجتي ، ولو فُرض أنها عرفت فسوف يكون كِفَاء ما أناله من تأنيب » . وأسرع فتقمص شخصية ديانا مرتديا رداها ، ومال على الفتاة محدّثها قائلاً : « يا أحبّ رفيقائي إلى نفسي ، أين كنت تبحتين عن صيد ؟ أي جبل عبرت سفحه ؟ » فنهضت الحورية وهي تصبح فرحة قائلة : « لك يا سيدتي الربّة تحياتي ، إنني أراك أعظم من جوبيتر ، وما أخشى أن يسمع ذلك مني . » وضحك جوبيتر سعيداً بتفضيلها له في صورته هذه على صورته الحقّة وقبّلها قبله لا براءة فيها ولا تُقبّل بها فتاة من بنات جنسها . وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها في الغابة لم يمهّلها فضّمها إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره ، وتآبّت الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى ، وباليثك كنت شاهديا يا جُونو . يقيناً كان غضبك سيخفّ ، ولكن كيف لفتاة مهما أوتيت أن تقهر رجلاً ، ثم من ذا الذي يستطيع أن يغلب جوبيتر على أمره ؟ ونجح جوبيتر في أن يظفر بها حتى إذا ما نال مأربه منها عاد أدراجه إلى السموات العُلى . وصبّت الحورية لعنائها على الغابات والغيضات التي شهدت اغتصابها ، كما أنسيت جعبة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتهما حيث افترشت الأرض .

ورأت ديكتينا^(٦٠) وهي تتسلق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادت ، فوكت الفتاة هاربة وهي تخالها جوبيتر وقد عاد متقمصاً شخصية ديانا ، غير أنها حين رأت تابعات سيدتها محطن بها اطمانت إلى أنها الربة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة ، فعادت أدراجها لترافق الإلهة وتابعاتها . ما أشق أن يخفى المرء إحساسه بالخطيئة ، فقد عجزت الفتاة عن رفع عينيها عن الأرض ولم تدن من الربة على غرار ما كانت تفعل من قبل ، وتخلّفت عن زميلاتها والتزمت الصمت ، وأخذ الحجل مما ارتكبت من خطيئة يغشى وجهها ، ولو لم تكن ديانا إلهة عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التي بدت عليها . ويحكى الرواة أن زميلاتها فطنَ إلى ما تكتن من أمرها .

وهلّ القمر بدراناً مرات تسعا ، وأوت ديانا — بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافتة — إلى أجمة رطبة الأنسام يجرى وسطها جدول هامس يتموّج ماؤه فوق رمال القاع الأملس . ولم تكد الربة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها الغبطة ، فغمست قدميها في الماء ، ونادت تابعاتها قائلة : « طالما أن العيون ٤٦٠ لا تصل إلينا هنا ، فلنخلع ثيابنا ولنستحم في هذا الجدول » . وحين خلعت الثيابات ثيابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحجّمة وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأتهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها ، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة : أعزبي عني ، ولا تدنسي مياه هذا الجدول المقدس ، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها .

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبار ، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريمتها ، ولكنها ظلت تتخير اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار ، فلقد وضعت غريمتها ابنها أركاس ، وأخذ مرأى هذا الطفل يملأ قلبها وعينيها غضباً فصرخت في أمه قائلة : « لم يكن ينفصك إلا أن تضعي هذا الطفل أيتها الزانية لكي يُشيع إهانتى ، ولكي يغدو دليلاً على خطيئة زوجي الشائنة .. إننى لن أترك دون عقاب ، وسوف أسلبك هذا الجبال الذي أغرى بك عاشقك أيتها الفاسقة » .

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها في قوة أسقطتها على الأرض . وحين بسطت كاليسو ذراعيها متوسّلة تطلب الغفران ، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن ، وإذا كفأها تستديران وتتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قدمين أماميتين ، وإذا وجهها الذي أسر بجمالها من قبل جوبيتر يتشوّه وينفرج فيه فكّان عريضان . ولكي تقضى الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فصار حلقها يصدر زمجرة خيفة ، غير أنها تركت لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دبة ، فأخذت تبث حزنها بأنين متصل ، وتنفزع للساء برفع يديها بعد تحوّلها إلى قدمين . وأحسّت جحود جوبيتر دون أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدّها ، وكم ثقلت عليها الإقامة في الغابة فراحت تحوم حول دارها مقترية من مقرها القديم ، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنبحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور ، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيادين . وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبئ عند رؤية الوحوش الضارية . ومع أنها مُسبّخت دبة إلا أنها كانت تحشى رؤية الذئبة في مكانها بالجبال ، كما كانت تُصاب بالذعر أمام اللثاب رغم أن أباهما كان واحداً منها^(٦١) .

أركاس

ويبلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدري ما حدث لأمه ابنة ليكاوون . ومضى يوماً يتعقب آثار الحيوانات المتوحشة في الغابات ويتعرف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شباكه في غابات إيريماثوس^(٦٣) ، فإذا هو أمام هذه الدبة التي توقفت محذقة فيه مطيلة النظر إليه دون أن تحوّل عينها عنه . وحين دفعها تشوقها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمه المميت ليمزق أحشاءها به ، فإذا جويتر الجبار يمسك بيده ليخول بينه وبين ارتكاب جريمة ، مُبعداً الإبن عن الأم . وما لبثت أن حملتها معها ریح خلال الفضاء لجعل منها كوكبتين متجاورتين^(٦٣) .

وحيث رأت جونو غريمتها تتألق وسط نجوم السماء تولّاهما غضب عاصف ، وخاضت البحار العميقة لتقابل تيثيس الشيباء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لهما من مكانة بين الآلهة الأخرى . وحين سألتها كلاهما عن سرّ زيارتها أجابت قائلة : « تسألان أنا ملكة الآلهة لماذا تركت مكاني في السماء وهبطت إلى هنا ؟ لقد فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكاني في السماء ، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظرا فسوف تريان كوكبتين حلّتا لتوّهما في السماء محاطتين بإجلال يُلحَقُ بهِ الهوان ، إذ تتألقان في أعلى مكان بالسماء وفي المنطقة التي تحيط فيها آخر الدوائر بالطرف الضيق من محور العالم . وهل ثم من لا يلعنني حين يراى لا أنال منها ؟ ماذا جنبني أنا ، وما أعظم ما أملك من قدرات ؟ لقد شئت تجريدها من إنسانيتها فإذا هي تتحوّل إلى ربّة ، وإذا هذا هو العقاب الذي أردت أن أنزله بالمدّنب ! وكان هذا أقصى ما أملك ، فليردّ جويتر إليها جمالها المسلوب وليحرّرها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية ، ولم لا يخطو إلى أبعد من ذلك فيطلقّ جونو ، ويتزوّج من هذه الحبيبة الجديدة ويضعها في فراشي ويتخذ من ليكاوون صهراً له ؟ إذا كنتما تحسان بأن ما نلته من امتهان يمسكها وأنا التي ربّيتها صغيرة ، فاعملا على أن تدفعا عن أواجكم الزرقاء هاتين الكوكبتين [الدبّ الأكبر والدب الأصغر] اللتين لم ترفعا إلى السماء إلا تكفيراً عن سلوك فاضح ، ولا تتيحا لامرأة زانية أن تستحم في مياه بحاركم النقية » .

وأقرّ إلهها البحر ما قالته كبيرة الآلهة ، وانطلقت جونو ابنة ساتورن وسط الأثير بعربتها السابحة التي تجرّها الطواويس المشرقة الألوان بريشها الجديد الذي نبت بعد وفاة أرغس ، والذي يذكّرنا بريشك الناصع البياض قبل تحوّلها إلى أسود داكن أيها الغداف الثرثار ، فقد كان ريش هذا الطائر في الماضي في بياض الفضة أو الثلج ينافس البمام الخالص البياض ، ولم يكن يقلّ بياضاً عن الإوز الذي قدّر له أن يُنقذ الكايتوليتوس^(٦٤) يوماً بصنّيعاته اليقظي ، ولا عن البجعة عاشقة المياه . غير أن لسان الغداف كان سبب مأساته ، فقد كانت ثرثرته سرّ فقدته لونه الأبيض وتحوّله إلى اللون الأسود .

كورونيس

لم تكن في أنحاء نيساليا كلها فتاة أجمل من كورونيس مواطنة مدينة لاريسا . وكم حرّكت إعجابك يا ربّ دلفي ، وكان ذلك لاحتفاظها بعفتها أو لاحتفاظها بأمرها مستورا عنك حتى رآها يوما الغداف طائر فوبيوس ترتكب جريمة الزنا ، وأسرع إلى مولاه على عادته في نقل الأخبار معتزما كشف سرّها ، غير أن الغراب الذي لا يقل عنه ثرثرة تعقب الغداف مسرعا متلهفا لالتقاط الأسرار ، حتى إذا أحاط علما بسبب الرحلة قال للغداف : « ما أسوأ الطريق الذي تسلكه ! خذ حذرک ولا تهوّن من نصيحتي ، واعتبر بما حدث لي ، فلو بحثت عن سر تحوّل لوجدت أن إخلاصی هو الذي أودى بي : لقد أخذت باللاس يوما إيرينونيوس الطفل الذي وُلد بلا أم ، وحجسته في سلّة مجدولة من خيزران أكتيا^(٦٥) ، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكرويس^(٦٦) اللاتي لم يكن قد تزوّجن بعد ، وكان نصف الملك الأسفل على هيئة ثعبان ، وعاهدتهن على ألا يفتحن السلّة لمعرفة سرّها ، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجر الدردار المورق لمراقبتهن ، وكانت باندروسوس وهيرسي أميتين على السلّة بينما أخذت ثالثهن أجلاوروس تستنبر شقيقتها فتتبعهما بالجبن ، وما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا في داخلها طفل بجانب ثعبان منبسط . ٥٦٠

وحين قصصت ما حدث للإلهة منيرفا كان جزائي على ذلك طردى من عملي ورفع حمايتها عني ، وصرت أدنى مكانة من طائر الليل^(٦٧) . وما أجدر ما نالني من عقاب بأن يكون تحذيرا للطيور عن ارتكاب جريمة الوشاية ، فأنما لم أسألهما جزءا ما فعلت من أجلها ، بل كان طردى عن إرادتها . وما عليك إلا أن تسأل باللاس فإن غضبها مهما احتدم لن يؤثّر بها إلى إنكار الحقيقة .

ولسوف أروى قصة يعرفها الجميع . لقد أنجبني كورونيس الشهير في بلاد فوكيس ، فلا تستهن بأمرى . وإن دماء ملكية تسرى في عروقي ، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبتي . ولقد كان جمالي مصدر مأساتي ، فبينما كنت أخطر كعادي فوق الرمال الناعمة أبصرني إله البحر فحرّكت إعجابه ، وجعل يغازلني ويتوسّل لي برفيق الكلمات ، وحين تبين له أنه لن يجني من وراء ذلك شيئا أخذ يخطّط لاغتصابي وتملّكي بالقوة ، فهربت منه وخلفت الأجزاء الصلبة من الأرض بينما أمرق عبثا وسط الرمال اللينة ، ومضيت أسير في غير اتجاه معين وصرخت منادية الألهة والبشر لنجدني فلم يصل ندائي إلى أذن بشرية ، بينما تحوّلت الشفقة في قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لي يد العون . وحين رفعت ٥٨٠ ذراعي نحو السماء اسودّ لونهما وأصبحا جناحين خفيفين ، وتحوّل ردائي وأنا ألقيه وراء كتفي إلى ريش تضرب جلوره العميقة في جلدي ، وحاولت ضرب صدرى العارى بيدي غير أنني اكتشفت أن صدرى كيدي لم يعد عاريا . وحين عدت أعدو لم تغض قدمي في الرمال كما كان يحدث من قبل بل وجددتني أعلو مسرعة فوق سطح الأرض ، وأخذت أحلق عاليا في السماء وصرّت رفيقة طاهرة للإلهة منيرفا . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكتيميניה^(٦٨) التي تحوّلت إلى طائر جزءا من خطيئتها البشعة قد انتزعت مني شرف

هذا المنصب ؟ ألم يصل إلى سمعك نبأ تلك القصة الشائعة في أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكيميديه لغراش أبيها ؟ إنها هي الأخرى طائر ، إلا أن إحساسها بالخطيئة جعلها تهرب عن عيون الناس ومن ضوء النهار خفية عارها في ظلمات الليل ، بينما يترتبس بها الجميع في أرجاء الفضاء .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : « لن تنجح محاولاتك في إثباتي عن القيام بواجبي ، وإنني لأسخر بكل نبوءاتك العقيمة » . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاة فويوس ، فلما جاءه أبلغه نبأ رؤيته كورونيس تفاجع شاباً من ثيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يعرف قصة هذه الخيانة حتى سقط إكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسماً وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده ، واحتدم الغضب في نفسه فقبض على قوسه وأطلق منها سهماً لا يملك أحد الهرب منه ، فإذا هو ينفذ في الصدر الذي طالما نعيم بضمه إليه . وتأوتت كورونيس ألماً ، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القاتل غزيراً على أطرافها الجميلة البيضاء ، وصرخت قبل لفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها ، وسرت في جسدها قشعريرة الموت وقالت : « أما كان الأجدر أن تنزل بي عقابك بعد أن أضع حملي منك ، فلقد قضيت بصنيحك على ضحيتين معاً ؟ » . وما أسرع ما أحسّ العاشق بالندم على عقابه القاسي ، ولكن الأوان كان قد فات . وحقّق على نفسه لإنصاته للوشاية ولتركه الغضب يتسلّط عليه ، وكره الطائر الذي قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التي حرّكت سخطه عليها ، ولعن يده وقوسه ومهامه التي قدّفت بها . وضمّ جسد كورونيس المسجّى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر ، فذهبت أدراج الرياح محاولته شفاء جرحها بعد أن فات الأوان .

٦٠٠ وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته في إنقاذها ، عصره الألم دون أن تدفع عيناه لأن الألهة لا تدفع ، وفزع كما تفزع البقرة وهي تلمح ساطوراً قد رفع بها القصاب يده ليهوى به على الجبين المنبتح لوليدها الذي ترضعه . ثم أخذ يصبّ على كورونيس العطور الجنائزية التي لم تعد تقوى على الاستمتاع بها ، وضّمّها إلى صدره ضمةً أخيرة ، وقَدّم لها طقوس الموق المحتومة . وإذ لم يحتمل أن تحيل هذه النيران فلدة كبده إلى رماد انتزع ابنه^(٦٩) من أحشاء أمه منقذاً إياه من اللهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون^(٧٠) .

٦٢٠ ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه ، ففضى فويوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرئيس .

أوكيرويه

وسعد القنطور باصطفاء الإله له لرعاية ابنه وأفعم قلبه فرحة بهذا التشريف وتلك المسؤولية . وفجأة ظهرت ابنته أوكيرويه^(٧١) التي أنجبها من الحورية خاريكلو^(٧٢) ذات الشعر الذهبي الضارب إلى الحمرة

المسندل على منكبيها ، والتي أعطت ابنتها اسم النهر الذى وضعتها على ضفافه . وكانت هذه الفتاة تمجد فنون أبيها وأضافت إلى ذلك قدرتها على التنبؤ وكشف أسرار الغيب . ٦٤٠

وحين رأت أوكيرويه الطفل الإلهى خفق قلبها حماساً وتولتها حمى التنبؤ وقالت : « فلنشَبَّ أبها الطفل ، فإن الأقدار تَدْعُوكَ لإنقاذ العالم ، وسوف يدين لك البشر بحياتهم يوماً ، وسوف تُوهَبُ القدرة على إعادة الروح بعد انتزاعها من أجسادها ، وسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تَجْرؤُ على إحياء الموتى ، فتَجْرِدُكَ صاعقة جَدِّكَ (٧٣) من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى . وعندها ستتحول من جسد إلهى إلى جسد بشرى ثم تُبعث إلهاً ثانياً ، فتبدل مصيرك مرتين .

خيرون

أما أنت يا أبى الحبيب ، وقد قُدِّر لك أن تحيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين ، فسوف تشتاق الموت يوم يسرى فى جسدك سَمُّ الأفعوان عبر جراحك ، وتظل تشقى عذاباً حتى يسترد الآلهة ما تستمتع به من خلود ، فتحلّ الربّات الثلاثة خيوط قدرك لتموت (٧٤) .

وهنا طفرت الدموع من عينيها مبللةً خديها واستطردت متنبئة تقول : « إن الأقدار تمنعنى من أن أزيد على ذلك شيئاً ، فكلماتى محسوبة علىّ ، وقد كانت مقدرة على التنبؤ مبعث غضب الآلهة علىّ حتى تمنيت لو أن جهلت المستقبل . إننى أرى وكأننى قد فقدت شكلى البشرى وصار عُشب المراعى غذائى ، والرَّكض فى السهول الفسيحة مُمتعى ، وأستحالت صورى إلى صورة فرس ، وذلك أثر من آثار القرابة . ٦٦٠ ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة ، بينما والدى نصف بشر ؟ .

حلت كلماتها الأخيرة شكاة غامضة وحديثاً مبهماً ، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هى صهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به ، وما لبثت أن سهلت صهيلاً حقيقياً ومدّت ذراعيها إلى العُشب ، وإذا أصابعها تلتثم ويحيط بها حافر ناعم يُغشى أطرافها الخمسة ، وكَبُرَ رأسها واستطالت رقبتها ، وتحول طرف ثوبها إلى ذيل طويل ، وصار شعرها المسندل على كتفها معرفة تتدل على كتفها الأيمن واكتمل تحول صورتها وجسدها ، وأخذت مع هذا التحول المعجز اسماً جديداً هو المَهْرة .

باتوس

وذهب بكاء ابن فيلبرا - وكان من أنصاف الآلهة - وتضرّعه لأبوللو كي يخلص ابنته من آثار هذا التحول أدراج الرياح ، فلم يكن أبوللو يملك تغيير إرادة جوبيتر الجبار ، ولو قُدِّر له أن يملك شيئاً من ذلك فقد كان عندها بعيداً فى مدينة إيليس (٧٦) وحقول مسينيا (٧٧) حيث يقيم ، وكان هذا التحول قد جرى وهو ٦٨٠

مرتد ثياب الرعاة ممسك في يده اليسرى بعضاً من غصن شجرة ، وفي يده اليمنى مزاربان ذى القصبات المتفاوتة الأطوال .

ويحكى الرواة أنه حين شرد في دنيا غرامه وهام مع موسيقى زمواره قد غفل عن أبقاره فضربت في حقول بيلوس^(٧٨) ولمحها ميركورىوس بن مايا ، واستطاع بدائه المعروف أن ينحرف بها ويخفيها خلال الغابات دون أن يراه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يسمونه باتوس ، وكان الثرى نيلبوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيوله الأصيلة ومراعيها . وخشى ميركورىوس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودّد إليه قائلاً : لست أدري من تكون أيها الغريب ، ولكني أسألك أن تخفي أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل ، ولست ناسياً لك جميلك ، وإليك هذه البقرة السمينة مكافأة لك . فأخذ باتوس البقرة وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار : « امض ولا تخشى شيئاً ، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقني إلى فضح سرقتك » .

وتظاهر ابن جوبيتر بالمضى في طريقه ، ثم ما لبث أن عاد متخفياً في هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته : « أيها الفلاح ساكن هذه الحقول ، إن كانت بقراي قد مرّت أمامك فلتقدّم لى يد العون ولتكتشف لى سرّها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص . ولا كافئك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها » . وأغرّت المكافأة المضاعفة الفلاح الشيخ فقال : « إنها هناك أسفل هذا الجبل » ، وقد كانت هناك حقاً عند سفح الجبل ، فأمسك الضحك بميركورىوس وقال للشيخ : « أهكذا تشي بى إلى نفسى أيها المخادع ! » ، ثم حوّل هذا القلب الذى نكت عهده إلى صخرة صلبة مازالت تسمى حتى اليوم « الواشية »^(٧٩) ، ارتبطت بها ذكرى هذه الوشاية التى شاعت عن هذه الصخرة البريئة .

أجلاروس

وحلّق الإله بأجنحته في الآفاق حاملاً صولجانه ، وأخذ يتأمل حقول مونيشيوس^(٨٠) ، والأرض التى تباركها منيرفا ، وأشجار ليسيوم^(٨١) المتألقة ، وكان يقام في ذلك اليوم مهرجان باللاس الذى تقضى تقاليدته بأن تسير فيه العذارى العفيفات حاملات فوق رؤوسهن سلالاً مكلّلة بالزهور زاخرة برموز طقوس باللاس لإيداعها معبد الرّبة . وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن فتلبّث عن متابعة رحلته ، وأخذ يدور حولهن كالصقر الذى يسبق جميع الطيور حين يلمح أحشاء الذبيحة ، غير أن فزعه من رؤية الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور في الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد ، ويظل يدور نهماً يخفق بجناحيه حول الفريسة التى يشتهي الظفر بها . وكذلك كان الإله الرشيق يفعل فوق قلعة أكتي^(٨٢) ، مهدّئاً طيرانه محدّداً دورته في الأجواء التى تعلو القلعة . وكما يفوق نجم الزهرة « لوسيفر »

النجوم الأخرى ببريقه ، وكما يبرز القمر الذهبي « فوييه » نجم الزهرة بلمعانه ، فقد كانت هيرسي أجمل فتيات الموكب تزدهى على الأخريات بروعة جمالها ، وقد راق جمالها ابن چوپيتر فتأجج قلبه بنار حبها ، وصار وهو في الأجواء شبيهاً بطلقة قذف بها مقلع من مقاليع جُزُر البليار أحسّت في السحب حرارة لم تحسها من قبل . غير الإله طريقه وهجر السماء واتخذ سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ شكلاً آخر غير شكله فقد كان واثقاً من وسامته . ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال ، فصصف شعره وأصلح عباءته لتتسدل على جسده في أناقة تبرز الحوافي المطرزة والزخارف الذهبية ، وجلا صولجانه الذي يحركه بيده اليمنى ليُلقي به النوم في العيون^(٨٣) أو ليطرده عنها ، واعتنى بأن يصقل نعليه المجنحين فوق قدميه المساوين .

وكانت ثمة حجرات ثلاث في داخل القصر مزدانة بالعاج والدُّبُل^(٨٤) : اليمنى حجرة باندروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسي . وكانت ساكنة الغرفة اليسرى هي أول من وقع بصرها على ميركوريوس ، فتقدمت في جراءة وسألته عن اسمه وعن سرِّ محبته ، فأجابها قائلاً : « أنا حفيد أطلس وپليوني . أنا ابن چوپيتر الذي يحمل أوامر أبيه عبر الأجواء . لن أحاول انتحال أعدار وهمية لمجيشي ، ولكنني أصارحك أنني قادم من أجل أختك هيرسي ولأنشدك أن تُدعى في فؤادها حبى حتى تصبحي أنت خالة لابني » . وما لبثت أجلاوروس أن حملت بنظرة جشع وفضول ، وهي النظرة التي تطلعت بها يوماً إلى السلّة الخيزرانية لمنيرفا الشقراء^(٨٥) ، وطلبت فنطاراً من الذهب مقابل أدائها المهمة التي يريد ، ودفعته خارج بابها على ألا يعود إلا محملاً بالذهب .

ونظرت الإلهة المحاربة منيرفا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة ، وزفرت زفرة انتفخ معها صدرها فعلاً بها الترس الذي كان يغطيه ، وتذكرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ السلّة حين نكتت بوعدها وتطلعت إلى ابن إله ليمنوس^(٨٦) الذي لم تلده أم ، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله ميركوريوس ويعرفان أختها الشقيقة وبثروة ضخمة أيضاً حين تتلقى الذهب الذي دفعته شراعتها إلى أن تطالب به ، فتوجهت الإلهة إلى دار ربّة « الحسد » ، تلك الدار الحقيرة المعتمدة الكريمة ٧٦٠ الرائحة الرطبة التي لا تشتعل فيها نار قط ، ويحتم عليها الظلام الكثيف من حواليتها ، حتى إذا بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها ، إذ لم يكن لها أن تستظل بسقفها^(٨٧) ، وطرقت الباب بطرف رمحها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التي كانت منهمكة في التهام وجبة من لحم الثعابين ، وهو طعامها الوحيد الذي كان غذاء لروحها الشريرة . وأشاحت منيرفا بوجهها عند رؤيتها ، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة بقايا جثث الأفاعي وتقدمت بخطوات متثاقلة ، فلم يكدها بصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطبت جبينها . وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً ، وثمة حَوْل في عينها يحرف نظرتها إلى الأشياء ، وأسنانها مهشمة حائلة اللون ، تنفث من صدرها نفاثة خضراء ، ويظهر لسانها سماً زعافاً ، لا ترتسم على شفيتها بسمه إلا حين تشهد آلام الغير ، لم تلق في

حياتها طعم النوم المريح ، فقلقها وهمومها تركها ساهدة ، وتزداد هزالا كلما وقعت عينها الزائفتان على أحد يزداد ثراء . كانت شقاء على نفسها كما كانت شقاء على غيرها ، وكان ذلك عذابها الدائم . ٧٨٠

ومع أن تريتونيا^(٨٨) كانت لا تأبه بها فقد اتجهت إليها قائلة في إيجاز : « إن ما أريده منك أن تنفسي سُمك في صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكرويس » ، وضربت الأرض برمجها دون أن تضيف كلمة واحدة وحلقت عالياً في الأجواء تاركة الأرض . ونظرت ربة الحسد إلى الإلهة شزراً وهي محلقة حتى غابت عن نظرها ، وهممت حاقدة على ما سوف تحققه هي لمنيرفا من توفيق ، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك والتفت بالنعيم المعتمة وانطلقت ، فإذا الحقول التي مرّت بها قد غابت فصرتها ، وإذا الأعشاب تصبغ هشيماً ، وإذا الأشجار قد ييسر أوراقها ، وإذا البشر تحس بتعاسيتها ، وإذا مدنها ودورها خراب ، إلى أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية ، حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة . وكانت كلما نزعت نفسها إلى البكاء كبنت تلك النزعة في نفسها لأنها لم تر من الأحزان بعد ما يكفي لأن يبعث في عينيها الدمع .

٨٠٠ وحين دخلت على ابنة كيكرويس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدفة^(٨٩) ، وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سناً زعافاً في أنفاسها ما لبث أن سرى في عظامها ورسيتها ، وصورت لها - كي تثير شقاءها - أختها سعيدة بزواجها من الإله الذي أضفت عليه صفات الجبال كلها حتى تثير غيرتها . وأحسّت ابنة كيكرويس غيرة خفية تنهش قلبها ، وأصبحت تعاني العذاب آناء الليل وأطراف النهار وتزفر زفرات متصلة ، وما لبثت تعاسيتها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت وهج الشمس المخفية وراء الغيم . وكانت سعادة هيرسي تفعل بأجلاوروس فعل الجلذوة أو النار الدفينة دون أن يظهر لها بريق . وكما تمت الموت حتى لا تشهد عينها سعادة أختها ، وخطر لها أن تشي بسر أختها لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب ، ثم افترشت أخيراً عتبة أختها لتحول بين الإله وبين الدخول . ومضى الإله يتملقها بعبارات كلها إطراء ورجاء ، ولكنها لم تلق بالاً لقوله وصاحت به : « كفى ، فلن أترك مكاناً حتى أحملك على البعد من هنا » . وأجابها الإله قائلاً : « ليكن ما تشاءين » ، ثم ما لبث أن لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له . ٨٢٠

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هي تمجد أطرافها قد خُدرت وباتت ثقيلة فلم تستطع أن تنهض من جلستها . وعيثاً جاهدت كي تقف لكن رُكبتها كانتا خامدتين ، وسرت في جسدها برودة شملت أطراف أناملها وجمد الدم في عروقها فشحب لونها . وتسَلَّلت إلى جسدها شيئاً فشيئاً برودة الموت ، فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام ، واستحالت تمثالاً من الحجر فقد بياضه الناصع وغشاه سواد كالح أضفته عليه روحها .

أوروي

وبعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاروس على ما كان منها رحل عن البلاد التي اشتقت اسمها من اسم باللاس ، وحلّق عاليّاً في السماء يضرب بجناحيه في الهواء . وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يكتنه له من حب ، وإنما قال له : « انطلق يا ولدى ورسولى الأمين هابطاً إلى الأرض بما تملك من سرعة ، واقصد البلاد التي إلى يسارنا والتي ترفع أبصارها إلى نجم أمك »^(١) ، والتي يُطلق عليها سكانها اسم مدينة « صيدا » ، وسوف تلقى قطعياً من ماشية الملك يرعى حشائش الجبل على مسافة بعيدة ، فسُق هذا القطيع الملكى إلى الشاطئ » .

وما إن انتهى من حديثه حتى كانت الثيران قد أبعدت عن الجبل واتجهت كما أمر صوب الشاطئ ، حيث كانت ابنة الملك الشهير قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة « صور » .

الملك والحُب لا يتواءمان ويستحيل أن يشارك أحدهما الآخر مكانه . من أجل هذا تخلى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه ، وهو حامل الصاعقة ذات السنة الثيران الثلاثة في يده ، وهو من يهتز الكون كله بإشارة من رأسه ، وتخفى في صورة ثور واختلط بالثيران وشاركهم خوارهم ورعى معهم فوق الحشائش الغضة ، وكان لون جلده أبيض كالثلج الذى لم تطأه قدم ولم تبكّه نفثات ريح الجنوب الرطبة . وكان عنقه منتفخ الأوداج ، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنهما جيلان يتألقان تألق دُرّتين حتى لتجزم أنهما مع صنّع فنان ، لا تلوح الرهبة على رأسه ، ولا تحرك نظرات عينيه الخوف ، بل تشيع في وجهه الوداعة . وسرعان ما أعجبت ابنة أجيونور بوسامته ووداعته ، وكانت قد توجّست خيفة في مبدأ الأمر من لمسه رغم لطفه ، ثم ما لبثت أن اقتربت منه بعد قليل ، وقطفت زهوراً بيضاء قرّبتها من شفّيته . فبعث ذلك السرور في قلب عاشقها مرتقباً ظفّره بالتمتعة التي يهفو إليها ، واجترأ بتقبيل يديها حاسباً في نفسه ما يطمح إليه من نيل بغيته التي يتطلّع إليها ، وأخذ يلهو فوق الخضرة ويتقلب على الرمال الصّفر بجسده الناصع البياض ، وأُنسّت به الأميرة شيئاً فشيئاً ، وأخذ يقُدّم لها صدره تارة لترت عليه يديها البريثين ، وقرنيه تارة أخرى لتكَلِّلهما بالزهور النضرة ، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدري ظهر من تعلو . وابتعد الإله بها عن الشاطئ شيئاً فشيئاً بادئاً بوضع حوافره التي كانت بعض مظاهر تنكره على سطح المياه ثم خاض بها البحر إلى أن بلغ وسطه ، وهنا تملك الفرع الفتاة ، وأمسكت يدها اليمنى بأحد القرنين بينما وضعت يدها اليسرى على عجزه ، تاركة ثوبها للريح تعبت بها كما تشاء .

التعقيبات

- (١) في الأصل مولكبير وهو لقب من ألقاب فولكانوس .
- (٢) تربتون بن نبتون « پوزيدون » وأمفيتري ، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيربوس وپروتوس ، وكان يصور على شكل إنسان حتى خصره ، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج .
- (٣) پروتيوس حارس كلاب البحر للإله نبتون ، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكل في أى شكل يريد بهما في ذلك النار .
- (٤) أميجيون بن أورانوس وجيا ساعد جوبيتر عندما حاول نبتون وچونو ومنيرفا تقييده بالأغلال .
- (٥) دوريس هى بنت أوقيانوس وتيثيس وزوجة نيربوس وأم التيريداس الخمسين .
- (٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وقبة السماء نفسها المرصعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية پيثاجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض ثابتة لا تتحرك . أما فكرة تقسيم النجوم إلى إثنتى عشر برجاً على الطريق الذى تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين .
- (٧) تيثيس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيدس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر .
- (٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية پيثاجوراس في اتجاه مضاد لاتجاه الكون ، بدفع دورة الكون لها .
- (٩) يهدف أوفيد من ذكر أبراج الثور والرامي والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز للخاطر التى سيمر بها فايثون . وكان « الرامي » يصور عادة على شكل قنطور يرمى بقوسه . لذلك سمي بالقنطور الهاميون وهو اسم من أسماء ئيساليا ، الوطن الأسطوري للقنطور .
- (١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكتوبون من ترديد اسمى نجمة الصبح « لوسيفر » باللاتينية و« فسفوروس » باليونانية أى حاملة الضوء ، مع أنها ليست في الواقع سوى كوكبة واحدة هى الزهرة .
- (١١) يعنى اسم الجواد ليوبوس « الشرقى » باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس . أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبريق في آن واحد .
- (١٢) ملك لئيبويا وزوج كليمينيه أم فايثون .
- (١٣) جبل آئوس في مقدونيا .
- (١٤) جبل تاوروس في جنوب آسيا الصغرى .
- (١٥) جبل تمبولوس في ليديا بآسيا الصغرى .
- (١٦) جبل أويتا في جنوب ئيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه .
- (١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما في كريت حيث ترعرع جوبيتر ، والآخر بجوار طروادة .
- (١٨) جبل هيموس في طراقيا .
- (١٩) بركان إتنا في صقلية .

- (٢٠) جبل إيريكس في صقلية .
- (٢١) جبل كيثوس في ديلوس التي ولد بها أبولو وديانا .
- (٢٢) جبل أوتريس في جنوب نيساليا .
- (٢٣) سلسلة جبال رويدوى في جنوب طاراقيا ، وهى الآن جزء من بلغاريا .
- (٢٤) جبل ميساس في شبه جزيرة تواجيه جزيرة خيوس .
- (٢٥) جبل دينديا في فريجييا .
- (٢٦) ميكالى شبه جزيرة تواجيه جزيرة صاموس .
- (٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتিকা وبويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية .
- (٢٨) جبال سكثيا بالقوقاز .
- (٢٩) جبال أوسا وبيندوس وأوليمبوس في نيساليا . ويضيف أوليفد إلى هذه الجبال اليونانية جبلاً إيطالية هى سلسلة جبال الألب والإبين .
- (٣٠) ثمة بتاييع كثيرة في بويوتيا تحمل اسم ديركى زوجة ليكوس ملك طيبة اليونانية .
- (٣١) لجأت أميمونيه إحدى بنات دانائوس إلى أرجوس في فترة قحط واقتربت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستنجلت ببوزيدون الذى طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثى الشعب إلى صخرة ما لبثت أن تفجرت منها المياه .
- (٣٢) إثيرى هو الاسم القديم لكورنث حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم بيرفى ، ويروى أن أحدهما نبع من ضربة حافر الجراد ييجاسوس المجنح .
- (٣٣) نهر تانليس هو نهر الدون الحالى في روسيا .
- (٣٤) نهر بينيوس في نيساليا .
- (٣٥) نهر كايكوس في آسيا الصغرى .
- (٣٦) نهر إسمينوس في بويوتيا بالقرب من طيبة .
- (٣٧) نهر زانتوس هو النهر الطروادى الذى ذكر هوميروس في الإلياذة أنه كان يهدد أخيل بالموت .
- (٣٨) نهر ليكورمارس في غرب اليونان .
- (٣٩) نهر ميناندر في كاريا بآسيا الصغرى .
- (٤٠) نهر ثرمودون بمملكة پونتوس الواقعة في آسيا الصغرى والتي تغل على البحر الأسود .
- (٤١) نهر فازيس في كوخيس على الشاطئ الشرقى من البحر الأسود حيث الكرج الآن .
- (٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب .
- (٤٣) نهر ألفيوس أهم نهر في المورة .
- (٤٤) نهر سبيرخيوس في أواسط اليونان .
- (٤٥) نهر مايوتيا في ليليا بآسيا الصغرى .
- (٤٦) نهر كايستر في ليليا المشهور ببيجمه .
- (٤٧) نهر الهير هو نهر ماريستا في طاراقيا .
- (٤٨) نهر سترعون هو نهر ستروما في طاراقيا .
- (٤٩) جبل ليزماروس على الشاطئ الجنوبي لطاراقيا .
- (٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوروبا الغربية ، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية .
- (٥١) هى جزر السيكلاذ .
- (٥٢) أطلس بن المردة التيتان وكان قد أسر في حزنهم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد .
- (٥٣) نهر ليريديانوس هو نهر الرون في رأى البعض ، ونهر الهو في رأى البعض الآخر . ويقصد أوليفد هنا نهر الهو .
- (٥٤) اتخذ أوربيديس من أسطورة فايثون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت .

(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وبلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحور . ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحيوان الوشق من فصيلة السنانير ، بينما يميل أوفيد إلى الرأي الأول كما يبدو من النص . وما يلفت النظر أن الكهرمان في روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة .

(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تقطن الشاطئ الشمالي الغربي من إيطاليا .

(٥٧) إيريدانوس نهر أسطوري اقترن أحياناً بنهر البو وأحياناً أخرى بنهر الرون .

(٥٨) كان لجوبيتر معبد شهير فوق جبل ليكاويس في أركاديا .

(٥٩) ربة مفترقات الطرق المسماة تريشيا هي في واقع الأمر هيكتا أخت ليتو ، وكانت إحدى الإلهات المتصلة بالقمر ، الأمر الذي أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التي كانت بلورها يخلط بينها وبين فوبيه ، والراجع أن أوفيد يقصد ديانا في هذا النص . أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس في أركاديا للإله بان إله الطبيعة .

(٦٠) ديكيتينا لقب من ألقاب الإلهة الكرنتية بريتماريس التي كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرتيس « ديانا » .

(٦١) كاليستو هي ابنة ليكاوون الذي سبق أن عرفنا نحوله إلى ذئب في الكتاب الأول . وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكاويس إلى جوار طقوس بان حتى حلت محلها عبادة جوبيتر وحده .

(٦٢) ليومانتوس سلسلة من الجبال في أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للمخنزير البري فوقها . وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيها بعد على كاليستو بعد أن تحولت إلى دبة ثم إلى ثريا في السماء .

(٦٣) هما اللب الأكبر وحارسه اللب الأصغر ويطلق عليها « السكاك » .

(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التي تمزج إلى الأوز الذي كان يرثيه جند قلعة الكايتولينيوس الفضل في إيقاظ الجند وتنبيههم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة .

(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطئ أطلقت على أتিকা ، وهذا هو ما يعنيه أوفيد .

(٦٦) كيكروبس هو البطل الأسطوري لمدينة أثينا فهو ابن إله الأرض ، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى .

(٦٧) أي البومة طائر منيرفا المقدس .

(٦٨) هي بنت نكتيس ملك جزيرة لسبوس ، واضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشافة وقد حولتها الإلهة أثينا [منيرفا] إلى بومة رفقا بها وجعلتها تراقفها دائماً . وما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوفيد من خطبة مائلا عزاه الشاعر كاليماخوس إلى نفس الطير في قصيدته الطويلة « هيكاك » التي نسب فيها الشاعر خطباً للطيور .

(٦٩) هذا الابن هو إسكليبيوس الذي سيروى أوفيد قصة رحيله من إبيداوروس إلى روما في الكتاب الخامس عشر .

(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وفيليرا بنت أوقيانوس . واشتهر بأنه تعهد أخيل وإسكليبيوس بالتربية والرعاية ، وكان للقنطور وجه إنسان وصدوره فوق جسد حصان .

(٧١) معنى أوكروبيه باليونانية التيار الجارف .

(٧٢) خاريكلو هي بنت أبولو .

(٧٣) كان مقدراً لإسكليبيوس أن يرد الحياة لهيبوليتوس [انظر الكتاب الخامس عشر] .

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبيعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس في دم الهيدرا فأصابه بالأم مبرحة جعلته يناشد الآلهة تخريده من الخلود ليستريح من عذابه فاستجابت الآلهة له وحولته إلى كوكبة في السماء .

(٧٥) هومييه أي المهرة .

(٧٦) ليس إقليم في غرب المورة يشمل مدينة أوليمبيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .

(٧٧) مسينيا مقاطعة بشه جزيرة المورة .

(٧٨) بيلوس مدينة بشه جزيرة المورة .

(٧٩) صخرة قائمة بجوار بيلوس . وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذي يدل على وجود الذهب .

(٨٠) أحد الموانئ الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليريون .

- (٨١) ممشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقي فيه دروسه الفلسفية ، وهو أصل كلمة « ليسيه » الفرنسية التي تعني مدرسة .
- (٨٢) معناها أرض الشواطئ وهو اسم قديم لأثينا .
- (٨٣) كان من صفات هذا الصوبان الشهير أنه يلقي النعاس في الناس ويثير الأحلام وفق مشيئة ميركوريوس .
- (٨٤) كان الذئب المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية في الزخارف والترصيع وقتذاك .
- (٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكرويس ملك أثينا . ويقال إن منيرفا كانت ترعى إريخثونيوس بن فولكانوس وأخفته في خزانة سلمتها إلى بانديروسوس وأمرتها ألا تتطلع إلى ما تحويه فاطاعت بانديروسوس ، غير أن شقيقتها أجلاوروس وهيريس فتحتا الخزانة ، ولما شاهدتا الطفل بالخزانة تلتف من حوله الأفاعي أصعبتا بالجنون ، وألقتا بنفسيهما من فوق الأكروبول .
- (٨٦) كان فولكانوس من أهل ليمنوس في الأصل .
- (٨٧) خشية أن يمسه الضرر .
- (٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرفا . ويرى البعض أن التريتون جدول صغير في بويوتيا ترعرعت على ضفتيه الإلهة في صباها . ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة في ليبيا .
- (٨٩) هو لون ذواعى ربة الحسد رمز كل ما هو شرير .
- (٩٠) كان ميركوريوس هو ابن مايا بنت أطلس ، وتشكل أمه مع أنصواتها كوكبة في السماء ، وعلينا أن نفترض أن جوبيتر يستطع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق .



الكتاب الثالث

كادموس

بين بساتين كريت جلس جوبيتر يستريح وقد تخلص من صورة الثور التي تنكر فيها ليخدع الأميرة وظهر لها في صورته الحققة . ولم يكن الملك أجينور قد عرف شيئاً عما حدث لابنته ، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعداً إياه بالنفى إن عاد دونها . وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً كان أيضاً أبا قاسياً لا يرحم .

وراح كادموس يضرب في أرجاء العالم ، ولكن أنى له أن يعرف ما يُخفي جوبيتر ؟ ومضى بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه ، ثم حجَّ إلى معبد الهاتف الإلهي لأبوللو يضرع إليه أن يرشده إلى المكان الذي عليه أن يستقر فيه ، وأوحى إليه فوبيوس قائلاً : عليك بالمراعى النائية فسوف تقع عينك على بقرة لم يُشدَّ

إلى عنقها نير ولم تضق بجرّ محراث معقوف ، فامض في إثرها واتبعها حيث تسير ، وحيثما تقف شيد أسوار مدينتك وسمّها بويوتيا^(١)

وما كاد كادموس يبتعد عن غار كاستاليا^(٢) حتى أبصر بقرة تنهادى بلا حارس وليس على عنقها أثر لنير ، فتبعها ومضى في أثرها بخطى متصلة وهو يتمتم بحمد فويوس الذي هداه إلى الطريق . وبعد أن عبر غحاضة سيفيسوس وحقول بانوبى ، توقفت البقرة ورفعت نحو السماء جبينها الجميل المزدان بقرنين طويلين وأرسلت خواراً تردّد صدها في الجو ، ثم تلفّت وراءها ترى من يتبعها وخرّت على ركبتيها واستلقت على العشب الناعم ، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وقبّل أرض الغربة ، وحيّا الحقول والجبال التي لم يكن له عهد بها من قبل وتأهب ليقدّم قرباناً لجوبيتر ، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا منه ماء يسكبه قرباناً للأرباب .

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة ، يتوسطها غار تكسوه صفصافة كثيفة ، وتشكّل جدرانها الصخرية قبوا منخفضاً يتدفّق من تحته ينبوع ثرّ . وكان بالغار أفغوان مارس الداكن الزرق ، يعلو رأسه عُرْف ذهبي ، وتتوهج عيناه ناراً ، ويزخر جسده بالسّم الزعاف ، وفي فمه ثلاثة صفوف من الأسنان ولسان ذو شعب ثلاث .

ودلف الرّحالة القادمون من بلدة صور إلى الغار المشعوم ، وأخذوا يفترون الماء بجرارهم ، فأزعجوا الثعبان الذي نفّض رأسه من غور الغار ، وفجّ فحيحاً مخيفاً جعل الدم يجمد في أطراف الرجال فسقطت الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الفزع ، وأخذ الثعبان يزحف إليهم تنضمّ في زحفه حلقات جسده الحرشفيّ ثم تنفرج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج ، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظّل على الغابة كلها ، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتى الدّين الأكبر والأصغر . وأسرع فهاجم الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيّتها يأخذون ، أيسدّون حراهم أم يهربون ؟ وانطوى الثعبان على نفسه ثم قفز فصرعهم وتركهم بين ممزّق بأنياه أو معتصر بتلافيفه أو محترق بأنفاسه المسمومة .

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجيونور يتساءل قلقاً عما أبخر رفاقه ، وراح يبحث عنهم مرتدياً جلد أسد حاملاً رمحه وحرته المتألقة النصل متقدماً في شجاعة لا يعوزها سلاح . فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من لسانه قطرات الدم وهو يلحق جراحهم ، فصاح كادموس : « لأنقمن لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو لألحقن بكم » . ومال على صخرة هائلة وطوّح بيمينه في قوة لو أنه ضرب بها سور حصن شامخ لزعرعت أركانه ، ولكنها لم تصب الثعبان القوى الجسد السميك الجلد بأذى ، إذ كانت حراشفه بمثابة الدرع الواقي ، وارادت الحجر بعيداً بعد أن دفع به جلده الأسود ، فسدّد إليه رمحه فإذا هو يخترق الجلد وينفذ إلى الأحشاء عند منتصف الظهر ، واستدار الثعبان وهو يئن ألماً ، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوى على

استخراج فصل الرمح غير أنه لم يقو على استخراج النصل المستقر في عظمه ، وانتفخت عروق الثعبان بالسم الذى طفق على فكّيه بزبد الأبيض ، وأخذ يحك الأرض بحراشيفه وينث في الجوانفاسه التي تبدو ٨٠ وكأنها النهر في تدفقها ، ثم يحلق حلقات تبدل وتتشكل ، فيبدو كالشجرة المنتصبه حيناً أو كالنهر المتدفق في جريانه ثم الأمطار حيناً آخر ، ويطيح صدره بالأشجار التي تعترض طريقه . وتراجع كادموس قليلاً إلى الوراء متلافياً هجمات الثعبان محتماً بجلد الأسد الذى يرتديه شاهراً في وجه الثعبان حربته التي كان الثعبان يعضها عضات لا تنفذ فيها ، وما لبث الدم أن أخذ يسيل من فمه مختلطاً بالسم ملوئاً الحشائش الخضراء . وأثنى الجرح الثعبان وتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقة ، ولكن كادموس ظل يلاحقه يريد أن يلغمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره ، وأنفذ كادموس الحربة في حلقة فأثبت رأس الثعبان في جذع الشجرة التي انثنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالآنين تحت ضربات الثعبان لها بذيله التي كانت تشبه ضربات السياط^(٣) .

وبينما راح كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يقول له : مَالِكُ تُحْمَلِقُ في الثعبان الذى أردته ، لسوف يأتى يوم يتطلع إليك الناس فيه أيضاً وقد استحلّت ثعباناً^(٤) . وعندها سرى الفرع في جسده وهرب الدم من وجهه وفقد وعيه وارتعدت أطرافه . وما لبثت ١٠٠ بالاس راعية كادموس أن ظهرت ، وطلبت إليه أن يحرق الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغزو بذور شعبه الجليل . وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بذر فيها أنياب الثعبان . وحدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أخذ سطح الأرض يضطرب ، وبرزت البذور في شكل رهوس رماح تعلو وسط الأخاديد ، وظهرت خوذات يهتز من فوقها الريش المختلف الألوان ، وتبعثها الأكثاف والصدور والأذرع حاملة الحراب ، وامتلأ الحقل بنبت من الجنود المسلحين بتروسهم . وفزع كادموس حين رأى هذا العدد المهيول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه مستعداً للنضال ، فصاح به أحد المحاربين الذين أنبتهم الأرض قائلاً : « لا تشهر سلاحك ، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القبل » ، وسرعان ما أغمد هذا المتحدث ١٢٠ سيفه في جسد واحد من أخواته النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح سُدّ إليه من بعيد ، ولم يعيش قاتله طويلاً إذ أسلم بدوره الروح التي لم يكن قد مضى على نبضها في جسده لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضاً حتى أفنى الصراع جميع الأخوة الذين لم يطل عمرهم أكثر من لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث الموتى تتلوى فوق صدر الأرض أهمهم التي أدفأها دماؤهم الساخنة . وكانت بالاس قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو « إخيون »^(٥) أن يضع سلاحه فاستجاب لها ووعدها ألا يقتل وطلب إلى إخوته الأربعة أن يفعلوا فعله . وفي صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيد مدينته التي أوصاه الروحي بمعبد فويوس ببنائها^(٦) .

وشُيّدت مدينة « طيبة » ، وفيها بدا لكادموس أنه قد ظفر بالسعادة في منفاه ، فقد بنى بالنيلة هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة فينوس ، ورزق منها بآبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً أغراء أقاموا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التأخى بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبوا عن الطوق وصاروا رجالاً .

ولكن على المرء أن يتلَبَّث حتى آخر يوم من حياة الإنسان ولا يحكم عليه سعادة أو شقاء ، إلا بعد أن يموت ويوارى التراب .

أكتايون

١٤٠ كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعث أول حزن عانيت منه وسط السعادة التي رفلت في حُلُلها ، فقد نبت له قرنان في جبهته على غير مألوف الصورة البشرية ، وأنتم أيها الكلاب كنتم مصدر تعامته حين ولعتم في دم سيدكم . ولو أنا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد ذهب ضحية القضاء والقدر ، وأنه لم يذهب جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلَّ طريقه فتكون ثمة جريمة ؟

وقع ذلك الحادث فوق جبل تخضب سفحه بدماء الحيوانات المفترسة المتنوعة ، وفي ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس^(٧) برفاقه الهائمين على وجوههم في الأدغال في رفق ولين « أيها الأصدقاء ، لقد لَوُثت دماء الوحوش التي اقتنصناها اليوم شباكنا ولطّخت سيوفنا ، وأصبنا من النجاح ما يكفيننا ، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تتعلّى أورورا ربّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعا بيوم جديد . فلنكفّ عن الصيد الآن ولنجمع شباكنا الموثقة العُقد ، فقد توسّطت الشمس كبذ الساء وأخذت حرارتها تشقّ أرض الحقول » ، ورحّب أصحابه بقوله فلم يُتابعوا الصيد المُضنيّ .

١٦٠ وكان ثمة واد تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسرّو المدبّبة ، وكانت ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير تلجأ إلى هذا المأوى المسمى جارجافيه ، إذ كان بأعماقه غار لم تتناوله يدُ فنان بشري غير أن الطبيعة قد خلّفت فيه ما يشبه الأعمال الفنية ، إذ نحتت قبوة طبيعية من حجر الخفاف البركاني وحجر التوفة المسامي . وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنتشر على صورة غدير فسيح تحتضنه شواطئ سندسية . وما أكثر ما كانت الإلهة تفد إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد في الغابات فتستحم فيه أو تنلّي أطرافها العلرية في مائه النقيّ .

١٨٠ أوت الإلهة إلى الغار وأسلمت رمحها وقوسها وجعبة سهامها للحرورية المكلفة بحمل سلاحها . وحملت حرورية ثانية رداءها على ذراعها ، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها ، وتقدّمت وصيفة أشدّ مهارة هي كروكالي ابنة نهر إيزمينوس فضمّت صفيق الإلهة المتدلّيتين على كتفيها وعقدتها معاً خلف رأسها وتركت هي شعرها ينسدل مُرسلاً ، وانطلقت الحروريات نيفيل وهيال ورائيس وبسيكاس وفيالي يحملن الماء في جرار كبيرة ويضّبنّه على سيدتهن^(٨) .

وبينما كانت ديانا تستحم على عادتها في الغدير كان حفيد كادموس قد ترك الصيد وأخذ يخطو متردداً خلال هذه الغابة التي لم تسبق له رؤيتها حتى بلغ الغار ، وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه ، ولم يكد يصيبه

رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن وملأن الغار بصراخهن ،
وتحلقن حول ديانا ليحميها بأجسادهن غير أن طولها جعلها تبرز فوقهن جميعاً برأسها وعنقها . وحين تبينت
ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجتها بحمرة السحب التى تنعكس عليها
أشعة الشمس الساقطة عليها أو بحمرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان . ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن
يسترنها إلا أنها انزوت جانباً وأشاحت بوجهها ، وتمتد لحظتها لو كانت ممسكة بسهامها ، فأخذت قليلاً
من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فعم شعره ، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصير المشوم قائلة :
« رُح الآن وارو إن استطعت أنك شاهدتني وأنا عارية بلا ثياب ؟ » ولم تضيف إلى قولها شيئاً آخر ، فنبت ٢٠٠
قرناً وغل معمر فى جبهته التى ابتلت بالماء ، وطالت رقبته ودقت أطراف أذنيه ، وتمولت يدها قدمين
وذراعاه إلى ساقين طويلين ، واكتسى جسده بجلد أرقش وحل فى قلبه الرعب . وحين رأى الماء يعكس
صورة وجهه بقرنيه هم أن يأبى ، غير أن شفتيه لم تتحركا بكلمة فجعل يثن ، وكانت هذه هى لغته
الوحيدة التى بقيت له . وانهمرت الدموع من عينيه مبللة وجنتيه المسوختين ، وأخذ يفكر بعقله وكان هو
كل ما بقى له . ماذا تراه فاعلاً ؟ أيعود إلى القصر الملكى أم ينجىء فى الغابات ؟ وبينما هو متردد فيما يفعل
خجلاً من العودة إلى القصر وخوفاً من البقاء فى الغابات إذا كلباه ميلامپوس وإخنوباتيس المفردان بقوة
شمهما يحيطانه بنباحهما ، وأولها من سلالة اسيرطية وثانيهما من سلالة كريتية ، وجرت فى إثرهما فى سرعة
الريح العاصفة سلالات مختلفة من الكلاب ، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية ،
ومنها نيبروفونوس القوى وثيرون التوحش ولايلاس الشرس وپترلاس السريع العدو ، وأجبرى القوى
الشّم ، وهيلايوس الذى أصابه خنزير برى بجرح ، ونابى الذئبى السلالة ، وپومپينيس حارسه القطعان
وكذا الكلبة هارپيا وجرواها الصغيران ، ولادون الهزيل الوافد من سيكيون ودروماس وكناسيه وستيكتي
وتيجريس والكى ، وليوكون الناصع البياض وأسيبولوس الخالك السواد ، ولاكون الخارق القوة وأيلو
الذى لا يمل العدو ، وثويس وليكيسكى السريعة العدو وشقيقها القيرصى هارپالوس ذو الغرة البيضاء ،
وميلانيوس ولاخنى الكثيفة الشعر ، ولبروس وأجريدوس وهما كلبان من سلالة مهنجة من أم كريتية وأب ٢٢٠
اسيرطى ، وهيلاكور العالى النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسائنها^(٩) ، وامتلات الكلاب حاسة لوقوعها
على فريسة ، فخاضت الرى والصخور التى لم يصل إليها أحد من قبل والتى يشق بلوغها . وأسرع أكتايون
هارباً من الكلاب التى تطارده مندفعاً فى الأماكن عينها التى كان يتعقب فيها صيده . ألا ما أتعسه . . . لقد
أصبح يترّب من كلابه هو ، وتمنى لو ملك أن يصبح فيها : « أنا أكتايون ، ألا تعرفوننى ؟ » غير أن الكلام
لم يسعفه . امتلأ الجو نباحاً وأدركت ميلانختيس سيدها وكانت أول من عملت أسنانها فى ظهره ، ثم
تبعها ثيريداماس ، وأنشب أوريزيتروفس أسنانه فى كتف سيده . ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد
خرجت متخلفة عن رفاقها لكنها سبقتها لولوجها طريقاً قصيراً ، وطرحت سيدها أرضاً بينما تجمعت بقية
الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلا ممزقاً . وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت
بشر ولا هو صوت وعل وقد ملأ نحيبه الجبال ، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسلاً ، ومضى ينجى ٢٤٠
رأسه يئمة ويسرة فى صمت ضارع عاجزاً عن بسط ذراعيه ، بينما أخذ رفاقه الذين كانوا معه يصيحون فى

الكلاب يستحثونها على الفتك بفريستهم جاهلين حقيقتها ، يصيحون باسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه وسطهم ، وكل واحد منهم ينافس زملاءه في الصباح ، وغمرهم الحزن لأن قائدهم لم يشهد فريستهم التي أوقعها الحظ بين أيديهم ! وكان أكتايون يدير رأسه كلما سمع اسمه متمنياً لو أن ذلك لم يقع له ، وأنه لم يكن فريسة أنياب كلابه النهمة ، بل وكم تمنى لو كان كغيره من المستمتعين بذلك المشهد ، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنهشه بأنيابها حتى لحقت حياته فسكن غضب الربّة ديانا حاملة جعبة السهام^(١٠) .

سيميليه

وحيث بلغت القصة أسباع الناس اختلفوا بين ممتلح طهارة ديانا وحفاظها على عفتها وبين أخذ عليها قسوة عقابها ، وكان لكل فريق من المتحاجين ما يسانده . وقد لزمت زوجة چوپيتر وحدها الصمت وأمسكت عن المذبح أو القدح ، غير أنها كانت في أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التي حلت بال أجينور ، ذلك أنها كانت تطوى صدرها على حقد دفين لأسرة أوروبا منافستها الفينيقية من مدينة « صور » .

ثم ها هي چونو تلقى حدثاً جديداً يضيف مزيداً إلى غضبها القديم ، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سيميليه ابنة كادموس قد حلت ببذرة چوپيتر العظيم ، فأخذت تحدث نفسها قائلة بلسان يتشوّف للنيل من الغير : « أية فائدة جنيتها من تأنيب زوجي المرّة تلو المرّة ؟ إن على أن أنزل عقابي هذه المرة بالفتنة نفسها ، أو لست أنا چونو الشديدة البأس كما أعرف بحق ، أنا الجديرة بحمل الصولجان المرصع بالجواهر ؟ أو لست ملكة السموات وأخت چوپيتر وزوجته ؟ بلى إنني في الحق أخته ، ولكن لعل البعض يلتمسون العذر لغريمي بأنها قد قنعت بلقاءات حب في الخفاء ، وأنها لم تعتد على حرمة فراشي إلا في نزوة عابرة . ولكن هل كان ينقصنا هذا العار الجديد ؟ إنها تحمل في أحشائها دليل جرمها ، إنها تطمع في أن تصبح أما بفعل چوپيتر نفسه ، وهو ما عجزت أنا عن الظفر به . ألا ما أشد ثقتها بجهاها ! ولعمري لأثبتن لها ضلال ثقتها ، ولن أكون جديرة بأن أسمى ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغوص في مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوپيتر نفسه » . ثم نهضت عن عرشها وتلفعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه ، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تخفّت في صورة عجوز يظهر الشعر الأبيض في فوديا وتغلا التجاعيد بشرتها وقد احلودب ظهرها واهتزت خطاها وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة ، وبدت في صورة شديدة الشبه بصورة بيروى الإييدأورية مرضعة سيميليه .

وانخرطت في حديث طويل مع سيميليه عرجت في نهايته على چوپيتر ، وزفرت زفرة عميقة وهي تقول : « لكم أتمنى أن يكون چوپيتر حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكاً كبيراً يؤرّفني ، فكم من رجل تسأل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله ، وأيا يكن فإن ادعاه بأنه چوپيتر لا يكفي

ولابد أن يقدم الدليل على حبه ، فاطلبى إليه أن يظهر لك في صورته مجللاً بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها
لجئونو فى السماء ، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يتلفّع بعباءة الألوهية » .



پیکاسو: جوپيتر وسيميله

ونجحت چونو بحديثها في أن تستثير ابنة كادموس التي لم تشك في صدقها . وسألت الفتاة چويتر أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه ، فوعدها الإله قائلاً : « سلى فلن أرّد لك طلباً حتى أثبت لك أن بوسعك الثقة بي ، وإنني أشهد على ذلك أرباب نهر ستيكس الجارف الذي تهابه الآلهة أنفسهم » . وامتلاً صدر سيميليه بالفرحة لظفرها بوعده لا تدرى أن تحقيقه سيحمل لها الهلاك وقالت : « فلتظهر لي كما تظهر لچونو ساعة تطارحها الغرام » ، وحاول الإله إمساك شفيتها عن الكلام ، غير أن عبارتها العجلة كانت قد طفرت من فمها وانتثرت في الهواء ، فاشفق عليها چويتر بعد فوات الأوان الذي كان يستطيع فيه ردها عن طلبها فلا يحقق لها ما وعددها ، وصعد في أجواء الفضاء مُثَقَلًا بالحزن العميق ، وأوماً للضباب فتجمعت عليه السحب والبرق والرياح والرعود والصاعقة التي لا يفلت منها أحد ، على أنه حرص على حمل أقل قدر ممكن من قواه وتخفّف من حمل النيران التي أهلكت تيفويوس ذا المائة يد^(١١) ، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضراوة من تلك الصواعق التي لا تبقى ولا تذر ، فقد كانت في حوزته صاعقة استطاعت أيدي الكيكلوبيس أن تدخل في تكوينها قدرأ أدنى من غضب الآلهة وقسوتهم ، وجعلها الآلهة من صواعق المرتبة الثانية . ودخل چويتر بهذه الصاعقة إلى دار أسرة أجينور ، غير أن جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمل الإشعاعات التي تنبعث من صاعقة الإله فاحتقرت وأصبحت رملاً بفعل هدية زفافها ، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه . وإذا كان لنا أن نصدّق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد وضعه على فخذه وهو ما يزال مُضْبَغاً ثم خاطه فيها حيث بقي شهور الحمل ، ثم حضنته خالته إينو^(١٢) حتى عهدت به إلى حوريات نيسا^(١٣) اللاتي خبّأن في غارهن وأخذن يغذّينه باللبن .

تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض لوفّق نواميس القدر ، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس] بن سيميليه - المولود مرتين - في حراسة أمينة ، ثمل چويتر بعد رشقات نكتاره الإلهي فحاد عن الجدّ وبدأ يمزج مع چونو ساعة استرخائها ، وقال لها : « إنكن معشر النساء لتجذّبن في لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التي يجدها الرجال » . غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يحتكما إلى تيريزياس الحكيم ويسلما برأيه ، ذلك أنه عرف لذات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى . فقد كان يحول يوماً في غابة خضراء ورأى ثعباناً هائلاً يواقع أفعى رهيبة ففرّق بينهما بضربة من عصاه . وفجأة وبيا للعجب ، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة ، وبقي سبعة أعوام وهو أنثى ، حتى كان العام الثامن وإذا هو يشهد نفس الثعبانين في نفس الوضعة التي كانا فيها قبل فحذّتها قائلاً : « لو أن هناك سحراً فعلاً قوياً يحيل من يضربكما من جنسه إلى الجنس الآخر فلأنني مبادر بضربكما من جديد » ، وقام بضرب الثعبانين مرة أخرى ، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعته التي وُلد بها . وذلك ما

جعل جونو وجويتر يحتكان إلى تيريزياس بعد مجادلتهما المازحة . وقد آيد تيريزياس رأى جويتر ، فغضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف وقضت على تيريزياس بأن يسندل جفناه على ليل سرمدى . ولما لم يكن في استطاعة إله إبطال عمل إله آخر فقد عوّض جويتر تيريزياس عن فقدته نور عينيه بمنحه قدرة التكهن بالمستقبل ، مخففاً بمنته تلك عنه ما أصابه من جونو من نقمة .

نارسيسوس وإكو

وكانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مسلّمة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته في مدن ٣٤٠ . وبويوتيا جميعاً . وكانت ليريوي حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحبه ، وكانت هي الحورية التي احتضنها ربّ النهر كيبيسوس وسط مجراه الملتوى واغتصبها وهي سجنية بين أمواجه فأنجبت طفلاً دعت نارسيسوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وجّهن . وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرم أجابها العراف العليم بالغيوب : « نعم إذا فطن إلى حقيقة أمره » (١٤) .

وقد ظل هذا القول فترة طويلة وكأنه لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التي تمثّلت في الهذيان الغريب الذي ألمّ بنارسيسوس وفي طبيعة الميتة التي لقيها . ذلك أن ابن كيبيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً ، وأخذ يحرك الرغبة في صدور الفتيات والفتيات معاً ، غير أن نعومة جسده اللدن كانت تخفي صلفاً عنيداً لم يتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودّد إليه . وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شباكه شدّ انتباه الحورية الثائرة « إكو » التي لا تطيق الصمت حين يتحدث الآخرون فتردّد دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبداً ، وكانت وقتذاك مازال محتفظة بجسدها لم تتحوّل بعد إلى مجرد صوت . ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرائر قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التي تقال أمامها . حدث هذا بلوادة جونو حين اكتشفت أن إكو كانت تعوق خطاها حين تذهب لمفاجأة زوجها جويتر وهو يضاجع الحوريات في الجبال ، إذ تنخرط معها في ٣٦٠ . حديث لا ينتهي تتمكن خلاله الحوريات من الإفلات . وحين فطنت جونو إلى مسلكها ثارت قائلة : « لسوف أحرمك قدرة هذا اللسان الذي خدعني ، فلا تهنيئني باستخدام صوتك إلا في أضيق مجال » . ونفدت جونو وعيها ، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير ترديد الكلمات الأخيرة من العبارات التي تسمعها .

ولم تكد إكو تلمح نارسيسوس جائلاً في الحقول النائية حتى اشتعلت في صدرها الرغبة وأخذت تتبع خطاه خفية ، تزايد مع اقترابها منه النار التي تتأجج في أعماقها أسرع مما تشتعل النار في الكبريت الذي يغطي رموس المشاعل . وكم تأقت أن تتقرّب إليه بكلمات تطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيج لها أن تبدأ حديثاً ، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار ما تسمع فقد أخذت تترقب أصواتاً تستطيع ترديدها .

وحدث أن صاح الفتى حين أبعدته خطاه عن رفاقه الأوفياء قائلاً : « أما من أحد هنا ؟ » ، وأجاب
 إكو مرتدة الصدى « هنا » ، فتوقّف نارسيوس مذهولاً وتلفت حوله ثم صاح بصوت عال : « هلم إذن »
 فردّدت إكو قوله ، فتلفت وراءه فلم يجد أحداً ، فصاح من جديد : « ماسرّ هذا التخفّي مني ؟ » ، ولكنه
 لم يسمع غير كلماته تردّد إليه ، فالتجّ في نداءه حتى ضاق بالصوت الذي خيّل له أنه يتجاذب معه الحديث
 فقال : « لنلتق هنا » . ولم يكن هناك ما يُدخل السعادة على الحورية أكثر من تردّد هذه العبارة ، فردّدت
 على الفور قوله : « لنلتق هنا » ، ودلّت على فرحتها بالخروج من مخبئها بين الأشجار وتقدّمت نحوه تعانق
 أملها المنتظر ، غير أنه أفلت منها صائحاً : « رُدّي ذراعيك اللتين تمديهن لعناقى ، فإننى أفضل الموت على
 أن أمتسلم لك » . ولم تردّد إكو إلا عبارة « أمتسلم لك » ، غير أنها أحسّت بالمهانة فغاصت في أعماق
 الغابة ، وأخفت وجهها العابس بين أوراق الأشجار . ومنذ ذلك الحين وهى تسكن الكهوف الموحشة ،
 وعاش حبها مع ذلك نابضاً في قلبها ، يتزايد ليهب تزايد آلام الصّد ، وحرمتها قلقها النوم فأصابتها الهزال
 وغطّت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جمالها ، ولم يبق منها إلا صوتها وعظامها ، غير أن عظامها ما لبثت
 أن تحوّلّت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردّد . ومع بقائها مخبئة في الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقى
 الجميع يسمعون صوتها في الجبال .

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التى سخر نارسيوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من
 حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشاقه الذكور ، غير أن إحدى الحوريات اللاتي صدّهن رفعت
 ذراعها متوسّلة إلى السماء أن يقع هو بدوره في شرك حب لا يخرج منه فائزاً . وسمعت نيميسيس^(١٥) ربّة
 مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل واستجابت له .

كان ثمة غدير صاف تتألق مياهه الفضية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه ، ولم ترّدّ مائه قطعان الماعز أو
 البقر التى ترعى العشب بالمراعى ، ولم يكن يقطع عليها هدوءها تغريد طير أو صباح وحش أو تساقط فروع
 الأشجار ، إذ أحاطت بها مروج كثيفة العُشب تسقيها المياه المجاورة فتمنحها إيناعاً دائماً متصلاً ، وتحميها
 من أشعة الشمس المحرقة غابات تلتفها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها رطبة على الدوام .

سأقت نارسيوس خطاه إلى هذا النبع بعد ما أضناه الصّيد المنهك ووقدة الظهيرة ليستريح في هذا
 الموقع الذى استهواه جماله وندى نسائته ، وقد مال على اليتبوع ليطفئ ظمأه فإذا هو يحسّ ظمأً جديداً .
 ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لَبّه فوقع في غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يعدو أن يكون
 ظلاً . وقد فتنته صورته فبقى يحمق في الماء بلا حراك ، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس .
 واضطجع على الشاطئ يتأمل عينيه الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس
 أو أبوللو ووجنتيه الملساوين وعنقه العاجى ووجهه الجميل الذى يتوردّ بياضه الناصع . وامتلأت نفسه
 إعجاباً بتلك القسّيات التى تحرّك إعجاب الآخرين به . ودون أن يدري بات يؤلّع بذاته ويمتدح نفسه
 ويؤجّج في صدره التّباهى بطلعته ، فكان هو نفسه وقود تلك النار التى يضرّرها . وكم من مرّة حاول فيها

تقبيل ذلك الوجه المنعكس عن وجهه على صفحة الغدير ، وكم من مرة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمَّ خياله الذي تراءى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقق ما يحاول . أى شيء هذا الذى تقع عليه عيناه ؟ إنه لا يدري . غير أن هذا الذى يشهده هو مصدر الضنى فى نفسه ، وهذا الخيال الذى خدع عينيه هو الذى أثار الشوق فى نفسه إلى نفسه . أى نارسيسوس ، أيها الصبى الساذج ، فيم حاولت الإمسك بصورة خادعة ؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود حسي ، ولو أنك استدرت لغاب عنك هذا الذى تهيم به ، إن ما تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء . إنه ليس له وجود مستقل . إنه يحمى معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رزقت المرأة على الرحيل .

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فظل ممدداً على العُشب الكثيف يغمق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر ، وعراه الشُّرود من مداومته التأمل ، ثم وقف فى النهاية ويسط ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها : « أيتها الغابات ، هل أحسن أحدٌ بحبٍّ أشدَّ لوعة من حبي هذا ؟ إنك تعرفين الخير اليقين ، فالمحبون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفية ، وقد طال حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثل أسى ؟ إننى عاشق أنطلق إلى من أعشق ، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يقعدنى العجز عن وصله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبه . وما يضاعف من ألمي أن لا شيء يفصلنى عن حبيبى ، فليس بيننا محيط ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب مغلقة ، ليس غير قليل من الماء هو الذى يحول بيننا . وما أشوق حبيبى إلى عنائى ، فحين انشئت على صفحة المياه الصافية لأقبله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهى محاولاً الاقتراب منى ، وخُيلَ إلى أن فى مقدورى أن ألمسه لولا تلك المياه الرقاقة التى تحول بينى وبينه . فلتقترب منى أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً من تكون ! لماذا تراوغنى ؟ وأين تذهب كلما حاولت الوصول إليك ؟ إنك لا تنجبنى دون شك لمظهرى أو سنى فالحوريات يعشقننى ، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فى الأمل . كما أنك تمدُّ ذراعيك لى كلما مددتُ ذراعى لك ، وتبتسم لى حين أبتسم لك ، وكثيراً ما تدفقت دمعاتك مع دمعاتى ، وبادلتنى إشارة بإشارة ، ولقد تبتعت جاهدأ حركات شفتيك الجميلتين وهى تنبس عن كلمات ما بلغت سمعى أبداً . ويلاه ، إن هذا الصبى الذى يترأى لى ليس غيرى ! وما أنذا قد فطنت للحقيقة . إن صورة وجهى لا تخدعنى ، إننى أحترق بنار حبي لنفسي ، وإننى أشعل بنفسى النار التى أشتق بها ، ماذا ترائى فاعلاً ؟ أتوسل إلى نفسى أو أتلب حتى تتوسل إلى نفسى ؟ أى ضراعة تلك التى تمكّننى من أن أنال ما أحب ؟ فى حوزى ما أنتشوق إليه ، وثرائى هو سبب بلائى ، وكم وددت لو استطعت أن انفصل عن جسدى ، وتلك أمنية ما أعسرها على العشاق . كم وددت لو كان حبيبى غير قريب منى . إن الحزن يعتصر قواى وليس أمامى من العيش إلا أيام معدودات ، إننى أنطفئ وأنا فى زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه سوف يريحنى من الآلام ، وكم أتمنى لحبيبى أن يحيا طويلاً من بعدى ، غير أن وحدة قلبينا ستجعلنا نهلك معاً وتنتهى حياتنا مع زفرة واحدة . »

وحيث أنهى حديثه عاد يحملق مذهولاً في الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته واثوَج سطح الغدير ، وانطمست صورته ورآها تختفي فصاح بصوت عال : « إلى أين تهجرني أيها القاسي القلب ، ابن ولا تهرب من يجبك ، دعني أنطلع إليك مادمت لا أملك لمسك ، دعني أشبع حبي السيء الطالع بالنظر إليك » . ومزق من فرط حزنه طوق رداءه وأخذ يضرب صدره العاري بيده الناصعة البيضاء فتورد صدره من أثر الصفعات تورد التفاح تحمر بعض أجزائه وتبقى الأخرى مشرقة البياض ، أو تورد العنب لم يكتمل نضج عناقيده بعد .

وحيث هدأت مياه الغدير تمثّلت على صفحتها مآسى ناريسوس كلها فلم يطق مزيداً ، وكما تلوذ الشمعة مع الحرارة الهادئة ، وكما تتبدّد قطرات الندى مع دفء الشمس أخذ يدوب بحرارته الكامنة الخفية بعد ما أنهكه الحب وأضناه ، وفقدت بشرته بياضها المشرب حمرة الورد وزايلته قوة شبابه ، واختفى جمال قسماته الذي كان يأسر عينيه ، ولم يبق له شيء مما أحبه إكويوماً . وقد شاهدت إكوما وقع له ، ومع أن ذكرى صدوفه عنها كانت لا تزال ماثلة في أعماقها إلا أنها أحسّت بالحزن شفقة عليه ، وكلما زفر زفرة وقال « ويلاه » كانت تردد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماتها وهو يحملق في الماء ، « واحسرتاه على الغلام الحبيب الذي ذهب حبي له سدى » ، أخذت إكوتردد صداها . وحيث نادى « وداعاً » ، رددت إكويوماً أيضاً هذه الكلمة ، وتهالك بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيه اللتين طالما هامتا بجبال صاحبهما وسقط ميتاً . وحيث احتواه عالم الموت عاد يتطلع إلى صورته على صفحة مياه ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات النبع وقصصن شعورهن إجلالاً له ، وحزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، ورددت إكويوماً أصداها نواحين .

وكان حطب المحرقة والمشاعل التي تُهزّ بالأيدي^(١٦) قد أعدت لحفل إحراق جسثه التي اختفت ولم يعثر عليها أحد ، وإذا زهرة الترجس قد ظهرت مكانها تحمل قلباً زعفراني اللون تنبثق منه وُريقات بيض^(١٧) .

پنشيوس واكوييتيس

كانت أحداث هذه القصة مما أذاع شهرة الحكيم تيريزياس في كافة مدن اليونان ، وكان بها جديراً ، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب .

وكان پنشيوس بن إخيون يزدرى الآلهة ، وكان الوحيد من البشر الذي اهتمت رسوله وسخر من تحذيرات العراف العجوز تيريزياس . وحيث عثره بفقدان بصره هزّ العراف رأسه الأشيب وقال له لائماً محرّراً : « لو أنك حرّمت نور عينيك كما حرّمته أنا لكنت أسعد حالاً ، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باكخوس السرية . ولسوف يأتي ذلك اليوم ، ولا إخاله بعيداً – الذي يُقبل فيه الإله الجديد ليبر بن سيميليه^(١٨) ، فإذا أنت لم تؤفّه حقّه من التبرجيل في المعابد المقدّسة ، فمزق جسدك إرباً إرباً ، وتناثرت

أعضاؤك هنا وهناك ، ولطّخ دمك الغابات ولطّخ أمك وشقيقتها . أجل ، سوف يأتي هذا اليوم الذي ستُحجِم فيه عن تكريم الإله ، وسوف تأسى على أننى وسط غياهب ظلمة البصر قد استطعت أن أرى هذا كله ببصيرة نافذة . وحين سمع ابن إخيون هذه العبارات على لسان العراف ثار فطرده شرّ طردة ، ولم تلبث نبؤات تيريزياس أن تحققت ، وأقبل ليبر ، تردّد الحقول صيحات عابديه المحمومة احتفاءً به ، وخرج الشعب عن بكرة أبيه ، رجالاً ونساء وأبكاراً ، فتية وأشرافاً ودهماء ، واندفعوا جميعاً ليقبضوا الشعائر الجديدة . غير أن پثيوس أخذ يعترضهم قائلاً : « يا سلالة التّنين ، يا أبناء مارس ، ما هذا الجنون الذي ذهب بعقولكم ؟ أو يمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولنُفّخ المزمار المخلدوب ولحيل السحرة مثل هذا الأثر ؟ أو يمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السكر وجلبة أخذان العريضة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف في المعارك ونداء النفير الذي يدعو إلى القتال أو الكتائب التي تُشرع بين صفوفها الحراب ؟ مَنْ منكم يحق لي أن أدهش منه ؟ أنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم فسيح البحار وجستم هنا لتشيّدوا مدينة « صور » الجديدة^(١٩) ولتقيموا بها معابد ألهتكم ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال ، أم أنتم أيها الشباب يا من تفيضون حياة وتُقاربوننى سنّاً ، إنه لأجدر برعوسكم أن تحمل خوذات بدلاً من أكاليل الزهور ، ويأيدىكم أن تحمل السيوف بدلاً من ثيرسوس باكخوس^(٢٠) . إني أسألكم أن تذكروا أسلافكم وأن تحاكو ذلك الأفعوان الذي استطاع وحده أن يفتك بالعديد من المحاربين الشجعان مضحياً بحياته دفاعاً عن مياه ينبوعه ، وإنكم لتعرفون كيف تتأرون لكرامتكم ، فاطردوا إذن هذا العدو الجبار لتكونوا أمناء على مجد آبائكم . ولو كان مقدراً لطيبة أن تسقط سريعاً لتمنيت أن يهدم أسوارها أعداء شجعان برّجات المجانيق ومقارعة السيوف وأزيز اللهب ، فنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظنا شقيّاً ، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التي لن تغسل عنا العار . اليوم يستولى على طيبة صبيّ خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها ، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التي يفوح منها عطر المرّ ، وأكاليل الزهور والنياب الصارخة الألوان المطرزة بالذهب . دعوه لي ولسوف أرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذى اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدّس ، فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية ، فإذا كان أكريسوس^(٢١) قد وجد الشجاعة الكافية لكى يُنكر عليه ألوهيته ويغلق في وجهه أبواب مدينة أرجوس ، فهل يعقل أحد أن يُصيّبني هذا الأجنبي وسكان طيبة معى بالذعر ؟ . ثم استدار يأمر رفاقة قائلاً : « أسرعوا ، أسرعوا وجيثونى بزعيم هذه العصاة مكبلاً بالأغلال ونفذوا أوامرى دون تحاذل ولا تضيّعوا الوقت » .

على أن جدّه أناماس وجميع أفراد أسرته قد لاموه وحاولوا عبثاً صدّه عن اندفاعه فزاده تحذيرهم إياه من ثورته ، ودفعته محاولاتهم إلى المبالغة في تهوّه ، وزادت جهودهم في كبح جماحه الأمر سوءاً ، مثله في ذلك مثل السيل يهبط هادئاً لا تسمع له إلّا خريراً هامساً فإذا ما اعترضت العقبات مسيرته وكذا الصخور أو الأشجار اضطرب واصطخب وتغلّب على كل ما يعترضه .

وعاد مبعوثوه ملطخين بالدماء ، وحين سألهم سيدهم عن باخخوس أجابوا بأنهم لم يروه ، وأضافوا قائلين : « ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدي الطقوس السرية » ، وأسلموه الأسير التيريني^(٢٢) المتحمس لعقيدة باخخوس ويداها مقيدتان خلف ظهره . ونظر إليه بنشوس وعيناه تقدحان شرر الغضب ، وكان على وشك أن يبطش به ولكنه وجه للأسير سؤالاً قائلاً : « إنك موشك على الموت ، وسوف تكون بعد موتك عبرة وعظة لغيرك ، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسر احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة ؟ » وأجاب الأسير دون تلثم : « اسمي أكوتيس ، وقد ولدت في مايونيا من أبوين من أصل متواضع ، ولم أرث عن أبي حقولاً تحرقها الثيران القوية ، ولا قطعان ماعز تمدنى بالصوف ، ولا بقرة واحدة أروعاها ، إذ كان مثلي فقيراً ، وكانت مهنته طرح الشباك للأسماك واجتذابها بشخصه ثم رفعها من الأنهار منتفضة على طرف قصبة من غاب . وكانت مهنته هي كل ثروته التي أوروها لي قائلاً : « امسك بهذه الثروة من بعدى وكُنْ خلفي في هذه المهنة » . ثم مضى به الموت دون أن يترك لي غير المياه أبحت فيها عن صيد . ذلك كان كل ميراثي ، غير أني لم أشأ إثناء عمري قابلاً فوق الصخور ، فتعلّمت إدارة دفة السفينة وقياس المسافات بمواقع النجوم : نجمة عزة أولينوس دليل المطر^(٢٣) والثريا وقلائص كوكبة الثور والدين الأكبر والأصغر ، وألفت عيناى اتجاهات مهابت الرياح كما ألفت الموانئ الصالحة لرسو السفن . ويوماً ما وأنا مُبحر صوب جزيرة ديولس اقتربت من شواطئ جزيرة خيوس وكان رجالى يجهّزون في يسر قرب الشطّ ففقرت من القارب فوق الرمل المبتل وأمضيت مع رجالى الليل هناك . حتى إذا أخذ الفجر يصبح الساء بَحْمرة كَحْمرة الورد استيقظت وطلبت من رفاقي أن يمشوا بحثاً عن مياه عذبة وأرشدتهم إلى طريق الينبوع ، ووقفت فوق ربوة لأستشف ما تأتى به الرياح ، فنادت رفاقي وعُدت إلى سفينتي وكان أولفتيس أول من عاد من الرفاق مهللاً : « ها نحن أولاء » وكان قد اصطحب معه غلاماً تفوق وسامته جمال الفتيات ، وكان وحيداً في الحقل قد أثقلت جفناه الخمر والنعاس ، يتعثّر في مشيته ويتبع صاحبه متاقلاً . وأنعمت النظر في قسبات وجهه ومظهره وثيابه فرايتني بين يدي مخلوق يسمو على البشر ، حتى إذا امتلأت ثقة بحكمي قلت لرفاقي : « ترى أى إله يستكن في هذا الجسد ؟ ما أعجزني عن أن أتبيّنه ولكنه إله على أية حال » ، ثم التفتُ إليه قائلاً : « ها أنذا أضرع إليك كائناً من كنت أن ترفق بنا وتمدّ لنا يد العون ، وأن تصفح عن رجلى » . وهنا صالح ديكيتيس « لا حاجة بي إلى صلاتك » ، وكان أسرع الملاحين في تسلّق السارى صعوداً وهبوطاً ، ووافقه كل من ليبيس وميلاثنوس الأشقر مرشد السفينة ، وكذلك ألكيميديون وإيوييوس الذى كان يرفقه عن المجدفين بصوته الرخيم ووافق بين إيقاع المجاديف . ثم حذت البقية الباقية حذوهم وقد أعياهم عن الحقيقة شغفهم بالغنيمة التي ظفروا بها ، فصحت فيهم : « لن أذن لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتزل اللعنة على سفينتي ، وأنا صاحب الكلمة الفاصلة في هذا الشأن » ، واعترضت طريقهم إلى السفينة ، فأثار هذا ليكاباس أشدهم جراً وكان قد نفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجريمة قتل بشعة ارتكبها . وحين أردت مقاومته قبض على عنقي بقبضته القوية ، وأوشك أن يلقيني في البحر لولا أني أسندت ظهري إلى أحد الحبال ، بينما كان الملاحون الحمقى يصفقون له على فعله . وأخيراً تدخل الصبيّ الذى لم يكن سوى الإله باخخوس نفسه وكأنما بدد الصباح

غفوته وثيقظ من سكرة التبيذ ، وتساءل : « ترى أى شىء يقع هنا ؟ وفيما كل هذا الصباح ، أخبروني أيها الملاحون ماذا أتى بى إلى هنا ؟ وإلى أين تنوون الذهاب بى ؟ » فهذا پرووريوس^(٢٤) من روعه قائلاً : « لا تخف ، وقل لنا أى ميناء تريد أن تبلغه ولسوف نرسو بك عند المكان الذى تختاره . » وأجاب ليير [باكخوس] « أريد أن أرسو عند ناكسوس ، فاتجهوا بسفينتكم صوب هذه الناحية فهناك موطنى ، ولسوف تجدون بها كل حفاوة » ، فاقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد ، وطلبوا إلى أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدبرت الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس^(٢٥) فإذا بأوفيلتيس يصيح فى قائلاً : « ماذا تفعل أيها الغبى ؟ أى جنون أصابك ؟ » ، وصاح بى بعض الرجال ٦٤٠ « انحرف إلى اليسار . » وبينما أوما إلى بعضهم برأسه همس فى أذن آخرون بما يضمرونه ، ففزعت وقلت لهم : « فليتولّ الدفة أحد غيرى » ، ورفضت مشاركتهم فى خطتهم الإجرامية فتعقبونى باللغة متممين بالغضب ، وصاح إيثاليون : « أو تظن أمان السفينة موكولا إليك وحلك ؟ » ، وأخذ مكانى فى السفينة ومضى مخلفاً ناكسوس إلى وجهة أخرى منطلقاً بعيداً . وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلا ساعتها ، ووقف فى مؤخرة السفينة وتطلّع إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء ، وقال : « ليس هذا هو الشاطئ الذى وعدتم بإرسائى عنده أيها الملاحون ، وليست هذه البلاد التى رجوتكم التوجه إليها ، ما الذى فعلته بكم لتجاوزونى هذا الجزاء ؟ وأى مجد يصيبه نفر من الكبار من التفرير بصمى وحيد ؟ » .

وعندها انخرطت فى البكاء غير أن الملاحين الأشرار سخرُوا من دموعى وضاعفوا من حركة مجاديفهم ، وأقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك من هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصّه حق رغم استحالة تصوّره ، إذ ما لبثت السفينة أن توقفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف على حوض جاف ، ٦٦٠ وتعجّب الملاحون وجدّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة ليسرّوا للسفينة أن تندفع ، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت حركتها والتفت عناقيدها الكثيفة على الشراع فجعدت السفينة مكانها ، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حربة مغطاة بأوراق عنب ، وتضطجع حوله أطيايف وحوش من ثور وفهود مفترسة مرقّشة الجلود ، فهُرِعَ البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رعباً لست أدرى . وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً : « على صورة أى وحش تتحوّل ؟ » وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتسع وخيائشيمه تنفجر وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشيف . وحين حاول ليبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحولتا إلى ما يشبه الزعانف . وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع ، فحنى جسده المتبور الأطراف وقفز إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذيل على شكل ٦٨٠ المنجل القوس الذى يحكى قرنى الهلال . وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرّة الزئد وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة . ولم يبق من العشرين ملاحاً غيرى فوق السفينة وقد أمسك بى الذعر وعرتنى الرعدة ، فهذا الإله روعى قائلاً : « لا تخف » ووجّه السفينة إلى جزيرة ديا^(٢٦) ، حتى إذا بلغتها بادرت بتأدية طقوس باكخوس السرية ، وصرت من يومها من المؤمنين به .

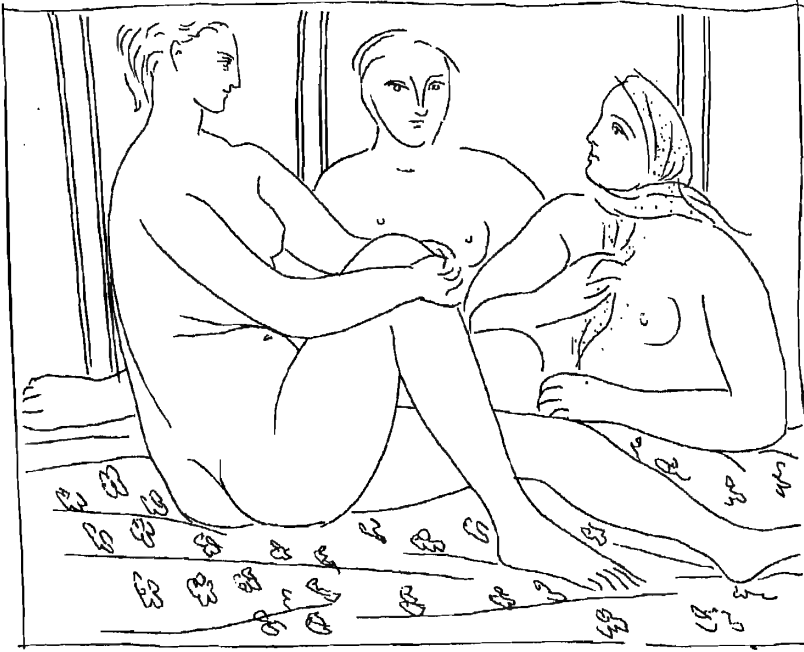
وعقب پشئوس على هذه القصة قائلاً : « إذا كنت قد أصخت لحكايتك الطويلة الملتوية فذلك كي أفسح لغضبي أن يهدأ ، خذوا هذا الرجل أيها الاتباع وصبوا على جسده جميع ألوان العذاب ، ثم ابعثوا به إلى عالم الموتى في نهر ستيكس » . وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التريفي بعيداً ، وحسبوه في سجن حصين ، غير أن الرواة يحكون أنه حين أعدّ الحديد والنار لتعذيبه ، انفتحت الأبواب على مصاريعها وتساقطت الأغلال عن يديه من تلقاء نفسها . وبقي ابن إخيون سادراً في غيّه ولم يشأ إجابة أحد عنه ، بل توجه بنفسه إلى كيثايرون ، وهو الجبل الذي اختير لإقامة الشعائر الدينية ، وعليه ترددت الأغنيات وصيحات عابدات باكخوس التي غمرت أجواز الفضاء . وكالجواد الأبيّ في ساحة الحرب يصهل متهيمًا للقتال ساعة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم ، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التي ردّد الهواء صداها تهيج پشئوس وتزيد غضبه وتشعل الضوضاء ثورته .

كان ثمة سهل منبسط في منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرّ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكثفته ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه . ومن هذا المكان استطاع پشئوس أن يشهد الطقوس السرية بعينه اللتين حرّمنا ومض الإيمان . وكانت المرأة الأولى التي رآها تندفع صوبه كالجنونة ، نعم . . . المرأة الأولى ، هي أمه أجاثيه التي حقّرت شأن ابنها پشئوس وهوت عليه بالثيرسوس [صولجان باكخوس] صائحة : « إيو . إيو » (٢٧) أقبلًا لعوني يا اختاي فانا حريصة على أن يفتك سهمي بهذا الخنزير البرّي البشع الذي يميم على وجهه طليقاً في حقولنا » . فأصاب رفيقاتها من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً ، وأخذن كقطع واحد يطاردن پشئوس الذي أمسك به الذعر وأرعدت فرائضه وزايله صلفه ، فاعترف بذنبه وأنحى باللائمة على نفسه ، وصاح رغم جراحه قائلاً : غوثاه .. خالتي أتونوي (٢٨) . هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة يا ! » . غير أن اسم أكتايون لم يحرك فيها ساكنًا ، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغذا بلا ذراعين يرفعهما ضارِعاً إلى أمه ، وكشف لها عن جسده المتبور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وشاح متوسلاً : « أترين يا أمّاه ؟ » فأطلقت أجاثيه صرخات جنونية ، وطوّحت رأسها يميناً ويسرة وشعرها يتطاير في الهواء ، ثم انتزعت رأس ابنها من بين كتفيه وأمسكت به مخضبا بالدماء صائحة : « إيو ، انظرون أيها الصاحبات ، ألا إن هذا النصر من صنع يديّ » . وأسرع من تساقط أوراق الأشجار السامة في الخريف حين تلعب بها الرياح — على الرغم من قطرات الندى التي تكاد تجعلها عالقّة بالأغصان — فلا تلبث أن تعبت بها ، أخذت أطراف پشئوس تتناثر في أيديهن الوحشية . واتخذ نساء طيبة من هذا الحدث عبرة ، وغلدن يحتفلن بإقامة شعائر هذه العقيدة الجلدية فيحرقن البخور للإله ويكرّمن محاربيه المقدسة .

التعقبات

- (١) يرِدُ أوفيد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التي تعنى البقرة ، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سميت على اسم البطل بويوتوس بن بوزيدون .
- (٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لأبوللو وريات الفنون ، أى جبل پارناسوس .
- (٣) وصف أوريبيدس قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمأساة « الفينيقيات » ، وكثيراً ما صور الفنانون هذا الموضوع على الأوانى الخزفية .
- (٤) يروى أوفيد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع .
- (٥) اشتق اسم إحيون من كلمة إحييس اليونانية التي تعنى الأفعى أو الثنين ، وقد حمل أحد العالقة هذا الاسم كذلك .
- (٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة جاسون الذى أمره الملك إيتيس بأن يثر أنياب تين على الأرض ، وبعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضاً [انظر الكتاب السابع] .
- (٧) هياس هو اسم بطل أطلق على شعب بدائى بأسره فى بويوتيا . ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم ، وصارت كلمة هياس فيها بعد مطابقة لكلمة بويوتى .
- (٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أوفيد .
- (٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التى كان الرومان ينفصون بها كلاب الصيد المريعة شأن العرب مع الخيل . ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقى معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها إلى غير ذلك .
- (١٠) ألهمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق ، فصورها بوليجنوتوس فى دلفى ، كما مثل أكتايون والكلاب فى أعقابها فوق حشوة منحوتات بمعبد هيرا فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م . وكثيراً ما صورت مأساة أكتايون فوق الأوانى الإغريقية ، وثمة لوحة جدارية مصورة لنفس الأسطورة بيويمى . هذا إلى لوحة الفنان تسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبنديقية .
- (١١) تيفويوس هو أحد العالقة الذين تحدوا چوبيتر .
- (١٢) إينو هى بنت كادموس وزوجة أتاماس .
- (١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا ، وأغلب الظن أن أوفيد لم يقصد موقعاً جغرافياً معيناً . فهناك أساطير تروى أن نيسا كان اسم تلك الحورية التى أرضعت ديونيسوس وربته ، ومانزال حقيقة هذه الأسطورة غامضة . أما مشهد مولد ديونيسوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأوانى الخزفية المصورة وخاصة فوق المزاج « كراتيرون » الكبير الموجودة بمتحف نابلى .
- (١٤) أى إذا أدرك حقيقة صورته المنعكسة فى الماء فلا يهجم بذاته حتى يهلك .
- (١٥) إحللى ربات القدر ، وهى تجسيد لنقمة الآلهة على غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة الغطرسة من غير وجه حق .
- (١٦) كانت المشاعل تُهز لتأجيج ليها قبل إشعال المحرقة .

- (١٧) هى زهرة النرجس ومنها اشتقت كلمة « النرجسية » التى تعنى الإعجاب المرضى بالذات .
- (١٨) لير إله إيطالى قديم حل محل ديونيسوس ولقب من القاب هذا الإله ويعنى « الحر » أو « المحرر » بوصفه إله النبيذ والنشوة .
- (١٩) هم القينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبة التى سبق ذكرها .
- (٢٠) ثيرسوس باخخوس أى صولجانه ، وهو عصا تتزجها حلقة على شكل ثمرة الصنوبر وتلف حولها أغصان كروم دقيقة هى شعار باخخوس وأشياعه .
- (٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناي . وهنا يخالف أوفيد الأسطورة القائلة بأن طيبة كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس ، حسب ما ورد بمسرحية عابدات باخخوس لأوريبيديس .
- (٢٢) تيريفى وإتروسكى كلمتان مترادفتان ، ويقال إن أصل الإيتروسكين من ليليا بآسيا الصغرى ، وكان الاسم الأصل لليليا مايونيا .
- (٢٣) نجمة عنزة أولينوس هى أهم نجمة فى مجموعة « الخوضى » بجوار « الدب الأصغر » ، ويرجع اسمها إلى العنزة التى أرضعت الإله جوبيتر وهو طفل . وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالجوهرية أماليا التى ظن البعض أنها ابنة أولينوس . وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة فى اليونان حيث أرضعت العنزة الإله جوبيتر .
- (٢٤) تعنى كلمة برووريوس فى اليونانية « المرشد » فى مقدمة السفينة . وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [انظر الكتاب الثامن من الأوديسيا : ١١٣] .
- (٢٥) يؤخذ على أوفيد هنا نقص معارفه الجغرافية : إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهى تتجه نحو ديولوس ، وأنها قد رست على الشاطئ الغربى من جزيرة خيوس ، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لتحتم عليه أن تتجه جنوباً لا شرقاً .
- (٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس .
- (٢٧) « إيو » هى صيحة النشوة المحمومة لعابدات باخخوس ينادين بها الآلهة ، وقد تكون أحياناً تعبيراً عن شدة الحزن .
- (٢٨) أتونوى هى أم أكتايون الذى مزّته كلابه كما مرّ بنا .



بيكاسو: بنات مينياس

الكتاب الرابع

بنات مينياس

عل أن الكيثوى بنت مينياس لم تكن بين هؤلاء النسوة المؤمنات ، إذ لم تشأ أن تلم بشيء من أسرار الإله ، إيماناً منها بأن تلك الطقوس الطائشة مما لا يجوز لقومها أن يباشرها ، كما أنكرت في إصرار بنوة باكخوس لجوبيتر ، وشاطرتها هذا التمرد الأثم شقيقتها .

وكان الكاهن قد أعلن ألا بد من إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامهن ، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان ، وأن يُرتخين عصابات شعورهن ، وأن يُتوجن هاماتهن بأكليل الزهور ، وأن يحملن اليرسوس الزدان بأوراق الكروم ، ثم

حذّروهم من عاقبة غضب الإله إن مسّه ما يشين . واستجابات السيدات والفتيات إلى نصائح الكاهن ، فهجرن أنوالهن وسلالهن وأعمالهن ولم يكن قد فرغن منها ، وأحرقن البخور للإله ، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار^(١) ، كما نادينه يا مَنْ وَلَدَ مَرَّتَيْنِ ويا مَنْ لَهُ أَمَانٌ ، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا ، وثيونوس ذى الصفات المرسلة ، ولينايوس الاسم الذى لُقّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا ، ونيكيتيلوس ، وأبينا إيليلوس ، وإياخوس ويوهان ، ثم دعونه فى آخر الأمر بالأسماء جميعها التى تتسمّى بها بين شعوب اليونان يا « لير »^(٢) : شبابك لا يذبل فانت الطفل الخالد وأجل كائن تتجه إليه الأنظار فى السموات العلا . لرأسك جمال العذارى حين يُشرف علينا بلا قرون^(٣) ، سُدّت الشرق إلى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجنج على أرض شعبة الأسمر . ما أكثر من يعبدك من الناس أيها الإله ، يا من قضيت على پثيوس وليكورجوس المسلّح بالبلطة ذات الحدين عقاباً على مروقها^(٤) ، وأغرقت اللّيدّين فى البحار ، وأثقلت عنق التمرين اللذين يجرّان مركبتك بنيرين تزئيهما أعنة مشرقة الألوان . فى إثرك تمضى كاهنات باكخوس العبادات والساتير والشيخ الهرم الثمل الذى يعتمد على عصاه لضطراب خطواته^(٥) ولا يكاد يستقر على ظهر جمشه المحدوب . حيثما تمضى تهدر أصوات الفتيان ترحيباً بك ، وتردد أصوات النساء ، ويُسمع قرع الأكفّ للدفوف وصكّات الصنوج المكورة ، ويرتفع صوت الناي الطويل الأنابيب المتخذ من قصب الغاب ، ويتنهل إليك نساء طيبة أن تُقبل عليهن برقتك وعطفك ، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة .

ولم يتخلّف فى بيته غير بنات مينياس اللاتي عكّرن صفو الحفل بقيامهن بالغزل والنسج — وهما أحب الأعمال إلى الإلهة منيرفا — فى غير وقتها المخصّص لهما ، فظللن يجلدن خيوط الصوف ويُدْرِنها بأصابعهن ويشلدنها إلى أنوالهن وقد استنهضن الخادومات للعمل ، وانبرت إحداهن تقول لشقيقتها وهى تمجذب خيطها برفق : « ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن العمل وشغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة ، على حين قد خلّتنا نحن هنا الإلهة باللاس التى هى أجدر بالتكريم . فلنخفّف عن أنفسنا إذن من عناء هذا الجهد ولنأخذ فى شجون الحديث ونحن نعمل بأيدينا ، ولنتسامر فتقصّ كل واحدة منا قصة ممتعة لا نحسّ معها بطول الساعات » . وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث ، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قصص كثير ، وتردّت هل تقصّ حكاية ديركيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالحراشف^(٦) ، أو تقصّ حكاية ابنة ديركيتيس التى ثما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضى فيه آخر سنوات عمرها^(٧) ، أو قصّة حورية الماء التى كانت تحمّل الرجال أسماكاً صماء بتعويذاتها وباعشاب قوية الفِعل حتى حاق بها المصير نفسه^(٨) ، أو قصّة الشجرة التى كانت تُنبئ توتاً أبيض فصار أرجوان اللون بعد أن اصطبغت بالدماء ؟ وكان هذا هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارها ، إذ كانت قصته غير شائعة فراحت تروى أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف :

پيراموس وثيريزى

كان پيراموس وثيريزى يعيشان معاً فى دارين متجاورتين فى تلك المدينة الشاهقة ذات الاسوار العالية التى قيل إن سميراميس قد شيدتها من قوالب الأجر . وكما كان پيراموس أكثر الشباب وسامة كانت ثيزى أجمل نساء الشرق ، وقد نشأت بينها صداقة لم تلبث مع الأيام حتى غدت حباً أوشك أن يفضي بهما إلى الزواج لولا أن حال أبوهما دون إتمامه . على أن ما لم يستطع أبوهما منعه هو تلك النار التى اتقدت فى قلوبهما وأخذت تحرقهما بلهب الشوق . ولم يكن لهما صديق يثناه مومهما ، فكانا يتبادلان أحاديثهما بالإيماءات والإشارات ، وكلما أخفيا جيهما عن الناس تأججت نيرانه فى قلوبهما . وكانت بالجدار الفاصل بين داريهما ثغرة دقيقة خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التى تليت تشييد الدارين وكانا هما أول من تبيّناهما ، وعين العاشق قل أن يخفى عليها شيء . وما لبثا أن جعلتا منها وسيلتهما ليتناجيا من خلالها بأعذب أحاديث الموى والغرام مطمئنين آمنين . وما أكثر ما كانا يتحسنان أنفاسهما وقد وقف كل منهما فى ناحية ، وكما حدثا الجدار قائلين : « كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سداً منيعاً . ما آمون عليك أن تحقق لنا ما ننشد . هلا أفسحت لجسدنا أن يتعانقا ، وإن ضقت بهذه فهلا انفرجت قليلاً فأنحت لشفتينا أن تلثم أحدهما الأخرى وسوف نكون على هذه من الشاكرين ، على أننا سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الوالهة » . على هذا النحو كان يمرى حديثهما اليائس عبر شق الجدار ، حتى إذا هبط الليل ودّع أحدهما الآخر ، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبلان الجدار حيث يقفان .

٨٠

وذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعتها وبعد أن جفت الأعشاب بما عليها من ندى جاء إلى مكان لقائهما الأليف ، وأخذاً يندبان حظهما متهامسين بشكاة تخفقها الزفرات ، ثم اتفقا على أن يحاولا التسلل من داريهما تحت جنح الظلام فى مأمن من العيون ، وتواعدا حتى لا تضلّ خطواتهما فى الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس ، والاختباء فى ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والثمار البيضاء التى تجاور ينبوع العذب . ولقد ظلّا نهارهما بعد أن انتهيا إلى هذا القرار يستبطنان انتباههما ، حتى إذا ما غاب قرص الشمس فى خضم الظلمات خرجت ثيزى من دارها خلسة دون أن يراها أحد من الحراس بعد ما فتحت الباب وأسدلت على وجهها نقاباً وقصدت الضريح ، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد ملأها الحب جراً ، وإذا لبوة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى ينبوع لتشرب وفيها يقطر بدم الثيران التى افترستها . لمحتها ثيزى فى ضوء القمر وهى ماتزال بعيلة فهربت إلى كهف مظلم ، وكان نقابها قد انزلق على كتفها ثم سقط على الأرض وهى تجري فخلّفته وراءها . وبينما اللبوة تعود أدرجها إلى الغابة بعد أن شربت وأنجمت ، وجدت النقاب الملقى على الأرض فمزقته وتركت على مزقه بقعاً من الدماء التى كانت عالقة بأنبيائها .

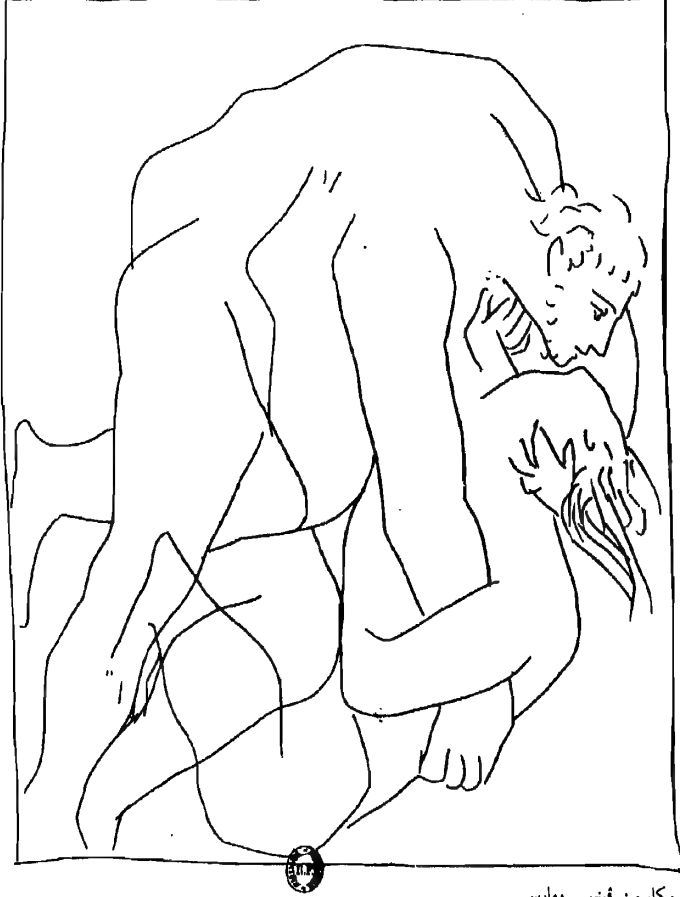
١٠٠

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبوة ظاهرة في التراب الكثيف فُبَهِت ، ثم إذا هو يجد النقاب مخضباً بالدم فيصبح : « فلتشهد هذه الليلة مصرعى كما شهدت مصرعها ، فقد كانت تُيزى أجدر بالحياة منى ، أنا المسمى يا فتاتى البائسة ، أنا من أوديت بك وحملتك على أن تأتى بالليل إلى هذا المكان المحفوف بالخطار دون أن أسبقك بالمجيء إليه . إلى أينها الأسود التى تعيش فى هذا العرين من الصخور فمزقوني إرباً إرباً بأنيابكم القاطعة عقاباً لى على ما اقترفت من إثم ، ولكن كم أنا بالغ الجبن حين أقنع بتمنى الموت » . ١٢٠ والتقط نقاب ثيزى ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها ، وجعل ييكى ويقبل النقاب الأليف له ويناجيه قائلاً « فلتشرب أنت الآخر من دمي » . وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه ، ثم انتزعه من جرحه الدامى بعد لآى وهو مُلقى على الأرض يختضر ، فانفجر الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوبة مثقوبة انبثق منها الماء ، وتدفق الدم عبر ثقب ضيق مرسلأ صغيراً يجلجل فى الهواء^(٩) . وغطى دمه المنشور ثمار الشجرة بلون قان ، وشرب جلدعها دمه فاصطبغت الثمار التندلية على الأغصان باللون الأرجوانى .

وكانت ثيزى رغم ما بها من الخوف الذى تملكها قد قفلت راجعة حتى لا يحرك تأخرها خيبة أمل حبيبها ، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروى له ما صادفها من أخطار وما فعلته للإفلات منها ، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة ، غير أن لون الشار قد حرك الحيرة فى نفسها فتساءلت أكان هذا هو المكان نفسه أم لا ؟ وفيما هى حائرة وقع بصرها على جسد ينتفض مُسجى على الأرض المخضبة بالدماء ، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جاملة جهود خشب البقس ، مرتعشة كصفحة البحر حين تعبت بها لمسات النسيم العليل . ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبها ، وشرعت تولول بصوت عال وتضرب صدرها وتمزق شعرها وتحتضن حبيبها وتقبل وجتيه الباردين فى لفة وعيناها على جرحه فيختلط سيل دمعها بدمه ، وتناجيه : « أى حدث وحشى هذا الذى اختطفك منى يا پيراموس ؟ أجبنى ، أنا حبيبتك ثيزى التى تناديك ! أنصت إلىّ ، وارفع إلى رأسك المتخاذل » . وسمع پيراموس صوت ثيزى ففتح عينيه اللتين أثقلها الاحتضار ثم ما لبث أن عاد فأغلقهما إلى الأبد . ولمحت ثيزى نقابها ورأت الغمد العاجى خالياً من خنجره فصاحت قائلة : « لقد قتلت نفسك بيدك وأودت بك حبيبتك ، فلا فعلن أنا أيضاً فعلك ، إن حى لك جارف كحبك لى ولسوف يمنحنى القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدى مثل ما أغمدت ، ولأمضى فى إثرك إلى عالم الموت ، ولسوف يقول الناس إننى كنت سبب بلاك وشريكتك فيه أيضاً . لقد كان الموت هو وحده الذى يستطيع أن ينزعك منى ، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلنى عنك . وأنتما أيها الأيوان يا من كُتب عليهما الشقاء ، كل ما أروجه منكما من فضل هو أن تدفنا معاً فى قبر واحد مادام الموت والحب الصادق قد جمعا بيننا . وأنت أيها الشجرة التى تظللين جثة واحدة عما قريب ستظللين جثتين ، فلتحملى إلى الأبد ذكرى موتنا بشارك التى تُثمرينها قانية اللون آسية ، كى يذكر الناس دوما دمنّا الذى نزنفناه معاً » . ١٦٠

ولم تكذ ثيزي تفرغ من كلماتها حتى ثبتت سنّ الخنجر في صدرها وارتجت فوقه وهو مازال دافئاً بدم
 پيراموس . وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى فوسيا ، وغدت شجرة الثوت تُثمر ثماراً تستحيل عند
 نضجها أرجوانية قانية . وفي إناء واحد اجتمع ما بقى من رماد العاشقين بعد أن نهدت جذوة الحب
 المتقلدة .

فينوس ومارس . ليوكوثوى . كليتيه



بيكاسو : فينوس ومارس

وصاد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصتها ، ثم انبرت ليوكوثوى تتحدث إلى شقيقاتها اللاتي
 مضمين يستمعن لها في صمت يزكيه الانتباه ، فقالت :

« إن ربَّ الشمس نفسه الذى يُسَقُّ كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره فى إسار الحب ، وسوف أروى لكنَّ كيف وقع فى الشراك . فلقد كان ربَّ الشمس أول من شهد خيانة فينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذى يرى كل شيء قبل غيره . وكان قد حثَّ على فينوس لسلوكها فأَنهى إلى زوجها فولكانوس [هيفايستوس] بن چونونبا هذا الاعتداء على حُرْمَةِ فراشه كما أَنهى إليه المكان الذى يلوذ به العاشقان . فطار صواب فولكانوس وسقط من يديه الحديد الذى كان يشكِّله ، غير أنه بدأ لساعته فى صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقَّ من أدقِّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، وصاغها رهيفة حساسة تهتز لأخفِّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بمهارة حول الفراش ، فلم تكد زوجته وعشيقتها يدلفان إلى الفراش حتى أطبق عليها الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه يحذق وبراعة وأوتقها معاً وهما متعانقان . وسرعان ما فُتِح فولكانوس ابن جزيرة لمنوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد فينوس بين أحضان مارس ، ورآها الآلهة فى تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها ، غير أن أحدهم تَمَنَّى لو ظفر بهذه المتعة مها كان الثمن . وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة مثار تنذر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك .

١٨٠

ولم تغفر فينوس سيِّدة كَثِيراً هذه المكيدة لمن أَفشى سرَّ حبِّها وهُدَّ غرامُها المستور ، واعتزمت عقابه بإيقاعه فى مفضيحة غرامية ماثلة . فِيم يفيدك الآن جمالك وروعتك وبهاؤك المتلألئ ياربَّ الشمس يا ابن هيبيريون ؟ ها أنت ذا يا من تَسْطَع الأرض كلها بنور لهيك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر . ها أنت ذا يا من ترى كل شيء فى الكون تَوّاً قد علقت أنظارك بليوكوثوى لا غيرها ، على حين إن نظراتك من حق العالم كله ؛ فانت تُشْرِق تارة مبكراً فى السماء وتتلثث تارة أخرى عن الغوص فى خضمِّ الغيب ، وتُطِيل أحياناً ساعات النهار شتاء بسبب انغماسك فى التأمل العميق ، ويصيب الكسوف فى أحيان أخرى نورك حين يتسلَّل القلق إلى نفسك فتخشاك تلك الغشاوة التى تثير الفزع فى قلوب البشر ، وتشجب لا لشيء إلا لمرور القمر أمامك وهو أقرب كوكب للأرض ، هل ترى أَحَبَّك هو وحده الذى أشجب لونه ، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تحسَّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركى فاتنة بلاد آيا ولا كليتييه التى لم تياَس من مقاسمتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك وقتذاك بما خلَّفته فى قلبها من جرح عميق^(١) . لقد أنستك هؤلاء جميعاً ليوكوثوى ، وقد ولدتها أمها يورونومى أجل نساء الأرض التى تَهَبُّنا العطور ، والى ما لبثت حين اكتملت أنوثتها أن أزرى جمالها بجمال أمها والجميلات الأخريات ، وكان أبوها أورخاموس ملك المدن الأخمينية سابع ملك فى سلسلة أسرة بيلوس المؤسس الأول للمملكة^(٢) .

٢٠٠

تحت سماء الغرب تقع مراعى خيول مركبة الشمس التى لم تكن تغتلى بالحشائش وإنما بالأمبروزيا [طعام الآلهة] ، فيملؤها قوة وانتعاشاً بعد أن تنهكها واجباتها اليومية لى تستطيع أن تستأنف نشاطها . وبينما كانت الخيول تلتهم غذاءها السماوى والليل يحل محل النهار فى السماء دخل ربَّ الشمس دار حبيبته متخفياً فى صورة أمها يورونومى . وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادمتها الاثنتى عشرة

٢٢٠ تَلَفَتْ خِيوطُهَا النَّاعِمَةَ عَلَى مَغْزَلِهَا الدُّوَارِ ، فَلَمَّا رَأَاهَا قَبْلَهَا كَمَا لَوْ كَانَ أَمَّا تُقْبَلُ ابْتِهَا الْغَالِيَةَ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : « لَدَى سِرٍّ أُرِيدُ الْإِفْضَاءَ بِهِ إِلَيْكَ ، فَلَتَرَكْنَا أَيْتَهَا الْخَادِمَاتُ وَلَا تَحْرَمَنَّ أَمَّا مِنْ مُحَادَّةِ ابْتِهَا عَلَى انْفِرَادٍ . وَفَعَلَتِ الْخَادِمَاتُ مَا أَمَرَنَّ بِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ فِي الْحَجَرَةِ سِوَاهُمَا كَشَفَ الرَّبُّ عَنْ نَفْسِهِ لِلْيُوكُونَوِي ، وَقَالَ لَهَا : « أَنَا إِلَهُ الَّذِي يَقِيسُ مَسَارَ السَّنَةِ ، وَأَنَا مِنْ يَرَى كُلَّ شَيْءٍ وَمَنْ تَرَى الْأَرْضَ بِى كُلِّ شَيْءٍ . أَنَا عَيْنُ الْكَوْنِ ، صَدِّيقِي يَا لِيُوكُونَوِي فَإِنِّي أَهْمِي بِحَبْلِكَ » ، فَاضْطَرَبَتِ الْفَتَاةُ وَسَقَطَ الْمَغْزَلُ مِنْ يَدِهَا الَّتِي جَدَّتْ مِنْ فَرْطِ فِزْعِهَا ، غَيْرَ أَنَّ فِزْعَهَا أَضْفَى عَلَيْهَا مَزِيدًا مِنَ الْجَمَالِ . وَلَمْ يَطْلُ أَنْتَظَارُ إِلَهُ فَاسْتَعَادَ شَكْلَهُ الْحَقِيقِي وَيَرِيقُهُ الْمَالُوفِ . وَمَعَ أَنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ الْمَفْاجِئَ قَدْ حَرَّكَ الْخَوْفَ فِي قَلْبِ لِيُوكُونَوِي غَيْرَ أَنَّهَا انْبَهَرَتْ بِجَلَالِ إِلَهُهَا وَاسْتَجَابَتْ لِعَنَاقِهِ دُونَ أَنْ تَنْبِسَ بِأَيَّةِ شِكَاةٍ .

وإذ كانت كليتيه ماتزال تحب رب الشمس حباً لا نهاية له ، دفعته الغيرة والحنق على منافستها إلى أن تُشيع على الوجود تلك العلاقة الأئمة . ثم إذا هي تشى بها عند أبيها أورخاموس فتنبى إليه سر تلك العلاقة ، وإذا هو ثور ثائرتة ويأى أن يستمع إلى توصلات ابنته وهي تقول مؤوللة : « صدقي يا أبى أنه اغتصبني على الرغم مني » . وألقاها الأب الضاري في حفرة عميقة وأهال عليها كوما من الرمال ، لكن ابن هيريون سارع بتشتيت الرمال بأشعته ، حتى فتح لك أيتها التمسعة ثغرة تطلين منها بوجهك على ضوء النهار ، غير أنك لم تستطعي أيتها الحورية رفع رأسك المختنق تحت ثقل الثرى ، ولم تعودى غير جسد خال ٢٤٠ من الدم مُلقى في لحد .

وكان حزن إله الشمس قائد الجياد المجنحة على مصير حبيبتة أشبه بحزنه على احتراق ابنه فايثون بالصاعقة ، وقد حاول أن يعيد الحياة إلى أطراف ليوكونوى الباردة بأشعته غير أن القدر حال بينه وبين محاولته الحارقة ، فاكفَى بأن أراق النكتار [شراب الآلهة] على جثتها وقبرها . وبعد أن رثاها طويلاً صاح : « لتصعدن إلى السماء على الرغم من كل شيء » . وسرعان ما ذاب جسدها المضمخ « بالنكتار » السابوى وغمر الأرض بأريجيه ، وشيئاً فشيئاً أخذ جذر شجرة البخور الذى استطال في الثرى يُنترق القبر ويمد فروعه في الفضاء .

٢٦٠ أما كليتيه التي قد يغتفر لها الحب مشاعرها وتغفر لها مشاعرها وشايتها ، فلم يقع بصرها ثانية على إله الضياء ، إذ كَفَّ عَنْ مِشَارِكَتِهَا مَتَعَ الْحُبَّ فَذَوَتْ ، وَأَذْبَلَهَا الْغَرَامُ الَّذِي سَلَبَ عَقْلَهَا ، وَلَمْ تَعُدْ تَطْبِقُ رَفَقَةَ الْحَوْرِيَّاتِ ، وَمَضَتْ تَقْضِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ جَالِسَةً عَلَى الْأَرْضِ الْمَتْرَةِ تَحْتَ قُبَّةِ السَّمَاءِ مُشْعِنَةً الشَّعْرَ . وَعَاشَتْ تِسْعَةَ أَيَّامٍ بِلَا طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ سِوَى قَطْرَاتِ الْوَدَى ، وَلَمْ تَنْهَضْ مِنْ جُلُوسِهَا قَطُّ بَلْ بَقِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَوَجْهَهَا مَصُوبٌ إِلَى رَبِّ الشَّمْسِ تُدِيرُهُ أُنَى انْحِيَةِ فِي مَسَارِهِ الْمَالُوفِ . وَلَمْ تَلْبَثْ أَعْضَاؤُهَا أَنْ التَصَقَتْ - كَمَا قِيلَ - بِالْأَرْضِ وَتَحَوَّلَ بَعْضُهَا إِلَى جَذَعٍ لَا حَيَاةَ فِيهِ تَكْسُوهُ زُرْقَةٌ شَاحِبَةٌ ، وَاصْطَبِغَ بَعْضُهَا الْآخَرُ بِلَوْنٍ أَحْمَرَ هُوَ رَأْسُهَا الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى زَهْرَةٍ شَدِيدَةِ الشَّبهِ بِالْبَنْفَسَجِ ، تَسْتَدِيرُ فِي انْتِجَاهِ رَبِّ الشَّمْسِ الْعَزِيزِ عَلَيْهَا رَغْمَ ارْتِبَاطِهَا بِجَذْرِهَا ، وَظَلَّتْ عَلَى حَبِّهِ وَفِيَّةً حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلَى زَهْرَةٍ رَقِيبِ الشَّمْسِ (١٣) .

سالماكيس وهيرمافروديتوس

وفرغت ليوكونوى من قصتها الغريبة التى اجتذبت أسماع رفيقاتها ، ينكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر باعتبار أن الآلهة الحقيقيين قادرين على كل شيء ، وإن كنّ جميعاً لم يعددن باكخوس من بين هؤلاء الآلهة . وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقات الكيثوى منها أن تروى لهن بدورها قصة جديدة ، فبدأت تتحدّث وهى تدفع «مومها» عبر الخيوط المشدودة على النول وتقول :

«لن أروى لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعى إيدا التى يعرفها الجميع ، والذى مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى وحوّلته إلى صخرة»^(١٣) ، فما أعنف الأحاسيس التى تلتهب فى نفوس العشاق . كما لن أروى لكنّ ما حدث من خروج على نواميس الطبيعة مع سيثون الذى كان تارة ذكراً وتارة أنثى ، ولن أقص حكايته يا كيليميس أيا الحارس الأمين لجوبيتر وهو طفل وقد مُسخت الآن كتلة من الفولاذ ، ولن أُلحّد عنكم أيا الكوريتيس يا أبناء الغيث الفياض ، ولن أذكر قصة كروكوس الذى تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتين . سأطرح هذه القصص جانباً لأنى عازمة على اجتذابكن بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون^(١٤) . سوف أقصّ عليكن ماذا كان للسمعة السيئة التى لحقت بينوع سالماكيس ، وسرّ إثارة مياهه الضارة بأعصاب من يردّونه فتثير الضعف والحدرد فى أطرافهم ، فبرغم معرفتنا الحقّة بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك التأثير مازال حفيّاً .

أنجب ميركوريوس [هيرميس] من فينوس إلهة كثيراً طفلاً ربّته الحوريات فى كهوف جبل إيدا ، جمعت قسّمته بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه هيرمافروديتوس بين اسميهما^(١٥) . وحين بلغ الخامسة من عمره ترك التلال التى وُلد فيها وغادر جبل إيدا الذى نشأ به ، وبدأت هوايته للأسفار فمضى يقصد البلاد البعيدة ويشهد الأنهار الغريبة لا تثنى الصعاب حماسه ، فبلغ فى رحلاته مدن لىسيا وبلاد الكارين القريبة منها ، واكتشف بهذه المنطقة بركة صفت مياهها فبان قاعها ، ولم تكن تحفّ بها أعواد الغاب ولا خلفاء الماء ولا النباتات الشائكة التى تنتشر حول المستنقعات ، بل تغطى شواطئها بالأعشاب الرطبة الخضراء ، وتسكن بها حورية غير ملزّية على الصيد لا تحلق إطلاق السهام ولا سرعة العدوّ ، وكانت الحورية الوحيدة التى لم تلقها ديانا السريعة الخطو . ويروى أن شقيقاتها كثيراً ما كن ينصحنها قائلات : « اتخذى لك ياسالما كيس ربحاً قصيراً أو جعبة سهام مزدانة بألوان فاقعة ثم انضمّى إلى صفوف الصائدات ، وأضيفى إلى متع هواياتك جولات الصيد الشاقة » ، غير أنها لم تتخذ لنفسها ربحاً قصيراً ولا جعبة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمّت إلى صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلى متع هواياتها جولات الصيد الشاقة . وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام فى بركتها وتصفيف شعرها بمشط من كيتوروس^(١٦) ، محملة فى الماء الصافى تتأمل على صفحته مفاتن جمالها ، ملتفة بغلالة رقيقة ، مستلقية على فراش من أوراق غضة

وأعشاب لينة ، ومن حين إلى حين تنهض لتقطف الزهور . وذات يوم وقع بصرها على الصبي هيرمافروديتوس ، فإذا هي تُحسُّ لهفة إلى الاستئثار به . وعلى الرغم من شوقها وتعجلها الدنو منه فقد تباطلت في أخذ زيتنها وإصلاح هندامها لتتجلى له في أبهى صورة ، ثم بادرته قائلة : « ما أجدرك أيها الفتى الجميل بأن تعدُّ إلها . وإذا كنت إلها فلعلك كيويدي ؟ أما إذا كنت بشراً فلا شك أن أبوك مبارك وأن ٣٢٠ شقيقك سعيد وشقيقتك أكثر سعادة إن كانت لك شقيقة ، وسعيدة كذلك مرضعتك التي رعتك ، وأكثر من هؤلاء سعادة حبيبتك التي ستتخذ منها زوجة إن كانت لك خطيبة . فإن كانت لك خطيبة دعني أنعم بحبك سراً ، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى إلا أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد » .

ولم تكن الحورية تفرغ من حديثها حتى تورّد وجه الفتى الذى لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه في لون التفاح الناضج المتدلّى من شجرة نغمها أشعة الشمس أو في لون العاج المصبوغ بالألرجوان ، أو في لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزية لتدفع عنه الحسوف^(١٧) . وألحّت الحورية في تقبيله ولو قبلات أخوية ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجى بذراعيها فصاح بها : كُفّى عن عبثك وإلا مضيت بعيداً تحلّيًا هذه الأرض بعين مائها . فسرت في جسد الحورية رعدة وقالت له : « لا تبعدنّ عنك ولن أنطلق عليك بعدُ أيها الغريب » ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بزمها على الرحيل بينما كانت تحطو وعيناها تتلفّتان إليه حتى إذا ما وارتها أشجار أكمة كثيفة ركعت على الأرض كي ترتبه . واطمأن الفتى حين أحسّ أنه وحده واقترّب من البركة ومدّ قدميه إلى الماء كاشفاً عن ساقيه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتى ذهب جماله العارى بلّبّ سالماكيس ، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو ينعكس على المرأة ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرقّ عشقا ورغبة عارمة في أن تضمّه إلى صدرها ، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهوتها المشبوبة . وبصفحة كفّيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليمنى وتارة بذراعه اليسرى ، يبرق جسمه من تحت الماء الصافي وكأنه تمثال من العاج أو زنبقة تحت لوح من الزجاج الشفاف . وخلعت هي الأخرى ثيابها مطوّحة بها هنا وهناك وقفزت وراه إلى البركة صائحة : هل أنذا قد ظفرت به . وأمسكت بالفتى الذى أخذ يقاومها غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة ، وتسَلّلت يداها من تحته فلمست صدره النافر ، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه الأيمن كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها حلقاً في الساء فلا يسعها إلا أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كي يهوى ، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمة ، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته في أعماق البحار بتطويقها بأذرعه من كل جانب . وقاوم سليل أطلس الحورية^(١٨) لا يريد أن يمنحها اللذة التي كانت تنوق إليها ، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقت بجسدها كله ملتصقة به صائحة : « قاوم ما شئت لكنك لن تُفلت مني أيها الوغد ، ولتمنحنى الآلهة أمنيقي فلا يأتى يوم يفصل فيه هذا الفتى عنى أو انفصل عنه » . واستجابت الآلهة وحقّقت لها أمنيته ، واتّحد جسدهما الملتصقان وأصبعا شخصا واحداً بعد ما كانا شخصين . وكما تنمو الشجرتان صنوانين معاً لا يفترقان ، كذلك

التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية في عناق متلاصق ، فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا فدرى أحما ذكر أم أنثى أو أنها شيء واحد معاً أو أنها ليسا من هذا ولا ذاك .

٣٨٠ وحين رأى هيرمافروديتوس أن الماء الصافي الذي نزل إليه ذَكَرًا قد أحاله آخر الأمر إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تخاذلت ، رفع يديه إلى السماء متوسلاً بصوت لم يَعدْ صوت ذَكَرٍ : « أباه . أماه . ناشدتكما أن تُحقِّقا أمنيّة ولدكما الذي يجتمع اسمكما في اسمه ، وهى أن يخرج كل من ينزل إلى هذه البركة من الرجال وقد غدا خُنثى ما بين رجل وأنثى » ، واستجاب الوالدان لضراعة ابنهما الذى صار ذكراً وأنثى فلوّثا مياه البركة بسحر مَرَوَّع يصيب كل من ينزل بها .

٤٠٠ وحين انتهت القصة كانت بنات مينياس لازلن منشغلات بأعمالهن ، مستخفّات بالإله ، مزدريات بأعياده ، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفية تصاحب أنغام مزامير مقوّس وصكّات صنوج نحاسية وانتشر في الهواء أريج مَرُوزعفران ، أخذت الأنوال عندها تخضّر . والعجيب الذى يقرب من المستحيل أن النسيج نبت به أوراق كأوراق اللبلاب وتحول جزء منه إلى كروم ، كما تحولت الخيوط إلى محاليق ، وأطلّت أوراق الكروم من سدّة النسيج وعلت عناقيد العنب الناضج حمرة الأرجوان واقترب النهار من الزوال ، وأطلّت عتمة لا تكاد نعرف أمين الليل هى ألم من النهار ، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المودّع بخيوط الليل المقبل . وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهّج زيت المصابيح ، وانطلق عواء وحوش ضارية في أنحاء الدار ، وسارعت الشقيقات فاختفن في مواقع مختلفة من دارهن التى ملأها الدخان ، هاربات من ذلك العواء وهذا الضوء المتوهّج الذى أخذ يزحف إلى الأركان المظلمة ، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة ، وانطوت أزعرهن في غشاء خفيف غدا جناحين . ولكن كيف فقدن أشكالهن الأولى ؟ إن الظلام غيَّب عنا تعرّف كنه ذلك . ومع أنه لم يكن هن ريش يطرن به فقد حلّقن في الهواء بأجنحة شفافة ، وحين حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلّا بألفاظ واهنة ضئيلة ضالّة أجسادهن التى مُسخت خفافيش ، ولم يستطعن أن يُفصحن عن شكواهن إلّا بنعيق حاد ، وبدأن يتردّدن على الأطلال لا الغابات ولا يملّقن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء ، واشتق اسمهن « فسپيريليونيس » من اسم نجم أعماق الليل « فسپير » (١٩) .

أشاماس وإينو

٤٢٠ انتشرت عبادة باكخوس في أنحاء طيبة ، وراحت خالته إينو^(٢٠) تتحدّث عما يَروى من جبروت الإله الجديد ، وكانت الوحيدة من أسرتها التى لم ينلها سوء ولم يُخزنها شيء إلّا ما حاق بشقيقاتها . ورأتها چونو مزهوّة بولديها من أثاماس وبالإله الذى رعته في طفولته ، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة : « لقد مسخ ابن غريمقى الملاحين اللذين أسماكا وألقى بهم في البحر ، وأثار أُمّا حتى مرّت جسد ابنها إرباً إرباً ، ثم

غشى ثلاثة من بنات مينياس بأجنحة من نوع لم ير له من قبل مثل ، على حين أجدنى أنا چونو جامدة لا أجد ما أفعله غير البكاء أمام إهانات وُجِّهت إلى دون أن أثار لها ؟ هل فى هذا ما يُشبع رغبتي ؟ وهل هذا هو مدى قوتي وجبروتي ؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقتنى درساً وما أعسوب أن يتعلم المرء من خصمه ، فقد كشف لى عما يمكن أن يسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال نيتيوس ، لماذا إذن لا تُصاب إينو بلسعة الجنون الذى حلق بدويها من قبل ؟ » .

وكان ثمة طريق تواريه ظلال أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدياً إلى العالم السفلى عبر مناطق ساكنة خرساء تغطيها مائة نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب ، وكانت أرواح الموتى^(٢١) تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها تاركة إياها فى مقابرها ، وكانت الكآبة والبرودة يجتاحان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأتى للمرة الأولى إلى عالم الأموات ، أو تقصد قصر ديس [بلوتو] المدهم . وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة فى جميع الجهات تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعها ، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغص بزحمة الوافدين . هنا وهناك ٤٤٠ تروح الأطياف ونحىء بعدما تخلصت من الدم واللحم والعظام ، يبول بعضها فى ساحات الأسواق وييمم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السفلى ، وتحاكى جماعة الجُرف التى كانت تمارسها فى حياتها الماضية ، ويدوق آخرون العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم من آثام .

غادرت چونو ابنة ساتورن مسكنها الساوى لتزور هذه البقعة مستسلمة لغضبها وحقدتها فأثت عتبة العالم السفلى تحت ثقل جسدها المقدس ساعة دخولها ، ورفع كيريروس رؤوسه الثلاثة وقد نبحت ثلاث نبحات . وعندها نادى چونو « بنات الليل » [ربّات الانتقام] تلکم الشقيقات الرهييات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفقن شورهن الثعبانية . وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى المكان المسمى « الديار الأثمة » [مقرّ الأشرار] حيث يرقد نيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسلماً أحشاه للنسور تمزّقها ، وحيث يمسّ تانتالوس الظمأ ولا يستطيع أن يبلغ الماء ، كما يهفو إلى الشجرة المظلة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها ، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط ، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه ، وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كان ٤٦٠ بعضه يهيم بأن يلحق بعضه الآخر فلا يكاد يبلغه^(٢٢) ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاعتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لهن على ما ذُبرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن .

وحلجت چونو الجميع بنظرة صارمة ولاسيا إيكسيون ، ثم التفتت إلى سيزيفوس قائلة : « لماذا يلقي هذا الرجل عذاباً متصلاً هنا بينما يعيش أخوة أثاماس المتفطرس وزوجته فى قصر مُنيف على الرغم مما يبدو عليهما من ازدراء لى^(٢٣) ، ثم بدأت تُفصح عما تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتخريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى ارتكاب الجريمة ، وتتابع من فمها العود تلتمس من الربّات العون ، حتى إذا أنهت حديثها هزّت تيسيفونى رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاه ، وقالت : « لا حاجة بك إلى المزيد من الإيضاح ، ولتطمئننى إلى تحقيق كل ما أمرت به . فلتغادرن هذا المكان

الكثير ولتعودى إلى السماء التى إليها تنتمين . وعادت چونو إلى مسكنها فرحة ، وحين أوشكت على النفاذ إلى السماء طهرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها . ٤٨٠

ومرغان ما أمسكت تيسيفونى القاسية بمشعلها المغمور بالدم وأتشحت بمعطفها الذى صبغه سيل من الدم بلونه الأحمر ، وتمنطقت بثعبان محوى حول خاصرتها ، وغادرت دارها فى صحبة ربأت الحزن والخوف والرعب والجنون الراعش القسيات ، ووقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس ، فاهتزت أعمدة المدخل وشحب لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان ، وهربت الشمس من مكانها المألوف فى السماء . وأفزعته هذه الإشارات المشئومة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً ، وحاولا الهرب من الدار ، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدت ذراعيها الملتف حولها الثعابين ، وهزت برأسها فأرسلت الأفاعى فحيحها وانفلت بعضها على كتفها وبعضها على صدرها تقيء نفثاتها وتُصفر بيننا اندلعت ألسنتها المرعدة خفاقة . ثم انتزعت من ضفائرها ثعبانين طوحت بهما فسقط أحدهما على صدر إينو والآخر على صدر أثاماس ، ونفثا فيها أنفاسهما السامة ، ومع أن جسديهما لم يُمسأ بأى جرح فإن الضربة القاسية قد مسّت روحيهما . وكانت تيسيفونى قد أحضرت معها ضمن ما أحضرت سائلاً ساماً فتأكأ أعدته إحدى الساحرات من رغاء فكى الكلب كيريروس ومن سمّ الأفعوان إخيدينا^(٢٤) ومن خليط من الجنون المصحوب بالهذيان ، ومن فقد الذاكرة الذى يعمى العقل ، ومن الدموع والجريمة والسُعار وشهوة القتل . وقد طحنت الساحرة ذلك كله معاً ونذّته بدماء حارة وطهته فى قدر برونزى بعد تلقيه بعضاً خضراء من نبات الشوكران السام . وألقت تيسيفونى هذا السم الذى يسلب العقول على الملك والمملكة وهما واقفان يرتعدان ، ثم أشعلت مشعلها وأدارته حولها مرات ومرات ، حتى إذا أدّت المهمة التى عهدت بها إليها چونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموق التى يحكمها ديس ، ورفعت الثعبان الذى كانت قد تمنطقت به . ٥٠٠

وعندها أصيب أثاماس بن أيولوس بالجنون . ومع أنه كان لا يزال داخل أسوار قصره إلا أنه أخذ يصبح قائلاً : « إلى يا أصدقائى ! أنشروا شبابكم فى هذى الغابات ! فقد لمحت الآن لبؤة فى صحبة شبلها » . واندفع الأحق فى إثر زوجته يطاردها وقد تحيّلها وحشاً مفترساً ، ثم اختطف من بين ذراعيها طفله لياوخوس الذى كان يبتسم له ويسط نحوه ذراعيه ، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالمقلع فتهشم رأس الطفل على الصخور . وجنّ جنون المرأة حزناً على ولدها أو تائراً بفعل السم الذى أفقدها صوابها ، وانطلقت تعوى هاربة مشعنة الشعر وعلى ذراعيها طفلها الرضيع ميليكيرتيه وتصيح : « إيويه يا باكخوس ! » . وسمعتها چونو تنطق باسم باكخوس فقهقهت ساخرة وهى تقول : « عسى أن ينفعك ذلك الطفل الذى ربّيته ببركاته » . ٥٢٠

وصعدت إينو قمة تل صخرى يُشرف على البحر الذى أكلت أمواجه سفحه الأدنى لتمرّ المياه تحته بمنأى عن هطول الأمطار ، وكانت لصخور قمته أسنان حادة تمتد فى فضاء البحر . وكان جنون إينو قد أمّتها بالقوة على تسلّق القمة دون أن يثنيها الخوف عن هدفها ، ومن القمة ألقت بنفسها هى والطفل الذى

تعمله في مياه البحر ، فازدبت الأمواج في المكان الذي سقطا فيه . غير أن فينوس أخذتها الشفقة بحفيدتها البريئة فنوسلت إلى عمها نبتون قائلة : « يا إله البحر العظيم الذي تلى منزلته مملكة السموات جلالاً ، سألتك أن تنعم على بنة كبرى فتترقى بهذين العزيزين اللذين ترى الأمواج تلعب بهما في البحر الأيوني ولتضمهما إلى حاشيتك من آلهة البحر . إن حقا إني من زبد البحر خلقت ومن أعماقه المقدسة انبثقت فكم أنا إليه مدينة ، ومازال أسمى اليوناني « أفروديتي » يذكركم بهذا الأصل » (٢٥) . واستجاب نبتون لرجائها ٥٤٠ فجرد إينو وولدها من شخصيتيهما البشرية وأضفى عليهما جلال الربوبية وأعطاهما اسمين جديدين يناسبان شكليهما الجديدين ، وأسمى الإله الجديد بالايون وضمه إلى حاشيته هو وأمه التي أسماها ليوكوثوي (٢٦) .

وكانت وصفات إينو الفينيقيات قد اقتضين آثار قديمها إلى أن غابت عنهن تلك الآثار عند حافة صخور تشرف على البحر ، ولم يساورهن شك في وفاتها فأسين لمصير أسرة كادموس ويكن عليها وضرين صدورهن ومزقن شعورهن وثيابهن ، ورمين جونو بالظلم لقسوتها البالغة على منافستها ، فامتلات الإلهة سخطاً عليهن لاتباهن لها وتوعدتهن قائلة ، « لسوف تلقين جميعاً ما يذكركن بجبروت دوماً » ، وما أسرع ما نفذت وعيدها . وحين همت أوفى وصفات إينو بإلقاء نفسها من أعلى الصخور في البحر وهي تصيح : « لسوف أتبع مليكتي إلى أعماق البحر » ، إذا هي تجرد نفسها عاجزة عن الحركة وقد جمدت في مكانها ملتصقة بالصخور . وأحسنت ثانية وهي تندب ضاربة صدرها تصلب ذراعيها حين حاولت رفعها . وجمدت ثالثة كانت تشير بيدها نحو موج البحر وبقيت ذراعها ممدودة لياهاه ، كما جمدت أصابع رابعة بين خصلات شعرها وهي تشله . وهكذا جمدت كل واحدة منهن على الوضعة التي كانت تتخذها ساعة فاجأتها اللعنة التي صبتها عليهن الإلهة ، وتحولت الأخريات من نساء طيبه إلى طيور تحوم فوق البركة ٥٦٠ وتحف بأجنحتها على سطحها .

كادموس وهارمونيا

ولم يبلغ العلم بكادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحولوا إلهين من آلهة البحر ، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التي نزلت به وتملكه الغزع مما شهدته من نذر الشؤم ، فاعتزم الرحيل عن المدينة التي أسسها متخيلاً أن الشؤم الذي يعصف به مرته إلى شؤم المكان لا إلى شؤمه هو .

وبعد أسفار طويلة مع زوجته التي صحبتته في هجرته وصلا أخيراً إلى بلاد إليريا (٢٧) وقد أحنث الشيوخوخة والأحزان ظهرهما . ومضيا يستعيدان في الحين بعد الحين أجداد سلالتها وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما : ألم يكن حقاً أن ذلك الثعبان الذي صرعه برععى مقدساً ، ذلك الذي نثرت أسنانه قبل حين رحلت عن « صيدا » أول مرة على أنها نوع جديد من البلور فوق تربة الأرض ؟ فإذا كان موته هو الذي حرك الآلهة كي تنتقم مني ، فإني أتوسل إليها أن تمسخني أفصواناً مثله فيمتد جسدي ويتحوى كجسد الثعبان . وفيها هو يتحدث بدأ جسده يتمدد ويأخذ شكلاً متحلقاً طويلاً

٥٨٠ كالثعابين ، وتصلب جلده واصطبغ بلون أسود ، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرة تُلقي شيئاً من الضياء على لونه الداكن ، ثم سقط على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدق حتى انتهت إلى ذيل مدبب ، لكن ذراعيه بقيتا على صورتها البشرية . وكذلك بقى وجهه الذى غمرته دموع عينيه فانبرى يقول : « هلمى إلى يا أتعس الزوجات ، وتحسسى ما تبقى من صورتي البشرية ، خذى يدي وهى ماتزال يدأ قبل أن أتحول أفغواناً كاملاً » . وما لبث أن عجز عن مواصلة الحديث فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين ، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث ، وأصدر فحيحاً غريباً كلما حاول أن يندب حظه . وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحته له طبيعته الجديدة .

وضربت زوجته صدرها العارى بكفيها صائحة : « ناشدتك ألا تهجرنى أيها الزوج المنكوب ، ولتخرج من هذا الشكل البشع يا كادموس . ماذا حل بك ؟ أين قدماك ويداك وكنتفاك ولون بشرتك وملاحمك ؟ لقد اختفت معمالك كلها وأنت تبادلنى أطراف الحديث . ألا فلتمسخني أيها القوى السهاوية بالمثل على صورة هذا الأفغوان » .

٦٠٠ وجعل كادموس يلحق وجنتى زوجته متزلفاً بين أحضانها كما كان يفعل من قبل ، وانبرى يقبلها ويحاول التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى . وفزع جميع أصدقاء كادموس وكانوا مازالون إلى جانبه ، بينما تربت زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوج بريشة ، وما لبثت أن مسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً ، وطوّق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة ، وبقياً منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين مُستأنسين يأنسان بالبشر ولا يغيب عنهما أنهما كانا من البشر .

پيرسيوس . أطلس . أندروميدا

ووجد كادموس وزوجته عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقَدَّسه مواطنوها وأُلهوه كما أقبلت حشود الأخيين [اليونانيين] تصلّ له فى المعابد التى شُيّدت لتكريمه . ولم يشدّ إلا أكريسيوس بن أباس المنحدر من نفس السلالة التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصدّ الإله عن أسوار مدينة أرجوس ، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهى مثلما رفض التسليم ببنة پيرسيوس لجوبيتر الذى حملت به داناي بعد أن أخصبها جوبيتر حين أتاها فى صورة شذوب من القطرات الذهبية (٢٨) .

غير أن أكريسيوس سرعان ما ندم على تفريطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره بنوة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة ، فما أقدر الحقيقة على أن يُكتب لها الفوز . وبينما الساء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشق طريقه محمّلاً بجناحيه الرفافين فى أجواز الفضاء حاملاً معه رأس ميدوسا ، تلك الغنيمة الجلدية بالذكر التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسى بشعرٍ من

الأفاعي . وبينما هو يملأ في سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس الجورجونة الذي كان يحمله البطل الظافر فاحتضتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعي ، وهذا سر امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتاك . وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع بيرسيوس في أنحاء القبة السباوية الشاسعة وكأنه سحابة حُبلى بالمطر تتلاعب بها الرياح ، يطوف فوق الأرض ويتأملها من عل ، فرأى كوكبى الدب الأكبر والدب الأصغر الشديديق البرودة ثلاث مرات ، كما شاهد غلاب كوكبة السرطان مرات ثلاث ، وكم من مرة دفعت به الريح إلى الغرب ثم أعادته إلى الشرق .

وعندما أوشك النهار على الغروب لم يأتمن بيرسيوس ظلمة الليل فحط على قمم هيسبيريا في مملكة أطلس^(٢٩) بالغرب ، وحاول الإخلاء للراحة حتى ينادى لوسيفر نجم الصباح^(٣٠) أضواء الفجر وتُسرح أورورا ربّة الفجر جياد النهار . هناك كان يعيش أطلس بن يابيتوس الذى كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة ، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض ، ويمتد ملكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياد إله الشمس المكدودة ساعة تأرى مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار ، وتزدحم مراعيه بالآلاف القطعان التى يملكها من الأغنام والماشية ، ويملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية وتتدلّى من غصونها ثمار من ذهب . ٦٤٠

وحينها أوى بيرسيوس إلى هذا المكان قال لأطلس : « إذا كنت أيها الصديق ممن يهتمون بعراقة الأصل فأنا سليل جوبيتر ، وإذا كنت ممن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما فعلته ، ولقد جئت ملتصقاً ضيفتك » . وسرعان ما تذكر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التى كشفت له عنها يومائيميس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له : ليسرقن ابن من أبناء جوبيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس وينعم بها . فاحاط أطلس حدائق فاكهته - خشية تحقق هذه النبوءة - بأسوار منيعة ، ووضعها في حماية أفعوان هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته ، ولهذا ردّ بيرسيوس عنه قائلاً : أعزّب عنى وارحل من هنا ، وإذا حدثت نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تمجديك نفعاً وإن استعنت بجوبيتر نفسه » .

وحين تلكأ بيرسيوس في الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف ، وحاول الإلقاء به بعيداً فقاومه الآخر في بسالة وهو يحاول كسب وقته بعبارات رقيقة ، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ومن ذا الذى يستطيع أن يدانى أطلس في قوته ؟] صاح قائلاً : « إذن ، مادمت لا تعباً بالصدقة ، فأليك هذه الهدية » ، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا الشبح فتحول أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين البشر ، وإذا شعر رأسه وشعر لحيته أشجار ، وإذا يده وكفاه سفوح جبال ، وإذا رأسه قمة جبل ، وإذا عظامه صخور . وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه في جميع النواحي ، كما علا حتى بلغ عتات السماء ، وإذا النجوم العديدة في قبة السماء ترتكز عليه . وكان هذا كله لوفى مشيئة الآلهة .

وبينما هذا يحدث كان أيولوس^(٣١) بن هيبوتيس قد حبس الرياح في سجنها الأبدى ، وأشرق لوسيفر نجم النهار يتلألأ في السموات العلّى مستهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية . وعاد البطل إلى جناحيه

وثبتهما على قدميه وتسَلَّح بسيفه المقوَّس وشقَّ طريقه في الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجتَحين ، وطار عابراً فوق عدد لا يحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته في جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على القبائل الإثيوبية^(٣٦) وحقول كيبوس حيث كان « جويتر آمون » قد أصدر أمره الجائر بأن تعاقب أندروميذا على تناول أمها بأحاديثها المتباهية .

وعندما شاهد بيرسيوس الأميرة مكبَّلة الذراعين بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصَلْب ، خُيِّل إليه أنها تمثال من الرخام لولا شعرها الذى كان يعبث به النسيم والدموع الحارة التى كانت تنهمر من عينيها ، وشدهه جمالها النادر فوق في هواها على غير وعى منه ، وأنسى تحريك جناحيه في الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها : « ليس لك أن تكبِّل بهذه السلاسل ، وأجدر بك القيود التى تُغَلِّل قلوب العشاق ! ناشدتك أن تذكرى لى اسمك واسم بلدك والسبب الذى من أجله شددت إلى هذه الأغلال » .

ولزمت الأميرة الصمت في بادئ الأمر ، فما كانت لتجسر على مخاطبة رجل وهى فتاة عذراء ، ولو لم تكن يداها مقيدتين لأخفت وجهها بكفَّيها استحياء ، ولكنها لم تكن تملك غير أن تلذف الدموع . وحين ألحَّ عليها بيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسَّر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبته ، فكشفت له عن اسمها واسم بلادها ، وعن زهو أمها الفاتنة بجمالها . وقبل أن تُكْمِل قصتها ارتفع صخب مياه المحيط وبرز من بينها وحش يتهددها وقد انبسط صدره على رقعة فسيحة من الأمواج فنذت عن الفتاة صرخة مدوِّية ، وكان والداه على مقربة منها وقد طواهما حزن عميق غير أن أمها كانت أشدهما حزناً . وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها لا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلُّق بها وهى مكبَّلة بالسلاسل . وحين وقع عليهما بصر الوافد الجديد ، قال لهما : « قد يكون أمامكما فسحة طويلة من الوقت تسكبان فيها الدموع كما تشاءان ، غير أنكما لا تملكان غير وقت لا يطول إذا أردتما مساعدتها ، أنا بيرسيوس بن جويتر من داناي التى لَقَّحها بلذبه المُخْصِب بينما كانت سجينة أحد الأبراج ، أنا بيرسيوس الذى قهر الجورجونة ذات الجداول الثعبانية . أنا من حلَّق خلال طبقات الهواء بأجنحتى المرفرفة . ولو أننى تقدمت لخطبة فتاتكم لأثرتنى على غيرى ، غير أننى أثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكم من أعجاذ بطولَةٍ جديدة أحققها بعون الآلهة لى . فلتعداني بأن تكون هذه الفتاة من نصيبى إذا قُدِّر لي أن أنقلها بجرأتى ، وسوف أكون عند عهدى » . ورضى أبوها بهذا ، [ومن ذا الذى لا يرضى !] وتوسَّلا إليه أن ينقذها ووعداه بأن يمنحاه مع ابنتهما مملكتها هدية عرس له . وكان الوحش مقبلاً آنذاك يشق الأمواج بصدره مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدِّمتها الحاد تدفعها قوة سواعد ملاحها المقتولة ، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلع البليارى . وحلَّق بيرسيوس عالياً في السحب ، وانعكس ظلُّه على سطح الماء فشرع الوحش يهاجم هذا الظل في شراسة ، بينما انقضَّ بيرسيوس على ظهره وأغمد سيفه في كتفه اليمنى إلى مقبضه المنحني وكأنه نسر جويتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوَّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً غلبه الشره في عنقه ذى الحرافيش خشية أن يلتفت فيواجهه بأنيايه السامة . وأخذ الوحش يخور خواراً بعد أن

أثار الجرح العميق فيه ألماً شديداً جعله يتصبب عالياً في الهواء ثم يغوص في المياه وكأنه خنزير برى مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارت فزعه بنباحها . وانطلق البطل يبحلّ حول الوحش بجناحيه السريعين متوقفاً أنيابه النهمة ، ويلاحقه بضربات سيفه المقوّس في أي جزء يلوح له منه ، فمرة يطعن ظهوره المكسو بإبر مسنّنة من المحارث الجوفاء ، ومرة يمزّق أضلاعه ، وأخرى يشطر ذيله الذي انكمش حتى صار كذيل السمكة ، ويطوّح المرة بعد المرة بسيفه المقوّس كالمنجل فيصق الوحش من فمه سيلاً أحمر مصطبغاً بدمه الذي بلّل رذاذه جناحيه بيرسيوس وأثقلها . وإذ خشي مواصلة الاعتداء على ريشه بعدما ابتل ، لمح صخرة تبرز فوق سطح الماء ساعة هذا لم يلحقها ساعة كان نائراً ، فتعلّق بها وأمسك بيده اليسرى نتوءاتها المدببة وطعن بسيفه جنبي الوحش ثلاث ورابع حتى أجهز عليه ، فردّت شواطئ البحر ورياض السماء أصوات التهليل والتصفيق وغمر الفرح كلا من كاسيوس وكيفيوس واحتفيا بصهرهما بيرسيوس منقذ الأسرة وحاميهما ، وهكذا كانت أندروميذا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها في آن واحد . وهبطت الفتاة من ٧٤٠ الصخرة بعدما تحرّرت من قيودها ، وغسل البطل الفائز يديه في الماء الذي أتوه به من البحر ، وإذ خاف أن يجرح الصخر رأس ميدوسا بشرعها الثعالبى وضعها على حشيرة ملساء من أوراق الشجر وغطّاها بأشباب البحر . وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوركيوس التي نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بملامستها ، واكتست أوراقها وفروعها صلابة عجبية . وانبرت حوريات البحر يتكشفن هذه الظاهرة العجيبة على العديد من الغصون ، مبتهجات كلما رأين غصناً جمد أمام أعينهن من جديد ، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليحصلن على المزيد من هذه المادة . وما يزال « المرجان » يتميز حتى اليوم بتصلبه عند ملاسته الهواء ، وهو ليس إلا نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء ، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالخجر (٣٣) .

وقام بيرسيوس ببناء مذابح ثلاثة يكسو العشب أرضها ، يقع أحدها إلى اليسار تمجيداً لمركوريوس ، والثاني إلى اليمين تمجيداً لك أيتها العلراء المقاتلة ، والأخير يتوسطهما تمجيداً لجوبيتر ، ثم قَمَ القرابين فذبح بقرة لنيروفا وعجلاً لمركوريوس الإله المجنّح القديم ، وثوراً لجوبيتر أعظم الآلهة وأجلّها . ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميذا جائزة بطولته الأخيرة ، وعقد عليها دون أن يدفع مهراً ، ولوّح كل من كيبيد وإله الزفاف بمشاعل العرس أمامها وغدّيا النار بفيض من البخور ، وتدلّت ٧٦٠ أكاليل الزهور من السقف ، وانطلقت الأناشيد ، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير في كل مكان تعبيراً عن السعادة التي تغمر القليلين المتحايين ، وفُتحت الأبواب على مصاريحها ، وتبنتى القصر الذهبي بأكمله ، وجاء أشرف البلاط الإثيوبي إلى الوليمة الفاخرة التي مدّت سطاها .

وحين فرغوا من تناول الطعام ، وطافت الخمر التي جاد بها باكخوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس ، تساءل بيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب معيشتها وتقاليدها وأخلاق سكانها ، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه ، ثم إذا هو يسأل هو الآخر قائلاً : « هلا ذكرت لنا يا بيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت الرأس التي نبتت فيها الثعابين بدل الشعر ، فذلك ورثي شيء

يتطلب إقداماً وحذقاً ؟ » . عندئذ حدثهم سليل أسرة أجنور عن مغامراته ، فقال إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصلبة ، تقيم عند مدخله إيتا فوركيس الشقيقتان اللتان تشتركان في عين واحدة تريان بها . واستطاع بيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء انتقال العين بين الشقيقتين ، ثم سلك طرقاً نائية لم يسلكها أحد من قبله خلال البلاد الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات . وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الطرق تماثيل الرجال والوحوش التي حولتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حية إلى كتل حجرية ، وحمق في صورة ميدوسا المخيفة المنعكسة على الترس البرونزي الذي كان يحمله على ذراعه اليسرى ، وبينما كانت هي وأفاعيها تغط في نوم عميق جزَّ عنقها منتزعاً رأسها من فوق كتفيها . ومن دماء الجورجونة المتدفقة وُلد الجواد بيجاسوس ذو الجناحين السريع الخفق ، كما وُلد شقيقه خريساوور^(٣٤) . ٧٨٠

ومضى بيرسيوس يروى أحداث أسفاره الطويلة ومخاطرها رغم غرابتها ، وتحدث عن البحر والبر كما شاهدهما من عل ، وعن النجوم التي صعد إليها بأجنحته المرفقة . ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد ، وسأله أحد الأشراف ، « وكيف للثعابين قد التفت برأس ميدوسا دون شقيقتيها ؟ » فأجابه بيرسيوس قائلاً : « مادمت ترى في ذلك قصة جديدة بأن أروبيها فهاكها وأصيحُ بِسَمْعِكَ إليها : لقد اشتهرت ميدوسا في وقت من الأوقات بجمالها الذي أوقد نار الغيرة بين المتقدمين لخطبتها كل من يأمل أن يظفر بها ، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنها ، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها عندما كانت تتمتع بهذا الحسن . وقيل إن إله البحار قد سلبها عُذْرَتَهَا داخل معبد مينرفا ، الأمر الذي أغضب ابنة جوبيتر فادارت ظهرها وأخفت وجهها الخفي خلف ثُرسها ، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حيات بشعة ، ومن يومها ومينرفا ترتدى فوق صدرها ثُرساً يحمل صورة تلك الأفاعى التي خلقتها بمشيئتها كي تثير الرعب بين أعدائها »^(٣٥) . ٨٠٠

التعقيبات

- (١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التي كانت تطلق على ديونيسوس . وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقي ، وانتشر في بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق.م ، وكان الإغريق يعنون بها صفات الإله ديونيسوس العريضة المائدة . أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد ساعة مولده ، ويدل اسم ليبيوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم ، ويتعلق اسم ابن النار بطروف ميلاده [انظر الكتاب الثالث] .
- (٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [انظر الكتاب الثالث] وطفل نيسا [انظر الكتاب الثالث] وثيونيس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب . ونكتيليوس هو لقب الإله الذي يحتفل بطقوسه المائدة ليلاً ، أما إيليليوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة ، ويانتوس هو اللقب الذي أضفى على ديونيسوس في مدينة إليوسيس . أما ليزر فهو اسم أحد آلهة الحصوية القدامى في العشاير اللاتينية ، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه ، ومعناه «الحر» أو «المحرر» .
- (٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور .
- (٤) انظر قصة بنتشوس في الكتاب الثالث . أما ليكورجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدواً لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون ، الأمر الذي أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلتته خيوله .
- (٥) هو ميلينوس بن بان الذي تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إيمانه الخمر معروفاً بالحكمة .
- (٦) ديريكيتيس نسبة إلى الربة السورية ديريكيتو التي تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت ، وكانت تمثل بجسم سمكة .
- (٧) أنجبت الربة ديريكيتو - كما تقول الأسطورة - بنتاً هي سميراميس المشهورة التي تزوجت من نينوس ملك آشور الذي شيد لها حدائق بابل المعلقة . وقد أمرت سميراميس أن تسور المدينة بأسوار ضخمة وعليها مائتان وخمسون برجاً ، وفي نهاية حكمها علمت أن ابنها نينيلس كان يتآمر ضدها فوهبت العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى طليعة وطاروت بعيداً .
- (٨) هي قصة الحورية بجزيرة نوسالا وكانت تحتلب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك ، فعاقبا إله الشمس رب هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة .
- (٩) كان الرومان يوزعون مائة القنوات الحجرية العالية بواسطة الأنابيب بين الأبنية العامة والخاصة . وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة في حياته الواقعية .
- (١٠) كليمينيه وروديوس حوريتان إحداهما هي أم فايون والثانية على قول البعض أم الميليلاديس . أما كيركي التي سيقص أوفيد قصتها مع جلادوكوس وسكيللا في الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس . وسميت جزيرة آيا التي كانت تسكنها فيها بعد بشبه جزيرة كيركي في إيطاليا . وكليتييه أيضاً هي بنت أوقيانوس .
- (١١) سمى علة ملوك هذا الاسم في آشور ، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملوك صور .

(١٢) أى أنها تحولت إلى زهرة اشتهرت فيها بعد باسم «عَبَاد الشمس» أو رقيب الشمس .
 (١٣) كان دافنيس بن هرمس من إحدى الحوريات شقيقاً للزراعة ، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية ، وكثيراً ما يذكر ثيوكريتوس اسمه . وقد أحبته حورية اسمها ليكا أو ناييس ثم خلفها فقد بصره ومسح صخرة وصارت أسطوره ملتصقة بريف صقلية [انظر الكتاب الثانى] .

(١٤) كيليمس هو أحد كهنة كوبيلى فى جبل إيدا . والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان ، وكانوا قد رعوا زيوس فى طفولته . أما كروكوس فهو الذى أحب سميلاكس حبا يائساً فمسخته الآلهة نبات الزعفران ، كما مسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى القشاغ .

(١٥) يتكون الاسم من اسمى هرمس [ميركوريوس] وأفروديتى [فينوس] مجتمعين .
 (١٦) كيتوريوس اسم مدينة وجبل على الشاطئ الشمالى لآسيا الصغرى ، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب .
 (١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وضرب الصنوج البرونزية .
 (١٨) كانت جدته مايا أم هرمس بنتاً للهارد أطلس .

(١٩) تحولت بنات مينياس إلى خفافيش ، وهى باللاتينية فيسهر تيليونيس نسبة إلى « فيسهر » نجم أوج الليل أى الزهرة فى ساعات الليل .

(٢٠) إينو هى صغرى بنات كلدموس وشقيقة سيميليه ، وقد قامت بتنشئة ديونيسوس عقب ولادته . أما زوجها أثاماس بن أيولوس فكان ملكاً لأورخوميى فى بويوتيا وقد أنجبت منه ولدين .

(٢١) لم تكن تحظى بالسكينة غير أرواح الموتى التى أدت لها الطقوس الجنائزية .
 (٢٢) أحب إيكسيون جونو وحاول إغرائها فأبلغت زوجها چويريت الذى شكل امرأة على غرار جونو من السحاب وولعها إلى المكان الذى كان سيلقى فيه جونو وضاجع إيكسيون السحابة وأنجب منها فصيلة التططورى ، ثم عاقبه چويريت بأن أرسله إلى العالم السفلى حيث شدّه ميركوريوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية .

(٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأبولوس ومنهم أثاماس .
 (٢٤) إخمينا وحش نصفه امرأة ونصفه ثمان . وكانت أم الكلب أورئوس الذى صارعه هرقل ، والكلب كيريبيروس ذى الرموس الثلاث والهيديرا والحيميرا وأسد نيميا .

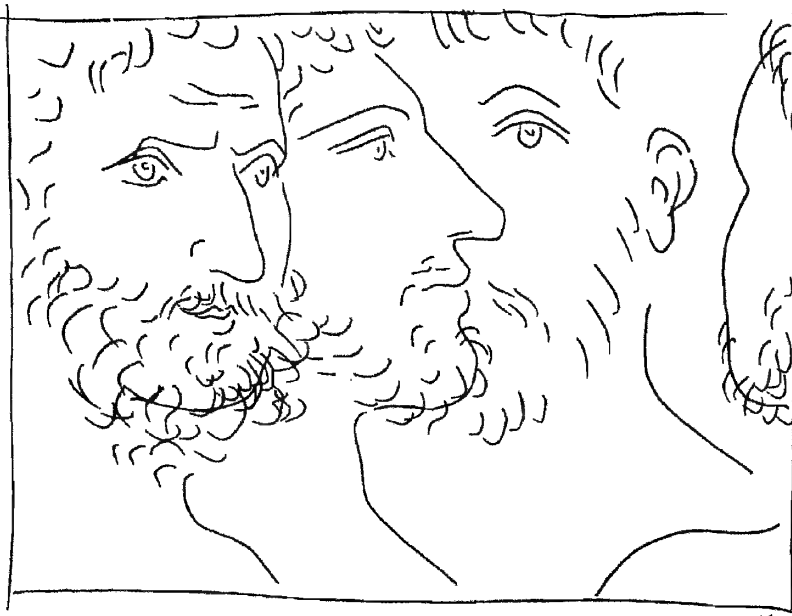
(٢٥) « أفروديتى » مشتق من « أفروس » أى الزيد باليونانية .
 (٢٦) تروى الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتيه قد حمله درفيل إلى شواطئ كورنث ، وهناك تلقاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألعاب التى سميت بالألعاب البرزخية تكريماً للذكراه . أما ليوكوثوى [إينو] ويلايمون [ميليكيرتيه] فقد انفذا الهين فى روما بدلاً من الآلهة الإيطالية القبلية ماتونا ويورتونوس . وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد علما هذه الأسطورة فى مأساتين بعنوان « أثاماس » لم يبق لنا منها شيء . كذلك قص أوربيديس نفس الأسطورة فى مأساة مفقودة بعنوان « إينو » .

(٢٧) ألبانيا الآن .
 (٢٨) كان أباس ملك أرجوس وأب أكرسيوس أحد أقرباء كلدموس وداناووس وأيجيوس (انظر الكتاب الثالث) . وكان أكرسيوس والد دانائ قد أفزعه ما تكهن به العراف بأنه سيموت قتيلاً بيد حفيده فحبس ابنته فى حجرة محبسة بالنحاس . واذ رآها زيوس مسّت خفاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شؤبوب من الذهب فأنجبت منه پيرسيوس . وبعد أن سمع أكرسيوس صياحات الطفل پيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرباب . واذ كانت نبوءة العراف ما تزال تؤرقه أغلق على الأم دانائ وطفلهما پيرسيوس صندوقاً وقلّب به إلى البحر حيث رسا على شاطئ سريفيوس فالتقطه الملك پوليديكس . وقد عالج سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة فى مأساة مفقودة اسمها « أكرسيوس » .

(٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبيريا .
 (٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التى تلبو قبيل الشروق .
 (٣١) أيولوس هو رب الرياح .

- (٣٢) تعنى كلمة إثيوبيا بلاد ذوى البشرة المحروقة ، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء . وقد ميز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين : ذوى الشعر المجعد وهم الزوج ، وذوى الشعر السبط وهم الهنود .
- (٣٣) كان القدماء يجهلون الأصل الحيوانى للمرجان . واقتصرت هذه التسمية بعد ميروذوتوس (القرن الخامس ق.م .) على البلاد الواقعة جنوب مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة .
- (٣٤) خريساوور هو شقيق الجواد بيجاسوس ، وقد تزوج ابنة أوقياتوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذى صارعه هرقل .
- (٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينا [منيرفا] .





بيكاسو

الكتاب الخامس

پيرسيوس [تمة]

وينا البطل ابن داناى يروى مغامراته لحشد من الإثيوبيين من أسرة كيبيسوس كان ثمة جمع صانخب من الجماهير الثائرة قد احتشد داخل القصر ، أخذوا يصيحون صيحات لا تتفق وتهليل الأعراس ولطفها ، بل تشويها ضراوة المحاربين . وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحركها العاصفة الهوجاء ، وكان فينيوس^(١) هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومعرضهم على القتال . وقف شاهراً رمح البرونزى الحّد المنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعد : « ها أنذا قد جئت لأنقم عن اختطف العروس التى وعدت بها ، ولن ينقذك منى جناحك ولا جويتر الذى تمثل على صورة قطرات ذهب خادعة » . وتأهب ليسد رمح فزجره كيبيوس قائلاً : « ما هذا الذى تفعله يا أخاه ؟ وأية حماقة تلك التى تدفعك إلى أن تُقدم على هذا الجرم ؟ أهكذا يكون جزاء من أسدى إلى معروفًا جليلاً ، أبهذا تكافئ من أنقذ حياة ابنتى ؟ إن پيرسيوس لم يخطفها منك إنما خطفتها بنات نيريوس [حوريات البحر النيريديس] الصارمات ،

٢٠ خطفها أمون ذو القرنين^(٢٠) والوحش الذى انطلق من البحر ليفترس أحشائها . لقد اختلطت منذ تلك اللحظة التى كانت فيها مشرفة على الهلاك فوق الصخرة ، هذا إذا لم تكن أنت بقسوتك تريد لها الهلاك ، وتتخذ أنت من خوفنا عليها ما تلهي به . فإما كان يحق لك أن تقف جامداً وهى مكبلة بالأغلال على مرأى منك ولا تمد لها يد العون وأنت عمها وخطيبها معاً ، أو يلقى بك بعد هذا أن تشكو وأن تحرم من أنقذها جائزته . وإذا كنت حقاً تقدرها حتى قدرها أما كان الأولى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شدت عليها . وماذمت لم تفعل فلتدع من أنقذها يظفر بما وعد به ويحني ثمار ما قديم . لقد خلصنى من أن أرزح تحت عبء شيخوخة أخزم فيها حنان ابنتى ، ولتعلم بأننا لم نؤثره عليك بل أثرناه على الموت الذى كان يتهدها يقيناً » .

٤٠ وارتج على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدرى إلى أيها يسد رحه ، وبعد تردد لم يطل قذف پيرسيوس برمحه بكل ما أثاره فيه الغضب من قوة ، غير أن رميته ذهبت هباء إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد مسدداً رحه إلى صدر خصمه ، ولكن ما أسرع أن احتفى فينيوس بالحراب الذى منحه حماية لم يكن جديراً بها . ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين رويوس فسقط صريعاً يقرع الأرض بكعبيه ويخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على الموائد . وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة وقذفوا الرماح هنا وهناك مُنادين بقتل كيبيوس وصهره . ولكن كيبيوس كان قد بادر فغادر قصره مُشهداً آله الضيافة على أنه لا يد له فيما حدث وأنه كان حقاً صادق النية .

واقبلت باللاس المحاربة وقدمت ترسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكت فيه الشجاعة . وكان أول من تصدى له هندى اسمه أئيس وضعت أمه « ليمناى » وهى إحدى حوريات نهر الجنج تحت مياهه الصافية . وكان صبيّاً أكمل السادسة عشر من عمره بهى الطلعة تزيد ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدى معطفاً من معاطف « صور » وشى بأهداب من قصب ، ويحيط بعنقه عقد من الحلقات الذهبية ، ويضم شعره المعطر بالمرمشط مقوس ، لا يخطىء رمحه هدفاً مهماً بعد ويجيد استخدام القوس ، غير أنه ما كاد يبدأ فى شد قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح فجندلته على الأرض وتشممت عظام مجتمته ووجهه .

٦٠ وحينما رأى ليكاباس الأشورى أعز أصدقائه جندلاً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، تُعشى الجراح ذلك الوجه الذى كان مفتوناً به وتعمه بركة من الدماء ، فانزع القوس الذى كان أئيس قد شد إليها السهم وصاح : « لانا نزلك الآن بنفسى ، ولن أتركك تفرح بموت صبي لن يكسبك موته غير العار » . وانطلق السهم قبل أن يتم عبارته ، غير أن پيرسيوس أفلت منه فلم يُصيب غير طيات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوس — الذى أطار به عنق ميدوسا — وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحلق ليكاباس بعينيه الزائغتين فى أئيس ثم سقط بجواره مطمئن النفس لموتها معاً وذهابها سوتاً إلى عالم الأشباح .

وحاول كل من فورباس الأسواني وأنثيميدون الليبي الاشتراك في المعركة غير أنها انزلقا في بركة من الدماء الفاترة على الأرض فسقطا وصرعهما بيرسيوس حين أغمد سيفه في ضلوع أنثيميدون وفي حلق فوزباس . وكان مصير إريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن بيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه ، إذ كان إريتوس مسلحاً بشاطور عريض الحد ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلًا بارز النقوش ، وهوى به على رأس إريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الورا وارتطم رأسه بالأرض مهشماً فأخذ يعانى سكرات الموت .

وأوفى بيرسيوس بحياة كل من پوليديمونيون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازي وليسيوس الثيسالي ، وهيليكس المسترسل الشعر ، وفليجياس ، وكليطوس ، ثم انطلق يطأ حثث ضحاياه بقدميه . ولم يحسر فينيوس على منازلة خصمه عن قرب بل قذفه برمحه عن بُعد فأخطاه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذى كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يُغنه ذلك شيئاً ، لذلك حنق على فينيوس وصاح فيه قائلاً : « مادمت قد حملتني حملاً على أن انحاز إلى أحد الفريقين وجعلت مني خصماً لك ، فلأصيبك بجرح لقاء ذلك الجرح الذى أصبتني به » ، وجعل يتزعزع الرمح من جسده وهمّ بقذف عدوه به غير أنه سقط على الأرض والدماء تنزف منه .

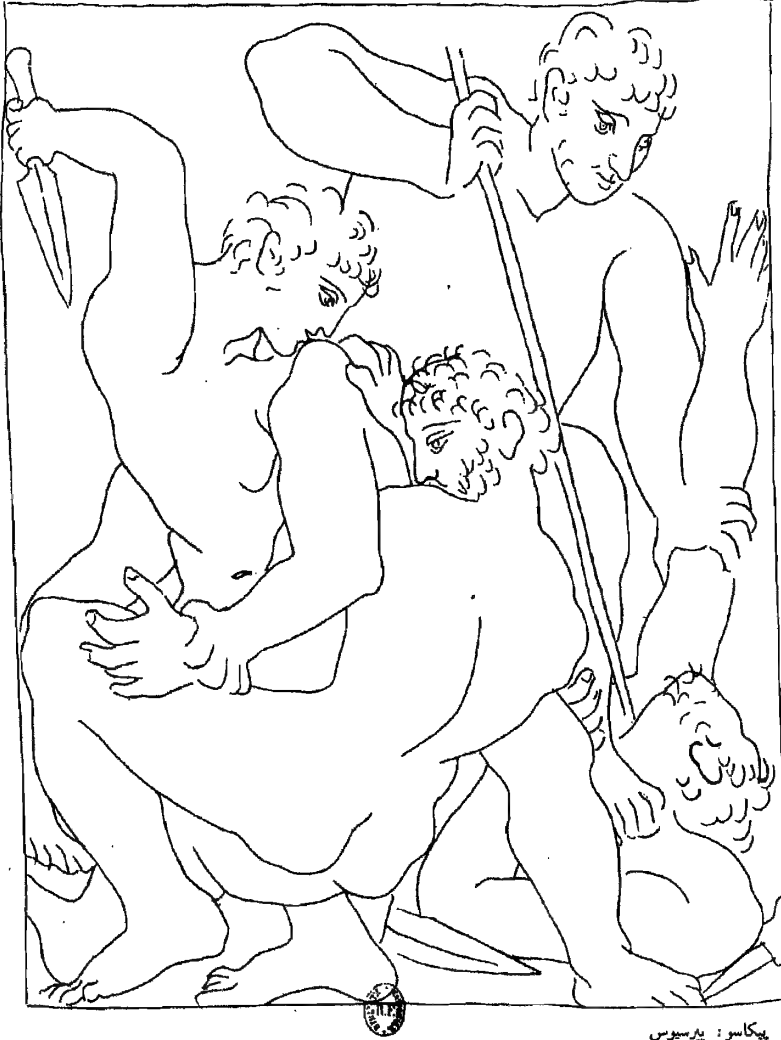
ومات هوديتيس - أعظم أبطال إثيوبيا بعد الملك - بسيف كليمنوس ، وصرع هيسوس پروثونور ، فتكفل بيرسيوس بذبح هيسوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنٌ عادل ودع هو إيتايون لم يشترك في القتال بسيفه لشيخوخته ، ولكن شارك بلسانه فمضى يصبّ لعناته على هذه المعركة الأثمة ، بينما يمسك المحارب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحارب وظل لسانه يتحرك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوامان بروتياس وأمون ، وكانا لا يُقهران بفضل قفاز^(١) المصارعة ، غير أنه لا حيلة للقفاز أمل صولة السيوف ففضى عليهما فينيوس بسيفه ، كما قضى على أبيكوس كاهن سيريس الذى كان يلفّ جبينه بعصابة بيضاء . كذلك خر لامپيتيديس صريعاً ولم يكن قد خلق للقتال ، وإنما كان مطرباً ، وكما كان غناؤه للسلام كذلك كانت قيثارته ، وكان قد دُعي ليعزف فواصل موسيقية وينشد بعض الأغاني خلال الحفل ، ورآه پتالوس وسط مجموعة رجال ممسكاً بريشة قيثارته العديدة الجدوى في القتال وصاح فيه « لتنشد ما بقى من أغنيتك لأطياب العالم السفلى » وأغمد سيفه في وجنة لامپيتيديس اليسرى فسقط على الأرض وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فأطلقت نغمًا حزيناً . وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثار له فخلع قضيباً ضخماً من الباب ودقّ به عنق پتالوس فخرّ صريعاً كما يخرّ العجل المذبوح قرباناً ، وحاول پيلاتس وكان قادمًا من شواطئ نهر سينيس^(٢) أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كوروثوس الليبي فأثبت يده بخشب الباب ، وأدركه آباس بطعنة في جنبه مات على أثرها وظل معلقاً بمصراع الباب ، كما قتل ميلانيوس أحد أتباع بيرسيوس ، وكذلك دوريلاس أغنى مَلَك ناسامونيا^(٣) وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرتهم يملكا لأهراء التوابل ، فلقد طعنه هاليكونيوس البختياري برمح نفذ مثلاً في فخذه فجرح

خصيته ، وراه أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة زائف العينين فقال له : « حَسْبُكَ بعد تلك الأراضي الشاسعة التي تمتلكها ، هذه الرقعة الصغيرة التي ترقد عليها » . وسارع بيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانترع الرمح وكانت لاتزال به حرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فمزق أنفه ورقبته ونفذ من الخلف . وظل القدريرعى يدي بيرسيوس حتى قتل الشقيقين كليتيوس وكلايس اللذين ولدا من أم واحدة وماتا بجرحين مختلفين ، فقد نفذ رمح بيرسيوس في فخذى كليتيوس بينما غاص في حلق كلايس وكأنه يعضه بأسنانه ، كما مات كيلادون من منديس^(١٤٠) ، وأستريوس الفلسطيني الأم المجهول الأب ، ومات أيثيون الذي كان مع حذقه في التنبؤ جاهلاً بمصرعه ، وكذلك هلك تواكتيس حامل دروع الملك وأجرتيس الموصوم بقتل أبيه .

وكان على بيرسيوس بعد ما أبلى في هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كل ما بذله ، فقد انفرد به المهاجمون للإتيان عليه ، وتكالبت عليه من كل حذب وصوب عصابات تبغى ألا يمضى في ثبل ما وعده به من حقوق . ولم يُغن شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه ، فلقد ضاع صباح الملك وصراخه وسط صليل السيوف وأنين القتل ، وكانت يبللونا ربة الحرب قد نثرت الدماء على أمة الأسرة لتذكى نار القتال .

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف بيرسيوس وحده ، وتهاوت رماحهم عليه تهاوى البرد في الشتاء أو أشد ، فأسند كتفيه إلى عمود حجري كبير يحمي به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم . وكان يرتبص له من جهة اليسار موليبوس الخاروني^(١٤١) ويهاجمه من اليمين إيثيمون النبطي^(١٤٢) ، وبدا بين خصميه كمنر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار في وادين مختلفين في آن واحد فلم يدر أيهما يهاجم أولاً ، وود لو استطاع أن يقفز إلى الاتجاهين في اللحظة نفسها . وأخذ بيرسيوس يُراوِد نفسه فيمن يبدأ بقتله ، وإذا هو يُعاجل موليبوس بطعنة مزقت ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحقته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شارعاً سيفه على رقبته ، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة العمود وانكسر وارتد نصله في حلق من أطلقه ، ولم يكن الجرح مميتاً لكن وقفته مرتجفاً أعزل أتاح لپيرسيوس أن يُرديه بسيف ميركوريوس . وأخيراً تيقن البطل من أن شجاعته تقصر أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح : « مادمتم تُكْروهوننى على الالتجاء إلى ما لم أكن أحب اللجوء إليه ، فلسوف أطلب العون من كانت لي خصماً ، ولْيُشج بوجهه إذن من كان صديقاً » ، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكشفها أمامهم . وانبرى له نيسكيلوس يسخر منه وهو يقول : « هل لك في غيرنا ممن تخدعهم جيلك » ، وكان قد تأهب لقذف رمحه فإذا هو يجمد في وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام ، وتقدم في إثره أمبيكس مغاولاً إغمد سيفه في صدر بيرسيوس الشجاع غير أن يده جمدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحجّر على هذا الوضع . وحينئذ برز نيلبوس الذى كان يدعى زوراً انتسابه إلى النيل ذى المصبّات السبع ، ورفع ترسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة ، وصاح : « تطلّع يا بيرسيوس إلى أين يمتد نسي ، ولسوف يُسرّى عنك أنك ذاهب إلى عالم الموت على يدي بطل مثل » ، وهنا اختفت كلماته الأخيرة في حلقة وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم ولكن بلا صوت . وصاح إيريكس مؤثباً المحاربين بقوله : « إنه الجبن هو

الذى يملككم تجمدون وليس رأس الجورجونة ، هلموا معى للقضاء على هذا الفقى وسلاحه السحرى « ٢٠٠
ولكنه لم يكذب يندفع خطوة للأمام حتى يجد كمثل من حجر .



بيكاسو : بيرسيوس

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذى نزل بهم ، فثمة محارب من أنصار بيرسيوس هو
أكونتيس كان قد وقع بصره على رأس الجورجونة فجُمِد هو الآخر على الفور ، وظن أستياجيس من

خصوم بيرسيوس أنه مازال حيًا فضربه بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجبًا ، وإذا هو الآخر يتحول تمثالًا حجريًا تملأ وجهه قسبات التعجب .

ويطول سرد أسماء الجنود الدهماء الذين هلكوا في هذه المعركة ، فلم يبق حيًا منهم سوى مائتين ، تحول مائتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلعهم إلى رأس الجورجونة . وفي النهاية امتلأ فينيوس أسى على ذلك القتال الذي بدأه ظالمًا ، لكن ما عساه يفعل الآن ؟ لقد رأى رجاله تماثيل في وضعات مختلفة ، وكان يتبينهم ويناديهم بأسمائهم طالبًا منهم العون غير مصدق عينيه ، وأخذ يلمس أقرب الأجسام إليه فوجدها رخامًا صلبًا فابتعد عنها يائسًا مُقرًا بالفشل ، ورفع ذراعيه متوسلًا إلى بيرسيوس وهو يتجنب النظر إليه قائلاً : « أنت الفائز يا بيرسيوس فأخف سلاحك الشبح عن الأنظار ، أخف رأس ميدوسا ، أخف ذلك الرأس الذي يحول الرجال إلى صخور ، ناشدتك أن تخفيه ، فلم تدفعني إلى القتال كراهيتي لك وحبي للسيطرة بل هي الرغبة في العروس التي وعدت بها . لقد قمت لها بالكثير الذي يجعلك لها أهلاً لكنني عرفتها قبلك ، ولن أخجل الآن من تسليمها إليك ، هب لي إذن شيئًا واحدًا أيها البطل العظيم ، هب لي حياتي وحدها وليكن لك بعد هذا ما تريد . »

٢٢٠

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلع إلى الرجل الذي يتوسل إليه ، فأجابه بيرسيوس قائلاً : « فينيوس يا أجبني الخليفة ، لسوف أعطيك ما أستطيعه وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل دنيء الطوّة مثلك . لا تخشى أن يصيبك سيفي بأذى ، فسوف أجعل منك تمثالاً منتصباً في قصر نبي يبقى على الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتي التي كنت قد خطبتها يوماً » . ثم لوح برأس بنت فوركيس في الاتجاه الذي يتطلع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف . ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جمد ، وجمدت الدموع في عينيه واستحال صخرًا بقيت قسبات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت بداهة تعبران عن خضوعه وذلته .

وعاد « بيرسيوس » حفيد أكريسيوس بعد ذلك إلى موطنه متصراً تصحبه عروسه ، ودخل من باب مدينته حيث وُلد . وبالرغم من أن جثته لم يكن قد بدل ما يستحق عليه العون ، إلا أن بيرسيوس انبرى يأخذ بحق أكريسيوس وهو يعدّ الإهانة التي لحقت بجثته إهانة له ، فهاجم « پرويتوس » الذي كان قد أرغم أخاه « أكريسيوس » بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح الأسلحة ولا مقاومة القلعة المغتصبة في حمايته أمام بشاعة نظرة المخلوقة الغريبة ذات الشعر الثعالب .

٢٤٠

أما أنت يا بوليديكتيس^(٩) ، يا من توليت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فما حرّك عطفك هذا الإقدام الذي أوتيته ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التي شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التي حلت به ، ولكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفر وغضب جائر لا حدود له ، فكنت تهون من بطولاته كافة وتدعى أن قتل ميدوسا لم يكن غير حديث كذب . وعندها صاح به بيرسيوس : « لكى

أثبت لك صدق ما أدعى ، فلشيوخا بوجوهكم جميعاً ، وسرعان ما حوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسكب قطرة من دماؤه حين أخرج له وجه الجورجونة « ميدوسا » .

هيبوكرينى . ربّات الضن . بنات پيپروس

لم تفارق تريتونيا « منيرفا » [تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] طيلة الوقت أخاها البطل الذى أنجبه جوبيتر من خلال القطرات الذهبية . وما لبثت أن التقت بسحابة ورحلت عن سيريفوس مخلقة وراءها كلاً من جزيرى كيثوس وجياروس ، وسلكت أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسعة حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : « نمت إلى سمعى شائعة تقول بأن ينبوعاً قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح « پيجاسوس » وليد « ميدوسا » ، ولذلك ٢٦٠ جثت لأشهد هذا ينبوع العجيب بعد أن شهدت الجواد وهو ينشق من دماء أمه المسكوية ، فلجابتها أورانيا : « مرحباً بك أيها الإلهة ، وأياً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهى كفيّلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أما قصة ينبوع فصحيحة لأن الجواد پيجاسوس هو الذى فجّره » . ثم قادت باللاس إلى ينبوع المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تحملق كدهشة فى هذا ينبوع الذى فجّره ضربة من حافر جواد ، ثم جالت بصرها حول ينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف والفسرج الخضراء المرصعة بالزهور العديدة . وهنّأت بنات « نيموزيفى » على موطنهن الذى يفيض عليهن سعادة ويتفق وما يسطعن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : « أيّا باللاس تريتونيا ، يا من كنت ستصبحين واحدة منا لولا شجاعتك التى قادتك إلى حمل رسالة أجلّ شأناً . إن ما تقولينه هو الحق بعينه وإنك لعلّ حق فى امتداحك دارنا ورسالتنا . إن حفظنا لسعيد لو أتيج لنا أن ننعّم به فى هلوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى الناس لا حدود له ، فالإنثاء بغير حراسة يعيشن فى خوف مستديم ، وصورة « پيرينيوس » الشرس ماثلة دائماً أمام عينيّ وبقى الذعر مستولياً علىّ منذ تلك الحادثة . لقد كان محارباً عنيفاً استولى بمعونة جنده الطراقيين على بلاد دوليس وحقول « فوكيس » ونصب نفسه ملكاً على الأراضى التى اغتصبها عنوة . وكنا نحن الربّات فى طريقنا إلى معبدنا فى جبل « الهارناسوس » فرأنا ساعة مررنا به وتظاهر بإجلال أشخاصنا الإلهية ، ودعانا لدخول داره لنحتفى من المطر قائلاً : « يا بنات نيموزيفى ، أرجوكن أن تتلبّسن برُهة وألا تتردّدن فى الاحتفاء بدارى من المطر والعاصفة ، فطالما دخلت الآلهة أكواخ أناس أشدّ فقرأ منى » ، فحفظنا ترحيحه وكذا رداة الطقس إلى قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريح الشمال ريح الجنوب وبذّدت غيومها قبّلت السماء صافية من جديد ، وهمنّا باستئناف مسيرنا فإذا پيرينيوس يُغلّق علينا داره ويشرع فى الاعتداء علينا . لكننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التى حلّقنا بها عالياً ، فانطلق يصعد أسوار القصر مسرعاً وراءنا صائحاً فينا « أينما تذهبن سامضى فى إثركن ! » ولكنه سقط فى غمرة جنونه من البرج فهوى على الأرض وقد تناثرت عظام مجتمته المهشّمة وخضبت الأرض بدمه » .

ورفرت أجنحة في الفضاء خلال حديث ربّة الفن ودوّت من أعلى الغصون عبارات التحية ،
فتطلّعت إينة جويتر إلى أعلى لترى مبعث هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدث
إنساناً ولم يكن غير طير من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقق التي تستطيع محاكاة مختلف
الاصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعية مصيرها . وعندما بدت الدهشة على منيرفا أخذت ربّة الفن
تفسّر لها الأمر وتقول : « هؤلاء أيضاً قد تحوّلن حديثاً إلى طيور بعد فشلهن في إحدى المباريات . وكان
أبوهم « بيروس » أحد كبار أثرياء بيللا وكانت أمهن أويى من « پايونيا »^(١١) قد ناشدت لوكينا ربّة
الوضع العون تسع مرات ، وأعانتها فوضعت تسع مرات . وكانت الشقيقات التسعة الحمقاوات قد
تملّكنهن الغرور لكثرة عددن ومضين يتنقلن عبر بلاد « هايمونيا » وآخايا . وحين وفدن على جبل هليكون
استفززننا بقولهن ، « ألا توقفتن عن فرض أنفسكن على الجهلة بادعائكن أنكن منشادات رخصيات
الصوت ، إن كنّ واقفات بمواهبكن فتعالين معنا يا بنات ثيسيا »^(١٢) المقدسات تنبار فلسنا دونكن في
رخامة الصوت ولا في مهارة الإنشاد ، كما أننا نساويكن في عددكن ، فإذا خسرتن المباراة تركن النيبوع
الذي فجّره ابن ميلوسا وينبوع أجنبي في بويوتيا . وإذا خسرننا نحن انسحبنا خارج سهول مقدونيا إلى
پايونيا التي تكسوها الثلوج ، ولتقم الخوريات مقام الحكّم في المباراة . ولقد كان عاراً علينا أن نبارهن ،
كما كان من العار أن نراجع ونسحب من المباراة . ثم كان اختيار الخوريات اللاتي أقسمن بأنهرهن أن
يكنّ في جانب العدل ، واتخذن أماكنهن على كتل الصخر الصلد . ولم نحتج للاقتراع فيمن يبدأ المباراة ،
إذ أنشدت من استهلّت المباراة نشيداً يقص حروب سكان السماوات ونسبت المجد إلى العمالقة زوراً
واستهانت بأجداد كبار الآلهة ، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ونشر الدعر بين سكان
السماوات ، وكيف هرب منه جميع الآلهة وفرّوا حتى لاذوا بأرض مصر في وادي النيل ذى المصبّات السبع ،
وطاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض في مأواهم فتكرّ الآلهة في أشكال أخرى كي ينجدهوه : تخفى
جويتر في صورة كبش يقود القطيع ، وهذا هو السرّ في تصوير آمون الليبي^(١٣) حتى اليوم بقرون لولبية ،
وتخفى أبوللو في صورة الغراب ، ونحول ابن سيميليّة تيساً ، وشقيقه فوييوس قطّة ، وجونو عجلة بيضاء ،
وقينوس سمكة ، بينما أخذ ميكورويوس إله كيليني أجنحة الطائر أيس . أنشدت الكثير من هذا القبيل على
القيثارة متحدّية بذلك ربّات الفنون . وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيتها الإلهة ، أو قد لا تدع لك مشاغلك
وقتما تستمعين فيه إلى أنشودة الربّات ؟ فاجابت باللاس « لا تخشى ذلك واخبريني بما أنشدته بدقائقه على
ترتيب وقوعه » . ثم جلست باللاس في ظل الشجر الرّخى ، وواصلت ربّة الفنون قصتها قائلة : « لقد
اخترنا من بيننا « كاليوبي »^(١٤) لتمثّلنا جميعاً ، فنهضت واقفة وقد شدّت خصلات شعرها المسترسلة بإكليل
من اللبلاب ، وغمزت أوتار قيثارها الحانية بسبّابتها ، وأنشدت :

سيريس وپروسيرپينا

٣٤٠ « كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس وأول من زرعت القمح وسائر الغلال ، وفرضت النواميس الأولى على العالم ، فنحن ندين بكل ما نملكه لسيريس ، وعلى أن أتغنى بها وليت نشيدى يكون جديراً بها ، فالإلهة يقينا جديرة بأغنيى .

أرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد العملاق تيفويوس الذى جرؤ وتطلع إلى الإقامة فى السماء ، وطالما صارع لينهض من تحت الجزيرة ، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت جبل بيلوروس القريب من أوزونيا^(١٤) ، كما جمدت يده اليسرى تحت جبل بانخيوس ، بينما شد وثاق سافيه أسفل ليليبايوم^(١٥) ، واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه بينما كان مستلقياً على ظهره تحته وهو يلفظ الحميم واللهب من فكيه المخوفين . وطالما حاول إلقاء عبء الأرض من فوق ظهره وطى المدن والتلال الضخمة التى تقيد ، وعندها كانت الأرض تزلزل حتى خشى ملك الأشباح الصامته نفسه أن تنشق الأرض عن فجوات واسعة تسمح لضوء النهار أن يتسرب إلى مملكته فيُخيف أطيايف الموتى القلقة . ودفعه الخوف من ذلك إلى مغادرة مملكته المظلمة فى مركبته التى تجرها الجياد السود ، ودار بها حول الدعامات التى تقوم عليها صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعف بها ، فلمحت سيدة إريكس [فينوس]^(١٦) التى احتضنت ابنها المجنح [كيبيد] وقالت له : « أى كيبيد يا من أنت ساعدى وسلاحى وياسى ، خذ يا بُنى هذه السهام التى تخضع بها الجميع لسلطانك ، وارم بأسرعها قلب ذلك الإله الذى يسود آخر مملكة من بين ممالك الكون الثلاثة . لقد أخضعت آلهة الأفاق العلوية بما فيهم جوبيتر نفسه ، وكذلك فعلت بألهة البحار دون أن تستثنى كبيرهم ، فلماذا تهمل شأن تارتاروس ؟ لماذا لا يمتد سلطان أمك وهو أيضاً سلطانك إلى العالم السفلى وهو ثلث الكون ، ولا تنس أن السماء قد بدأت تزدرينا لتراخينا ، وأخذ سلطان الحب يضمم ويضمم معه سلطانى ، ألم تر إلى باللاس وديانا ربّة الصيد يديران وجهيهما عنى ؟ كما أن ابنة سيريس ستظل عذراء إذا تركنا الأمر بيدها ، فذلك أمنيته . وإذا كنت تمحصر حقاً على مملكتنا التى تنقاسمها فأربط بين هذه الإلهة وبين عمّها »^(١٧) . ولما فرغت فينوس من حديثها ، فتح كيبيد جعبته وتخبر من بين سهامه الألف أمضاهاً وأطوعها لقوسه كما شاءت أمه ، وشد قوسه مستنداً إلى ركبته وأطلق السهم الذى أصاب قلب بلوتو وانغرس نصله فيه .

وكانت على مقربة من أسوار مدينة هُنا^(١٨) بحيرة عميقة الغور أطلق عليها اسم « بيرجوس » ينافس هديل بجعاتها الغناء الذى يُطرب سمع نهر كايستر^(١٩) من بجعاته الشاذيات فوق مياهه الجارية . وكانت الأشجار تحيط بالبحيرة وتحميها بأوراق غصونها الكثيفة من أشعة فوبيوس وتكسوها بظلال رطبة ، وتنتشر المراعى الخصبة من حولها متأنقة بالأزاهير حتى باتت كالربيع الدائم .

كانت پروسيرпина هناك تلهو باقتطاف أزهار البنفسج والسوسن ثم تجمعها مرحلةً مرح الطفولة البرىء في سَلْتها أو بين طَيَّات ثوبها محاولة أن تَبَرِّ رفيقاتها ، وقد وقع عليها بصر پلوتو حين أصابه السهم فإذا هو يقع في غرامها فاختطفها ، فما أشدُّ لُفَّة الحب ! وأخذت الإلهة المذعورة تبكى وتصبح مستغيثة بأماها ويرفيقاتها وهي تَمَزَّق صدر رداثها حتى سقطت الأزهار التي كانت قد جمعتها في ثناياه ، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التي تَجَرَّ مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثه على مضاعفة جهده ، ويَزِرُّ أعنتها المصبوغة باللون داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهي تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبرك الكبريتية في بلاد الهاليكي^(٢٠) التي تنبثق مياهها من باطن الأرض وهي ساخنة تقور ، ثم مرَّت بالبقعة التي شيدت فيها سلالة باكخاداي الوافدة من كورنث وبرزخها^(٢١) أسوار مدينتها بين مينائين يكبر أحدهما الآخر .

كيانى

وكان ثمة خليج في المنطقة التي تفصل بين بركة كيانى وجدول آريثوزا الوافد من پيزا ، تتجمع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذى يزداد ضيقاً في عدَّة مواقع . وكانت « كيانى » أشهر حوريات صقلية التي أطلق اسمها على البركة تحميا به ، وقد برزت حتى خصرها خارج المياه وتعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت : « لن تذهب بابنة سيريس أبعد من هذا يا پلوتو ، ولن تتزوج بها إذا لم تكن هي راغبة في ذلك ، وكان أوَّل بك أن تخطبها بدلاً من اختطافها . ولو أُنحِت لي فرصة لحدّثتك عن حادثٍ مثيل ، فلقد وقع أنايس^(٢٢) في غرامى ، ثم أصبحت عروسه بعد أن نجح في استئالي بتوسلاته لا استسلاماً لمثل هذا الذعر الذى تحرّكه في قلب الصبية » . وما لبثت أن بسطت ذراعيها خلال حديثها فسَدَّت الطريق أمام پلوتو بن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستثار خيوله العابسة ، وقذف بصولجان مُلكه في قاع البركة فانشَقَّت الأرض ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس ، وانطلقت مركبته وغاصت إلى مملكته من خلال هذا الشقّ . ومضت كيانى تندب اختطاف الإلهة حزينة على استهانة پلوتو بسلطانها على بركتها ، واستقر في قلبها جُرح لا شفاء منه ، فبدأت تُلوى من فرط بكائها حتى تحلّلت تماماً في الماء الذى كانت في الماضي إلهته الجلييلة وتخاذلت أعضاؤها فأخذت عظامه تنثني وأظافرها تفقد صلابتها . وكانت أجزاء جسدِها الدقيقة هي أول ما بدأ في التحلّل : شعرها الداكن الزُرقة وأصابعها وساقاها وقدماه . وما أسرع ما تحوَّلت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة ، ثم اختفى كتفها وظهرا وردفاها ونهداها في سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذى يجرى في عروقها إلى ماء سيال ، ولم يبق منها شيء تقبض عليه كَفَّ إنسان .

وتسلَّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرпина وهي تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها ، ولم تشاهدها « أورورا » ربّة الفجر ساعة يقظتها بصفائرها النديّة ، كما لم يشهدها هيسبيروس نجم

الليل وهي تأوى ساعة إلى الراحة ، فقد أشعلت يديها مشعلاً من خشب الصنوبر من بركان « إتنا » وطافت به باحثة بين الظلمات القارصة البرودة ، فلم تكن تحس فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جهد السير وآذنها آلام العطش . وقبل أن تعثر على ينبوع تطفئ بهمياهه لبيب ظمئها ، وقع بصرها عَرَضاً على كوخ مسقوف بالقش قرعت بابه المتطامن فخرجت منه امرأة عجوز ، وحين رأت الإلهة وعرفت أنها إنما جاءت طلباً للباء ، أعطتها شراباً عذباً مغشئاً بطيخة من دقيق الشعير المحمص . وحين أخذت سيريس تشرب تقدّم منها صبى معروق الوجه صفيق الملامح أخذ يعنفها ويصمها بالشرابة ، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما يقى من هذا الشراب وانتثر عليه الشعير المختلط بالسائل ، فامتلاً وجهه بالبقع وحلّت قدماه محل ذراعيه وثما له ذيل وتضائل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحى أصغر من السحلية حجماً . ودهشت المرأة العجوز وبكت مائة يدها لتلمس هذا المخلوق الجديد الغريب ، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبئ فيه ، وكان يحمل اسم « ستليو »^(٢٣) الدال على لون جسده الذى انتثرت به ٤٦٠ البقع هنا وهناك .

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره ، حتى إذا لم يعد هناك مكان لم تبحث به فقلت راجعة إلى صقلية . وقد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطئ بركة كياني ، ولولم تكن الحورية قد تحلّلت إلى مياه لاستطاعت أن تروى لسيريس تفاصيل ما حدث . وكانت كياني راغبة في الحديث إلا أنها لم تكن تملك فماً ولا لساناً ولا أداة أخرى تتكلم بها ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تُعطي لسيريس إشارة تكشف لها عن أمر ابنتها ، إذ عرضت على سطح مياهها حزام بروسيريينا [بيرسيفوني] الذى كانت تتمنطق به والذى سقط منها في البركة المقدسة . وما إن رآته سيريس ، وكانت تعرفه حق المعرفة ، حتى جعلت تغزق شعر رأسها وكأنها لم تعرف بفقد ابنتها إلا ساعتها فقط ، ومضت تضرب صدرها بيدها . ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها . واختصّت جزيرة صقلية التى وجلت بها آثار فقيدتها بمزيد من اللوم ، وأخذت تحطم يديها في قسوة المحاربت التى كانت تقلّب الأرض ، وقضت في غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة في الحقول بالهلاك بالطاعون ، وأمرت الحقول بإفساد ما غرس فيها من بذور ، وصارت التربة التى كانت تُباهى بخصوبتها في أنحاء العالم جدية قاحلة فخيّبت الآمال التى وضعها فيها الناس ، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تتلفها حرارة الشمس المشتعلة أو يجرفها سيل ٤٨٠ من الأمطار أو تُبيدها موجات الرياح العاصفة ، على حين كانت الطيور الشرهة تريض بالبدور ساعة بلزرها ، والأعشاب الضارة والأشواك المستعصية تأتى على المحاصيل .

ومن أعماق البركة برز وجه الحورية « آريثوزا » من إيليس التى هام بها ألفيوس^(٢٤) ، فازاحت خصلات شعرها المبتلة عن جبينها ، وقالت لسيريس : « يا أم المحاصيل العظيمة ، يا من بحثت عن ابنتك العذراء في جميع أرجاء العالم ، هوّن عليك ما بذلت من جهد ، وخفّف من غضبك على الأرض الوفيّة لك ، فليست الأرض هى الملوّمة حين انشقت لتدع المعتدى ينفذ عبرها . لقد فعلت ذلك مكرهه ،

ولست بذلك أدافع عن بلادي ، لأني وُلدت في « ييزا »^(٢٥) ونشأت في « إيليس » فأنا غريبة عن هذه البلاد . على أنني أحب صقلية أكثر من أى بلد آخر رغم أنى لست من أهلها فهي الآن موطنى ، أقمت فيها تحت اسم آريثوزا^(٢٦) فكفكفى غضبك عليها وترفقى بها أيتها الربّة ، وسوف أقص عليك سبب تركى لبلادى وركوب هذا البحر حتى صقلية حين تسنح فرصة ، وبعد أن تكونى قد أخذت قسطاً من راحة البال ونعمت بشيء من البهجة . ويكفى أن أقول لك إن الأرض قد انشقت أمامى فنفتت عبر كهوفها السفلى إلى الأعماق ، ثم عُدت ثانية إلى سطح الأرض هنا ورأيت النجوم التى طالما اشتقتها . وبينما كنت انساب فى مستنقعات ستيكس شاهدت ابتكك پروسيرپينا بعينى وقد عصفت بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الفزع ، ومع ذلك بدت ملكة حقّة ، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السفلى المطلق .

ووقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة ، وبقيت على هذا الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها ، ثم سرعان ما أخذت مغالبة الغضب تحمل عمل قسوة الحزن ، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير ، وأمام چوبيتر وقفت مقبّبة الجبين منقوشة الشعر وقالت شاكية : « جيكك يا چوبيتر متوسّلة أن تُعيننى على حماية ابتكك وابنتى ، فإذا لم يكن للأُم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرّك ابتكك عواطف الأبوة فى قلبك . لا تضنّ إذن بمحبّتك على ابتكك بدعوى أنها ابنتى . لقد عثرتُ أخيراً على ابتكك التى طالما بحثت عنها ، وما أظننى بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظفراً بها . لقد اختطفتك وإننى لغافرة لمختطفها ذنبه إذا هوردها ، وليس لابتكك أن تتزوج من قاطع طريق ، حتى لو لم تكن ابنتى . فأجابه چوبيتر « إن ابتكك موضع إعزازى كما هى موضع إعزازك لمنحها معاً حناننا ونهتم معاً بشؤونها . ولو أنك سميت الأشياء بأسمائها الحقيقية لما وجدت ثمة عار فى مصاهرته ، ويكفيه أنه شقيق چوبيتر حتى لو لم تكن له ألقاب أخرى ، فأنا لم أتقدم عليه مرتبة إلاّ بالحظ وحده . أما إذا كنت ملهوفة على التفريق بينهما فمن اليسير على پروسيرپينا أن تصعد إلى السماء لو أنها لم تدق بشفتيها أى طعام مما ينطوى عليه ذلك العالم السفلى ، فذلك وحده شرط ربّات الأقدار » .

أسكالا فوس والسيرينات

ولم تحوّل كلمات چوبيتر سيريس عن إصرارها على إنقاذ ابنتها ، غير أن الأقدار لم تسمح بذلك لأن الفتاة كانت قد قطعت صيامها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السفلى الجميلة التنسيق إذ قطفت رمانة من غصن شجرة دان ، وأخذت منها — بعد نزع قشرتها — سبع حبّات امتصت عصارتها ، وكان الذى رآها تفعل ذلك هو أسكالا فوس الذى يقال إن الحورية « أورفنيه » قد أنجبته من زوجها إله النهر آخرون منذ زمن بعيد فى غابات أفيرنوس الكثيفة الظلال ، فأذاع النبأ ساعة رأى پروسيرپينا تتناول

حَبَاتِ الرمان ، فحال بفعلته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض . وهنا أطلقت ملكة إريوس [العالم السفلى] زفرة يائسة ومسخت الواشى طائراً مشثوماً ، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذى يجرى فى العالم السفلى وأنبتت له منقاراً وريشاً وعينين واسعتين ، ففقد شكله الأدمى واكتسى بجناحين سمرابين ، وعَظُم حجم رأسه ، وطالت أظافره وتحوّلت غالب معقوفة ، وبدأ يجهد كى يحرك الرِّيش الذى نبت على ذراعيه المتراخيتين . لقد صار طيراً تثير رؤيته النور وتندثر بوقوع الكوارث هو طير البوم الكسول نذير الشؤم عند البشر .

ولقد بدا عقاب أسكالافوس جزاء وفقاً لوشايته ، ولكن ماذا حدث حتى اكتست أجساد بنات أخيلوس بالريش وبرزت لهن خالب كالطيور بينما احتفظن بوجوههن البشرية ؟ أكان ذلك لغنائكن الرخيم فى رفقة بروسيرينا حينما كانت تقطف أزهار الربيع أيتها السيرينات الحكيمات ؟ فلما بحثن عنها فى ربوع الأرض سُدَى توسلتن إلى الآلهة أن تزودكن بأجنحة تخففن بها فوق البحار حتى تشهدنها على لهفكن عليها . واستجابت الآلهة لتوسلكن ، وفجأة وجدتن أطرافكن تكتسى بالريش الذهبى ، ولكن بقيت أغانيكن الرممة تطرب الأذان ، وبقيت فى أفواهكن الألسنة البشرية بقدرتها على الغناء ، فاحتفظتن بوجوه العذارى وبصوت الأناسى .

ومع ذلك تدخّل جوبيتر ليحكم بين أخيه وشقيقته الحزينة ، وقسم العام إلى قسمين متساويين حتى تستطيع الإلهة التى بسطت نفوذها على عالين ، أن تمضى مع أمها من العام ذلك العدد من الشهور الذى تقضيه مع زوجها . وما أسرع ما تبدّل وجه سيريس ومزاجها ، وأشرق جبين الإلهة الذى كان معتماً فى عيني بلوتو نفسه وتألقت الفرحة عليه ، وكأنه الشمس التى حجبتها السحب الحبلى بمياه الأمطار حينما تخرج منتصرة من بين الغيوم .

أَرِيْثُوْزَا وَتَرِيْطُوْلِيُوس

وبعد أن استعادت سيريس الحنون مرحها بعودة ابنتها عادت فسألت عن سبب هروب أريثوزا وتحوّلها إلى ينبوع مقدس ، فهذات مياه الينبوع عندما أخرجت الحورية رأسها منه ، ثم جففت شعرها الأخضر بيدها وأخذت تروى قصة الشوق القديم لنهر إقليدس إيليس قائلة :

كنت إحدى الحوريات الساكنت فى « آخايا » ، ولم تكن بينهن من تفوقنى هياماً بالتجوال فى الغابات ونصب شباك الصيد . ومع التفات للعمل وقعودى عن البحث وراء الشهرة بالجمال إلّا أننى كنت أنادى فى كل مكان بأريثوزا الجميلة ، ولم أكن أسعد بالمديح الذى كان يُكال لقسمات وجهى عن طيب خاطر ،

وكنت أنحجل من ذكر مفاتن الجسد التي كانت الفتيات الأخريات يفخرن بها ، بل كنت أعتقد أن من الجرم محاولة تحريك إعجاب الرجال .

وكنت ذات يوم عائدة من غابة « ستيمفالوس »^(٢٧) مُرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذي نال مني ، فأويت إلى جدول هادئ كدت لصفاء مياهه أن أعد حبات الحصى التي بقاعه ، فمياهه تجري بطيئة حتى يخيّل إليك أنها ساكنة ، وتظلّ صفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية وأشجار الحور التي ترتوي من مياهه . واقتربت من الجدول وغمست قدمي في مجراه ثم ساقى حتى ركبتي ، ولم أقنع بذلك بل خلعت ثيابي وعلقتها على شجرة صفصاف متطامنة وألقيت بجسدي العاري في الماء ، وبينما كنت أسبح في دائرة محكمة أضرب الماء بساعدي حيناً وأدور حيناً آخر أحسست بزعجرة وسط البركة ألقت الرعب في نفسي فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطئ ، وعندئذ صاح ألفيوس : « إلى أين تُسرعين بالهرب يا أريثوزا ؟ » ثم كرّر القول بصوت أجش « إلى أين تهربين مسرعة هكذا ؟ » . وقد اضطورت إلى الفرار عارية ، إذ كانت ثيابي معلقة على الضفة الأخرى ، فزاد لهيب شوقه إلى خلال مطاردته لي ، وقد ضاعف عُرْيي من إغرائه فأصرّ على اغتصابي ، وكنت أعدو فيُسرع في العُدو ورائي . وكأني حمامة تتطلق مرتجفة بين يدي صقر يقترب منها رويداً رويداً .

وعدوتُ تحت أسوار « أورخومينوس »^(٢٨) وبعوار مدينة « بسوفيس »^(٢٩) حتى بلغت جبل « سيليني » ، ثم مراعى جبل « مينالوس » وجبل « إريمانثوس » الندي ومدينة « إيليس »^(٣٠) ، واستمر يطاردني دون أن تقلّ سرعتي عن سرعته ، غير أنني بدأت بعد فترة أقفد قدرتي على الاحتفاظ بسرعتي دون أن يفقد هو قدرته ، ومع ذلك ظللت أعدو على سفوح الجبال وفي سبيل الوادي وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعبّد . وكانت الشمس ورائي فأريت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدمي ، فحسبت الخوف هو الذي صوّر لي ذلك ، غير أنه كان من المؤكد أن وقع أقدامه كان يخيفني . وقد كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرك خصلات شعري ، حتى إذا حلّ بي التعب من جهد الندو ناديت صائحة « أدركيني بعونك يا «ديانا» فقد أحيط بي ، أنقذني حارسة أسلحتك التي عهدت إليها المرة تلو المرة بحمل قوسك وسهامك داخل جعبتك التي قد شدت وثاقها » . وبلغت كلماتي قلب الربة فسأقت غمامة كثيفة ألقت بها عليّ ، وإذا غطتني الغمامة توقّف النهر حائراً لا يدرى أين اختفيت ، وصاح بي منادياً : « أريثوزا أين أنت يا أريثوزا » وكرّر ندائه لي ولكن هيهات ! يا للهزة التي اعترفتني ساعتها . لقد كنت كالحمل يسمع عواء الذئاب المحيطة بحظيرته ، أو كالأرنب البري المختبئ بين الأشواك يرقب أنياب خصومه من الكلاب دون أن يجسر على الحركة . ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم ير آثار أقدام تتجاوز هذا المكان ، وظل يرقب البقعة التي تغطيها الغمامة . وانبتق العرق البارد يغطي أطرافي ويكسو جسدي كله بقطرات لازوردية ، وحيثما كنت أحرّك قدمي كانت تنفجر من تحتها مياه ينبوع ، وتقاطر الندى من شعري ، وتحوّلت في أقصر من هذا الوقت الذي أقص فيه قصتي إلى ينبوع . غير أن النهر تعرّف من هذه المياه على أسرة قلبه فتزع عنه صورته البشرية التي كان قد تحفّى فيها واستعاد صورته السائلة لكي يمزج مياهه بمياهي ، غير أن عدراء

ديلوس [ديانا] شقّت الأرض من تحتى فألقيت بنفسى بين كهوفها المظلمة حتى وصلت إلى ٦٤٠ «أورتيجيا»^(٣١)، تلك البلاد العزيزة على لأنها تحمل اسم الربّة التي استطاعت قبل غيرها أن ترفعنى من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء .

وبعد أن انتهت «أريثوزا» من قصتها ، شدّت ربة الخصوبة تنينين إلى مركبتها وثبتت شكيمة العنان في خطميهما ، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة «باللاس» حيث عهدت بمركبتها إلى تريبتوليموس ، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها في الأرض البكر التي لم تُفْلَحْ من قبل قط ، وأن ينثر الباقي في الأراضي البور ، فحلّق الصبى عالياً فوق أوروبا وبلاد آسيا ، ثم اتجه صوب ملكة سكوثيا حيث كان يرتقى عرشها الملك «لينكوس» . وحين دخل القصر الملكي سأله عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه ، فأجاب قائلاً : «اسمى تريبتوليموس وموطنى «أثينا» ولم أجيء بالبحر ولا بالبرّ فما سرت على قدمي ولا صعدت سطح سفينة ، وإنما كانت السماء طريقي . لقد جئت حاملاً معي هدايا سيريس التي ما تكاد تنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تثمر حصاداً وفيراً وغذاء شهياً» . وسرعان ما أكلت الغيرة قلب ذلك الملك بالهمجي الذي كان يأمل أن يُنسب له منح البشرية هذه الهبة ، واستضاف الصبى تريبتوليموس حتى إذا أخذ يغط في النوم هاجمه بسيفه ، غير أنه لم يكدّ يُقدّم على تمزيق صدر الصبى حتى مسخت سيريس هذا السّفاح فهذاً جاحظ العينين^(٣٢) ، ثم أمرت الصبى الأثيني أن يعتل مركبته المقدسة ويمضى في رحلته عبر الأجواء .

٦٦٠

بهذه الكلمات ختمت «كاليوبي» أكبر ربّات الفنون من بيننا سنّا أنشودتها التي فرغت الآن من إلقائها عليكن ، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون ، فأخذت غريماتنا المنهزمت يقذفننا بالسّباب ، فقالت هن كاليوبي : «إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكن التي كانت ثمرة تطاولكن ، وأخذتن تُضغفن إلى خطئكن الاعتداء علينا بالسّباب ، وإذ كان صبرنا ذا حدود ، فسوف نُنزل بكن عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن» . فضحكت النساء المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد ، غير أنهن ما لبثن أن شاهدن الريش يبرز من أظافرهن ويغطي أذرعتهن ومازلن يثرثن ويسخرن ، ونظر بعضهن إلى بعض وبقين يرقبن وجوههن وهي تتقلّص إلى مناقير صليبة ، ويمسحن نشأت فصيلة جديدة أضيفت إلى طيور الغابات . وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن إلى السماء محلّقات في الهواء . لقد تحوّلن إلى طيور العقق ناشري المخازي وأحاديث الإفك في الغابات ، ومازلن بعد تحوّلن إلى طيور محفظات بقدرتهن على الكلام ، فما برحن يثرثن دون أن تشبع رغبتهن الصاخبة في الكلام .

التعقيبات

- (١) فينيوس هو شقيق كفيوس وابن بيلوس [انظر الكتاب الثالث] . وهو غير فينيوس الذى حرره أهل أرجوس من طيور الماريس (انظر الكتاب السابع) .
- (٢) كان آمون يعبد على شكل كبش ، وعندما وُحِد الإغريق بينه وبين « زيوس آمون » صُوِّره دائماً بقرى كبش .
- (٣) القفاز هو « الكايتوس » المكون من عدة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفها المصارعون والمجادلون والملاكمون حول قبضاتهم . وكانت مباريات الكايتوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها . ولا يعد أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه . وثمة وصف لهذه المباراة في إلياذة هوميروس (٢٣ : ٦٥١ وما بعده) وفي إنبادة فرجيل بالكتاب الخامس (٤٢٦ وما بعده) .
- (٤) نهر سينيس هو نهر صغير في طرابلس ببرقة إلى جوار مدينة لينس ماجنا [لبلدة الحالية] .
- (٥) فزان الحالية .
- (٦) أطلق اسم « منديس » على الجدوى الذى يصور في النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون . وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنه الإله بان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمال مصر . وأصبحت منديس خلال العصر البطلمي من أهم مدن القطر ، فقد لقب بطليموس الثانى نفسه بأنه ابن الجدوى الحى العظيم الذى يسكن منديس ، ساء وصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقة الجدوى الحى العظيم ، الأمر الذى أدى إلى تأليهها . وقد عثر على نصب تذكارى تنص نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب ، بل لقد خصص كل دخلها لعبادة الإله الجدوى .
- (٧) خاونيا في شمال اليونان [إبيروس الآن] .
- (٨) الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوى فلسطين في إقليم كانت عاصمته البتراء . وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية .
- (٩) انظر الكتاب الرابع : كان پوليديكيتيس قد وقع في غرام داناي وحاول أن يتخلص من ابنها بيرسيوس بأن يفرض عليه إثبات أفعال مستعصية منها قطع رأس الجورجونة . وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلاديس [جزر الأرخبيل] غرب جزيرة پاروس .
- (١٠) بيللا مدينة في مقدونية وأصبحت عاصمة لها في عهد الملك فيليب الثانى ، وباليونيا منطقة جبلية شمالى مقدونيا .
- (١١) ثيساى مدينة جنوى غرب طيبة في بويوتيا بها معبد مقدس لربات القنون باقى إلى اليوم .
- (١٢) يخلط أوفيد عداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية ، فالعملاق تيفويوس [تيفون] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [سيث خصم أوزيريس] ، وزيوس هو آمون الإله الكيش ، وديونيسوس الإله الذى كرس له التيس هو منديس الإله الجدوى ، وأرتميس هى باسنت الإلهة القطة ، وهيرا هى إيزيس ذات قرون البقر ، وهرمس هو تمحوت الإله على شكل أبيس . وكان الغراب طير أهرلو ، وكانت أفروديتي تشبه عشتاروت الآشورية .

- (١٣) كاليوى هى ربة الشعر الملحمى وفنون الخطابة .
- (١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس .
- (١٥) بيلوروس وبياخينوس وليبيايم هى الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية ، يقع أولها فى الشرق وثانيها فى الجنوب وثالثها فى الغرب .
- (١٦) قيل إن إينياس كان قد شيد لأمه فينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [وإريكس اسم مدينة وجبل فى آن واحد] .
- (١٧) بيرسيفونى هى ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلى .
- (١٨) مدينة « هُنا » فى وسط صقلية وتدعى الآن « إنا » ، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرينا قد وقع بها .
- (١٩) كان نهر الكايستر فى ليبيا بأسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته .
- (٢٠) الباليكى هما إبنان توأمان لجويتر من الحورية ثاليا كانا يعبدان كبطلين فى صقلية . أما برك الباليكى الكبريتية فكانت بين قطانيا وسراقوسة شرقى صقلية .
- (٢١) سعى الباكخادى على اسم باكخيس ، وكان فى الزمن الغابر ملكاً على كورنث ، وقد هجرت هذه السلالة كورنث إلى كل من صقلية حيث شيدوا سراقوسة ، وإليريا حيث أسسوا أسرتهما المالكة .
- (٢٢) أنايبس اسم نهر صغير فى صقلية جنوبى سراقوسة .
- (٢٣) متليو هو نوع من السحالي : والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البقع قد انتشرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحلية المدعوة متليو ، وإن لم يذكر أوفايد اسم السحلية صراحة فى النص .
- (٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور فى المورة يسرى جزء منه فى قاع الأرض .
- (٢٥) پيزا بلدة فى إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمبيا حيث تقام الألعاب الأولمبية .
- (٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس فى غرام قناة أريثوزا فرت منه وسرت تحت الأرض فى المورة بل تحت قاع البحر حتى انبثقت من جديد فى صقلية .
- (٢٧) ستيغفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة فى أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدى التى قضى عليها هرقل ضمن أعماله الحارقة .
- (٢٨) أورخومينوس مدينة فى أركاديا غير مدينة فى بوزونيا شهيرة بنفس الاسم .
- (٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيريمائوس على حدود أركاديا .
- (٣٠) سيليني ومينالوس وإريمانثوس جبال ثلاث فى شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالي ، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر پينوس بالمورة بعد تدمير مدينة پيزا التى كانت أهم مدينة فى إيليس .
- (٣١) كلمة تعنى جزيرة السنان ، وهى أحد أسلاف جزيرة ديوس التى ولدت بها « ديانا » .
- (٣٢) نوع من فصيلة النمر أصغر حجماً وأجحف عينا يسمى أيضاً الوشق .



بيكاسو: بالاس وأراخنى

الكتاب السادس

بالاس وأراخنى

استمعت منرفا إلى هذه القصة مهللة لنشيد ربّات الفنون مُشيدة بانتقامهن العادل ، ثم ناجت نفسها : « علينا ألا نقنع بإطرائنا للآخرين ، ولنكن نحن كذلك جديرين بإطراء الآخرين ، وألا نترك أحداً ينال من ألوهيتنا دون أن نُوقع به ما يستحقّه من عقاب » ، وذكرت وهى تناجى نفسها مصير

أراخنى ، تلك الفتاة اللبديّة التي تدعى أنّها لا تقل مهارة في الغزل عنها . ولم تكن أراخنى عريقة الأصل غير أنّ مهارتها أكسبتها شهرة واسعة ، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يجترف صباغة الصوف التي كانت تعتمد على أرجوان الرّخويات البحريّة من فوكيا^(١) . كما كانت أمها التي قضت نحبها من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعة . ومع ذلك فقد نالت ابنتها - التي وُلدت في كوخ بسيط بقرية من قرى هيبايا الصغيرة - شهرة طافت بأنحاء ليديا بفضل مهارتها في حرفتها ، حتى أنّ حوريات الغابات كن يتركن مكانهنّ الأثير وسط كروم تيمولوس^(٢) ليشهدن أعمالها معجبات بها . كما كانت حوريات الماء يتركن نهر پاكثولوس^(٣) ليستمتعن بمشاهدة نسجياتها ، كما كنّ يتابعنها وهي تنسج ، فقد كانت شديدة البراعة في إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها وتحليلصها من العهن المنفوش وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهي تديره بلهاهما في حلق ، وكذا كانت فاتكة المهارة في تطريز النسجيات .

وكان من المعروف أنّ الفتاة لقنت حرفتها على يدى الإلهة باللاس ، غير أنّها كانت تنكر ذلك ، كما كان يغضبها أن يقال إنّها لقنت حرفتها عن معلّمة ما مها كانت مكاتها ، وتتحدّى الناس قائلة : « فلتأت باللاس ولتبارينى ، فإنّ هي فازت علىّ كان لها أن تفعل بي ما تشاء » .

وتنكرت باللاس في صورة عجوز وخط الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها ، وتوكت على عصا ومشتت في خطوات متثاقلة ، ثم بادرت أراخنى قائلة : « ليست الشيخوخة هي تلك الأعباء التي نضيق بها ، بل هي خبرة طويلة أفدناها على مرّ السنين ، وإنّ أهيب بك أن تستمعى إلى نصيحتي : احرصى ما شئت أن يقال لك إنّك أكثر البشر مهارة في غزل الصوف ، ولكن اخذى أن تعدّى طورك فتقرى نفسك في هذا الصندد بإلهة من الإلهات ، بل عليك أن تتوسلى إليها لتغفر لك تظاولك عليها ، ولسوف تصفع عنك حين تطلين إليها ذلك » . وطرحت أراخنى النسجية التي كانت في يدها ، وحدجت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهي مقبّبة الجبين وأجابت ثائرة دون أن تعرف أنّها الإلهة : « أراك قد بلغت من العمر أرذله ، وهذا ما يعيبك . لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك ، فإن كانت لك بنات أو زوجات أبناء فادّخرى لهنّ نصائحك لأنّى قادرة وحدى على رعاية مصالحهنّ ، ولا تحالى أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر في نفسى فإننى ما زلت عند رأيى ، لماذا لا تأتينى باللاس نفسها فتناولنى ، ولماذا تهرب من مباراقي ؟ » . وحيثئذ صاحبت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت في صورتها الإلهية : « ها هي ذى الإلهة قد أتت » ، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد ملكهنّ الروح إلا أراخنى التي ظلّت في مكانها لم تركع ، وإن كانت قد احمرت وجنتها فجأة غير أنّها ما لبثت أن انقضت عنها تلك الحمرة ، كما يفعل الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يزائلها فتصبح مع نور الشروق ناصعة البياض . وقد صمدت أراخنى متطلّعة إلى الفوز الذى صوّرت لها رعونتها أنّها ظافرة به ، ولم تضيف ابنة جوييت تحذيراً بل قبلت التحدى غير مُرجئة البدء في المباراة ، وأخذت كل منهما ، هي وأراخنى ، مكانها في أحد أركان الغرفة ، ويسطت كل منهما السدى في التول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف ، ثم فصلت الخيوط المشدودة إلى صفين بالدردق الخاص بتحريك السدى ،

وأخذتا تقذفان الوشيجة [المكوك المدبب] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلق في الهواء وتنسجان به خيوط اللحمة عبر خيوط السدى ، وكلما امتد خيط عرضى اندفع المشط بأسنانه الجديدة ليثبت مكانه . وكانتا قد جمعا ثيابهما بمنطقة فوق خصرهما ، بينما تخفى حركة أيديهما العجلى الإرهاق الذى تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز ، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان « صُور » البرونزية باللون الأرجوانى وبألوان أكثر قتامة يتميز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة ، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والتى تتقارب ظلالها لتشكّل أخيراً ذلك التنوع من الألوان الزاهية ، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تميز الفاصل بين كل لونين لتمام تشابهها عند هذه الفواصل ، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها . وقد أضافتا إلى النسج خيوط القصب وأخذتا فى رسم الأساطير على نسجتيهما . ورسمت بالالاس فى نسجتيها صخرة مارس تعلو قلعة كيكرويس بأثينا والمباراة التى جرت قديماً لإطلاق اسم أثينا أو نبتون على هذه المدينة^(٤) . وأجلست الآلهة الإثني عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسطهم جوبيتر تحفه مهابة الملوك ، بينما يتميز كل منهم بخصائصه ورموزه . وأظهرت بالالاس ربّ البحار نبتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الضخمر بحريته الطويلة ذات الشعب الثلاثة ، فانبثق الجواد الوحشى من بين الصخر آية استحفاقه تسمية المدينة باسمه . كذلك صوّرت بالالاس نفسها فى النسجية ممسكة برأسها ، حاملة رمحها الحاد واضعة خوذتها على رأسها ، مغطّية صدرها بزردها ، مثبتة شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذون بتلك المعجزة وهم يحملون معجبين ، كما صوّرت « ربة النصر » مكلّلة بها نسجتيها^(٥) .

وقد شامت الإلهة إثارة الندم فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة ، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب ، فأضافت إلى النسجية صور مبارات أربع أخرى ، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية ، وجعلتها تتميز بألوان صارخة مع تصغير شخصها : فصوّرت فى الركن الأول مباراة هايوس ورودوبى من طراقيا ، وكانا من البشر وتسمّيا باسمى كبيرى الآلهة فتحولاً إلى جبلين^(٦) . وفى ركن ثان صوّرت المصير الثعس الذى لاقته ملكة الأقزام^(٧) حين تحدّت الإلهة جونو فأذبتها وحولتها إلى طائر كركى وحكمت عليها أن تعلن الحرب على قومها^(٨) . وفى الركن الثالث صوّرت بالالاس أنتيجونى^(٩) التى جرّوت على منافسة شريكة عرش جوبيتر العظيم فحولتها جونو إلى طائر دون أن يستطيع ردّ هذا القضاء عنها والدها لاوميدون ولا مدينتها طروادة ، وقد أنبت لها الإلهة جناحين فى ظهرها ناصعى اليباض فأضحت طائر لقلق تقعقع بشقى منقارها زهواً . وفى الزاوية الأخيرة طوّزت بالالاس صورة سنيراس^(١٠) بعد فقدته بناته محتضناً درجات سلم المعبد التى كانت فى الماضى أعضاء أجساد بناته ، وهو يكيى جائئاً فوق الأحجار . وزيّنت بالالاس حوافى النسجية بأغصان الزيتون المجذولة رمز السلام ، وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها .

أما أراخنى فقد صوّرت فى نسجتيها أوروبا حين خدعها جوبيتر متخفياً فى هيئة ثور ، وجعلت الحياة تنبض فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الراى أمواجاً حقيقية ، بينما استدارت أوروبا إلى الوراء نحو

الشاطئ الذى خلّفته وهى تصبح برفيقاتها وترفع قدميها فى براعة خوفاً من أن يبللها الماء المتدفق . كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه^(١١) وقد قبض عليها النسر بمخالبه وأخذ مقاومتها ، كما صوّرت ليذا مضطجعة تحت جناحى طائر البجع ، وأضافت صورة أخرى لهويتر متخفياً فى هيئة ساتير ليُخصب أنتويى الأميرة الجميلة ابنة نيكيتوس توأمين اثنين ، ثم متنكراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنك يا ملكة تيرين ، ومتشكلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليغرى داناي ، وفى صورة السنة لب من أجل ابنة أسويوس ، وفى شكل راع من أجل منيموزينيه ، وفى ثوب حية رقطاء من أجل پروسيرينا ابنة سيريس ، كما صوّرتك أنت كذلك يا نيتون وقد تحفّيت فى هيئة ثور مفترس تغطى إبنه أيولوس العذراء ، ثم وأنت فى صورة إينيبيوس تضاجع زوجة الوبوس وتولدها توأمين ، وكذا وأنت تتحد إبنه بيزالتيس فى صورة كبش ، ثم وأنت فى صورة جواد تنحوى على ربة الحصاد الحيرة ذات الشعر الذهبى ، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضاجع ميلانثو ، ثم فى هيئة طائر تلهث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعبانى أم الجواد المجنح . وكما صوّرت الشخصيات بدقة كذلك صوّرت الأماكن تتفق والأحداث ، حيث نرى فريوس فى ثياب فلاح ثم فى ريش صقر تارة وفى جلد أسد تارة أخرى ، وفى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاروبوس^(١٢) ، كما نرى باكخوس يغتصب إريجونى خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب ، ثم ساتورنوس [كرونوس] بعد أن تحوّل إلى جواد لينجب خيرون ذا الطبيعة المزوجة^(١٣) . وقد طرزت أراخنى حوافى النسجية بزهور متشابكة مع أغصان لبلاب رخو .

لم تستطع باللاس ولا ربة الحسد أن تكتشفا عيياً فى نسجية أراخنى فتملك الإلهة العذراء الشقراء غضب عارم لتفوّق منافستها ، فمرّقت النسجية التى تسجل نزوات الأرباب الأئمة ، ثم أمسكت بالوشيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس^(١٤) وهوت بها مرات ثلاث على جبهة أراخنى ابنة إيدمون وأتبعنها بضربة رابعة . وضاق صدر أراخنى بهذا الفعل المهيّن فلثت فى عنف حول عنقها حبلاً شنتت به نفسها ، ورأى باللاس معلقة من عنقها فأنشفت عليها وقالت لها : فلتدومى حيّة ، ولكن معلقة فى الهواء إلى الأبد ، ولا تعقدى على أمل بعد ، إذ سيكون هذا مصير أبنايك وأحفادك من بعدك . ثم أخذت فى الابتعاد بعد أن نثرت على أراخنى عصارة عشب مقدس لهيكتان ، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقية أطرافها وبرزت فى جنبيها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها ، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منها الخيط . وها هى ذى تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل ، وإذا هى تصبح عنكبوتاً .

نـيـويـ

أثار أهل ليديا نبأ هذا الحادث وأفرغهم ، ولم تلبث هذه المأساة أن بلغت أسباع الناس فى أنحاء فريجيا ، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله .

وكانت نبوي تعرف أراخنى منذ زمن طويل وتعيش قبل زواجها فى ميونيا على جبل سيبيلوس^(١٥) ، غير أنها لم تتعظ بما حاق بأراخنى التى لم تكن تقدس الإلهة حقّ التقديس . وقد جعلت هى الأخرى تتناول على الآلهة ، وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور ، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها ولا نبيل محتده ومحتدها ولا بقوة مملكتها وعظمتها بل كان تباھيها بكثرة أبنائها ، ولولا جهرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك . وذات يوم اندفعت إلى الطرقات ماننو ابنة تيريزياس التى كانت تتنبأ بالمستقبل يحدها إلهام إلهى ، وأخذت تصيح : « يا نساء طيبة ، يا قاطنات شط نهر إيزمينوس ، توجن رءوسكن بالأكاليل ، ١٦٠ وتجمعن حول المحارب ، وقدمن القرابين وأحرقن البخور ، وتضرعن للربة لاتو وولديها الاثنين ، ذلك أمر إلهى أجرى على لسانى » . وخرجت نساء طيبة متوجات الرأس إلى المحارب المقدسة يقدمن القرابين ، ويحرقن البخور ، ويتضرعن للربة لاتو .

وأقبلت نبوي فى رهط من وصيفاتها ، مرتدية ثوبها الفريجي المنسوج من خيوط القصب الذى اجتذبت به كل الأنظر . وكانت وهى فى ثيابها الفاخرة رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جامها ، تلقى برأسها إلى الراء ، وتنسدل خصلات شعرها طليقة على كتفيها ، ووقفت منتصبية القائمة تلقى بنظرة مترعة كبرياء وغضباً ، ثم صاحت : « ما هذا النزق ! ما لكنّ وآلهة من السماء — سمعتن عنها ولم تشهدها — تقدمن لها كل هذا التكريم الذى يفوق ما تقدمته لمن ترونها بعيونكن . كيف تضرعن للربة لاتو أمام المحارب التى أقمته تكريماً لها ، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم الوهيتى ؟ إن أبى تانتالوس هو وحده من بين البشر الذى أذن له بالجلوس على مائدة الآلهة ، وأمى شقيقة إلياديس ، وجدى هو أطلس الجبار الذى يحمل قبة السماء على كتفيه ، وجدى الآخر هو جوبيتر الذى هو أيضاً والد زوجى . ثم ١٨٠ إن شعوب فريجيا تدنن لى بالولاء ، وأنا أحكم مع زوجى أمفيون المدينة التى تجمعت أجزاء أسوارها بسحر أنغام قيثاره زوجى^(١٦) ، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكى ، وأينما خطوط فى دارى وقع طرفى على ثراء بغير حدود . ثم إننى بعد هذا جميلة جمال الإلهات ، ولى سبعة أبناء وسبع بنات ، وعما قريب سيكون لى عددهم زوجات أبناء وأزواج بنات ، فهذا هو مجدى الذى أزهبه . أو تحيران بعد ذلك على أن تفضلن على إبنه مارد يسمى كويوس^(١٧) ، تلك الربة لاتو التى تعرفن أن الأرض الفسيحة رفضت أن تمنحها رقعة ضئيلة لتكون لها مأوى حين أوشكت أن تضع جنينها . لقد نبذت السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التى تعبدونها حتى أشفقت عليها [جزيرة] ديولوس وقدمت لها مأواها قائلة : « إنك تضرين فى الأرض على غير هدى ، كما أضرب أنا فى البحار » ، ومنحتها الجزيرة مأوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأمين . ولقد أنجبت أنا سبعة أضعاف ما أنجبت ، فانا سعيدة الحظ ، لا يمكن لأحد أن ينكر سعادى ، وسأبقى سعيدة لا يملك أحد أن يشكك فى ذلك . إن وفرة النعم التى أحظى بها تمنحنى أماناً وتحمينى من غوائل ربة الحظ « فورتونا » ، فستبقى لى دوماً أكثر مما تسلبنى ، وإننى أملك الكثير الذى لا يترك لى مجالاً للخوف . ولنفترض أنه انتزع منى بعض أولادى ، فإن أنا فقدتهم فسيبقى لى أكثر من مجموع أسرة لاتو التى لا تتميز ٢٠٠ عن المرأة العقيم إلا قليلاً . ألا فلتكف عن تقديم هذه القرابين ، ولتخلعن عن رءوسكن هذه

الأكاليل . وأطاعت النساء فخلعن أكاليهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس ، وإن لم تستطع نبوى أن تحول بينهن وبين أن يهمنن بالشكوى والتضرع للربة لاتو .

استبد الحق بلاتو فوفقت على قمة جبل سبتتوس تستعدى ولديها أبوللو وديانا قائلة : « ها أنذا أمكما المزهوة بكما والتالية لچونو نفسها في المرتبة ، فباتى اليوم من يثر الشك حول ألوهيتى . ها أنذا يا ولدى أجد من ينحى عن المحارب التى عبدتنى فيها الأجيال إن لم تبادرا بتقديم العون لى . وليس ذلك وحده ما يثيرنى ، فقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كفرها بالمقدسات إهانتى حين جرؤت وأدعت بأن أسرتها تعلقو شأنًا عن أسرق وإتهامى بأننى عقيم [ألا فلتصبح هى العقيم] . لقد كشفت عن كفرها بالمقدسات كأبيها . وانطلقت لاتو تتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أبوللو لها بقوله : « كفى ! فكلما أرخيت لنفسك في الشكوى عوّقتنا هذا عن المضى في توقيع العقاب عليها » وكانت أخته معه على هذا الرأى ، فأسرعا محلقين في الفضاء واختفيا في السحب حتى بلغا قلعة كادموس .

٢٢٠ وكان هناك سهل فسيح خارج الأسوار تدب فيه الخيل في حركة متصلة ، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور العربات العشب الأخضر النامى على سطح السهل ، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المظهمة المغطاة بأكسية من نسيج صور الأرجوان ويقبضون على أعنة الخيل الذهبية . وكان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نبوى يدور بجواده قابضاً عليه في ثقة حين نددت عنه صرخة مدوية بينما انغرس سهم في صدره ، فسقط بقود الفرس من بين يديه وهو يثر قائلاً « يا ويلتاه » ، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد حتى سقط على الأرض . وكان سيبيلوس الابن التالى قد سمع خشخشة جعبة سهام فأطلق العنان لجواده كما يفعل ربان السفينة حين يلمح سحب العاصفة فينشر أشرعتة كلها حتى لا تقوته من الريح هبة . غير أن انطلاق سيبيلوس لم يمنع السهم من أن يصيبه في أعلى عنقه وينفذ من حلقه ، فسقط من فوق جواده ويتقلب بين حوافره الحادة ويخضب الأرض بدمائه الدافئة . وكان فيديموس والتالوس الذى ورث اسم جدّه قد ذهبا إلى رياضتهما اليومية التى يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنين جسديهما بالزيت حين أصابهما سهم واحد اخترق صدرهما معاً وهما ملتصقان ، فأخذا يثان ألماً وسقطا على الأرض متعانقين ولفظا معاً نفسيهما الأخيرين . وحين رآهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما ، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبين الأمر حتى أصابه هو الآخر سهم انتزع قطعة من رتته فتدفقت من جسده الدماء . ولم يهلك داماسيختون الذى لا عهد لشعره بالمقص من جرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً في عضلة ساقه ، وبينما كان يحاول إخراج السهم بأذلا كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه في حلقه ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة . وأخيراً رفع إلبيونوس آخر الأشقاء ذراعيه إلى السماء محرّكاً شفثيه بتوسلات ذهبت أدراج الريح قائلاً : « إيتها الآلهة ناشدتكم جميعاً الرحمة بى » [فقد كان يجهل عبث الابتهاال إليهم] . وتأثر أبوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذى أصابه فجعل السهم رفيقاً قليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه .

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المناسبة من عيون الأقارب أبناء الكارثة المفاجئة إلى نبوى التى أذهلها أن يكون بين الآلهة من يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا

النحو ، وانتهت الكارثة بأَمْفِيون وقد شهر سيفه وأغمده في قلبه ليكون الموت خاتمة لحزنه على أبنائه .
 وبلاد . كم تغيرت نيوى بعد النكبة ! أهذه نيوى المغرورة التى كانت تفضّ الناس من حول محاريب
 لاتو ، وتضفى غثالة وسط المدينة تشعل قلوب مواطنيها حقداً وضغينة . لقد غدت موضع الرثاء حتى من
 خصوصها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التى غشيها برد الموت وأخذت تقبلهم الواحد بعد الآخر ، ثم
 رفعت ذراعها الشاحبتين إلى السماء وصاحت : « يحق لك أن تسمى بي يا لاتو القاسية ، ولترو قلبك من
 ٢٨٠ دمعى ، افرحى ملء قلبك الوحشى ، فهذه الجنائزات السبع ستوردنى إلى المحرقة مرات سبع . افرحى
 بنشوة النصر على غريمك ، ولكن ما إخالك انتصرت فإزلت رغم كل شقائى أكثر ثراء منك ، وحتى مع
 فقدى من فقدت من أبنائى فما زال عندى المزيد » .

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى سَمِعَ هزيم وتر قوس فزع الجميع له عدا نيوى التى ضاعفت الكارثة
 من جسارتها . وكانت شقيقات الفتيان الموق واقفات أمام النعوش في ثياب الحداد بشعرهن المرسل على
 أكتافهن ، وإذا سهم يخترق أحشاء إحداهن ، وحين حاولت انتزاعه انكفأت فائدة الروح فوق جثة
 شقيقها ، وكانت ثانية تواسى أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفية تفقد معها القدرة على النطق وينحنى عودها
 وتموت مطبقة شفتيها . وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكها . وبينما احتمت شقيقة بأختها أدركها
 الموت معاً ، وأخذت أخرى تحضر مرتعشة . ومزقت نيوى ثوبها بعد موت ستة من بناتها وحاولت حماية
 ابنتها السابعة بجسدها وصاحت : « فلتبقى لى واحدة هى صغرى بناتى اللاتى فقدتني ، دعى لى هذه
 الصغرى فهى واحدة فحسب » . غير أن ابنتها الباقية أخذها الرضى قبل أن تفرغ نيوى من توسلاتها .
 ٣٠٠ وحين أصبحت نيوى وحيدة تحيطها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالها الحزن إلى حجر ، ولم يعد النسيم
 يحرك شعرها ، واختفى الدم من وجهها الذى فقد لونه ، ولم تعد ذراعها ولا ساقها تتحركان ، وجدت
 عينها في محجريها ، والتصق لسانها بحلقها ، وانغلق قمها صمتاً ، وتوقف النبض في عودها ، وكذا
 تمهدت أعضاؤها ، غير أن دموعها بقيت تجري كما كانت . وهب إعصار عنيف فحملها إلى موطنها^(١٨)
 حيث حطت فوق قمة جبل وأخذ الماء يتدفق منها . وما تزال هذه الكتلة من الرخام تسكب الدموع حتى
 اليوم .

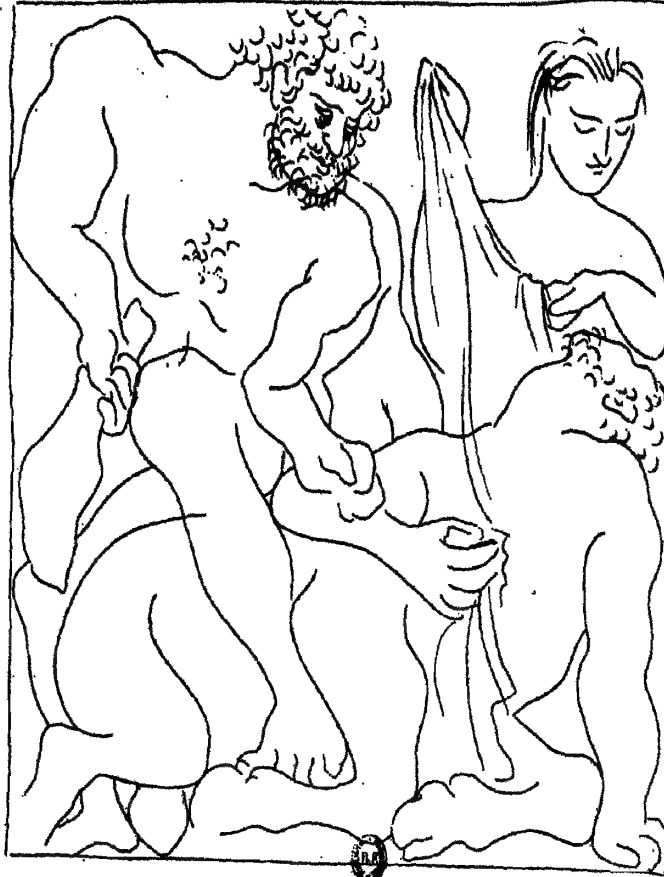
فـلـاحـو لـيـكـيا

وأصيب الرجال والنساء بالذعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتوأم التوامين ،
 وأخذت هذه الحادثة تُحكى على ألسنتهم أقاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أنسوها . وحكى
 أحدهم : « كان يجيا في قديم الزمان على أرض ليكيا الخصبة جماعة من الفلاحين الذين لم يقدموا للإلهة ما
 هى جديرة به من تكريم ، مثلهم في ذلك مثل نيوى فنالوا هم الآخرون جزاءهم . وقد بقيت قصتهم رغم

٣٢٠ غرابتها مجهولة إلا من قليل من الناس ، ولعل سبب ذلك هو وضعة أصل أبطالها . غير أن كنت قد ذهبت إلى المستنقع الذى حدثت عنده المعجزة يوم طعن أبى فى السن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهده إلى باجتلاب بعض الأبقار المنتقة من تلك البلاد ، واختار لى قبل الرحيل دليلاً من أهلها ، وقد وقع بصرى فى أثناء مسيرى خلال المراعى بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة ، نبئت حوله أعواد الغاب التى علاها السواد المنبعث من دخان النيران التى كانت تُشعل منذ القدم لطفى القرايين الذبيحة ، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات : « هلا رحمتى » فانبرت أرذد همسه متعجباً ، ثم سأله عما إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [بان] إله الغاب أم لغيره من آلهة المنطقة فروى لى دليلي القصة التالية :

٣٤٠ لم يُشيد هذا المحراب من أجل إله من آلهة الجبال أيها الفتى ، وإنما أقيم من أجل الإلهة التى منعتها چونوزوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة ، ثم أشفقت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيواها . وحين بلغت لى أتوا استندت إلى جذع نخلة وأعانتها شجرة زيتون الربة بالاس على وضع طفلها التوأمين رغم كيد چونوزوجة أبيهما . ولم يكد الطفلان يفرجان للحياة حتى أكرهت چونو الغاضبة لى على ترك مأواها حاملة طفلها الإلهين على صدرها . وانتهى الأمر بلى أن وجدت نفسها تتجول فى بلاد ليسيا موطن الخياير^(١٩) ، حيث الشمس تحرق الحقول بأشعتها اللافتحة وقد أنهكتها حرارتها وطول الرحلة وأحسّت بالظلمة هى وطفلها اللذان كانا يسكان ثدييها ويمتصانها فى لفحة إلى آخر قطرة فيها . وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادى كان على مقربة منها جماعة من الفلاحين يجمعون أعواد الغاب والسعدادى الغزيرة النمو فى مياه المستنقع . وحين اقتربت من البركة وانحنيت عليها لترى ظمأها من مائها الندى حاول الفلاحون منعها فلم ترض الإلهة منهم ذلك وقالت لهم محتجة : « كيف تمنعوننى أن أرذ هذا الماء وورود الماء حقّ للجميع ؟ وما شاءت الطبيعة أن تخص واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية . لقد جئت لأستمتع بخير هو للجميع ، ومع ذلك فهأنذا أركع متوسلة إليكم أن تمنحونى شيئاً من الماء ، فلست أنطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافى المرهقة فى هذه البركة ، وكل ما أرجوه هو إطفاء ظمئى ، فقد جفّ حلقى حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوتى ينطلق من حنجرتى ، ولسوف تكون جرعة الماء عندى بمثابة « النكتار » الإلهى ولسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتى ، ولتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدّان أيديهما هما الآخرين متوسلين لكم ؟ [وكان الطفلان قد مداً بالفعل ذراعيهما] . ومن ذا الذى لا تؤثر فيه توسلات الإلهة ؟ ومع ذلك بقى الفلاحون رغم توسلاتها متمسكين بمنعها عن الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على الخروج من المنطقة ، وكالوا لها الكثير من السباب ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يعيشون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة ، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من حب للأذى . عندها غلب غضب لى على عطفها ، ولم تعد راغبة مع سورة غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا يرقّ عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما ، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت بهم قائلة : « إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا

المستنقع . واستجابت السماء لدعائها ، وإذا الفلاحون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم
الطفو على سطحه ، أو إخراج الرأس أو القفز حول الشط . ومع بقاء الستهم سليطة اخشوشنت أصواتهم
وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التي أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رؤوسهم بأكتافهم ،
وانخضرت لون ظهورهم بينما ابيضت بطونهم التي صارت أكبر أجزاء أجسادهم ، وتحولوا إلى ضفادع تقفز
حول المستنقع المليء بالأوحال (٢٠) .



بيكاسو : أبولو يسلخ مارسيا

مارسياس وپيلويس

وإذ انتهى الراوى - الذى أجهل اسمه - من سرد أحداث هذه الكارثة التى حاقت بأهل ليكيا ، بدأ راو آخر يسرد قصة « الساتير » الذى أودى به مزمار منيرفا ذو القصبات^(٢١) وعاقبه ابن لاتو [بسلخه حيا] فصاح به مارسيا : « لماذا تنتزعنى من سبلخى ؟ كم أنا نادم على ما كان ، وهل تساوى هذه المنافسة فى نفخ المزمار هذا كله ! » . وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرى لحمه وأخذ يتزف دما ، وتبدت عضلاته عارية للأعين كما ظهرت العروق نابضة بالدماء ، وانكشفت جميع أعضائه الداخلية وهى تخفق حتى بات من اليسير إحصاؤها ، وتخلل الضوء رثيته ، وحزن عليه جان الغاب وأخوته الساتير والخوريات بل وأوليمپوس نفسه الذى ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه ، وجميع رعاة الأغنام والأبقار . وارتوت الأرض الحصبة من الدموع التى سالت عليها فتشربتها حتى تفجّر من باطنها نبع تنبثق مياهه عالية فى الهواء ، ثم يهوى فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفق منحدرأ بين شاطئيه حتى يصب ٤٠٠ فى البحر المضطرب الموج . وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياص أصفى أنهار فريجيا .

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها . ويروى البعض أن واحداً فقط من الرجال قد ذرف دونه غيره الدمع من أجلها . وكان هذا الرجل هو پيلويس الذى انتحب وشق ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذى صنعتة الآلهة من عاج ، يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها فجعلتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً ، عدا تلك العظمة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع ، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلويس ، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده .

پروكنى وفيلوميل

وكان أن طالب سكان المدن القريبة حكاهم بالتوجه إلى طيبة لتقديم العزاء ، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكنائى موطن أسرة پيلويس ، وكاليدون التى أثارى فيها بعد حقد ديانا القاسية ، وأورخومينوس الحصبة وكورنث الغنية بالبرونز ، وميسينى الجبارة وپاتراس وكليونائى المقهورة ٤٢٠ وپيلوس مدينة نيلوبس ، وترويزن التى لم تكن قد خضعت بعد لپيثوس ، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحرین ، والمدن التى عند البرزخ . وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التى تتخلف عن المجيء ، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب ، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر

تحاصر أسوارها وتلقى الرعب في قلوب أهلها ، حتى خف لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه .

وما إن اطمأن پانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وقوته وانحداره من سلالة الإله مارس الجبار حتى زوجة من ابنته ، غير أن ربات الحسن وهيمين [إله الزواج] وجونو الموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفلة الزفاف ، بينما أضاءت الصافحات [ربات الانتقام] طريق العروسين بمشاعل سرقتها من موكب جنازى ، ثم هيأت مخدع العرس . وأقبلت البومة المشئومة فحوّمت حول الدار وحطّت فوق سطح حجرة العرس ، وهكذا حلّ الشؤم عندما رُفّت پروكنى إلى تيريوس وأصبحت أبوين .

وابتهجت طراقيا - التى لم تكن تدرى بعد ما يتهددها - ، ورفع ملكها الشكر للآلهة ، وغدا يوم بناء ابنة پانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد إينها إيتيس عطلة رسمية . ألا ما أكثر ما يغفل الناس عما سيحيق بهم ! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت پروكنى زوجها متلطفة : « إن كنت تحبني حقاً دعنى أمضى لأرى شقيقى ، وإلا فعجىء بها إلى هنا وعدّ أبى بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها ، فلسوف تكون رؤيتى فيلوميلاً خير ما تهديه لى » .

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يحركها الشراع والمجداف ، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكرويس [أثينا] ونزل على شاطئ پيرايوس . وحينما دخل على حميه الملك وحينما أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله وأخبره حديث زوجته ووعددها بأن غيبة شقيقة زوجته لن تطول إن أذن لها بزيارتها . عندها ظهرت فيلوميلاً بجهاها الأسر مرتدية ثوباً فاخراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغابات ، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة في جسده واضطربت في فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو مخازن التبغ . والحق إن جمال فيلوميلاً كان أخاذاً ، وضاعف من نزوة تيريوس فرط هذا الجمال ، فهو من بلدة يتميز أهلها بالضعف أمام إغراء مُتّع فينوس . وقد خطر بباله - خلال لفته - أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادمتها الخاصة فيستعين بها كى تساعده في إغوائها بهداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها ، أو من يدرى فلعلها تيسّر له اختطافها والتزويج بها بعيداً ، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية ، وهو المتأهب دائماً لسحق أى شيء يعترض طريق رغباته الجائعة . وأحسن أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجج فيه من لهيب ، وأحسن من فرط لفته بتباطؤ الزمن ، وراح يكرر خلال حديثه رسالة زوجته ملحقاً في الرجاء على أنه رجاء زوجته وقد أكسبه الحب طلاقة لسان . وكان كلما تخفى في حديثه الحدود اعتذرو بأن تلك هى إرادة زوجته پروكنى ، وشفع حديثه بالدموع وكان امرأته قد أوحى إليه بذلك . أيتها الآلهة ، ما أشد ما يعنى البشر ، لقد خال القوم في إلحاحه الذى مكّنه من تحقيق خطته الشريرة لو أن من الوفاء لزوجته فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن في الواقع إلا جُرماً . على أن فيلوميلاً كانت هى الأخرى تشاركه اللهفة ، وحين رآها تعانق أباهاً مداعبة وتلفت عنقه بلذراعيها وتغمره بقبلاتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها ،

٤٨٠ أخذ يتخللها وكأنها تحتضنه هو وتقبله فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى أنه تمنى لو كان هو الوالد في هذا الموقف . ولو أنه كان والدها ما كان إثمهُ يُرى على ما اقترفه بعد ذلك (٢٣) . وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمر الفرح فيلوميلًا فشكرت أباهما ، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هي وأختها ، بينما كان مقدراً لهذا القرار أن يودى بهما معاً .

ومالت الشمس نحو المغرب حيث كانت جيادها تجرّ مركبتها على منحدرات الشفق ، ونُصبت الموائد الملكية ، وامتلات الكتوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون في نهاية الحفل ليستسلموا للنوم هادئ ، عدا ملك طراقيا الذي بقى مؤرق الجفنين في فراشه مصاباً بحمى حبه للأميرة ، مستعرضاً في ذاكرته طلعتها ولفتاتها وذراعيها ، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها .

٥٠٠ وحينما انبلج نور الفجر ، وتأهب تيربوس للرحيل شدّ پانديون على كَفِّه داعم العينين موصياً إياه برعاية رفيقته في السفر بقوله : « بنى العزيز ، لقد كان لرجائك الحارّ لى ما لم يدع أمامى فرصة للخيار ، وهأنذا أعهد إليك بانبقى استجابة لرغبتها ولرغبتك ، وإن مستحلفك بشرفك وبحق الآلهة ويحرمه ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية الوالد ، وأن تعيدها لى فى أسرع وقت ممكن ، فهذه الفتاة الغالية هى مبعث بهجتي أيام شيخوختي ، ولسوف تطول ساعات غيابها على نفسى . وأنت يا فيلو ميلا عجّل بعودتك إلى إن كنت تحيىنى ، وكفانى بُعد شقيقتك عني » . ثم ختم وصاياه وقبل ابنته قبله الوداع باكياً فى صمت وضَمَّ يدها بيديه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد ، وحملها تحياته لابنته الغالية وحفيده الصغير ، وتخفت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تبين واختلطت أفكاره بنذير طالع مشؤم .

ولم تكد السفينة المزودة بمختلف الألوان تبتعد عن الشاطئ حاملة فيلوميلًا على سطحها حتى صاح الملك تيربوس : « يا للنصر الذى حققته ، ها أنا ذا أحمل معى تلك الفتاة التى طمعت فيها » ، وجعله إحساسه بالزهو يضيق بانتظار أفراحه ، ولم يستطع هذا الملك الممجى أن يرفع عينيه عن غنيمته ، شأن النسر القابض بمخالبه على أرنب برى يودعه وكره العالى ، ومضى القناص يحملق بعينيه فى فريسته التى سُدّت أمامها منافذ الفراع .

٥٢٠ وأنهت السفينة رحلتها ، ونزل الملاحون إلى شاطئ وطنهم منهكين ، وأسرع الملك باقتياد ابنة پانديون إلى حظيرة تحيط بها أسوار عالية تحفيها عن الأنظار وسط غابة عتيقة حيث حبسها هناك . وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الذعر وشحب وجهها وتولتها الرعدة وهى تتوقع أن تحمل بها المأسى ، ولكن تيربوس لم يحدثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدنسة ، ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فاخذت تستغيث ولا مغيث صارخة باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة وترعد خوفاً رعدة حمل صغير أنثى من بين أنياب الذئب ذى الفروة الداكنة ودمه لا يزال ينزف وهو غير مصدق أنه بات بأمن ، أو كاليامة رأت على ريشها دماً فغشيتها الخوف وتزايد هلعها من الشرك الذى كان محدقاً بها . وحينما عاد إليها رشدها بعد قليل جعلت تمزق شعرها المنفوش وتضرب يديها على صدرها كالمعولة على فقد

عزيز ، ثم مدت يديها صابحة فيه : « أيها الهجومي ، هل بعد هذا ذنب لم تقترفه أيها الوحش ، ألم تهز مشاعرك وصايا أبي التي بكّ إياها دامعاً وهو يسلمني إليك لأرحل معك ، ألا تشغلك ذكرى شقيقتي ولا عُذرتي ولا روابط الزوجية . لقد كفرت بكل شيء ، وها نحن أصبحنا : أنا ضرة لشقيقتي ، وأنت زوج لشقيقتين ، وإنني لجديرة بالعقاب بعد أن غدوت آثمة في حق أختي . لماذا لا تسلبني الحياة أيضاً لتتم بذلك جرميتك ؟ كم أتمنى لو أنك قضيت عليّ قبل إقدامك على اغتصابي الذي جعلني حظية لك ، إذن ٥٤٠

لذهبت إلى عالم الأرواح بلا خطيئة . وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً ، فلن يضيع شيء عبثاً كما ضاعت عفتي ، فلسوف تدفع ثمن فعلتك يوماً طال الزمن أو قصر ، ولسوف أدخل عني إزار الحياء وأشهر بفعلتك أمام الملأ ، ولو أن الفرصة واثنتي يوماً لتقدمت إلى شعبك ورويت عليه قصتي معك . أما إذا أبقيتني سجيناً في هذه الغابة فلسوف أملؤها صرخاً حتى أستدر عطف صخورها التي شهدت إذلالاً ، وحتى تسمع السموات صيحاتي وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً ، أو إن كان قد شهد هذا واحد منهم » .

وأنارت كلماتها غضب الطاغية اللفظ وملأته خوفاً لا يقل عن غضبه ، فأخرج سيفه من غمده المعلق في خاصرته وأمسك بشعر فريسته ولوى ذراعها في عنف خلف ظهرها . ورأت فيلوميلا السيف فازدادت أملاً في الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها وهي لا تكف عن لعنه والاشمئزاز منه دون أن تسعفها الكلمات ، فإذا هو يمسك لسانها بمقبض ثم يهوى عليه بالسيف فيشطره ، وإذا الشطر الباقي يرتجف في حلقها على حين كان شطره المتور يتلوى فوق الأرض الداكنة كما يتلوى ذيل ثعبان بُر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قوية ، وكأنه شاء أن يلحق بقدمي صاحبه قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد . ولقد قيل - وإن كنت لا أستطيع تصديق ما قيل - إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث الشبح يصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوه فواقه مرات ثلاثاً أو أربع . ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالي بما كان فيعود إلى زوجته بروكني يحكي لها حين سألته عن أختها قصة مُلَفِّقة يدعى فيها وفاتها مظاهراً بالحزن والأسى حتى أقنع بدموعه الحاضرين . فمزقت بروكني ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف من فوق كتفها وارتدت ثوباً أسود ، وشيدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدّم عنده القرابين لروح فقيد لم يمُت بعد ، وتبكي مصير أختها التّيس وما قاسته من عذاب قبل موتها ، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً .

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثني عشر . ترى ما الذي كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله ؟ لقد كانت تحت حراسة قوية تمنعها من الحرب ، وكانت الجدران المحيطة بالحظيرة عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلبة ، وكانت شفتاها الحرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها ، غير أن الحزن والألم قد شحداً عقبرتيها ، والحاجة تفتق الحيلة ، فجلست إلى نول بدائي نسقت عليه الخيوط بدهاء ، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حمراء ، ثم أسلمتها حين أنهتها إلى خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة . ونفذت الخادمة ما أمرت به ، وسلّمت النسجية إلى بروكني دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة ما فيها . وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجية حتى طالعت ٥٨٠

فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشؤمة ، فلم تنس بينت شفة ويدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه ، إلا أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام ، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسى ما يكشف عن شقاها ، وتماسكت حتى لا يضيغ الوقت في ذرف الدموع ، لكنها عادت تفكر في خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بقوانين الخير والشر .

وخلال الأعياد الكبرى التي تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام ثمجيذاً للإله باكخوس يؤدين فيها طقوسه السرية تحت ستار ظلمة الليل فيضج جبل رودوبي بقرع الصنوج ، خلّفت الملكة قصرها متاهة لاداء طقوس تكريم الإله ، حاملة معها الصولجان الذي كان يُلوح به أثناء شعائر العريضة ، متوجة رأسها بإكليل من أوراق الكروم ، مسدلة على جنبها الأيسر جلد وعل ، معلقة رماً دقيقاً على كتفها . ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها ، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون ، متظاهرة بأن شيئاً لم يبعث الاضطراب في أعماقها غيرك أنت يا باكخوس ، إلى أن بلغت الحظيرة فحطمت رفيقاتها بابها وسط ضجيج المحتفلات ببأكخوس وصراخهن ، واصطحبت پروكتي أختها وألبستها ثياب إحدى المحتفلات ببأكخوس ، وغطت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المذهولة إلى القصر .

٦٠٠ ولم تكذ فيلوميلا تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموت ، غير أن پروكتي بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوّقتها بذراعيها ، فلم تقو فيلوميلا على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعيني أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها ، ورنّت ببصرها نحو الأرض ، وعبرت إيماءاتها عما لم يستطع صوتها البوح به ، فقد كانت ملهوفة إلى القسم بالآلهة بأن العار الذي لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً . واحتدم غضب پروكتي وأوقفت نجيب أختها بقولها : « ليس ثمة وقت للدموع ، بل للسيف أو لما هو أمضى إن كان لديك مثل هذا السلاح ، فقد بثّ متهمة للانتقام على أية صورة كان هذا الانتقام يا أختاه . فإما أن أشعل النار العاتية في القصر حتى يحاصر لمبيها تريبوس المخادع من كل جانب ، وإما أن أقطع لسانه أو أفقأ عينه أو أجبّ عضوه الذي سلبك شرفك ، أو أجعل روحه الأثمة تخرج من جسده عبر ألف جرح غائر . نعم ، يجب أن نعدّ العدة للانتقام رهيب ، بيد أني مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير » .

٦٢٠ وبينما كانت پروكتي مسترسلة في التعبير عما يحتمل في وجدانها أقبل عليها ابنها ليتيس فأوحت لها رؤيته بالانتقام الذي يمكن أن تقدم عليه ، فتطلّعت إليه بعينين يفتقدان الحنان متعمّدة « كم يشبه أباه ! » ولم تزد على ذلك . وغلا الغضب الصامت في صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب ، غير أن ابنها اقترب منها وطوّق عنقه بذراعيه الدقيقتين وقبلها وهو يثرثر في رقة هزّت فيها مشاعر الأمومة ، فزايلا غضبها وترقرقت عيناها ، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام فتركته والتفتت نحو أختها . وعلى حين كانت تتقلّب بصرها بين طفلها وأختها أخذت تعتف نفسها قائلة : « أنى لهذا الطفل أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات الرقيقة التي تعجز عن مثلهما هذه الأخت المبتورة اللسان ، وكيف له يدعوني يا أماء وهي

لا تستطيع أن تدعوني يا أختاه ! تأملِي يا إيتة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت ، إنك لا شك تأمنين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيربوس ؟ » .

٦٤٠ ولم تتلبث پروكنى بل أخذت إيتيس من يده وذهبت به إلى مكان قصى من القصر الفسح كما تهرّ النيرة الظبي الرضيع بشواطىء نهر الجنجج خلال الغابة الكثيفة ، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به فمدّ يديه صارخاً « أماه ! » وحاول أن يلف عنقها بذراعيه ، لكنها أغمدت السيف في جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه . ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخاد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقة ، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التى كانت ما تزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء ، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسلقتا بعضه وشوتا البعض الآخر على السباخ ، ثم دعت پروكنى زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضى بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة . فجلس تيربوس والتهم ما بين يديه ، وما خال إنه يأكل فلذة كبده . وبعد أن فرغ من طعامه التفت لزوجته قائلاً : « أين إيتيس ولدنا ؟ » . عندها لم تستطع پروكنى أن تخفى فعلتها النكراء ولا أن تردّ لفتتها لأن تكون أول من يُقضى إليه بنأ هذه الضحية التى ذبحتها ، وإذا هى تقول له : « إن من تطلبه ليلقاك قد استقرّ في جوفك » . وإذا هو يحيل بصره فيها حوله ويسأل : « أين ابني ؟ » ، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهرول إلى القاعة بهيئتها الرثّة وشعرها الأشعث الذى خضبته دماء الطفل ، وكانت قد شاركت في قتله ، وإذا هى تلقى برأس إيتيس بين يدي أبيه . ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها في التعبير عما تكن أمتع من تلك اللحظة . وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقى مائدة الطعام واستغاث بالشقيقات الغافيات في أعماق نهر ستيكس ذوات الرؤوس الثعبانية ، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُستمرأ ، وانطلق ينوح منهاراً ، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التمس ، وتارة أخرى يطارد ابنتي پانديون شاهراً سيفه العارى عن غمده ، غير أنهما كانا في سرعتهما أشبه بطائرين مجنّحين بعد أن نبتت لهما أجنحة ، فحلقت إحداهما هاربة صوب الغابات ، بينما تعلّقت الأخرى بطنف الحجرة وماتزال آثار الذبيحة عالقة بصدرها ، إذ كان ريشها أحمر مخضباً بالدماء المراقاة^(٢٤) . وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطّشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرف ويمتد في فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف ، وهو الطائر الذى سُمي بالهدهد والذى يبدو وكأنه قد ارتدى عُدّة القتال .

بورياس وزيتيس وكالاييس

وحينما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه في ظلمات تارتاروس قبل أن يمين أجله الذى كان مُقدّراً له .

٦٨٠ وحمل إيرينثيوس صولجاناً باندليون من بغلده وانتقل إليه حكم البلاد ، وكان بعدالته وبراعته في استخدام السلاح قوياً مرهوباً ، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عدا ، وقد تميزت من بناته اثنتان بالجمال ، سعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس ، ووقع بورياس في حب الثانية التي كانت تسمى أوريثيا ، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودها عبثاً وكان ينبغي أن ينبج في إقناعها باللين لا بالقوة ، غير أن ذكرى بنى وطنه الطراقيين وبخاصة ملكهم تيريوس بقيت عقبة في سبيل زواجه . وحينما لم يجده تودده إليها ولم يحقق له ما رآه تملكته عاصفة من الغضب الذي كان سريع الوقوع في أسره لسبب أو لآخر ، فناجى نفسه قائلاً : « إن سلوكي جدير بهذا الصّد . كان الأولى بي أن أستخدم أسلحتي وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد ، وما كان لي أن أتشفع بالرجاء الذي ليس من طبيعتي . العنف شيعتي ، به أستطيع أن أبدد السحب الكثيفة وبه أشيع الاضطراب في البحر ، وأحطم أضخم أشجار البلوط ، وأحفظ الثلوج جامدة ، وأجلد الأرض بسوط من البرد . وحينما أنازل إسخوق في الفضاء الكوني [الذي يمثل حلقتي] يمتلئ الجو بصخب عراكتنا ويومض البرق من بين أعماق السحب . وحين أدخل الكهوف المقدسة في أعماق الأرض وأدفع بظهرى أدنى قبائها يهتز الكون كله ويشيع الاضطراب حتى بين أرواح الموتى وفي أرجاء عالم الأحياء ، لقد كان عليّ أن أطلب يد الأميرة لا رجاء واستعطافاً بل بقسر إيرينثيوس على أن يصبح صهراً لي » .

٧٠٠ وبهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيه ليشقّ بهما طريقه في الهواء ، وسرعان ما جعل خفقان جناحيه الرياح تعصف فوق الأرض كلها وتبعث الاضطراب في مياه البحر . ونشر فوق قمم الجبال عباءته محملة بالغبار ، ثم اندفع نحو الأرض محتفياً في غيمة ، وأطبق ظلام جناحيه على أوريثيا التي تملكها الفزع ، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثارت نيران لهفته ، فأسرع مطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمة أسوار المدينة التي يقطنها شعب الكيكونيس^(٢٥) . وفي هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا المستبد البارد المشاعر ، وحلت منه فأنجبت له توأمين من الذكور هما كالايس وزيتيس^(٢٦) وكانا يشبهان أمهما في كل شيء عدا أنه كان لهما جناحان مثل أبيهما . على أنهما لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقى كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يشبّا عن الطوق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضراً . وحينما بدأ الزغب الأشقر يغشى ذقنيهما بدأ الريش في الوقت نفسه ينبت فوق كتفيهما وكانها طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضما إلى أهل مينياس^(٢٧) في الطواف بالبحار المجهولة في أول سفينة شيدت للبحث عن الفروة الذهبية .

التعقيبات

- (١) هي فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين في آسيا بين أزمير وكوماي .
- (٢) تيمولوس اسم في ليديا يفصل بين حوضي نهر هرموس وكايستر .
- (٣) باكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التي تفيض بالذهب .
- (٤) صخرة مارس « أريس » هي الأريوياجوس ، ذلك التل القريب من أكرويل أثينا الذي كان قلعة كيكروبس ، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين أثينا وبرزيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة . وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق ، فنحتها فيدياس على الجبين الثالث الغربي للبارثينون .
- (٥) يعد معبد الإريخيوم على جبل الأكرويل تسجيلاً لهذين الحداث الأسطوريين يتمثل في احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المعجز الذي روى الرواة أنه قد احترق عندما دمر خشيارشا [خشايارشا أو أكركسيس عند اليونان] الأكرويل ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين . وثمة حفرة في الصخر أسفل البوابة الشمالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح برزيدون .
- (٦) هما أخ وأخت تسميا باسم چويتر وچونو فمسخا جبلين عقاباً لهما .
- (٧) هي چيرانا ملكة شعب من الأقزام يقطنون أعلى النيل ألهاها شعبها عما أثار غضب چونو وديانا فحولتها چونو إلى طائر كركي .
- (٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت في حرب مستمرة مع الطيور الكبيرة الحجم وخاصة طائر الكركي .
- (٩) كانت أنتيجوني [وهي غير أنتيجوني ابنة أوديب] ابنة لاوميدون ملك طروادة ، وكانت - مثل رودوبي وچيرانا - قد أثارَت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يزرى بجمال شعر چونو .
- (١٠) كان سنيراس ملك پافوس في قبرص وكاهناً لأفروديتي في الوقت نفسه ، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير ، وقيل إنه أبو أدونيس . أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحولتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلّم مُعبدها [انظر الكتاب العاشر] .
- (١١) إينه كيوس أحد العالقة وقويى إينه إله الأرض ، وقد أحبها چويتر وتغنى في صورة نسر ليضاجعها ، فلما أغضبته حولها إلى طائر السبان .
- (١٢) أنجب مكاريوس ابن أيولوس بنتا هي أمفيسا أو إيسيه التي أحبها إهولو ، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفي .

(١٣) يعود السرى في جمع القنطور بين جسد الحصان وضلع الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذى يسميه الرومان ساتورنوس كان يحون زوجته ريامع قليلا إنة أوفيانوس ، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوما تخفى كرونوس في شكل حصان ليفلت منها ، الأمر الذى أدى إلى ظهور هذه الطبيعة المزوجة في إبنه هيريون .

(١٤) اسم الحفيت كودرونس وهو اسم مدينة وجبل في جالاطيا بالأناضول .

(١٥) سيلولس جبل مشهور شمال أزمير في آسيا الصغرى .

(١٦) كان تاتلوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نيرى . وكان قد استقبل الألهة على مائدة ولكنه فلم لهم إنة بيلوس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه والقوا به إلى العالم السفلى . وكانت أم نيرى هي ديون إنة أطلن التى كانت قد تزوجت من أمفيون وهو ابن زيوس من أنتيوى . وقد اشتهر بأنه شديد استواز طيبة بالعزف على قيثارة كتابة عن براعته في العزف .

(١٧) كانت ليتو إنة للمارد كرونس الذى كان أقل شهرة من أخويه هيريون وبانيوس .

(١٨) غل سفح جبل سيلولس في ليديا صخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نيرى . وأغلب الظن أن أوفيد استوحى الوصف الذى ذكره من أحد المجموعات المنحوتة التى تصور تلك نيرى المنزوعة إلى براكستيليس أو سكوباس . ويقال إن هذا التمثال كان قد نقل إلى روما منذ عهد قريب [بالنسبة لأوفيد] ووضع في معبد أبوللو فوق تل بالاتينوس .

(١٩) الحمايرا وحش مشهور له رموس ثلاثة أحدها لأسد والثاني لجدى والثالث لتنين ، ونجت ثلاثها لها ، وقد ولد لهذا الوحش من إخذلنا وتيفون .

(٢٠) تروى الأسطورة أنه بعد ذلك توجهت الإلهة يرافقتها بعض الذئاب ليكوى باليونانية Lykoi ، إلى نهر زانثوس حيث استطاعت أن تروى ظمأها وتغسل هي وابناها . وتكرما لمرافقتها سميت المنطقة ليكيا .

(٢١) تروى الأسطورة أن أثينا [منيرفا] هي التى اخترعت للمزمار المزودج الذى صنعته من غراب بحيرة تريزون . فسخرت منها كل من هيرا وأفروديت ، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمار وتاملت نفسها غل سطح ميه أحد يتابع إيذا أصاب وجهها التشويه فحنفت لذلك ، وألقت بالمزمار إلى الأرض مقسمة بأن من يلتقطه سيناله شر العذاب . وحدث أن التقطه مساتير اسمها مارسياس برع في النفع فيه إلى درجة تحدى معها أبوللو فأقيمت بينهما مباراة ظفر فيها أبوللو بجائزة ربات الفنون في عزف القيثارة . فامر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه . وكان أوليمبوس أحد زفائق مارسياس الأوفياء هو الذى جمع ما تبقى من أشلاءه ودفنها . أما نهر مارسياس فهو من روافد نهر مياندر .

(٢٢) انظر الكتاب الثامن .

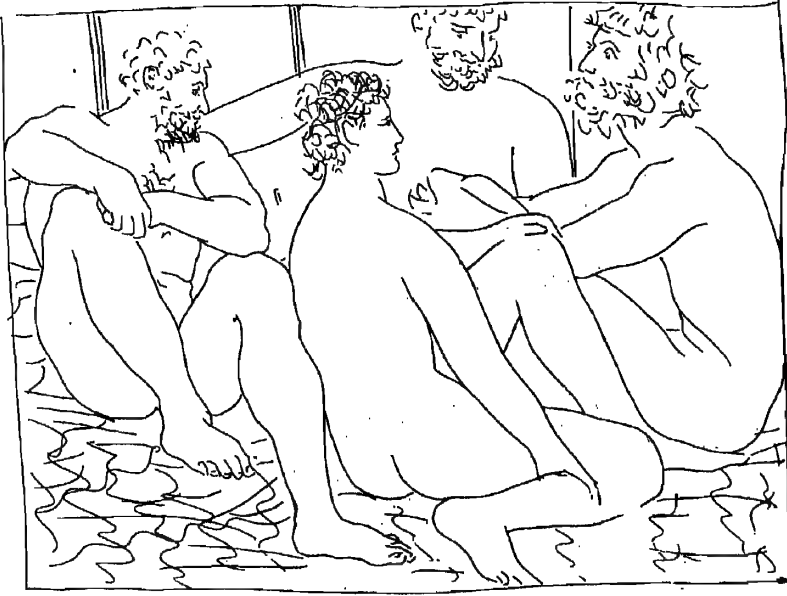
(٢٣) أى أن إثم عشق الأب لابنته ليس أنشع في نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته .

(٢٤) مسخت بيلوميليا بلبلًا ، في حين مسخت بروكى عصفور جنة بكسو صدره الاحرار .

(٢٥) الكيكوريس من سكان طراقيا وقد اغار عليهم أوديسوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم في صف برام ملك طروادة ضد الأخيين .

(٢٦) كان كالائيس وزينس من بين بحارة الأرجو ، ويرجع الفضل لهما في تخليص نيتيوس من طيور الهاريس [انظر الكتاب السابع] .

(٢٧) سكان أورخوميوس في بويوتيا نسبة إلى ملكهم ميثياس .



بيكاسو: كيغالوس يروي قصته لأبناء أياكوس ملك جزيرة إيجينا

الكتاب السابع

جاسون وميديا

على حين كان المينياسيون [أبناء سلالة مينياس] تمخر بهم البحر سفينتهم التي بُنيت في
 پاجاساي^(١)، لمح الملاحون فينيوس^(٢) وقد هذه الكبر ونقد بنور بصره نور الحياة، ورأوا أبناء «ريخ
 الشبال» الصغار يزودون طيور الهاريس بعيداً عن فمه حتى لا تؤذيه، ثم انصرفوا حتى بلغوا
 نهر فاسيس^(٣) الصاخب المزبد يقودهم جاسون النلّيع الصيت وهم يغالبون الصعاب^(٤). حتى إذا مثلوا
 بين يدي الملك أبيتيس جعلوا بطالبونه بفروة الكيش الذي حمل فريكسوس، فانقلب يملى عليهم شروطاً
 قاسية تلزمهم القيام بمهام جسيمة. وشغقت ميديا ابنة الملك بحب جاسون، وكم حاولت أن تدفع ذلك
 عن قلبها فلم تفعل، فأذعنت لسلطان الهوى وهي تناجي نفسها: لماذا تراني فاعلة فيما قضاه على إله من

الآلهة ، فما من شك في أنني صرت صريعة ما يسمى الحب . ولعل حبي لجاسون هو الذى جعلنى أرى شطط أبى فيما اشترطه عليه ، وهو الذى جعلنى أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عيني من قبل . ثم مالى أحسّ القلق يتسلل إلى نفسى رويداً رويداً ؟ ترى هل تملكين أيتها الفتاة التسعة أن تنجى بقلبك الغض من تلك النيران المضطربة وتعودى إلى ما كنت عليه خالية القلب ؟ إني لأراى عاجزة يتنازعنى عقلى وعاطفتى ، وأنا لعاطفتى أميل مع علمى بأن الخير لى فيما يملئ عبقلى . وكيف بى قد استهوأنى حب رجل غريب فأصبحت أحلم بالزواج منه مع علمى بأن فى موطنى من قد يستهوئنى . وسواء عاش جاسون أو مات فذلك مرهه إلى الآلهة ، ولكنى أمل أن يعيش ، وعلى أن أصلى للآلهة لكى يعيش وإن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جنى ، ومن ذا الذى يرى شبابه ونبل أصله وشجاعته دون أن يقدّره إلا إذا كان وحشاً جامداً الحس . وإذا لم تكن لجاسون كل هذه السجاياء فمن هذا الذى لا تحركه كلماته ؟ لقد مسّ قلبى ولم يلبث أن عشتّ حبه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فسوف تحرقه أنفاس الثورين اللذين يفتنان القلب ، أو يصصره أعداء البشر الذين ستبتهم الأرض حين تبدّر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة التنين النهم . وما كان يمكن أن أكون إلا غمرة قد قلبها من صخر أو حديد إن أنا لم أحل دون هذا . وما أتمنى إن رأيته يموت ، وهل أقوى على أن أثّر عليه الثورين أو أمكن منه المحاربين الذين تنبتهم الأرض ، أو التنين الذى لا يغفو أبداً ؟ كم أتمنى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلاصليين من أجله ولسوف أسعى لسلامته .

٤٠ ترى هل أخون أبى ، وأعين غريباً على النجاة وقد يبصر بعدها دوفى ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركنى هنا أواجه العقاب جزاء خيانتى لوطنى . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يؤثر على امرأة أخرى فهل أتركه يلقى حتفه جزاء نكرانه للجميل ؟ لا ، إني أرى فى براءة وجهه ونبل طباعه ورقته ووسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يجدعنى أو أن ينسى ما قدمت له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعده ولسوف أشهد عليه الآلهة ، فإذا لم يكن ثمّ ما أخشاه فلم هذا الخوف إذن ؟ فلا تأهب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل جاسون مديناً لى بحياته فيتزوجنى فى احتفال مهيب ، وستأتينى نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكرمنى على أنى منقذة أبنائهن . ثم هل ترائى أهدج أختى وأخى وأبى وألبنى بل ووطنى نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار ؟ ولم لا أتركهم والذى قاس وأهل وطنى جفافة ، وأخى مازال طفلاً ، وأختى تباركنى دائماً بدعواتها ، وأعظم الآلهة تسكن صدرى ، وليس هناك مما أخلفه ورائى شىء ذو قيمة بيننا أستهدف بفرارى شيئاً أعظم هو المجد . فإنقاد هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرف على بلاد أفضل من بلادى ، وزيارة مدن طبقت شهرتها الأفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإلام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أترقبه . ثم إننى سأظفر بجاسون الذى أرى فيه عرضاً عن كل كنوز الأرض ، وحين أصبح زوجته فسوف ينظر الناس إلى على أنى محظوظة بارتكها السماء ، وسترتفع هامتى عالية حتى تلامس النجوم .

٦٠ ولست أعباً بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التى هى للملاحين بالمرصا (٥) ولا عن خاربيديس خصم السفن التى تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيتها ، ولا عن سكيللا الشرهة

المنطقة بالكلاب المفترسة النابحة في أعماق بحار صقلية . إنها جميعاً لا تخيفني ، فسوف أمضي في رحلتي الطويلة في البحار وأنا بين أحضان حبيبي ، ولن أحس وأنا ملتصقة بصدر زوجي جاسون إلا الخوف عليه وحده . ولكن أي زواج ذلك الذي يتحدثين عنه يا ميديا ؟ يحسن بك ألا تخوضي في شيء من غير اللائق أن تخوضي فيه لاسيما وأنت آخذة فيه ، ومن الخير أن تطرحي هواجسك الشريرة .

وكتفت ميديا عن مناجاتها لنفسها بعد أن استبان لها أن العقل أولى أن يُتبع ، وأن عليها أن تغلب عواطف البتوة والشرف على حبها لجاسون . وحين أدرك كيوييد أن الهزيمة لحقت به بدأ يحزم أمره للرحيل بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتي ابنة بيرسيس المختفي في ظلال الأكيات بأعماق الغابة وهي عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها . ولكن ما إن وقع بصرها في الطريق على جاسون بن أيسون حتى علت وجنتيها حمرة ما لبثت أن اختفت ثم أعقبها شحوب واصفرار ، وأحسّت بمشاعر الحب تعاودها وتستعر في أعماقها ، وكأنما كانت ثمة جمرات متقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا بها تتأجج . هكذا أضرمت رؤية جاسون حب ميديا الذي كان قد أصابه الفتور ، وأتقدت في قلبها الجذوة التي كانت قد خمدت .

كان من الطبيعي أن يثير مشهد جاسون الوسيم حب ميديا ، فقد كان عندها أكثر وسامة من ذي قبل فأخذت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى ، مأخوذة بطلعته غير مصدقة أنه واحد من بني البشر ، ولم تعد تستطيع أن تحوّل بصرها عنه . وما كاد يأخذ في الحديث إليها ممسكاً بيدها اليمنى بين يديه متوسلاً إليها أن تعينه ، أخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا نجحت مهمته حتى انهمرت من عينيها الدموع وهي تتمتم : « لقد بات الموقف أمامي بيتاً ، ولست أجهل حقائق الأشياء ، وإنني أعلم أن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذي يقودني ليوردي موارد الهلاك ، ولكنني سوف أعينك على النجاة والفوز ، كي تحقّق لي أنت ما وعدتني به بعد نجاتك » .

وأقسم جاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤلّمة ثلاث مرات^(٦) ، وبالإله المائل في الكهف ، وإله هميه المستقبل^(٧) ، ويعين الشمس التي ترى كل شيء ، ويكل ما يملك ، وبالمخاطر الزهية التي سيتعرض لها . فقنعت ميديا بقسمه وصدّقته ، وزوّدته بأعشاب سحرية قرأت عليها تعاويذها وعلمته كيف يستخدمها ، فامتلاً قلبه سروراً وعاد إلى سفينته فرحاً .

وعندما بزغ الفجر واختفت النجوم ، تجمّع الناس في حقل مارس المقدس واتخذوا أماكنهم في السفوح المرتفعة المحيطة به ، وتوسّطهم الملك متألّفاً في ثيابه الأرجوانية اللون مهيباً بصولجانه العاجي رمز سلطته . وفجأة ظهر الثوران ذوا الحوافر الذهبية والأنوف الصلبة يفتشان لهباً أشعل النيران في الحشائش الخضراء ، واختلط خوارهما بصخب النيران التي تندلع من حلقتهما ، وإذا هذا الحوار مع قوة النار أشبه بفورة الحُرّض [الجير الحى] في قبو غمره سيل من الماء ، غير أن جاسون بن أيسون تقدم نحوهما ، فهزأ رأسيهما شارعين قرونها المدببة الحديدية الأطراف وأخذت أظلافها تحفر الأرض ، وامتلاً القضاء بخوارهما

المختلط بالسنة الدخان ، وجمد ملاحو الأرجو في أماكنهم خوفاً ، عدا جاسون الذى تابع خطوه دون أن يحس حرارة أنفاس الثورين النارية بفضل السحر الذى اعتصم به ، وتقدم في شجاعة فربت على لُغديهما المتدليين ، ورفع النير ووضعه على عنقيهما فمضيا يجزان المحراث الثقيل والنصل الفولاذى وراءهما ، وأخذت خطوط الحرث تمتد في الأرض البكر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملاحى الأرجو . ثم مدَّ يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفغوان التى كانت قد عُمت من قبل في السم الزعاف ونثرها في شقوق الأرض المحروثة ، فما لبثت أن أخذت تنمو في التربة وتشكلت فيها كما تتشكل الأجنة البشرية في أرحام الأمهات حتى يكتمل نموها فتخرج إلى النور ، وهكذا ظهر حصاد من أجساد بشرية لا يُعد ولا يحصى نما في جوف الأرض الحُبلى . وأعجب من هذا أنه برز منها شاهراً أسلحة نمت هي الأخرى معه في باطن الأرض ، وأفزعزت البيلازجيين^(٨) عندما أخذت تسدد رماحها الحادة إلى رأس البطل الثيسالى . وتحرك الخوف في قلب ميديا على جاسون رغم السحر الذى حصنته به ، وشحب وجهها وغاضت الدماء من أطرافها ، وسرت في جسدها رعشة مفاجئة وهي ترى هذه الأعداد الغفيرة من المحاربين تحيط بالفتى وحده ، وساورها القلق مخافة أن تكون الأعشاب التى أعطتها لجاسون أقل تأثيراً مما ينبغي أن تكون عليه ، وإنبرت تتمم بتعاويد أخرى تستعين بها وتستخدم أفانيتها لتزيد موقفه قوةً ، وإذا جاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويلقى به وسط أعدائه ، فإذا بهم يتحولون عنه لينشب بينهم قتال مرير ، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فأفنى بعضهم بعضاً . عندها تهلل وجه الأخيين [اليونانيين] بشراً واحتضنوا الفائز فرحين ، وتحركت في صدر الأميرة رغبة في عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل ، فكنمت فرحتها في نفسها وشكرت الآلهة على إنجاحها تعاويذها السحرية ذات الأثر في نجاة جاسون .

لم يبق أمام البطل إلا أن يبعث النوم في عيني التنين الذى يحرس الشجرة التى علقت عليها الفروة الذهبية ، وقد كان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذى الفروع الثلاثة وأنياه المقوسة ، غير أن جاسون لم يكد ينثر عليه العشب الذى تجلب عصارته السبات العميق ، ويتمم بالتعويدة التى تهدىء البحر العاتق والنهر الهائج حتى أسلم التنين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضاً من قبل أبداً ، وانتزع جاسون الفروة الذهبية ، ومضى حاملاً معها غنيمة انتصاره وهى الأميرة ميديا التى أعانته على تحقيق رغبته ، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطياً العقبات حتى ميناء إيولكوس^(٩) .

أيسون

وقدمت نساء ثيساليا القرابين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين ، وكذا فعل آباء الأبطال فعلهن . فأشعلوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحارب ، ونحروا الضحية المذبة القرون التى كانوا قد نذروها للآلهة . وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى قُربت من حثفه فتوجه جاسون إلى

زوجته قائلاً : « أى زوجتى التى أدين لها بحياتى والتى يعجز العقل عن إدراك ما أسدته لى ، أترك قدرة وأنت التى لا يستحيل على سحرك شيء ، أن تأخذى بعض سنى عمرى وتضميها لى عمر أبى ؟ » ، وانسابت مع كلماته دموع عينيه فحرك حبه لأبيه قلب ميديا ، وانجهمت بفكرها لى أبيها أبيتس الذى كانت قد هجرته ، لكنها أخفت مشاعرها قائلة لزوجها : « ما أقساه من عرض هذا الذى تعرضه ، أو يدور بخلدك أن باستطاعتى الاقتطاع من عمرك لأصل به حياة غيرك . إن إلهة هيكاتى لا تحب ذلك ، فما من حقل أن تطلب لى ما أعجز عن تحقيقه ، غير أنى سأحاول أن أقدم لك هدية تفوق ما تطلب يا جاسون ، وبأساتعين على تجديد شباب أهلك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقى أنا حين تفضل الإلهة المؤهلة ثلاثاً فتعطينى فى محاولتى الجريئة » .

وأضى القمر ثلاث ليال حتى اكتملت استدارة قرنيه ، ومع تألق ضوئه تسلفت ميديا من دارها فى ثيابها الفضفاضة عارية الرأس حافية القدمين مرسله شعرها على كتفيها متعثرة الخطى فى سكون السحر ، والطيور والوحوش فى غنادعها مستسلمة لنوم عميق ، وأوراق الأشجار ساكنة على الغصون لا يتحرك لها حفيف ، والهواء المحمل بالضباب قد سكن وقد تراءت من خلله النجوم المتوهجة فى كبد السماء . مدت ميديا ذراعها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاث ، ونثرت مياه النهر على رأسها مرات ثلاث ، وصاحت صيحات ثلاث معها نحيب وعويل ، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصلبة وأخذت تهجم : « أيتها الليل الحارس الأمين لأسرارى ، أيتها النجوم الذهبية التى ترسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار ، أيتها الإلهة هيكاتى يا صاحبة الرؤوس الثلاثة ويا من هدتنى دوماً لى ما أقوم به وأعانتى على تحقيقه ، أيتها التعاويذ السحرية ، أيتها الأرض التى تنبت الأعشاب السحرية ، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات وجان المغارات وجان الليل ، أقبلوا جميعاً . فبعونكم أستطيع حين أريد أن أصدّ جريان الأنهار فترتد مياهها لى منابعها بين دهشة الشيطان ، وأن أهذى عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها بأناشيدى وأن أطرد السحب أو أجمعها ، وأن أرسل الرياح أو أخدها ، وأن أفنك بالثعابين بسحر تعاويذى وأن أحرك الصخور والأشجار ، وأمر البلوط أن يقتلع نفسه ، بل أمر غابات بأكملها أن تفعل ذلك أو أن أمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتئن وتزجر ، وأطياف الموت فتخرج من قبورها ، والقمر أيضاً أجذبه من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية^(١) التى تدق لتخفف من عنائه . إن جمالى يُرى برونق مركبة جدى^(٢) ويفقد الفجر أطيافه بفعل عقاقيرى ، أنتم الذين أعتم على تهدئة وهج أنفاس الثورين ووضعتم عليهما التبرين ليمضيا بالمحراث المعوج ولم يكونا قد جراً شيئاً قبل ، وأنتم الذين أترتم المحاربين الذين نبثوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم البعض الآخر ، وأرسلتم النوم لى عينيّ التنين الذى لم ينم من قبل أبداً ، ثم أسلمتم الفروة الذهبية لى اليونان . ما أحوجنى اليوم لى عقاقير تعيد نضرة الشباب لى شيخ فان وترده لى مقتبل العمر ، وسوف تهبونها إياى بعد أن لمعت النجوم استجابة لندائى ، وأقبلت مجموعة من التنانين المجتحة بهذه المركبة التى أوقفتها بجوارى » .

٢٢٠ واعتلت ميديا المركبة التي كانت قد هبطت إليها من السماء وربت على أعناق التنانين التي تجرّها ، وحركت أعتتها فانطلقت في الفضاء ، وأطلت على وادي نهر عمى في نيساليا ثم وجهت تنانيتها جنوب المناطق التي ستحلّ بها . وعكفت ميديا على فحوص أعشاب جبل أوسا ثم اتجهت إلى هضاب جبل بيليون المرتفع وجبل أوتريس وجبل پندوس وأوليمبوس^(١٣) أعلى الجبال قمما وجمعت منها الأعشاب التي اختارتها ، بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالنصل القوس لسكين من البرونز ، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطئ نهر أيدانوس ، ومن أمفريسوس وإنيبيوس ، وينيوس ، ومستقعات سپيرخيوس ، ومن شواطئ بويي^(١٣) التي ينمو بها الغاب ، كما اقتطعت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذي نال شهرة كبرى لما له من أثر في إطالة العمر بعد ما فعل فعله في جسد جلاوكوس^(١٤) .

٢٤٠ وأمضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان في المركبة التي تجرّها التنانين المجنحة ، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنية خالطة الذكور ، وشيدت محرابين في العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكلان الأيسر لربة الشباب^(١٥) ، وغطتهما بالكاليل من غصون الأشجار التي تنمو في الغابة ، وحفرت خندقين قريبين ملأتهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قربانا ثم ملأت كئوسا من النبيذ وأخرى من اللبن وسكبتها فوق الدماء في الخندقين ، ثم تمتعت بتعاويذها منادية جان الأرض ، متوسلة إلى ملك الظلال ومليكتة المخطوفة ألا يسلبا العجوز الحياة ، وأخذت تكرر الصلوات حتى أثارت عطفهم جميعا . وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطا من الأعشاب المثورة أضجعت عليه الشيخ الفاني وأخذت تتلو عليه تعاويذها حتى استسلم للنوم العميق ، ثم أمرت ابنه وأتباعه أن ينصرفوا عن المكان وحذرهم من أن تقع أعينهم غير المنتهية للسحر على مشهد الطقوس السحرية التي سوف تؤديها فاطاعوا وتفرقوا ، بينما أخذت هي تدور وحدها حول المحرابين بشعرها المرسل كأنها إحدى عابدات باكخوس ، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعوادا دقيقة في الحفر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبت ، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرابين ، وظهرت الشيخ بالنار ثلاث مرات ، وبالماء ثلاث مرات ، ثم بالكبريت ثلاث مرات ، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدرا تطهو فيه الجذور التي جمعتها من وديان هاميونيا والبنور والأزهار ذات العصارات الحريفة . وكانت هذه مقومات سائل قوى الأثر يغلى ويغور بزيد أبيض في القدر ، ثم أضافت إليها الأحجار التي جلبتها من أقصى الشرق ، والرمال التي غسلتها بيماء الأوقيانوس ونُدف الثلج التي جمعتها بالليل على ضوء القمر ، ولحم بومة مرعبة وجناحيها ، وأحشاء غول وهو ذلك المسخ العجيب الذي يستبدل بقسائنه الحيوانية أحيانا قسائنه بشرية ، ولم يفتها أن تضيف الجلد ذا الحرافش لثعبان مائي يسكن مياه كينييس في ليبيا وكبد وعمل معمر ورأس غراب عمر ما يربو على أكثر من أجيال تسعة ومعه منقاره ، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التي لا أساء لها ، والتي كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمة تفوق طاقة البشر .

وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف ، وأخذت تحرك به هذا المزيج الذي تحول إلى سائل وهو ٢٨٠ يغلي على النار ، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرّ وأورق ، وسرعان ما أصبح محملاً بالكثير من عنقايد الزيتون ، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزي على الأرض اخضرّت البقعة التي تقع عليها وامت بها الحشائش وتفتحت فيها الأزهار . وعندما اطمأنت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقت به حلق الشيخ الطاعن في السنّ وتركت دماء الهرمة تسيل منه حتى جفت عروقه ، وأخذت تملؤها بالشراب الجديد الذي امتصه أيسون عبر الجرح الذي أحدثته ميديا في فمه أيضاً ، وسرعان ما زال الشيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد ، وغابت مظاهر الشيخوخة والضعف واختفى شحوب وجهه ، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فسطها ، واكتسبت أطرافه قوة الشباب ، وتعجّب الملك الشيخ من هذا التغير الذي أعاده إلى حالته التي كان عليها منذ أربعين عاماً مضت .

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سيائه أدرك أن الشباب من اليسير رده ثانية بالمثل إلى مرضعته ، وأن اليد الطولى في هذا تعود إلى ميديا أميرة كوخيس ، ومن ثم طالبها بتحقيق هذه الأمنية فرفضت لندائه .

يلياس

ولم تنته أعمال ميديا السحرية عند حدّ ، فلقد قصدت ذات يوم دار يلياس شقيق أيسون والذي انتزع منه العرش ، وادعت أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده ، فرحبت بها بناته بدلاً منه لأنه كان واهن القوى أحنّت الشيخوخة ظهره . ولم تفض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرة محبتهم متظاهرة بصداقتهم ، وقصّت عليهن ما بذلته من عون لجاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون ، فأسهبت فيها وأطالت حتى حرّكت أمل بنات يلياس في إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها ، فأخذن يتوسلن إليها أن تفعل لأبيهن ما فعلته لأب جاسون مقابل ما تشاء .

وصممت ميديا طويلاً متظاهرة بالتردد في قبول طلبهن ، مدّعية أنها سوف تفكر في الأمر ملياً . وطال قلق المتوسلات وهن ينتظرن ، ثم كان أن وعدتهن بتقديم عونها لمن قالت : « لكي أبث الطمأنينة في قلوبكن فسوف أحول الكباش المسنّ الذي يتقدم قطعان غنمكم إلى حقل صغير بدوائى السحري » . عندها أحضرن لها كيشاً كثيف الفروة ملتوى القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر ، فأحدثت بسكينها جرحاً في حلقه فخرجت منه بقعة دم علقّت على نصل السكين ثم أمسكت بالكباش فغمست قوائمها في وعاء مليء بأعشاب قوية السحر ، فأخذت قوائمها تنكمش وقرونها تحترق وتزول وتذهب عنه آثار السنين . وإذا الجمع يسمع فجأة ثغاء خافتاً يتردد وسط الوعاء النحاسي الذي قفز منه حبل صغير يتلفت باحثاً عن ضرع أمه .

٣٢٠ فتحركت الدهشة في قلوب بنات پلياس ، وأقنعتهن الدليل بصدق وعدها ، وعارذن إلحاحهن بأن يكون لآبيهن حظه من هذا السحر .

٣٤٠ حطَّ فويوس إلى الشمس عن جياده المجنحة عدتها بعد هبوطه إلى مياه أيريا ثلاث مرات . وفي الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تبرق في السماء وضعت ابنة أيتيس المخادعة قدراً كبيراً على نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السحر ، وتمدد الملك وأغفى كأنه أخذته سنة من نوم شبيه بالموت ، وتلت ميديا تعاويذها التي جعلت الملك يغط في نوم عميق ، وقالت ميديا لبنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن : « كيف وقفتن جامدات لا تفعلن شيئاً ، ألا فلتمسكن بسيوفكن واطعنن بها أباكُن حتى ينسكب دمه كي أبداً بعد ذلك بملء شرايته بدم الشباب ، فحياة أبيكن وتجديد شبابه بين أيديكن ، فإن كتن تحبينه فلتقمن بواجبكُن نحوه . أطردن شيخوخته بضربات سيوفكن لتخرج مع دم جسده الفاتر » . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على خطة لم يكن يعلمن شرَّ عاقبتها ، وأمعن في طعن والدهن إظهاراً لعمق جبهن وإن تمأشين النظر إليه وهن يفعلن ذلك ، فنهض الملك مثقلاً بالجراح مشوهاً تغطيه الدماء ، وحاول أن يردَّ سيوف بناته التي أشرعت من حوله فلم يفلح وصاح بهن وهو يشن « ماذا دهاكن يا بناتي وما الذي جعلكن تشهن السيوف لتقضين على أبيكن ؟ » . وسرعان ما خارت عزيمة بنات الملك بعد سماع كلماته وخانتهم شجاعتهن ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوه بكلمات أخرى بطعنة في حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده في الماء المغلي ، وأسرعت تطير في الهواء تحملها دوابها المجنحة قبل أن يحيق بها مكروه . وحلقت طائرة فوق جبل پيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [أم القنطور خيرون] ، وفوق أوتريس والمناطق التي اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذي طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمعت حوريات البحر حول كيرامبوس^(١٦) [ومسخره جُعرانا] ثم حملته وطرن به في الهواء فأنقذه من الغرق في الطوفان .

٣٦٠ وبينما كانت ميديا في طيرانها أشرفت على مدينة بيتاني الأيولية^(١٧) التي ينتصب فيها تمثال الأفعوان الحجري الضخم^(١٨) ، وفوق غابة إيدا^(١٩) حيث أخفى باكخوس العجل الذي سرقه ابنه بعد أن حوله إلى وعل^(٢٠) ، وفوق المكان الذي دُفن فيها والد كوريشوس^(٢١) وقد طواه كتيب من رمال خفيفة ، واستمرت حُلقة فوق تلك الحقول حيث تنبح مايرا^(٢٢) فيملاً نباهاها الغريب قلوب الرجال رعباً ، وفوق مدينة يوريبيلوس حيث نبتت القرون في جباه سيدات جزيرة كوس^(٢٣) لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن بلادهم ، كما حلقت فوق رودس الجزيرة التي أحبها فويوس وفوق مدينة ياليسوس مقر التلخينين^(٢٤) الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقتهم چويتر في مياه شقيقه نبتون ، ثم أطلت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التي أصيب فيها السيداماس^(٢٥) يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته يمامة وديعة . كما شاهدت بحيرة هيربيه ونمى^(٢٦) موطن سيجنوس التي اشتهرت بعد أن تحول الأخير إلى طائر البجع . وفي ذلك الموقع كان فيليوس نزولاً على إرادة الغلام سيجنوس قد قدم له طيوراً جارية كان قد استأنسها وأسداً كان قد روضه ، ثم طلب إليه سيجنوس أيضاً أن يروض ثوراً وحشياً فأبى أن يفعل

ذلك ، إذ لم يكن الغلام يبادلُه عاطفة بعاطفة . وأخيراً أبى فيليوس أن يستجيب لإلحاح ذلك الصبي فيروّض له ثوراً إرضاءً له ، فصاح فيه سيجنوس غاضباً « عما قريب ستقول يا ليتنى رَوّضت لك الثور »^(٢٧) . ومضى سيجنوس فالتقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه مات على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع ، وأخذ يرفرف في الهواء بجناحيه في بياض الجليد ، وباتت أمه تبكيه حتى ماتت فتحولت إلى بركة تحمل اسمها . وعلى مقربة منها بليورون^(٢٨) التي طارت إليها كوميى ابنه أوفيس^(٢٩) فراراً من أبنائها الذين كانوا يريدون إيقاع الضرب بها . وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا^(٣٠) المكروسة لابن ليتو [لاتو]^(٣١) والتي تحوّل ملكها وملكيّتها إلى طائر ين ، ولحّت على يمينها كيلينيّه حيث قدّر القدر أن يأتى مينيفرون بها ما تأتية البهائم ، وذلك حين غشّى أمّه ، ورأت غير بعيد سيفيسوس ينعم مصير حفيده الذى حوّلَه أبوللو إلى فقمة ، كما رأت كذلك دار يوميولوس^(٣٢) الحزين على ولده الذى تحوّل إلى طائر . وأخيراً وصلت بدواًها المجنّحة إلى كورثه حيث ينبثق الينوبع المقدس « بيرينى » ، وحيث كانت تتوالد من نبات عش الغراب كائنات حيوانية تنتعش مع المطر^(٣٣) .

ولم تكد عروس چاسون الجديدة تموت بعد أن هراً الثوب المسموم الذى بعثت به إليها الأميرة الكولخيسية ، ويشهد البحران على كلا جانبي البرزخ اضطرام النار في دار الملك ، حتى حملت ميديا سيفها المخضب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بقتل أبنائها من چاسون وهربت فراراً من غضبه ، فحملتها دواًها المجنّحة إلى مدينة أثينا قلعة باللاس حيث طارت فيني أشرف النساء في صحبة بيريفاس^(٣٤) العجوز ، وكذلك حيث طارت ألكيوني^(٣٥) حفيده بوليبيمون محلّقة عالياً بجناحيها اللذين اكتسبتها . وفي أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا ، ولم يكتف بليواها بل اتخذ منها زوجة له^(٣٦) .

ثيسـيوس

وإلى أثينا وصل ثيسيسوس الذى وطّد السلام وأشاع النظام في أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين ، ولم يكن الملك أيجيوس يعرف أنه ابنه ، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة « الأقونيطن » التى كانت قد جلبتها معها من شواطئ سكوثيا والتي يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدنى كيريروس الذى عاش داخل كهف مظلم ينفذ منه طريق إلى العالم السفلى وهو الطريق الذى اجتازه هرقل بطل تيرينث ، بعد أن شدّ وثاق كيريروس بسلسلة من الفولاذ ، بينما كان الكلب يقاوم ويدبر رأسه بعيداً عن ضوء النهار . وحين تملك كيريروس ثورة الغضب ملأ الفضاء بنباحه القوى الصادر عن رموس ثلاثة ، فأخذت قطرات الألعاب التى هى أشبه ما تكون بالزبد الأبيض تتناثر من خطمه هنا وهناك في الحقول الخضراء . وإذا هي تثبت وتضرب بجذورها في التربة الخصبة التى أينعتها ، وإذا هي تُثبت نباتاً ضاراً من جنسها ، وإذا انبثق هذا النبات وسط الصخر للدا سيّاه أهل الريف أزهار الصخر « الأقونيطن » . وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدمها لهذا الطلوع وكأنه يقدمها لخصم من خصومه

وكانت ميديا قد أخفت عليه أن هذا الطارىء ابنه . وما إن رفع ثيسيوس الكأس إلى شفثيه وهو لا يدري ما دُبر له حتى أبصر الأب نقش شعار أسرته على المقبض العاجي لسيف البطل ثيسيوس فإذا هو يعرف في التّو أن هذا الطارىء ابنه ، فاطاح بالكأس القاتلة عن شفثيه . فخنّفت ميديا وولّت وجهها هرباً خوفاً من الموت الذى كان يتعقبها ، وإذا هى تطويها السّحب بين طيّاتها وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو .

وأحس أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بشيء من الفزع لهذه الجريمة البشعة التى كادت أن تقع فأشعل المصابيح على المحارب ، وأقى بالثيران المزدانة الرعوس بالأكاليل وذبحها قرباناً للآلهة ، فكان يوماً مشهوداً في حياة الأثينيين ، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب في حفل ترفرف عليه البهجة ، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحَت تنصايح : « شكراً لك ولشجاعتك يا ثيسيوس العظيم ، يا فخر ماراثون ، لأنك قويت على ذبح الثور الكريتي^(٣٧) ، ولأنك منحت فلاحى الحقول الممتدة حتى كروميون^(٣٨) الطمأنينة بعد قتلك للخنزير الوحشى . لقد شهدت أرض إبيداوروس مصرع ابن فولكانوس المسلّح بالهرواة على يديك^(٣٩) ، كما شهدت شواطئ سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسى^(٤٠) ، ورأت إليوسيس المدينة العزيزة على الإلهة سيريس موت سيرسيون^(٤١) ، كما قضيت على سينيس الذى كان يتعلدّى طوره بقوته الخارقة فيثي جذوع الأشجار ويحبل قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياه لستمزق أعضاؤهم وتتناثر ، وأصبح الطريق إلى ألكاثوى^(٤٢) مدينة ميجارا بفضلك آمناً ومباحاً للجميع منذ قتلت اللص سكيريون الذى رفضت الأرض والبحار أن تضم رفاته فظلت الرياح تتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيريون . ولو أنا شئنا أن نحصى أمجادك ووازناها بسني عمرك لأزيت عليها عدداً ، وكم نتمنى لك يا أشجع الأبطال أعظم الأمنيات فنرفع الكؤوس تكريماً لك . » ودوى تصفيق الشعب ودعواته في جنبات القصر الملكى ولم يعد في المدينة مكان لم يعمه الفرح .

آياكوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، فسرعان ما تتسلل المموم لتعكر صفو الأفراح ، وهكذا تغيّرت فرحة أيجيوس بعودة ولده إلى قلق بإعداد مينوس^(٤٣) ملك كريت العدة للحرب انتقاماً لقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوى وأسطول جبار ، كما كان يطوى صدره على حقد دفين ، فحرك سفنه السريعة التى تمثل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وأخذ يجمع جيوشاً من حلفائه كى يحاربوا إلى جانبه . فاستمال إليه جزيرة أنافى بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قرساً ، وانضمت إليه جزيرة ميكونوس الخالية من المرتفعات ، وجزيرة كيملوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التى ينمو بها الزعر البرى ، وجزيرة سيريفوس المنبسطة السهول ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التى باعتها الخائنة آرنه الطرواقية^(٤٤) للأعداء لقاء ذهب دفعها جشمها إلى

طلبه منهم ، تلك الفتاة التي تحولت بعد حصولها عليه إلى طائر يسمى غراب الزُّرْع الأسود القدمين والجنّاحين ، والتي ظلت تهمهم بحب الذهب إليها بعد تحولها طائراً . غير أن أولياريوس وديديماي وتنوس وأندروس وجياروس وبيباريوس التي تتكاثر فيها حبّات الزيتون الناصعة أبت أن تدعم أسطول ملك كريت .

وانتهى مينوس إلى أونيوييا مملكة أياكوس التي أطلق عليها اسم أمه إيجينا فخرج لاستقبال مينوس حشد كبير من الناس مرّحين به في حماس ، وأسرع للقاءه تيلامون يصحبه شقيقاه بيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه . كذلك خرج أياكوس يمشى واهناً تحت ثقل شيخوخته مرّحاً بيمينوس وسأله عن السبب في قدومه إلى بلاده ، فقال له عاهل المدن المائة الحزين على ولده : « جئت أنشد عونك في الحرب التي أخوضها لأثار لابي ، وكما أود أن تمّدني ببعض رجالك ليكونوا جزءاً من جيشي في تلك الحرب العادلة . إني أناشدك أن تمّدني يد المعونة لأستطيع أن أهوّن عن نفسي ما أجده من وحشة لابي في قبره » . فاجابه أياكوس حفيد أزوپوس قائلاً : « أن أجيبك إلى ما تطلب من المحال بمكان ، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع بلاد آل كيكرويس [الأثينيين] منا ، فبيننا معاهدات وثيقة » . ووجّه مينوس وانصرف وهو يقول : « لتجنّب شرّ ٤٨٠ العواقب الوخيمة من جراء تلك المعاهدات » . قال هذا إثارةً منه بأن يلوّح بالحرب دون أن يتورط في إشعالها فيبدّد طاقاته سريعاً .

ولم يكن الأسطول الكريتي قد ابتعد كثيراً عن شواطئ أونيوييا حين أقبلت على ميناتها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده . وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على رؤيتهم السابقة له ، وصافحوه في حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم . وكان كيفالوس يسترعى أنظار المارة بوسامته التي ظل محتفظاً بها ، وبغصن الزيتون الذي يحمله رمزاً لبلاده ، ويسير وسط سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سنّاً هما كليتوس وپوتيس ابناً باللاس . ٥٠٠

وبعد تبادل التحيات المتعارفة ألقى كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذي ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التي وقّعها الأسلاف ، والوقوف في وجه مينوس الذي يعترم بسط سيطرته على اليونان بأسرها . وحينما انتهى السفير من رسالته ذات المنطق الدال والعبارة البليغة ، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً : « يا أهل أثينا لكم ماشتم من عون من غير أن تسألوني إياه ، وليكن كل ما تملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية دون تردد ملكاً لكم ، ولا تعوزني هنا الموارد ، كما أن لي من الجند فوق ما احتاج للدفاع عن بلادى ضد الأعداء ، وشكراً للآلهة على ما أعطتني . وهكذا ترى أنه ليس لي ثمة عذر للتخلف عن عونكم » . فرد عليه كيفالوس : « ليتمّ لكم رجاؤكم وليتمّ مع الزمن ، وكما اغتبطت الغبطة كلها منذ أن وطئت قدمي بلادكم بقاء هذا العدد الغفير من شبابكم المملوء قوة ووسامة ، غير أني لا أجد هنا الكثير من سعادة بلقائهم في زيارتي الأولى لكم » . ٥٢٠

وتهدأ أياكوس ويدت في صوته رنة أسي وهو يجيب قائلاً : « لقد عشنا محنة قاسية قبل أن نعلم بهذا الرخاء الذي تشهده الآن ، وسوف أسرد عليك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيق وقتك سدى

بالأحداث العارضة . فقد ذهبت المحنة هؤلاء الشبان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم وهم على هذا لا يمثلون غير جزء ضئيل من فقدناهم .

الطاعون في إيجينا

عمّ البلاد طاعون مهلك أرسلته علينا الإلهة جونو غضباً وحقدًا على بلادنا التي تحمل اسم غريميتها^(٤٥) ، ولقد حسبناه بادية ذى بدء وباء عاماً لم ترسله علينا قوى إلهية ، فإذا نحن نقاومه بوسائلنا الطبية غير أن هذه الوسائل لم تلبث أن انهارت أمام تلك المحنة القاسية الضارية .

كانت الساء قد أعتمت في الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثم على الأرض حابساً فيها هواء ومبدأ ما لبث أن ألقى على نشاط الناس وحيويتهم ، واكتمل البدر مرات أربع وعاد هلالاً مرات أربع ، وريح الجنوب تهب حارة محرقة ، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوثت بالجراثيم التي نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء في الجداول والأنهار ، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط ميتة ، وعمّ الأسى المزارعين التسماء وهم يشهدون ثرائهم القوية تهوى صرعى وهى تحرث ، وكباشهم الكثيفة الصوف تنن تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمحل أجسادها ثم تنفق ، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق وقبعت في أماكنها تنن أين الموت . كذلك لم تعد للخنزير البرى ضراوته ، وفقد الغزال سرعته التي كانت تعينه على الفرار من الوحوش ، وجهدت الدببة عن التصدى لقطعان الماشية إذ غدت أكثر منها ضعفاً ، وتعفنت الجثث في الغابات والحقول والطرق وملاّت رائحتها الكريهة الهواء . والغريب أن الكلاب والذئاب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركتها لتحلل وتنفى مدنسة الأجواء بئنتها ، ناشرة الوباء في الأفاق الفسيحة .

واستفحل خطر الوباء حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له . وكان يبدأ دائماً بأمعاء ضحاياء فيجعلها تضطرم حرارة تحمرّ معها جلودهم وتلهث أنفاسهم ، ثم تنتفخ ألستهم وتحشوشن ، وتحف شفاههم وتظل منفرجة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوّث . ولم يكن المرضى يطبقون البقاء في الفراش أو يمتثلون غطاء فكانوا ينبطحون على الأرض طلباً لسطح ندى ، غير أن الأرض كانت ترتد ساخنة عندما تلامسها أجسادهم . وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشى المرض بينهم هم أنفسهم ، بل لقد أصبحت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى ، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتغافياً في رعايته عجل ذلك بإصابته ثم بموته . ودفع اليأس بالمرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم ، فتباعدهوا عن العفة والوقار ، ورابطوا عند الينابيع والأنهار يحاولون إطفاء ما أصابهم من ظمأ لا يطفئه إلا الموت ، إذ كان بعضهم ينحنون على الماء الجاري ليشربوا منه ، ثم إذا هم أعجز ما يكونون عن أن ينهضوا فيموتون غرقاً في هذا الماء الذي جاءوا إليه ليطفئ حرارة أجسامهم ، وبالرغم من ذلك كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه . وكان كثير من

هؤلاء البؤساء يضيقون برقدتهم على الفراش ويزحفون بعيداً عنه ، وكان بين من تخونهم قواهم من يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التي كانوا يخالون أن الموت جائئ فيها ، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخائفة هي علة مرضهم . وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والغبية يبيمون على وجوههم في الطرقات ما وجدوا القدرة على السير ، بينما كان الآخرون الذين لا يقوون على الحركة ينوحون راكدين محدقين بنظراتهم الزائغة في الأفق ، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال .

٥٨٠

فإذا كنت سائلي عما كنت أشعر به حينذاك ، فلقد كنت أياس ما أكون من الحياة ، وكم تمتيت أن يكون مصبري مصبري شعبي ، إذ كنت حينها أجلتُ البصر رأيت أجساداً هنا وهناك متناثرة فوق الأرض وكأنها نقّاحات يانعة قد اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها ، أو كتل البُلوط المتناثرة تحت شجرتها التي عركتها العاصفة . أرايت هذا المعبد المواجه لنا فوق التلّ والذي نرقى إليه بدرج ؟ إن الذي يسكنه هو جوبيتر . أو تظنّ أنه لم يجد من يُقدّم له القرابين ويُطلق البخور على مذابحه ؟ لقد وجد يقيناً الكثير منهم ، غير أن شيئاً من ذلك لم يُجد نفعاً في كشف الغمة عنا . وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم ، وكم من آباء صلّوا من أجل أبنائهم ، فسقطت زوجاتهم وأبنائهم موقى عند المحارب قبل أن تُسمع دعواتهم وقد أطبقوا أكفهم على أعواد البخور التي كانوا يبغون إحراقها . كما كانت الثيران التي ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر ، بينما كان الكاهن يتلو عليها صلواته ويصبّ النبيذ بين قرونها . وقد حدث حين قُلتُ أنا قرباناً لجوبيتر عنى وعن بلادي وعن أولادى الثلاثة أن صاح ثور القران فزعاً وسقط على الأرض ، فلما عملت السكّين في حلقه لم تقطر منه سوى قطرات قليلة من الدم ، فلقد أسلم روحه قبل أن يُذبح .

٦٠٠

على أن أحشاء الحيوان التي ماتت بهذا الطاعون لم يوجد فيها ما يكشف عن كُنه الواء أو ما يحمل نذيراً من نُذر الآلهة . فقد كان هذا المرض المروع يسرى في الجسم حتى يبلغ الأحشاء فيقضى على صاحبها عجباً . وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى بين يدي المحراب وكأنما أراد ذووها يميتهم هذه في تلك الأماكن أن يسترحوا الآلهة ، وقد خلصوا من الحياة بخنقهم أنفسهم بالحبال هرباً من رعب الواء ، فعجلوا مُريدين إلى هذا المصير المحتوم . ولم تكن ثمة طقوس جنازية لأولئك الموقى الذين أتى عليهم الطاعون ، كما لم تُحمل جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هي العادة إذ لم تكن أبواب المدينة تُسّع لمروء هذه الجنازات التي لا تُحصى فتركت كثرة من الجثث على وجه الأرض ولم تُوار في مقابر تسترها ، وكذا تراكت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفر بطقوس الإحراق ففقدت مناسك الإحراق قُسميتها ، وإذا الناس يتدققون بجثث أخرى إلى المحارق ليُزاحوا غيرهم عليها . ولم يترك هذا الواء لبك أن يبكي فقيده ، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ ولّوا دون أن تُدرف عليهم دمة ، وضاعت الأرض بموتها فلم يعد ثمة مكان لقيبر ما ، كما لم يبق من الأشجار ما يكفي لإيقاد نيران المحارق .

الميرميدون

وأصابني هول الكارثة بالأسى العميق فأدبرت وجهي للسواء أصبح متضرعاً : « أرى جوبيتر ، إن حقاً ما يقال إنك ضابجت أُمِّي إيجينا ابنة أزوبوس ، وإنك تُقرِّأها الإله القدير بنبؤٍ من غير حياء ولا خجل ، فأعد إليّ رعاياي أو فلتُمَتِّني معهم » . وإذا أنا أرى وميض برقٍ وأسمع قصف رعدٍ ، فأيقنت أن جوبيتر استجاب لدعائي ، فانطلق لسانى يقول : « إلهي ، لقد لَقِيتُ معنى إشارتك التي أرجو أن تكون بشارة خير لي ، ثم أهلا بهذا الوعد الذي وعدتني به » . ٦٢٠

ونظرتُ إلى شجرة البلوط القريبة المتفرعة الأغصان التي هي وقفتُ على جوبيتر والتي هي نبتةٌ من بذرةٍ من أجنة دُودُونَا المقدسة^(٤٦) ، فإذا أنا أرى رتلًا طويلاً من النمل في أفواهه ذرات وهو يسير بها في شقٍ من تجاميد جذع الشجرة ، فتأملتُ مُعْجَبَةً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً : « يا أجلُّ إله ، هب لي عدد هذا النمل أناساً يملأون بلادى الخالوية » ، فإذا شجرة البلوط تُرْعِدُ وإذا فروعها تتهايل ولا وجود لريح عابرة . ومع أنني كنتُ أُرْعِدُ خوفاً وتأثراً انتصب معها شعر رأسي هُرْعَتُ لآلثم الأرض والشجرة بقبلاى وقد امتلأت نفسي آمالاً كتمتها في أعماقي دون أن أبوح بها لغيري .

وأرخصي الليل سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة المموم ، ورأيتُ في منامي شجرة البلوط بفروعها وأعداد النمل الغفيرة عليها وهي تهتز هزتها التي رأيتها في البقطة ، وجموع النمل تساقط منها حاملة الذرات منتشرة بها وسط الحقول . وعلى حين بغتة بدأت تبرز من الأرض مخلوقات صغيرة أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد اختفت سيقانها الدقيقة وألوانها الداكنة ، فإذا هي على صورة البشر . وعندها زایل النوم جفوني حتى إذا عاودتني البقطة إذا الحلم هباء لا حقيقة له ، فعزَّ على ما حرمتني إياه الآلهة . غير أن جلبة مُدوِّية في أنحاء قصرى لغت سمعي ، وخُيِّلَ إليّ أنني أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرمانى من الاستماع إليها ، وجلتُ أن هذا لم يكن غير بقيةٍ من آثار النوم ، وإذا تيلامون يدفع على باب حجرى ومخطو نحوى قائلاً : « هلُم يا أبى فسوف تشهد شيئاً فوق الآمال والخيال » . وخرجتُ فإذا أنا أرى الرجال أنفسهم الذين رأيتهُم في منامي في صفوفهم نفسها التي كانوا فيها ، فأُنْسْتُ بهم وإذا هم يُقبلون على وتُحيوننى تحيةً المليك . عندئذُ وقَّيتُ لنذرى لجوبيتر ، وفرقتُ دور المدينة وحقول الريف التي مات أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين سَمَّيْتُهُم باسم الميرميدون^(٤٧) حتى يبقى ذكر الأصل الذى منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذى عَدُّوا يحملونه ، ولقد رأيتهُم أنت رؤية العين ؛ غير أنهم ظلُّوا يحتفظون بطبعهم فهم لا يزالون يُجسِّنون الاقتصاد والتدبير ، ولا يُقْعِدُهُم الجهد ، ويحرسون على ما يقتنون ، ويختزنون ما يجمعون ، ولسوف يكون لك منهم في الحرب جنود يتماثلون سناً وشجاعة حلماً تسكن ريح الشرق التي جاءت بك هنا لخيرنا [وكانت ريح الشرق هي التي جاءت به فعلاً] فينفسح المجال لريح الجنوب » . ٦٦٠

كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل في رواية القصص ، وشهدت ساعاته الأخيرة إقامة المآذب ، وأتى المساء فحملهم إلى النوم . وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهب حينما أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية ، وكانت السفن ما تزال راسية في الميناء رغم الحنين العاصف إلى العودة ، فمضى ابناً باللاس في رفقة كيفالوس للقاء الملك الذي كان نائماً بينما كان الأميران تيلامون وبيليوس منشغلين في تعبئة الجند للمحرب ، فقام فوكوس الابن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أبياته الجميلة ، وقد لمح في يد كيفالوس حفيد أبولوس رجلاً من خشب مجهول نوعه صيغ له سن من الذهب فقال له متسائلاً : « إن اهتمامي بالغابات وبالصيد كبير ، ولذلك فقد أثار عجبى ذلك الخشب الذي نحت منه رمحك ، لأنه ليس من خشب البلوط وإلا كان أصفر ، كما أنه ليس من خشب القرانيا وإلا كان ذا عقد كثيرة ، إننى لا أدري من أية شجرة هذا الرمح ، ومع هذا فإن عيني لم تقع على أجل منه » ، فأجابه أحد السفراء قائلاً : « لسوف يثير إعجابك أداؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله ، فهو لا يخطئ هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وجهته متى انطلق ، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مرسله ملوثاً بدم ضحيته دون أن يعيده أحد » . وتتابع أسئلة فوكوس سليل نيرئوس عن الرمح ومصدره ومن أعطاه وكيفالوس . وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير ، غير أنه لم يفصح بشيء عن الثمن الباهظ الذى دفعه لحيازة هذا الرمح خجلاً وندماً . وبينما بدأت الكلمات تنساب من شفثيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التى فقدوها واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

« من يصدق يا فوكوس يا ابن الإله أن هذا الرمح هو الذى يُدرُّ اليوم عيني بالدمع كما سوف يُدرُّهما بالدمع على مدى الأيام إن طال بي العمر ، وكم تمنيت لو لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذى قضى على زوجتى بالموت وقضى على أن أعيش مهتماً .

لعلك سمعت عن أورثيا الأميرة التى اختطفَت من أثينا ، إنها أخت زوجتى پروكريس^(٤٨) ، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جهلاً وخُلُقاً لرأيت أن پروكريس كانت أولى بأن تُختطف من أختها ، وقد زوجنى منها أبوها إيرمخثيوس ، وكانت عطاء الحب لى حتى نعتنى الناس بالسعيد . وقد كنت سعيداً حقاً ، ولولا إرادة الآلهة لبقيت سعيداً طول العمر^(٤٩) . ومع نهاية الشهر الثانى على حفل قراننا ، كنت أنصب شباكى صباحاً يوم لأصيد الوعول ذات القرون فلمحتنى أورورا ربّة الفجر التى كان نورها الزعفران قد قشع الظلمة فاستولت على لُبى على الرغم منى . وكم أتمنى أن يؤذن لى فأقول الحقيقة دون أن أغضب هذه الإلهة . حقاً ، لقد كانت ربّة الحلة الفاصل بين الليل والنهار وخلافة الحسن وردية الشفثين ، غذاؤها جرعات النكتار شراب الآلهة ، غير أنى كنت أعشق پروكريس التى كانت تحيا فى قلبى ولا ينطق فمى بغير اسمها ، فذكرتها بمواثيق الزوجية وبزفافنا الحديث العهد وضيمّات عناقنا ولقاءنا فى عُش الزوجية الذى

غادرته منذ لحظات ، فإذا الإلهة تمتلئ حقدا وتقول : « كُفَّ عن هذا التَّوَلُّهْ أيها الناكِر للجميل ، واحفظ عليك زوجتك . وإذا فُكِّر لي أن أرى المستقبل جلياً فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيت عليها » ، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجتي . وأخذت خلال عودتي أستعيد حديث الإلهة ، وبدأت الحشية تراود نفسي ألا تكون زوجتي أمينة على رباط الزوجية ، وكان جمالها وشبابها يدفعاني إلى الشك في إخلاصها لي بينما كانت فضائلها تردني عن هذا الشك . ثم إنى كنت عائداً من عند إلهة زينت لي لوناً من ألوان الحيانة ، كما أننا نحن العشاق نرتاب في كل شيء عندما نعشق . وهكذا عزمْتُ على أن أختبر تلك التي كانت سبب ٧٢٠ هُمى ، وأن أحاول اختبار إخلاصها وعفّتها بإغرائها بالهدايا . وضاعفت « أورورا » شكوكي ، فغيّرت ملامح وجهي فشعرت أني تحولت من حال إلى حال .

دخلتُ أثينا مدينة باللاس في صورة لا يعرفني معها أحد ، ودلفت إلى بيتي فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها . وبعد محاولات عدّة نجحت في أن أحظى بمقابلة پروكريس فلما رأيتهما اهتزّت نفسي وكدتُ أعرض عن اختبار إخلاصها ، ولم أستطع إلا بصعوبة منع نفسي من أن أعانقها كما كان ينبغي أن أفعل . كانت حزينة ، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أى امرأة سواها فقد كان الأسى على بعاد زوجها يُثقل على قلبها . ولك أن تتخيّل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفي عليها فتنة طاغية . هل أقص عليك كم من المرات صمد طهرها أمام محاولاتي ، وكم من المرات قالت لي : « إننى أصون نفسي لرجل واحد حيثما كان ، وإننى لا أشركُ سواه في المتعة بي » ، فأى رجل عاقل لا يقنع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها ؟ لكنى لم أقنع وجاهدت كى أطعن نفسي بنفسي . وانتهى الأمر بأن هُزئت من صمودها بعد أن ضاعفتُ عطايأى لها ووعدتها بثروة طائلة لقاء قضاء ليلة معها . ٧٤٠ وعندها صرختُ في وجهها : « ما أسوأ حظك ، فليس هذا الذى يدعى العشق بين يديك غير زوجك . فمعى الآن البرهان على خيانتك » . وإذ طوّفها العار لم تنبس ببنت شفة وولّت فارةً من زوجها المداهن وقد علاها الخجل ، تاركة الدار التي نصب زوجها لها فيها هذا الشرك . ومن أجل فعلتي نَبَذْتُ الرجال جميعاً ، وانبرت هائمة على وجهها في الجبال مكرّسة نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد .

واشتعل حبى لها بعد أن تركتني بنار أشدّ ضراوة مما كنت أحسّها قبل ، ورُحْتُ أتوسّل إليها أن تغفر لي ، واعترفت لها بخطي وبأن تلك الهدايا لو قدّمت لي لتردّيتُ في الخطأ نفسه ، وبعد هذا الاعتراف منى وبعد أن انتقمتم للإهانة التي طعنْتُ بها شرفها قبلت أن تعود إلى فامضينا معاً سنوات هائلة كنا فيها على خير وفاق . وكأنا لم تكفّ بالهدية التي منحتنى إياها بعودتها إلىّ ، فقدّمت لي كلباً كانت قد تلقّته من الإلهة التي وضعت نفسها في خدمتها قائلة لها : « إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى » ، كما أعطتني في الوقت نفسه ٧٦٠ هذا الرُوح الذى تراه الآن بين يدي . وإنك لا شك راغب في أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية ، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغريبة :

نجح أوديب بن لاويوس في أن يفسر الأحاجي التي لم تبلغ كنهها العقول الأخرى ، وألقت سفنكس تلك العرافة الغامضة بنفسها من الجُرف فخدمت ميّةً بالغازها وأحاجيها . ولا شك أن الإلهة المنصفة

نيميس لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون جزاء^(٥٠) ، فأرسلت في التّوبلاء ثانياً إلى أيونيا جثم على مدينة طيبة في صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على أنفسهم وعلى قطعان ماشيتهم . فذهبت مع شباب البلاد المجاورة ونصبنا شباكنا حول السهل الفسيح ، غير أن الوحش تحطّأها بقفزة سريعة خفيفة وأفلت من جبال الشراك التي كنا قد شدّدناها . فأطلقنا خلفه مجموعات من الكلاب التي أفلت الوحش منها في سرعة الطير ، فصاح بي الجميع أن أطلق كلبى « لايلابس » وهو الكلب الذى أهدته لى زوجتى بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة فوق عنقه ، ولم أكد أطلق سراحه حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد نعلم مكانه . كان الغبار المثار يدلّ على آثار خطاه ولكنه اختفى عن عيوننا ، ولم يكن الرمح بأسرع منه ، ولا القذيفة المطلقة من مقلاع يتأرجح في الهواء ، ولا السهم النحيل المنبعث من قوس كرىق .

وكان ثمة تلّ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلّقتّه وتطلّعت من فوقه إلى مشهد سباق فريد ، فكان يُثبّل لي أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكّى الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكّيه . وكان الوحش بدعائه لا يضيّ عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرّةً بمرّة يسرة حتى يتخدع خطم الكلب الذى كان يتشمّم خطاه ، ثم ينثنى راجعاً ، يدور دورة ودورة ليُضِلّ من يطارده وتضطرب معه سرعة هذا المطارد . ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه في سرعة العدو ويبدو وكأنه قد أمسك به ، غير أن فكّيه لا ينطبقان على غير الهواء . ويادرت لي رخي وحين أحكمت قبضتى عليه لأحسن تسديده حانت منى التفاتة ما كنتُ بعدها أعود بعينى إلى حيث تتعاقب الحيوانات حتى عرقتى الدهشة . ذلك أنى لم أعد أرى في السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك اقتراس خصمه ، ويقيناً لو أن إلهاً كان يرقبهما ، ما ودّ أن يكتب لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً .

وأمسك كيفالوس عن الكلام ، فسأله فوكوس قائلاً : « ولكن بم تعيب هذا الرّمح ؟ » فأجبل كيفالوس إثم هذا الرّمح بقوله : « كانت سعادى يا فوكوس هى مصدر أساى ، ولأحدنك عنها أولاً . وكم يطيب لي يا ابن أياكوس أن أذكر أيام سعادى ، ففى السنوات الأولى لزواجى كنت سعيداً بزواجى ، وكانت هى سعيدة بى ، كان كلانا يحب الآخر حتى ما كانت تؤثر على الزواج منى الزواج من جويتر ، وما كنت لأقع في غرام امرأة أخرى ولو كانت فينوس نفسها . لقد كنا قلين يضطربان بنار واحدة ، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد في حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسلّلة إلى قم التلال ، ولم أكن أحب أن اصطحب معى خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قوية الشّم ولا شاباً مُحَكِّمة الوثاق . كان رُحى هو كل عدّتى ، حتى إذا كلّت كفى من سفك دم الحيوان الوحشى رُحت أتلّس الظلال الرّخيّة والأنسام النديّة التي تتصاعد من أعماق الوادى القارص البرودة . كنت أسعى وراء هذه الأنسام الرّخيّة وسط حرّ النهار متلهفاً إلى أن تخلصنى من الإرهاق . وكان من عادى أن أسترسل في الغناء ، وأذكر أنى كنت أردّد : « أقبل أيتها الأنسام وامنحني السعادة ، انفذى إلى صدرى أيتها الساحرة ، واطفئى كما عودتى تلك النار التي



بيكاسو: كيفالوس وپروكريس

٨٢٠ تلتهمني . وربما كنت أردد كلمات حانية أخرى أملاها على قدرى فأتزئم قائلاً : « أنت نشوق الكبرى ، تملئينني حياة بلمساتك وتحركين في حب العزلة والغابات ، إن فمي أظمأ ما يكون للارتواء من أنفاسك » . ولقد وقعت هذه الكلمات الغامضة في أذن من أساء فهمها فتصوّر أن كلمة « أنسام » التي أرددها هي اسم إحدى الحوريات وظن أني أهيّم بها غراماً . وقد تعجّل هذا الواشي الأحمق وذهب للقاء پروكريس وأسرّ إليها بما سمعه وأفضى إليها بهذه الخيانة الموهومة . ولما كان المحبّ يُلبّله أدنى شك ، فقد سقطت زوجتي مغشياً عليها صريعة هذا الخبر المفاجيء المزعوم حتى إذا أفاقَت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتي لها . وأثارها هذا الاتهام الكاذب وبدأت تحشى شيئاً لا وجود له ، وتحاف اسماً ليس ثمة أنثى تحمله ، وأخذت البائسة تنتحب كما لو كانت لها غريمة حقيقية ، ومع ذلك فقد كانت تشكّ في صدق هذه

الوشاية ، وكانت تتمنى في مأساتها أن يبطل هذا الاتهام ، وترفض أن تصدق الواشى إلا إذا رأت خطيئة زوجها بعينها ، وإلا فلن تُدينه .

وفي صباح اليوم التالى حين بدد الفجر ظلمة الليل خرجت متوجهة إلى الغابة ، حتى إذا انتهت من الصيد اضطجعت على العشب وأخذت أردد منشداً : « تعالى يا أنسام ، أقبل وخلصيني من الإرهاق » ، وخيل إلى فجأة أنني أستمع إلى أنات تردد كالصدى في إثر كلياق ، فواصلت غنائي : « تعالى يا مهبجة ٨٤٠ قلبي » . وسمعت حفيف أوراق تسقط فظننت أن وحشاً يُقبل ، وأطلقت رعى السريع فإذا هي پروكريس وقد أصابها الرمح في صدرها تصيح « وامصيتها ! » . وتبينت في عسر صوت زوجتي الوفية فهرولت إلى المكان الذى انطلق منه صوتها ، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تَلَطَّخت ثيابها الممزقة بدمها ، وهى تنتزع من جرحها الرمح الذى كانت قد أهدته إلى ، وحملت بين ذراعى في رفق ذلك الجسد الذى أعزّه أكثر مما أعزُّ جسدى ، وضمتُّ جرحها العميق بقطعة انتزعته من ثوبى ، وجهدتُ في حبس الدم حتى لا يتدفق ، واستحلفتها ألا تموت وتركنى أعانى بعدها من جريمة قتلها ، غير أن قواها ما لبثت أن خانتها . وكانت في احتضارها تعاني لتفصح عما في صدرها من غير إكثار وهى تقول : « أستحلفك بحق رباط الزوجية الذى جمع بيننا ، بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحت الآن بين أيديهم ، أستحلفك بحق ما أسبغت على من حنانك ، وبحق حبي لك الذى لم يضعف حتى في اللحظة التى أسلم فيها الروح ، والذى كان سبب موتى ألا تسمح » للأنسام « أن تغدو لك زوجة بَعْدَى ، فتأخذ مكانى في فراشنا » . حينئذ أدركت أن هذا الاسم هو الذى جرَّها إلى ذلك الخطأ فكشفتُ لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجد نفعاً ، فغابت عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها ينساب مع بقايا دمه ، وظلت عملاقة فى ، ثم ضمت صدرى إلى صدرها وأسلمت على شففى روحها البائسة ، إلا أن قسايتها كانت تشع ٨٦٠ بسكينة تشى بانفلات روحها واثقة من إخلاصى لها .

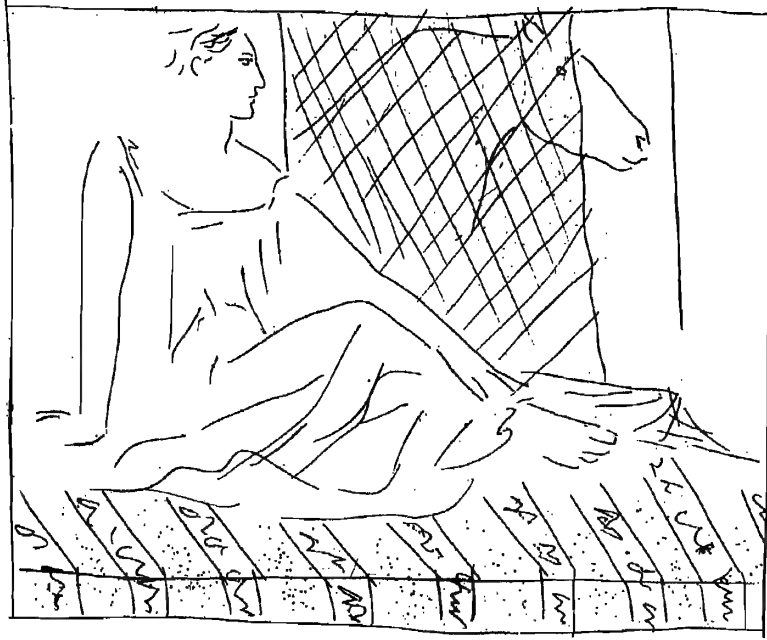
وانحدرت دموع الشبان جارية حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذى كان دمه يسيل هو الآخر ، وساعتها رأوا أياكوس مقبلاً في صحبة ولديه الآخرين في مجموعة من الجند الجدد المدججين بأقوى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضى بهم .

التعقبات

- (١) المينياديون [أبناء سلالة مينيادس] هم أهل أرجوس ، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مينيادس جدهم لأهمهم . وقد أطلق هذا الاسم على چاسون نفسه لأنه كان حفيد مينيادس عن طريق أمه الكيميديه . وكانت پاچاساى بلداً في خليج پاچاساى جنوب ئيسالیا على مقربة من مدينة بولكوس عاصمة مملكة ايسون والد چاسون .
- (٢) كان فينيوس ملك طراقيا قد فقا أمين ابنه عقاباً لها على تهمة كاذبة ألصقتها بها زوجته ، فقضى الأله أن يصبح فينيوس كفيفاً ، كما حكموا عليه أن تعذبته الماريسس — وهى طيور ذات روعس نساء بشرية — بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن قومه حينما يقبل على التهامه .
- (٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويروى كوخليس وهى جورجيا الحالية ، ويصب النهر في شرق البحر الأسود .
- (٤) الفروة الذهبية هى فروة الكيش الذى حمل فريكسوس وشقيقته هيل عبر البحر [انظر الكتاب السادس] ، وكانت هيل قد سقطت في مضيق الدردنيل الذى أضفت عليه اسمها . وأدرك فريكسوس كوخليس وحده حيث قدم الكيش قرباناً للإله آريس [مارس] .
- (٥) كان على بحارة الأرجو أن يتجنبوا صخوراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السميلياديس ، كانت تلتصق بالسفن وتبوى بها إلى قاع البحر .
- (٦) أى ميكائى إحدى ربات القمر والعالم السفلى في آن واحد ، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التى تبت الذعر في نفوس المسافرين ليلاً . وكانت تمثل على شكل ثلاثة أشخاص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثل الحالات الثلاث المتوالية للقمر ، أى الهلال ثم البدر ثم المحاق ، لهذا اشتهرت ميكائى بالبقطة لأنها تستطيع الرؤية في اتجاهات ثلاثة في الوقت نفسه .
- (٧) هو آيتيس والد ميديا وابن الشمس .
- (٨) الهيلازيجيون اسم أول قبائل عاشت في اليونان القديمة ، وأصبحت هذه التسمية تطلق فيما بعد على اليونانيين عامة .
- (٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلا توطئة لسرد أعمال ميديا السحرية ، وهو ما جعل أوڤيد يطرح جانباً قصة ملاهى الأرجو .
- (١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكم فيه ، وأن إبطال فعل السحريتم عن طريق قرع الصنوج البرونزية . أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسافليس مؤكداً ، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس في قبرص ، وهى مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها نناجم النحل .
- (١١) أو إله الشمس أبو آيتيس .
- (١٢) هذه الجبال هى التى تكتنف سهول ئيسالیا .
- (١٣) ذكرت كافة هذه الأنهار في الكتاب الاول . أما بويى فهى بحيرة في ئيسالیا عند سفح جبل بيليون .

- (١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً في الكتاب الثالث عشر .
- (١٥) ربة الشباب وهي جوفثا عند الرومان ، وتقال هيى عند الإغريق .
- (١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جمراناً لمحاولته هتك عرضهن وخلفته فوق جبل پارناسوس
- (١٧) في آسيا الصغرى .
- (١٨) يعنى أوفيد شواطئ جزيرة ليسبوس ، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل في الكتاب الحادى عشر .
- (١٩) المقصود هنا جبل إيدا في فريجيا .
- (٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونوس بن باكخوس لأنه كان قد سرق منهم عجلًا فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه . وفي الوقت نفسه حول العجل إلى وعل .
- (٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة فقد كان والد كوريتوس هو باريس بن بريام .
- (٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة ، وهى إشارة إلى هيكونا التى تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [انظر الكتاب الثالث عشر] .
- (٢٣) مسخت چونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريبولوس بن نبتون .
- (٢٤) كان أهل رودس يسمون التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من ألقاب چونو . أما باليسوس فكانت مدينة في شمال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة في تشكيل المعادن وفى السحر أيضاً .
- (٢٥) السيداماس هو أحد مواطني كارثايا وهى مدينة بجنوب جزيرة كوس في بحر إيجه ، وكانت إيشة كتيبيلا قد تحولت إلى يمامة لأن أباهما خطبها إلى رجل آخر غير الذى وعدته بخطبتها من قبل .
- (٢٦) ليس المقصود هنا وادى غمى المشهور وإنما إقليم في بويتيا . أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد في الكتاب الثانى وغير ابن پوزيدون [نبتون] الواردة قصته في الكتاب الثانى عشر .
- (٢٧) فيليوس شاب بويوى كان يعشق سيجنوس بن هريه عشقاً محرماً ، وقد ازدري سيجنوس هذه العلاقة قائلاً فيليوس أنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يفتك بأسد ضخّم وأن يقتنص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم لجويتر قرباناً ثوراً برياً كان ينشر الرعب في الريف كله . واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وبنصائح هرقل ، الأمر الذى جعله ينسى عشقه لسيجنوس .
- (٢٨) بليورون مدينة في جنوب إيتوليا .
- (٢٩) كوسى إينة أوفيسوس هى أول من ابتكر الدرع النحاسى . وقد تأمر أبناؤها على قتلها فمسختها الآلهة طيراً كى تنجو من هذا المصير .
- (٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطئ أرجوس ، وقد اشتهرت لانتحار ديوميثينيس فيها بالسّم ، ولا يرد تحول ملك كالاوريا وملكها إلى طائرين إلا في نص أوفيد .
- (٣١) ليتو أم أبوللو وديانا .
- (٣٢) كان يوميلوس قد قتل ابنه بوتريس في ساعة غضب فحوّله أبوللو إلى طائر عقاباً له .
- (٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً .
- (٣٤) كان بيريفاس ملكاً في أثينا قبل كيكروبس واشتهر بالعدالة ، وعنده القوم مثلاً كانوا يعبدون زيوس [جويتر] الذى نعم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك ملحقاً بشخص أبوللو ، أما زوجته فىنى فقد مسخها عقاباً بحريا .
- (٣٥) ألكيوى هى إينة الفرصان سكيرون دفعها أبوها في الماء فحوّلها الآلهة إلى طير القائند .
- (٣٦) يمر أوفيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميليا التى انتقمت من جاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كرون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى المروس الجديدة وشاحاً وتاجاً مغموسين في السم ، ثم أشعلت النار في القصر وضيحت أولادها من جاسون وهربت . وهذا هو موضوع مأساة ميليا عند أوريبيديس وعند سنيكا ، بل وعند أوفيد نفسه !
- (٣٧) تروى الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذى قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يوستيا حيث عثقه . ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أثينا وأخذ يثير الرعب بين الناس . وجاء تيسبيوس فروّضه وقادة إلى أثينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أبوللو في دلفى .

- (٣٨) كانت أنثى الخنزير البرى تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنث . وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تيفون وإخيدنا واستطاع ثيسوس أن يقضى عليها .
- (٣٩) كان بيريفيتيس بن فولكانوس [هيفايستوس] يقرع كل من يَمُرُّ به بهراوته النحاسية الضخمة ، واستطاع ثيسوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب .
- (٤٠) كان اللص هرزكروستيس يتصيد المسافرين للمارين بمدينة إليوسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكتة ويشد أطرافهم ثم يبتز من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة . وقد تغلب عليه ثيسوس وأرغمه على معاناة نفس العذاب الذى كان يذيقه الآخرين .
- (٤١) كان سيرميون بن نيتون يتحدى المارة إليوسيس إلى المصارعة فيقضى عليهم ، وقد صارع ثيسوس وسحقه فى الأرض .
- (٤٢) الكاثوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذى يدعى الكاثوس ، وتروى الأساطير أن أحد ملوك الكاثوى القدامى كان ليلكس الذى وفد عليها من مصر . ويسمى شعب هذه المنطقة باليلييجيين نسبة إلى ليلكس .
- (٤٣) « مينوس » لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته ، مثل كلمة « فرعون » المصرية . فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروبا الأسطورى والآخر حفيده زوج پاسيفاي وعاهل دولة البحار ، غير أن أغلب الشعراء يخلطون بينهما . أما الحضارة المعروفة بالينوية فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثانى قبل المسيح . ومن آثارها المشهورة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطئ الشمالى وفيستوس فى جنوب الجزيرة . وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخيل .
- (٤٤) لم تذكر قصة آرئى إلا فى هذا النص .
- (٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزويس اسم أمه إيجينا على جزيرة أويونيا .
- (٤٦) كانت دودونا فى إبيروس بشمال اليونان تزدهر بأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان ، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم عن طريق حفيف أوراق شجر البلوط المقدس .
- (٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة « ميرميدون » ، باليونانية « النملة » .
- (٤٨) انظر الكتاب السادس .
- (٤٩) كانت فكرة غيرة الآلهة من سعادة البشر المخرطة مألوفة عند القدامى ، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهى تعاقب كل من يزهو من البشر بسعادته ويغثال . وقد أعطى أوفيد مثالا لهذا الانتقام فى قصة نيوبي بالكتاب السادس .
- (٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوفيد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدل له أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه .



بيكاسو: باسيفاي والنور

الكتاب الثامن

مينوس وسكيللا

كانت نجمة الصُبح قد أرسلت نور النهار وبذدت ظلمات الليل حين خمدت ريح الشرق وتجمعت الغيوم في السماء ، ونشرت ريح الجنوب الحانية الشراع ليعود كيفالوس بصحبة أبناء أياكوس وأخذت تدفعهم إلى الشاطئ المأمول فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون . عندها كان مينوس يفزو شواطئ ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة الكاثوس التي كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الأشيب تتخلله على جانبي بفرق الرأس خصلة من شعرات أرجوانية اللون متألقة يستمد منها قوته العاتية .

وترامى الهلال الوليد بقرنيه ست مرات متتالية دون أن يحسم مصير الحرب ، وكان الطرفان يتنازعان النصر منذ أمد طال ، وكان الملك قد أضاف بُرجاً إلى أسوار المدينة الشاذية ، ويُقال إن أبوللو بن لاتوق قد أودع قيثارته الذهبية به ، فأخذت أحجار هذه الأسوار عنها أنغامها وحذقتها . وما أكثر ما كانت ابنة الملك نيسوس تصعد في البرج خلال العصر الذى سادته السلام فتلهو برمي الأسوار بحصوات صغيرة فإذا الأسوار تنطلق شاذية بالأنغام . وكذا في أوقات الحرب لم تتخلّف عن أن تصعد في البرج لتُشرف على معارك مارس الرهيب . وقد أتاحت لها تلك الفترة الطويلة التى امتدت فيها الحرب التعرف على أسباء القادة ومالهم من شبكة وسلاح ، وما يمتطون من جياد ، وما يحملون من جعبات لسهامهم الكريئة الصنع ، كما تبينت قسرات وجوه الجنود ، وكان أكثر ما تبينت قسرات وجه مينوس بن أوربا قائداهم الأعلى ، بل لقد استشفت ما وراء تلك القسرات . فكان مينوس في نظرها وسياً حين يعتمر بخوذته البرونزية المزودة بحزمة من الريش ، ومهيأ حين يرتدى ثمرسه الذهبى التالقي . وكان إذا رمى بذرعه المقتول العضلات رجه اللذن أعجبت بمهارة البطل وقوته ، وحين كان يثني قوسه الممتدة وهو يسيء السهم على الوتر إذا هى تقسم أنه أشبه بأبوللو عندما يتهايم لرمى سهامه . وحين كان يخلع خوذته البرونزية ويكشف عن وجهه وهو في رداه الأرجواني منمطاً جواده الأبيض المزدان بسرج زاهى الألوان وقد أحكم لجام مطيته ، إذا ابنة نيسوس تخرج عن رزانتها . وكما كانت تغبط الرمح السعيد الذى يمسك به ، وكذا جدائل اللجام التى حظيت بإسماكه بها ، وكما هاجت رغبة في أن تنزل في حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضة العود ، وكما تمتت لو قذفت بنفسها من البرج إلى حيث معسكر مينوس ، كما تمتت لو قُدر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية لتتيح لجيوش الأعداء الدخول ، أو لو كان في قدرتها أن تحقق رغبة ما لمينوس .

وكانت وهى في مكانها الذى تجلس فيه من البرج تستطيع أن ترى خيام الملك الكريئة الناصعة البياض ، وإذا هى تنأجى نفسها قائلة : « لست أدرى أفريحة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشثمة التى تدور رحاها . ثم كم أنا حزينة إذ جعلت هذه الحرب من مينوس عدواً لى ، ولكنى مع هذا فرحة إذ لولا هذه الحرب ما قُدر لى أن أراه . وهل لمينوس أن يضع السلاح على أن يأخذنى رهينة بين يديه فأحظى برفقته لقاء السلام ؟ فلا عجب أن تكون أمك يا أجهل الملوك التى أشعلت نار الحب في فولد أبيك الإله صورة منك . وقد أنعمُ مرّات ثلاثاً إذا قُدر لى أن أخلق في الأجواء بجناحين فأملك أن أهبط في معسكر مينوس لأكشف له عن حقيقى وعن وهى به ، وأنا عندها على أهبة بأن أجزية نمن حبه إيلى إلا أن يكون هذا الجزاء التفريط في قلعة وطنى . فليحترق عُش الزوجية الذى أحلم به ، فلن يكون ثمن سعادى خيانتى لقومى . وكما بمن كتب لهم النصر في ساحة القتال من رزقوا الخير فأحسن المنهزمون لتساعدهم أنهم هم الغائون . ولقد كان مينوس عادلاً في حربه ، فما تلك الحرب التى شنها إلا ليثأر لابنه الذى قُتل غيلة ، وقد زاده الهدف الذى يسعى إليه قوة إلى قوة عُدته . وما أشد إيمانى بأن الهزيمة بنا لاحقة ، وما أدرى أى مصير سيكون لهذه المدينة . إذن فما لى أن أشجع وأفتح له أبواب مدينتنا تلبية لنداء حتمى ، ولا أترك نفسى للانتظار الذى سيؤول إلى اقتحام الأسوار . فمن الخير أن يتم له نصر عاجل لا تراقى فيه دماء ولا يعرض حياته للخطر .

وفى هذا ما يطمئنى الطمأنينة كلها بأنه لن يناله أحدُ بسوء قاصداً أو غير قاصد ، وأقول غير قاصد ، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسلد رمحاً إلى صدرك وهو يعرف من تكون أى مينوس العزيز .

هكذا هيمن على فكر إبنة نيسوس أن تُسلم نفسها إلى مينوس وأن تكون مملكة أبيها مهراً له ، ورات فى ذلك نهاية للحرب ، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغنى ، وقالت تحدثت نفسها : « ثمة حامية تحرس مدخل المدينة ، ومفاتيح الأبواب مع أبى . ألا ما أشقانى أن يكون أبى هو الوحيد الذى أحشاه ، وأن يكون العقبة فى طريق مسعاى . ليت الآلهة خلقتنى بلا أب . على أن كل إنسان هو فى النهاية إله نفسه ، ثم إن فورتونا « ربة الحظ » تصمّ آذانها لنداء الجبناء . ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيت به من هذا الغرام المبرح لاقتحمت منذ أمد بعيد آية عقبة تقف فى سبيلها وهى قاتعة راضية بما تفعل ، فما بالى أكون أقل شجاعة ؟ وما أنذا أحسّ الشجاعة غملاً جوانحى وتدفعنى لأن أشقّ طريقى بين المشاعر والسيوف ، وأراقى فى غير حاجة فيما أنا مُقدمة عليه إلى أن أخوض أيا منها ، فما أبغى غير خصلة من شعر رأس أبى ، تلك الخصلة الأرجوانية التى هى أنفـس عندى من الذهب ، فيها وحدها سوف أحقق ما أطمح فيه من سعادة .

٨٠

وفيا هى تقلّب وجوه الرأى غشّى الليل الذى تنزاح معه هموم الناس ، وإذا هى مع إنسدال الظلام أكثر جرأة . ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء ويخفّف عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسلّلت فى هدوء إلى حجرة أبيها ، ونفذت خططها الشعاء وانتزعت من رأس أبيها تلك الخصلة التى بها حياته ومصيره ، فما أنظعه من جرم ! .

قبضت إبنة نيسوس على غنيمتها الثمينة ونفذت عبر أبواب المدينة وشقّت طريقها وسط جنود الأعداء مفعمة بالثقة فى أنها تقفم إليهم خدمة كبرى ، حتى إذا بلغت مليكهم الذى تملكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له : أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بى إلى طريق الجريمة ، وجئتُ أسلمك مفاتيح بلادى ودارى ولا أريد سواك مقابلها . خذ هذه الخصلة الأرجوانية دليلاً على حبى ، وبهذا فإنى لا أسلمك خصلة أبى وحدها بل رأسه أيضاً ، وببيدها قدّمت له الهدية النكره ، غير أن مينوس ازورّ عنها واهتزت مشاعره من هول فعلتها وصباح فيها : « ما أنت إلا عار دهرنا ، وإنى لأدعو الآلهة أن تطهر الأرض منك ، وأن يأبى البر والبحر أن يكونا مأوين لك ، فانا أرفض أن يلوّث مخلوق دنس مثلك عالمى أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد جوبيتر » .

١٠٠

وحينما تم لينوس النصر وأملى شروطه العادلة على أعدائه المههورين ، أمر بفكّ حبال السفن وبأن يتخذ الملاحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية . وحين تيقنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطئ دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسلاتها استحوذ عليها غضب جنون وانخرطت فى الصراخ وقد تطاير شعرها ، وجعلت تلوح إلى مينوس : « إلى أين تمضى يا من أثرتك على أبى وبلادى ؟ إلى أين تمضى خلفاً من هبات لك الفوز والانتصار ، وإلى أين تنأى يا عاق القلب بعد أن ظفرت بنصر أنا التى أستحق عليه كل إجلال وكل لوم . ألا تثير مشاعرك ما قلّمت لك من هدية ،

١٢٠
 ألا يعينك حبي لك وأنا التي وضعت فيك وحدك آمالي كلها ؟ وإلى أين أروح أنا لو تخليت عني ؟ لقد
 حاقت الهزيمة ببلادي ، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعت دخولها ، فقد أغلقت أبوابها في وجهي
 إلى الأبد لخيانتي لها . وهل أستطيع أن أرجع إلى أبي بعد أن أسلمته لك ؟ إن مواطني ليمقتونني وهم على
 حق في ذلك ، كما أن شعوب البلاد المجاورة يستنكرون المثل السيء الذي اقترفته . لقد أوصد العالم كله في
 وجهي ولم يبق لي ملاذ في غير كريت ، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذي
 قدّمته لك لما كنت ابن أوروبا بل ابن سيرتيس^(١) غير المأمونة ، أو ابن نمرات أرمينية أو ابن مياه
 خاربيدس التي تهيجها ريح الجنوب ، فلست إذن ابن جوبيتر ، ومن ثم ليست قصة ميلادك إلا أكذوبة ،
 وليس إذن إلهاً متمصّاً ثوراً ذلك الذي ضاحك أمك ، بل هو ثور متوحش حقيقى لم يستشعر حباً قط
 لإحدى البقرات . ابتاه ! فلتنزل بي عقابك ، وأنت يا أسوار البلاد التي خنتها ، فلتشقى بي فأنا جديرة
 بحقدك على ولا أستحق سوى الموت ، وليقتلني واحد من بين الذين آذنتهم خيانتى . لماذا يا مينوس تريد أن
 أعاقب على جريمة قادتك إلى النصر ، على حين أن هذا العمل الذي يعده أبى وقومى جريمة ليس غير منّة
 تطوّق عنقك ؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفّت في تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت
 منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هي وحدها الخليفة بأن تتخذك زوجاً لها^(٢) . أجبني يا مينوس ،
 هل تبلغ كلماتي أذنانك أم أن الرياح التي تدفع سفنك تبدّد شكواى أيها الناصر للجميل . لا يدهشنى الآن
 أن پاسيفاي قد أثرت الثور عليك ، إنك لأشدّ وحشية من الثور . ما أشقانى ! ها هوذا يأمر ملاّحيه
 بالإسراع والأمواج تصصف وضربات المجاديف تشقّ المياه بينما أغيب أنا وبلادى عن عينيه ، غير أنه لا
 جدوى ، فعبثاً تحاول نسيان جميلي ، ولسوف أتبعك على الرغم منك وسأتعلّق بسفينتك سابحة في مياه
 البحر .

١٤٠
 ولم تكذ تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن ، تُكسبها رغبتها
 النائرة قوة وأى قوة ، فما لبثت أن تعلّقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفلة ، ولمحها أبوها [بعد أن تحوّل
 إلى نسر بحرى وحشٍ الجناحين أخذ يحلّق في الأجواء] فانقضّ عليها وهى متعلّقة بالسفينة وجعل ينهش
 لحما بمنقاره الأقى ، فألم بها فزع أرخى قبضتها عن السفينة ، وبدأت تهوى فتلقفتها نسمة خفيفة حالت
 بينها وبين أن تلمس الأمواج ، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر أطلق عليه اسم كريس [أبو
 قردان] أى من يجرّ الشعر ، وهو الاسم الذى يذكر الناس بخصلة الشعر التى اقتلعتها من رأس أبيها^(٣) .

المتاهة وتاج أريادنى

١٦٠
 وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ونزل إلى الشاطئ ذبح مائة ثور قرباناً ووفاء بنذره لجوبيتر ،
 وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها . وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجئاً خلال غيابه ليصم
 الأسرة الملكية بالعار . وما لبث هذا المولود المهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع ويكشف

قصة حبها المشينة مع الثور . فأصرَّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب الكريه الصورة وقرَّر حبسه في بناء مغلق معتم ملتبس المداخل ، يستحيل معه أن يصل أحد إليه أو يراه . ووفق دايدالوس أشهر صناع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء^(٤) بأن جعل العلامات في هذه المتاهة مضللة ليشقَّ على العين بتلك التعرُّجات المتَّجهة إلى أنحاء مختلفة أن تهتدى إلى سبيلها . وكما تتلوى مياه نهر المياندر لاهية في حقول فريجيا ، وكما يشقَّ مجراه الحائر سبيلاً خفياً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يُداني مآثاه ، وكما يرتدُّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضم حيناً آخر فيفتر تياره بعد أن يضلَّ مقصده ، كذلك ضاعف دايدالوس من سبل التضليل بشقِّه سبلاً ودروباً لا حصر لها^(٥) .

حَبَسَ مينوس ذلك المخلوق الغريب الذى نصفه ثور ونصفه آدمى ، وكان قد قدَّم له ضحايًا من أهل أثينا^(٦) مرتين . وحين قدم له الضحايا في المرة الثالثة مجارة للاقتراع الذى يتجدد كل تسع سنوات قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سيقوا إليه كى يلتهمهم . ذلك أن ثيسبوس الذى دُفع إلى المتاهة لكى يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادنى فى أن يهتدى إلى طريق العودة ، إذ أخذ يعيد لَفَّ الخيط الذى كان قد ترك أوَّله عند الباب ويحمله كلما ولج إلى الداخل ، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذى كان قد دخل منه والذى لم يخرج منه أحد قبله . وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اختطف ابنة مينوس ، غير أنه تخلَّى عنها وهجرها على شاطئ تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها حزينة إلى أن جاءها باكخوس فطوقها بذراعيه وقَدَّم لها العون ، وتناول التاج من فوق رأسها ليحوِّله إلى كوكبة من نجوم السماء كى يسبغ عليها مجداً أبدياً ؛ فكانت جواهر التاج تتحوَّل وهو طائر فى الفضاء إلى نجوم متلألئة ما لبثت أن انتظمت فى السماء محفظة بشكل التاج مستقرة فى منتصف المسافة بين نجوم الجائى على ركبته وكوكبة حامل ١٨٠ الثعبان^(٧) .

دايدالوس وإيكاروس

وبعد أن ستم دايدالوس الإقامة فى كريت اشتاق العودة إلى بلاده [أثينا] التى طال غيابه عنها والتى كان يفصله عنها البحر ، فأخذ يناجى نفسه قائلاً : « قد يملك مينوس أن يُحوِّل دونى ودون العودة عبر الأرض أو البحر ، وأنسى أن السماء مفتوحة أمامى يمكننى العودة عن طريقها ، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شيء ما استطاع أن يستحوذ على الفضاء » . وأخذ بعد ذلك يُعَمِّل فكره فى فن لم يعرفه من قبله أحد ، ويُضَمِّع الطبيعة لقوانين جديدة ، وانبرى يثبَّت صقلاً من الريش فى خيط مبتدئاً بأقصره متدرِّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدراً إلى أعلى ، على النحو الذى يصنع به الرعاة مزاميرهم من الغاب فيزيد فى طول كل أنبوبة عن سابقتها ، ثم شدَّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكَّلها على هيئة أجنحة الطائر الحقيقى بانحناءاتها الخفيفة ، وقد وقف ابنه إيكاروس إلى جانبه ضاحكاً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكِّل الأداة التى ستورده حتفه ، وكان يقبض على الريش

٢٠٠ الذى ينتفش مع هبات الريح أو يطوّع جود الشمع بإليهامه ، فيُعَوّق بعثه ما أنفقه أباه في هذا العمل العجيب .

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع في الهواء وحاول حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل ، ومضى يوصي ابنه قائلاً : « أنصحك يا إيكاروس أن تحلق بجناحك على ارتفاع وسَط بين البحر والشمس ، إذ لو دأبت سطح البحر نذت مياهه جناحك فثقلت ، ولو حلقت عالياً لألهب وهج الشمس جناحك ، فتوسّط في طيرانك بين بين . وإنى أحذرك أن تصوّب بصرك إلى النجوم وخاصة كوكبة راعي الشاء أو كوكبة الجوزاء في الدب الأكبر أو نجوم سيف الجبار^(٨) ، ولتتخذن لك مرشداً . وبينما دايدالوس المعجوز يدلى بإرشاداته جعل يثبّت الأجنحة على كفى ابنه إيكاروس وقد احمرت وجنتاه وبللتها الدموع وارتعدت يداه حثاناً ، وقبل ولده في خدّه قبلاته الأخيرة . فقد حلّق بجناحيه في الهواء موزّع النفس على رفيقه ، هذا القلق الذى يساور الطائر وهو يُخرج صغاره من العشّ في أعالي الأشجار ويطلقها في الهواء للمرة الأولى . وبدأ يستحث إيكاروس أن يتبعه على أن يبقى على مقربة منه ، ويعلمه من الفن ما كان سبباً في هلاكه ، ويحرّك جناحيه متطلّعين إلى الخلف يرقب ولده . وقد رآهما صياد كان يلقي شبابه وراع كان متكئاً على عصاه وفلاح كان منكفئاً على محراثه ، وأخذ العجب منهم فظنوا هذين الرجلين القادرين على الطيران عبر الأجواء إلهين من بين الآلهة .

وكانت جزيرة ساموس التى وُهِيت لـجُونو تقع عن يسارهما وياروس وديلوس من خلفهما ولبيثوس عن يمينها وكذلك جزيرة كاليمنى الغنية بعسلها^(٩) ، حين انتشى الصبى بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فعَلَا في السماء حتى اقترب من الشمس المُحرّقة فذاب الشمع العطر الذى يلصق الريش بعضه ببعض ، وإذا هو يحرّك ذراعيه بعد أن تعرّتا فصرخ منادياً أباه ، ولكنه كان عندها هوى . وسرعان ما سقط في مياه البحر الذى ابتلعه في أعماقه وحمل اسمه . وأخذ الأب التعسّ الثاقل ولده يصرخ « إيكاروس أين تُراك الآن يا ولدى ، وأتى أجواز الفضاء غيّبتك ؟ » . وظل يصيح باسم إيكاروس حتى لمح ثمار الريش على سطح الماء ، وعندها نقم على فنه ، ثم وارى ابنه التراب ، وما تزال الأرض التى دُفِن بها إيكاروس تحمل اسمه .

بيرديكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه الذى لقي حتفه لمحّه طائر الحجل المائى الزنار فجعل يغرد طرباً ويرفرف بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة ، وكان طائراً فريداً لم ير مثله من قبل ، إذ كان إنساناً تحوّل منذ قريب إلى طائر ليتمثل عقاباً أبدياً لدايدالوس ، ذلك أن أخته — ولم تكن تعلم ما خبّاه لها القدر — أرسلت ابنتها وكان فتى ذكياً في الثانية عشرة من عمره يُعلِّمه دايدالوس ويُنشئه . وقد أعجب الصبى بالعمود الفقري للسّمك واتخذته نموذجاً يصنع على غرارهِ أسناناً على حافة شريط من الحديد فإذا هو يخترع

المنشار ، كما كان أول من استطاع وصل فراعين متساويين الطول من الحديد بحيث إذا ركز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة ، ومن هنا اخترع الفرجار ، الأمر الذي أثار الغيرة في قلب دايدالوس فألقى بابن أخته من فوق قلعة منيرفا ، ثم اقتعل جلبة توحى بأن الصبي قد سقط قضاء وقدراً ، غير أن الإلهة باللاس حامية العباقرة سرعان ما أمسكت بالفتي وهو يهوى وحوّلتها إلى طائر وكسته ريشاً وهو ما يزال معلقاً في الفضاء ، ومنحته سرعة في الجناحين وأخرى في القدمين يستغنى بهما عن أعمال يديته ، وبقي اسمه عالماً به يُميزه ، فهو لا يطير عالياً في الأجواء بل يجمل قريباً من الأرض ، كما أنه لا يتخذ عشه في قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين حزم الأغصان التي تتخذ منها الأسوجة ، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكره بسقوطه منها فيما سلف .

الخنزير الكاليدوني . ملياجر

وعندما أحس دايدالوس بالإرهاق من طول السفر استقرّ بيلاد إتنا ، وكان كوكالوس ملك هذا الإقليم قد حمل السلاح دفاعاً عنه بعد هروبه وأظهر له من ضروب العطف الكثير^(١٠) ، وكانت مدينة أثينا قد تخلصت بفضل انتصار ثيسبيوس من دفع الجزية الرهيبة التي كانت تُتقّلها بالأحزان ، فزيّنت المابد بأكاليل الزهور وأخذ الناس ينشدون للربة المحاربة منيرفا ولجوييتروالآلهة الآخرين ويقدمون لهم القرابين التي نذروها . وذاعت شهرة ثيسبيوس كالبرق في مختلف مدن أرجوس حتى بات الآخيون يفزعون إليه في الأوقات التي يُخَيِّق بهم فيها خطر ، وكذا لجأ إليه أهل كاليدون على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان ما يزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر خادم الربة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها^(١١) .

وتروى الأقاصيص أن الملك أونيوس قد نعم بحصاد وفير في عام رخاء فقدّم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس^(١٢) والنبيل لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرفا الشقراء ، وجعل لآلهة الريف ثم لبقية الآلهة ما كانوا يترقبونه ، عدا ديانا ابنة لاتو فقد كانت الوحيدة التي أهملت محاربيها ولم تُقدم لها قرابين أو يطلق لها بخور ، فاحتدم الغضب في صدرها وصاحت قائلة : « لن أترك هذا الأمر يمر دون عقاب يُخفف عن نفسي ، ولن أسمح بأن يزدد الناس تراخى في الثأر لنفسي ، فما من أحد يعيب على أن أنتقم لإهانة^{٢٨٠} لحقت بي » ، ثم أطلقت خنزيراً برياً في ضخامة ثيران مراعى إبيروس الكثيفة الحشائش وأعظم جثة من ثيران صقلية . كان خواره مجليلاً ، وعيناه الدمويتان ترسلان شرراً ، وعنقه الضخم الصلب يشمخ عالياً ، يغطي جلده شعر خشن نافر كالرماح ، ويلطخ كتفيه العريضين زبد يغلي ، وأنيابه كانياب الفيل الهندى ، تنبعث نار من بين فكّيه فتحرق أنفاسه أوراق الأشجار .

كان هذا الوحش الغريب يسحق القمح الذي ما يزال غضاً في سنبله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى ، فحطم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم ، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تمتلئ الصوامع أو تكثر سلحات الدّرس عامرة بالحصاد ، وتناثرت عنقايد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع

حبّات التوت وأغصان الزيتون الدائمة الخضرة . كذلك أخذ هذا الخنزير البرى يشنّ هجمات ضارية على قطعان الماشية فلم ينج منه لا الرعاة ولا كلابهم ، ولم تفلح الثيران الشديدة البأس في حماية القطعان التي تحرسها ، وكان الناس يهربون منه متفرقين هنا وهناك ، ولا يحسّون الطمأنينة إلّا حين يحمون خلف أسوار المدينة . وظلّ الحال على ما هو عليه حتى اجتمع ملياجر مع جملة من الأبطال وحدث بينهم الرغبة في نيل المجد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب .

٣٠٠

والتقى إبننا تيندايوس^(١٣) التوأمان اللذان اشتهر أحدهما بللاكمة والآخر بالفروسية ، وجاسون مُشيد أول سفينة [سفينة الأرجو] وثيسوس وبيرثوس الرفيقان المتلازمان ، وابنا ثيستيوس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدو ولدا أفاريوس ، وكاينوس أيضاً الذى كان امرأة في سالف الزمان^(١٤) ، وليوكيوس الصائب الرمح ، وأكاستوس قاذف الرمح الشهير ، وهيرثوس ودرياس ، وفينيكس بن أميتور ، وولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس . وانضم إليهم تيلامون وبيليوس والد أخيل ، وكذلك ابن فيريس وبولارس من بويوتيا ثم أريتيون المقدام وإخيون العذاء الذى لا يبارى ، وليلكس اللوكريسي ويانوبيوس وهيليوس وهياسوس الوحشى ونسطور الذى كان في مقتبل العمر ، وانضمت إليهم فصيلة من الرجال الذين بعث بهم هيبوكوون من أميكلاى القديمة ، وكذلك لايرتيس هوڤنيلوى الذى اصطحب معه أنكايبوس الأركادى والعراف الحكيم ابن أمبيكس وأمفيارووس الذى لم يكن يخشى حتى ذلك اليوم أذى يناله من زوجته^(١٥) . ثم الفتاة الصيادة بطلة نيجيا وفخر الغابات الليكاوية^(١٦) وقد شبكت طوق ثوبها بمشبك مصقول وجمعت شعرها من الخلف مضموماً في عقدة واحدة ، وعلفت كثانة سهامها العاجية على كتفها اليسرى بينما أمسكت القوس بيدها اليسرى ، وكلما سارت اهتزت الكنانة بسهامها محدثة صوتاً ، [ولو أن قسياتها على وجه فنى لقليل إنها قسيات فتاة ، وإذ كانت فتاة قيل إن قسياتها مثل قسيات الفتى الوسيم] ، ولم يكد البطل الكاليدونى يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة ، واحتدمت رغبته الكامنة في الأعناق ، وزفر زفرات حارة وهو يتمتم : « طوبى لذلك الرجل الذى سوف يُظفرُ بها زوجة » ، ولم يُنج له مع هذه الحال أن يضيف كلمات أخرى ، فقد كان هناك أمر أجّل خطراً يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرى .

٣٢٠

انطلق الصائدون حتى بلغوا تلك الغابة التى لم تنل الأزمان من أشجارها الضخمة فلم تمسها فأس حطّاب ، والتى ترقى عند نهاية السهل مطلّة على الحقول المنحدرة ، فنصب بعض شباك الصيد ، وأطلق بعض الكلاب ، بينما اقتضى الآخرون أقدام الخنزير البرى متعجلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذى جاءوا لاصطياده مغامرين بحياتهم . وكان الخنزير البرى قد كمن في أسفل جزء من مجرى في أعناق واد تنمو فيه نباتات المستنقعات والعشب المائى والغاب وتجتمع فيه مياه الأمطار ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة ، وانطلق بين الأشجار التى أخذت تهتز وترسل أصواتاً مختلفة ، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم في قوة على أسلحتهم المشهورة الرضاة النصل فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب التى تجمع لتصدّه محاولاً تشتيتها بقفزات جانبية . وقذف إخيون أول سهم فطاش ولم

٣٤٠

يُحدث إلّا جرحاً طفيفاً في جذع شجرة اسفندان ، ثم بدت القذيفة الثانية التي أطلقها جاسون وكأنها ستصيب ظهر الخنزير البرى غير أنها لشدتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه ، وعندها صاح موبسوس بن أمبيكس قائلاً « لكم أخلصت في عبادتك يا فوبيوس وسوف أظل مخلصاً ، فسدد رعى ليصيب هدفه » واستجاب الإله لامنيته ، غير أن الإلهة ديانا سلبت الرمح وهو في مسراه نصله الحليدي فلم تصب الخنزير البرى غير يد الرمح الخشبية ، فامتلاً الوحش غضباً ، وأخذت سورة الغضب تعصف في عنف البرق ، وانطلق الشرر من عينيه واحتلم اللهب في صدره ، واندفع كصخرة تهوى من منجنيق فوق الأسوار أو على أبراج غصّت بالجنود ، وارتمى الوحش المنهزم للدم بعد قفزة لا تقاوم فوق الأبطال الشبان ، فطرح إيويالاموس وبيلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بحملهما بعيداً . ولم يكن إيناسيموس بن هيبوكيون سعيد الحظ إذ وقع بين أنياب الخنزير القاتلة ، وكاد نسطور يهلك قبل حرب طروادة لولا أنه غرس رمحه في الأرض وأثكأ عليه ليشب إلى قمة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو بذلك أنيابه في جذعها ، ثم انثنى الوحش فمزق أنيابه فخذ هيباسوس بن يوريتوس ، واعتلى الشقيقان التوامان [كاستور وبوللوکس] قبل أن يصبحا نجمين في السماء صهوق جواديهما الأنصع يياضاً من الجليد وقذا الخنزير برمحيهما ، وكادا يصيبانه لولا إفلاته داخل الأدغال الممتعة التي لا ينفذ خلالها جواد أو رمح .
٣٦٠
٣٨٠ وأسرع وراءه تيلامون ، لكن حماسه الرعناء جعلته يسقط على رأسه مصطدماً بجذع شجرة ، وبينما كان يلبس يعانوه على النهوض من سقطته كانت بطلة تيجيا قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر الخنزير ونفذ أسفل أذنه وصبغ بعض شعراته بقطرات الدم . وأثار نجاح الفتاة فرحتها وفرحة ملياجر الذي كان أول من رأى دم الخنزير يسيل ، فلفت إليه نظر أصدقائه وقال لأتالانتا « ما أحقك بأن تتقلدى وسام الجدارة » .

غلب الرجال الخجل وأخذ بعضهم يستنهض همم البعض وبدأوا يُسدّدون رماحهم دون أن تكون ثمة خطة للهجوم فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم . ولم يصب أحدهم الهدف ، فاندفع أنكايوس الأركادى حاملاً بلطته ذات الحدين ، واتجه نحو مصيره المحتوم يصيح في جنون : « انظروا كيف أن ذراع الرجل أقوى من ذراع المرأة ! أفسحوا لي الطريق ، ولسوف أقضي على هذا الخنزير البرى بيدي مهيا حته ابنة لاتو ودافعت عنه بأسلحتها ، وكرها عنها » . ورفع بلطته بكلتا يديه لكي يضرب الخنزير مغروراً غرور كلياته ، غير أن الخنزير البرى تنبه لهذه الهجمة الجريئة وأعمل أنيابه في أعلى حقو أنكايوس سالكاً بذلك أقرب طريق يصل به إلى إهلاكه ، فتهاول أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلّت وسط بركة من الدماء ، وغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر . وإذا بيريثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً رمحه بيده القوية ، فناداه ثيسبيوس الإيجي قائلاً : « يا من هو أعزّ على من نفسى افزع إلى مكان أمين ، فنحن على البعد أقدر منا على القرب ، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه » وأطلق مع كلياته رمحه المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزي الثقيل فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط . وسدّد جاسون في إثره رمحاً أصمى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً في فخذه فخرّ على الأرض ، غير أن ملياجر

٤٢. بن أوينوس سئد وعين اختلف مصيرهما ، إذ غاص أحدهما في الأرض بينما استقر ثانيهما في منتصف ظهر الخنزير . عندها لم يدع الوقت يذهب سدى ، فاقترب من الوحش الذى أخذ يتلوى نائراً يسيل من شذقيه زيد مختلط بالدم المتدفق ، وها هو ذا من أدماء يقف بجواره وقد أثار غضب الوحش الجنونى ، ثم غرس رجه اللامع في كتفه ، فصاح رفاقه مهللين مشجعين وأخذوا يشدون بأيديهم على يد البطل الذى حقق



بيكاسو : ملياجر

النصر ، وتطلعوا مذهولين إلى ضخامة الوحش الذي شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها ، غير أنهم ظلوا يخشون الاقتراب منه ظناً منهم أن يكون ما يزال قادراً على التصدي لهم . ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والتفت إلى أثالانتا قائلاً : « تقبلي هذه الغنيمة التي ظفرت بها يا عذراء نوناكريس^(١٧) ، ولتشاركني مجدي » ، ثم أعطاها رأس الوحش بآليابه الضخمة وجلده الحشن الشعر . وقد أعجبت أثالانتا بالهدية ومهديا ، غير أن صنيعه أثار غيرة الآخرين فسرت بينهم همهمة هز بعدها ابنا ثيستوس قبضتيهما وصاحا بغضب : « اتركي هذه الغنيمة أينها الفتاة ، ولا تنتزعي شرفاً هو حقنا نحن ، ولا تسترسل في الغرور بجمالك فقد يصبح هذا المفتون المتيم بجمالك عاجزاً عن أن يحمي فتتك » . وانتزعا الغنيمة من أثالانتا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها ، فأحنق سلوكهما ابن مارس وانفجر غاضباً وجزّ على أسنانه وهو يصيح : « أيها اللسان إنكما بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده ، وسوف تعلمان أيّنا يتوعد وأيّنا ينفذ » ، وأسرع فاعمد نصله الفاتك في قلب بليكسيوس الذي كان أبعد ما يكون عن أن يتخيل ما كان . وقد تردد توكسيوس بين الرغبة في الانتقام لأخيه المضرج بدمه وبين الخشية من أن يلاقي مصير أخيه ، ولكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردد ، فقد عاجله برمحه الذي كان ما يزال يحمل أثر سخونة الجريمة الأولى .

شار الشاي

وكانت أثلثايا قد توجهت إلى المبدع حاملة القرابين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنها ملياجر حين شاهدت جيشاً شقيقها مجملين إلى دارهما ، فملأت المدينة عويلاً وصراخاً وهي تضرب صدرها ، واستبدلت بثيابها المطرزة بالذهب ثياباً سوداء ، غير أنها ما كادت تعلم اسم قاتل شقيقها حتى أنسيت أحزانها وجففت دموعها ولم تعد لها إلا رغبة واحدة هي الانتقام . وكانت الشقيقات الثلاثة ربات الأقدار^(١٨) قد وضعن كتلة من الخشب في المدفأة بدار أثلثايا ابنة ثيستوس كانت ترقد في فراشها بعد أن وضعت مولودها ، وبينما كن يغزلن خيوط القدر بمس إيهامهن قلن : « ليقين هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية » ، وما كدن ينهن كلماتهن ويغادرن الدار حتى أسرع الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء وخبايتها في حنايا الدار ، وعاش الطفل في أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية . وقد

أسرعت أثلثايا بعد مصرع شقيقها فأخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعاً صغيرة أخرى من خشب الصنوبر وكومتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التي هي إيذان بموت ابنها . وحاولت مرات أربع أن تلقى بالكتلة الخشبية وسط النيران إلا أن شجاعته كانت تحونها في كل مرة ، إذ كان حياء لابنها يعادل حياء لأخوها ، كما كان قلبها يتمزق بين الوفاء لابنها والوفاء لشقيقها . وكان التفكير في الجريمة التي سوف تنترفها يزيد وجهها شحوباً ، ثم تعاودها الرغبة في الانتقام فيحتقن وجهها غضباً . وكانت تسيطر عليها مشاعر القسوة أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة ، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشي تحفف

دموعها حتى تعود الدموع فتنبثق من جديد . وصارت كالسفينة تتناوحها الأمواج وتتقاذفها الرياح في اتجاهات مختلفة فتضطرب في سيرها ، إذ كانت مترددة بين عواطفها المتنافرة ، فما يكاد غضبها يبدأ حتى يعود ثانية ويثور .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوة على عاطفة الأمومة فيها ، وآثرت أن ترضى طيفى شقيقها اللذين يسرى دمهما في عروقها فاقترفت جريمة تلطّخت بإثمتها . وحينما شاهدت الموقد المشوم يتوهج بالنيران صاحت : « ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدى » وأمسكت بيديها الأثمتين الكتلة التي عليها يتوقف مصير ابنها ، ووقفت أمام المذبح الجنائزى وقالت تدعو : « ياربّات العقاب الثلاث ، انظرن إلى هذه التضحية الخارقة التي قد تُطفئ من غضبك^(١٩) ، فإننى فى آن واحد أثار وأقترف جريمة لا ترضى عنها ٤٨٠
الالهة ، فلا مناص من أن يكفر الموت عن الموت والجرم عن الجرم ، وأن تتبع الجنائز الجنائز حتى تهلك أسرنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية ، فكيف يمضى أوبيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكى ثيستوس ولديه ؟ من الخير يا شقيقى ويا بنى أن تسكبوا جميعاً الدموع . ولكن هل فى مقدوركما يا طيفى شقيقى يا من فارقتما جسديكما أن تقدرا هذا التكريم الذى أخصّكما به وأن تقبلا هذا القربان الكريه الذى يكلفنى النطفة التسعة التى نمت بين أحشائى . يالى من شقية ، ترى إلى أين يمضى بى غضبى ؟ يا شقيقى ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن . اننى أعترف أن ابنى يستحق الموت ولكن ما يعترضنى هو أن أكون أنا التى دبرّت موته . ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب ، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بتحقيق جريمته ويحكم كاليدون ملكاً ، بينما أنتما حفنة رماد وشبحان لا حراك بهما قد غيّبكما الثرى ؟ ولكن هل فى مقدورى أن أقدم على ذلك ؟ ألا تبا للمذنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه ، ولتسقط بموته مملكته ووطنه . . ولكن أين حبّ الأم لأولادها ، وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم ، وأين ذلك الضنى الذى حملته أشهراً خمسة ثم أشهراً خمسة ؟ ولداه ! لكم أتمنى لو كانت النار قد التهمتكم بينما كنت طفلاً صغيراً . لقد عشت بفضل والآن تموت بسبب خطيئتك أنت ، فلتتل إذن جزاء جريمتك . لقد منحتك الحياة مرتين ، المرة الأولى يوم ولدتك ، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة

الخشبية المتقدة ، ألا فلتردّ إلى الحياة التى منحتها لك مرتين أو فلتجمعنى ثانية بشقيقى . كم وددت لو أنزلت بالجنان العقاب ولكنى غير قادرة . ماذا ترائى فاعلة ؟ أحياناً أرى جراح أخوى ماثلة أمام عيني ومشهد مصرعها الرهيب ، وأحياناً أخرى تنهار شجاعتي أمام مشاعر أمومتى وحقّ ابنى على . ما أشقانى ، لسوف يكون نصركما فادح الثمن يا شقيقى ، ولكنى سوف أنصركما مادمت سأتابعكما أنتما وهذا الذى سأسلمه لكم لكى يسرى عن رويكما » . ومع هذه الكلمات ألقت بالكتلة الخشبية المميّنة وسط النيران بيد مرتعشة وقد أدرات وجهها بعيداً ، على حين أخذت كتلة الخشب والنار تلتهمها ترسل أنات مكبوتة .

ولم يكن ملياً يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائياً حين أحس نيراناً تشتعل فى أحشائه ، فبذل جهداً كبيراً لكى يقوى على تحمّل آلامه القائلة ، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالد قد أصبح يتهدده

بلغ منه الأسى مبلغه ، وعدّ الضربة التي قتل بها أنكايبوس خاتمة طيبة ومئة من القدر ، وأخذ ينادى أباه . ٥٢٠
الشيخ الفاني بصوت غتنتى بالأئين ، ونادى أشقاءه وشقيقاته الحائيات وزوجته ، ومن يدرى لعله كذلك
نادى أمه ! وكان كلما استعرت النار استعرت آلامه ، وحين أخذت السنة اللهب تضعف تباعاً ثم تمحّد في
النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء في الهواء وقد غطى جمرات الفحم رماذ أبيض .

وعمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزّق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامّة ، وأخذت النسوة
الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن . وانبطح والد ملياجر على الأرض
فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضن بالغبار برماً بطول عمره . أما أمه التي كان ضميرها يعذبها على هول
جريماتها فقد اقتصت من نفسها فاستلّت خنجرأ أغمدته في صدرها .

ولو أن الآلهة منحتني مئات الأفواه والألسنة وملكات ربّات الفنون في جبل هليكون لما استطعت
الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّده شكاتهن الحزينة ، فكُن يضربن صدورهن وقد
غاض دمهن وما أكثرن لجملهن ، ويقين ما بقيت جثة أخيهن يُعدن إليها الحرارة ويدلكنها بأيديهن ويغطينها
بقبلاطين ويعانقن المحفة التي فوق المحرقة ، حتى إذا تحوّل جسده رماذاً أخذن حفات منه ذرئها على ٥٤٠
صدورهن ، ثم ركنن جائحات على قبره يقبلن اسمه المنقوش على الحجر ويبللنه بدموعهن . وحين شفت
تلك النواثب التي حلّت بيت پارتاؤون غلّة الإلهة ديانا مسخت الفتيات جميعاً عدأ جورجيّه وزوجة ابن
النبيلة الكميننا ، وأنبت ريشا يغطي أجسادهن وحوّرت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن في الهواء ،
وأحالت أفواههن مناقير محدّبة ، وأطلقتن بعد تحوّلن على هذه الصورة إلى الفضاء .

أخيلووس

وبينما كان ثيسوس عائداً من المعركة التي اشترك فيها للقضاء على الخنزير البرى متجهاً إلى قلعة
إريخيوس التي تحرسها أثينا التريتونية [نسبة إلى جزيرة تريتون بأفريقيا] صهّ نهر أخيلووس^(٢١) المتّرع بماء
الأمطار وعاقه عن العودة ، وقال له ربّ النهر : « هلّمّ فادخل ببقى يا سليل كيكرويس العظيم ولا تعرّض
نفسك لقسوة أمطارى فما أكثر ما تقتلع الأشجار برُمّتها وتدفع أملعها في صخب الصخور التي تعترض
طريقها ، فكم رأيت من حظائر مرتفعة فوق الشطآن تنجرف بمواشيها دون أن تغنى عن الثيران قوتها ولا
عن الجياد سرعتها ، وكم يحتدم السيل حين تلوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال ، وما أكثر ما حوى من
شباب في دواماته الطاغية ، إنه لأمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شطآن النهر فيهدأ انسيابه في ٥٦٠
مجرأه » .

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً : « لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلووس وأنعم
بضيافتك » ، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السوداء والصخور البركانية ، اكتست
أرضه التّدية بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف وعجارات متعددة الألوان . وكانت الشمس قد قطعت

٥٨٠ ثلثى مسارها في السماء حين اضطجع ثيسوس ورفاقه على الأرائك ، وإلى جانبه ابن إيكسيون^(٢١) وليليكس^(٢٢) بطل ترويزين الذى وخط الشيب فوديه ، وكذا رفاق ثيسوس الذين رأى إله النهر الأكارنافي أنهم جديرون بالتكريم أيضاً ، فلقد كان أخيلوس فخوراً بضيفه الكبير ، وفي التو أقبلت حوريات حافيات الأقدام وقَدَّمنَ لهم الطعام على الموائد ، ثم قَدَّمنَ لهم بعد الطعام الخمر في كتوس مرصعة بالجواهر الكريمة . ونظر ثيسوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً : « ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة ، وإن كانت تبدو لي أكثر من جزيرة واحدة ؟ » فلجابه إله النهر قائلاً : « حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل جزر خمس ، غير أن بُعد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة . لشد ما أنا راغب في أن أخفف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إهمالهم شأنها حين أقص عليك قصة هذه الجزر الخمس . فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنحر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران ودعون جميع آلهة الريف إلى موائلهن ونسيفي ، وأتين رقصاتهن المرحية دون دعوى ، فتولأن غضب عاصف جعل مياهي تندفق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً غابةً ودمر الحقول واحداً إثر الآخر ، وغشى الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتي لم يعرفن قدرى إلا حينذاك ، ودفعت المياه بالأرض وبين إلى البحر فاقتطعت المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقى الأرض وتناثر جزراً في المحيط هي هذه « الإخيناديس »^(٢٣) الخمسة التي تراها أمامك . غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسميها الملاحون بيرميل ، وكانت في الماضي فتاة دفعني هيأى بها إلى أن أسلبها عُذرتها ، فثار أبوها هيوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج ، غير أنى تلقفتها بلذراعى وعاونتها على السباحة ، وأخذت أصبح : « يا نيتون يا من تسود ثاى مملكة في الكون ، يا إله المياه السيارة ، أيها الإله المسلح بالحربة الثلاثية الشعب ، يا من نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة في نهاية مطافنا . فلتنصت إلىى ولتستجب إلى دعائى ، فأنت تعلم أن سبب مأساة هذه الفتاة التي أحملها ، ولو كان أبوها هيوداماس عادلاً أو رحيماً ، أو لو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترفق بها وعفا عني . فلتدرك هذه الفتاة البائسة التي ألقت بها وحشية أبيها في الأمواج ، أضرعُ إليك يا نيتون أن تهينى لها ملجأً أو تجعل منها هي ملجأً فاستطيع أن أضفيها إلى صدرى من جديد » ، فطاطاً ملك البحار رأسه . ومع لفنة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فزعاً لكنها واصلت سباحتها ، وأخذت أتحسُّ صدرها الخفاق في خوف ، وبينما كنت أطوف بيدي على جسدها شعرت به يجمد ويغطى التراب نهديها . وفيما كنت أحذنها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تستحيل هي الأخرى يئساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هي جزيرة راسية » .

فيليمون وبوكيس

ولاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته وساد الجميع تأثر عميق بالمغامرة التي رواها ، غير أن ابن إيكسيون الذى كان بطبعه مغروراً يحقر الآلهة ويسخر من سذاجتهم تحدى مضيفه قائلاً : « ليست قصتك

يا أخيلوس إلا محض اختلاق ، وما أنت إلا مبالغاً في إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أو منحهم أشكالاً^(٧٤) . وقد أذهل تحدّيه الجميع وخالفوه رأيه وخاصة ليليكس الذى أكسبته السنون خبرة فائزى قائلاً : « إن للسما قدرات لا حدود لها . وإذا ما رغبت الآلهة فى شيء وقع ، وإليك قصة تذهبُ عنك كل شكوكك :

٦٢٠

كانت بتلال فريجيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون ، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بى بيشيوس إلى حقول بيلوپس التى كان يحكمها أبوه فى الماضى^(٧٥) . وعلى القرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبل بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم مجفئة لطيور المستنقعات . وكان جوييتز قد زار هذه المنطقة مرة متخفياً فى هيئة إنسان ، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السحري بعد أن أطرح جناحيه ، وقد طرقا معاً أبواب ألوف المنازل طالين مكاناً يأويان إليه لكنها أغلقت جميعاً فى وجهيهما ، إلى أن لقيا فى النهاية ترحيباً بهما فى كوخ مغطى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هى بؤكيس برفقة فيليمون الذى كان فى مثل عمرها ، وكان قد تزوجها أيام شبابهما وعاشا فى الكوخ معاً حتى أدركتهما الشيخوخة ، وقد هونا على نفسيهما ما كانا فيه من عوز بتسليمهما به وتحملهما له دون مرارة ، ولم يكن فى رفقتها خدم بل كان يخدمان نفسيهما ، فكانا الأمرين والمأمورين معاً .

ولم يكد الضيفان السايوان يتخطيان عتبة الدار المتواضعة ويطأطان الرأس كى يتمكنا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز لهما أريكة أسرع بؤكيس ببسط نسيج رخيص عليها ، ثم حرّكت الرماد الذى كان ما يزال ساخناً فى الموقد ، وأججت نار الليلة السابقة وغدّتها بالحية الأشجار الجافة وأورقها وأخلدت أنفاسها التى نهنت منها الشيخوخة تطلق السنة اللهب ، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار حتى وضعت فوقها قدراً من البرونز . وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها ، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذ خنزير مقلّد أخذ منه شريحة أنضجها فى القدر البرونزى . وفى الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيهما بحديث مسلّ حتى لا يضيقا بانتظار الطعام ، وقد ملا لهما إناء من خشب الزان كان معلقاً بمسبار فى الجدار بماء دافئ حتى يغتسل الضيفان ويتعشا . وكانت هناك حشية متنفخة بحشائش النهر وأعشابها الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة ، فقاما وغطياها ببساط لم يكن يستخدم إلا فى الأعياد ، وكان مع ذلك بالياً لا يصلح إلا لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة . وتمتدّد الإلهان على الفراش ، وقامت بؤكيس العجوز وقد شمّرت عن ساعديها ومشت مضطربة ونصبت أمامها منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الآخرين طولاً فوضعت بلاطة تحتها لتتزن ودلكت سطح المنضدة بورق التنعاع ، ثم بسطت فوقها التوت المرقش الذى تعشقه الربة مينرفا الحكيمة والكرز البرى المحفوظ منذ الحريف فى ثقل النبل وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الحارّ بعد أن وضعت كل ذلك فى أطباق من الفخار ، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطن بالشمع الذهبى اللون . وبعد قليل قدّمت اللحم الساخن ، ثم وضعت النبيل غير المتعق على المائدة ناحية لتُضفح لأطباق أخرى كانت تحمل

٦٢٠

البندق والتين والبلح المجفّفين والبرقوق والتفاح العَطر في سلاله المكشوفة ، والعنب الأسود الناضج بين أوراقه الأرجوانية ، وكان في وسط هذه الفاكهة كلها قرص من العسل الأبيض ، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريمين وترحابها السخى .

٦٨٠ وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يمتلئ وحده كلياً فرغ ، فإذا هما يذعران ويدهشان ، ورفعاً أيديهما ضارعين إلى الآلهة وأخذوا يعتذران عما قدّما من وجبة هيئة ، وعرضاً على الضيفين المقدسين أن يذبحا لهما ما عندهما من إوزة فريدة كانت تحرس عليهما بيتهما المتواضع . وشرعاً بمسكان بالإوزة ، فإذا هم يهرب أمامهما مما أجهدهما سعياً وراءها لشيخوختهما إلى أن لاذت بالإلهين فحميها من أن تذبح معلنين إنها إلهان وقالوا : « لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذى هم به جديرون لبحودهم . أما عنكما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم ، ولكن عليكما أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل » ، واستجاب الزوجان العجوزان وتبعاً الإلهين وأخذاً يتسلقان المرقى الطويل في عُسْر وجهد متكئين على عصويهما مثقلين بشيخوختهما .

٧٠٠ كان بين الزوجين وبين قمة الجبل مرمى سهم حين أدارا أعينها فرأيا مستنقعاً فسيحاً قد ابتلع كل شئ عدا دارهما التى بقيت قائمة وحدها ، وفيما هما يدهشان لهذا الأمر ويندبان حظ جيرانهما ، لمحا كوخهما الذى كان يضيق بساكنيه يتحول إلى معبد ، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغناء [القش] المضمّر إلى سقف ذهبي ، وازدان بابه بنقش زخرفى جميل وتغطّت أرضه بالوواح رخامية . وقال ابن ساتورن بصوت ملؤه الرحمة والرفقة : « حدثنى أبيا الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجلدية بزواج مولع بالعدل ، أى شئ تتمنيان ؟ » وبعد أن تشاور فيليمون مع بوكيس برهة رفع للإلهين رغبتهما المشتركة قائلاً « أن نكون لكما كاهنين ولعبدكما حارسين . هذا ما نبغي أن نظفر به ، وإذ كنا قد أمضينا حياتنا معاً فى وفاق تام فهل لنا أن نحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتى ولا تُودعنى هى فى قبرى ؟ » .

وقد تحققت أمنيتهما ، فظلاً حارسى المعبد طوال الحياة التى قُدر لها أن يعيشاها . وجاء يوم ناء فيه بطول العمر وكان يقفان أمام الدَّرَج المقدس يرويان قصة هذا المكان ، ورأت بوكيس فيليمون يتغطى بورق شجر ، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطى بوكيس . وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما ، فتبادلا الحديث ما رُزقا القدرة على ذلك ، ثم صاحبا معاً « وداعاً يا زوجى . . . وداعاً يا زوجتى » وما لبث فهاهما أن اختفيا فى لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التى تحوّل كل منهما إليها . وما يزال فلاحو فريچيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين نمتا من جسديهما .

٧٢٠ ذلك ما قصّه على شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفعين بدافع من الخداع أو التضليل . وقد رأيت أنا نفسى أكاليل معلقة بالأغصان ، كما قدمت أكاليل أخرى نضرة بديلاً عنها بينما كنت أتمتم : « ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة ، ومن يُكرّم الآلهة يُكرّم » .

إيريزيختون

وفرغ ليليكس من قصته التي تركت أثراً عميقاً في نفوس مُستمعيه ولاسيما في نفس ثيسوس الذي كان وجوده يعزّز صحة ما قيل . وإذ كان ليليكس بدوره يودّ أن يستزيد من معرفة المعجزات التي حقّقها الآلهة ، لهذا تحدث إليه إله النهر معتمداً على مرفقه قائلاً : « هنالك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة وبقيت عليها أبداً ، وهنالك أجساد أخرى تحوّلت إلى صور شتى متباينة . أنت مثلاً يا پروتيوس الإله ساكن البحر الذي يحيط الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً في صورة شاب ، وأحياناً أخرى في صورة أسد ، وقد كنت يوماً خنزيراً برياً هائجاً ، ومرة أخرى ثعباناً يهرب الجميع الاقتراب منه ، أو ثوراً مهيب القرون ، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة ، وأحياناً ماء جارياً . كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداٍ مع الأمواج .

٧٤٠

وكانت زوجة أوتوليكوس ابنة إيريزيختون^(٧٦) تحظى بهذه القدرة نفسها ، غير أن أباهما كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يطلق البخور في محاريبهم ، ويقال إنه انتهك حرمة غابة مقدسة لسيريس ودّس أدغالها القديمة ببلطته ، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحققت . وكثيراً ما كانت الحوريات يؤدّن رقصاتهن المرحّة في ظلالها ، كما كن يعقدن أذرعتهن ويشكّلن دائرة حول جذع هذه الشجرة التي يبلغ محيطها خمسة عشر ذراعاً ، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بقدر ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها ، ولم يشن هذا إيريزيختون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة . وإذ رآهم يترددون لم يتورّع هو عن أن ينتزع البلطة من يد أحدهم قائلاً : « لسوف تسقط وتلامس قممها الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على الإلهة أم كانت هي نفسها الإلهة » . وهوى بالبلطة خلال نطقه بهذه الكلمات على جذع الشجرة بضربة قاطعة فإذا شجرة سيريس تهتز وتثن ، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشحب . ولم يكذب شقّ جذع الشجرة حتى تدفق دم غزير أشبه ما يكون بدم ثور نُحر قرباناً في المذبح .

٧٦٠

سكن الجميع وعزتهم الدهشة ، وحاول أحدهم أن يحول بين هذا الاعتداء الأثيم ويردّ البلطة القاسية ، فحججه إيريزيختون بنظرة قائلاً : « خذ هذه كفء نواياك الورعة » وضربه بالبلطة ضربة شجّت رأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضربات . عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردد : « أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب في طيّات هذه الشجرة ، أنذك وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب ، وفي ذلك ما يتخفّف عني فراقى للحياة » . وعندما أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وأخذت تهتز ثم شدّت بالخيال سقطت معطمة تحت ثقلها الرهيب عدداً كبيراً من الأشجار المجاورة .

حزنت الحوريات الأخريات حزناً بالغاً على تلك الخسارة الفادحة التي لحقت بهن وبالعابدة ، وجعلن ييكن شقيقتهن وارنتين عليها ثياب الحداد السوداء ، ودنون من سيريس حزينات يسألنها أن تنزل عقابها بإيريزيخثون فهزت الإلهة رأسها قبولاً منها لما سألن ، ثم أتت على الحقول بحصاها الوافر ، واشتطت في عقابها عما كان يثير في الناس أحياناً الشفقة على المذنب ، ولكن ما طُبع عليه من إجرام بشع نزع الشفقة عليه من قلوب الناس ، فتركت الجوع يعض في جسده . ولم يكن من اليسير أن تذهب الإلهة سيريس للقاء « ربة الجوع » المهلكة [فالقدر لا يسمح بلقاء سيريس مع ربة الجوع]^(٢٧) فاستدعت سيريس إحدى حوريات الجبال قائلة : « في أقاصي أراضى سكوتيا مكان ثلجي منعزل لا ينمو فيه شجر ولا نبات ، يسكنه أرباب الصقيع والشحوب ورعشة المرض والجوع الذي لا يشيع قط ، مرى ربة الجوع هذه أن تنفذ إلى جوف ذلك المعتدى على المقدسات ، وألاً تهزم أمام وفرة الغذاء ، وأن تحارب في صفى حتى لو ذهبت بوفرق ، ولا يفزعك طول الرحلة . خُذى مركبتى ودوائى الوحشية المجنحة وقودها عبر الفضاء »^(٢٨) ، وأسلمتها سيريس المركبة فانطلقت بها الأوريدة^(٢٩) في أجواز الفضاء حتى بلغت سكوتيا ، ففكت قيود الدواب فوق قمة جبل ثلجي يسمى القوقاز ، وأخذت تبحث عن « ربة الجوع » فوقعت عليها في حقل صخري تتزع بأظافرها وأسنانها أعشاباً هزيلة ، ووجدتها شعناء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو شفيتها زبد أبيض كريحه ، وفي حلقها بحة صوت حزينة ، وجلدها مشقق يكشف عن أحشائها للرائي وقد نأت عظام خاضرتها المقوسة المعروقة ، ومعدتها خاوية فبدأ صدرها معلقاً لا يكاد يمسه غير عمودها الفقري ، ويدت مفصلها من فرط هزالها ، وظهرت غضاريف ركبتيها شبيهة بالورم ، كما برز عظم كاحلها . وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البعد [لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها] وأبلغتها رسالة الإلهة ولم تنتظر إلا برهة صغيرة ، وكانت قد وقفت بعيداً إذ ما كادت تبلغ المكان حتى أحست لساعتها بالجوع يهتدها ، فأدارت مركبتها وعادت إلى هايمونيا .

ومع أن نشاط ربة الجوع لا يتفق ونشاط سيريس إلا أنها أمضت أوامر الإلهة بدقة ، وقد حملتها الريح عبر الأجواء حتى بلغت الدار المعينة لها ، وتسَلَّت مباشرة إلى غرفة نوم الكافر فوجدته في سبات عميق [إذ كان الوقت ليلاً] وأحاطته بذراعيها واحتضنته ونفذت إليه عبر أنفاسه ، وأخذت تملاً بنفثاتها فمه وحلقه وصدره ، وأشاعت في شرايين النائم الحاجة إلى الغذاء ، ولم تكد تنهى مهمتها حتى غادرت تلك المناطق الخصبية وعادت إلى ماواها القفر وسط حقول الجذب التي اعتادت الإقامة بها .

رأى إيريزيخثون وهو ما يزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدده أنه يبحث عن طعام ، ومضى يلوك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصططكت ، وأضنى حلقه المخدوع بابتلاع غذاء وهمي فكان يزحود بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه ، حتى إذا استيقظ أحس رغبة عارمة في الطعام تنهش حلقه النهم وأحشاءه الخاوية . وأسرع يطلب كل ما تنتجه الأرض والبحر والفضاء ، وراح يشكو أنه يموت جوعاً وبين يديه المائدة المتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد ، ولم يعد يكفيه واحد ما يكفي مدناً عديدة وشعباً كاملاً ، وأصبحت معدته أشد ما تكون لهفاً إلى الطعام كلما امتلأت به ، كالبحر يتلقى بين

شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوى ظمؤه أو يكفّ عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة ، أو كالنار العاتية التي لا يفلت منها شيء وتلتهم كتل الأخشاب التي لا تحصى ويزداد نهمها كلما ازداد ما يُقدّم لها من مواد وتزداد حدة كلما توقّرها ما تلتهم . كذلك كان فم إيريزينثون يزداد الأظعمة كلها مطالباً بالزيد ، ٨٤٠ كل طعام يحرك فيه الرغبة إلى غيره ، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشائه فراغاً وخواء .

وتضاءلت ثروة آباءه وأجداده لإشباع جوعته وملء بطنه ، ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقي نهمه العارم يذكر حدة . وبعد أن قذف كل ما يملك في أحشائه بقيت بين يديه وحيدته التي كانت ما أولها باب غير ، فإذا هو يبيعها لسه مسغبته . غير أنها كان لها كبرياؤها الذي لا تخضع معه لسيّد ، فمدّت يديها إلى البحر القريب ضارعة : « لك وحدك يا إله البحر أن تحرّني من عبوديّتي ، يا من وهب لك علّرقى » . فاستجاب الإله نيتون لضرعتها إذ كان قد استمتع بها من قبل . وكان مالكها الذي آلت إليه يقفوا أثرها ويتبع خطاها حينما حوّلها الإله إلى صورة أخرى ، فإذا هي على قسبات رجل يرتدى ثياب صيّد سمك ، وإذا مالكها يرى بين يديه صيّد سمك ، وإذا هو يقول له :

« أنت يا من تخفى تحت الطعم الخفيف شصك البرونزي ، أنت يا من تجيد تحريك قصبة الصيد ، كم أتمنى أن تهدأ مياه البحر لك دوماً وأن يتخدد لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشيء إلا بعد أن يعلق به . منذ برهة وعلى هذا الشاطئ كانت تقف فتاة في ثياب بسيطة شعواء الشعر ، ويعينى هاتين رايتهما منذ قليل . خبرني أين هي فإن آثار أقدامها تشي بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان » ، وأدركت الفتاة أن الإله كان موفقاً فيما احتال به لخلاصها ، وما أشد ما اغتبطت حين سأل مالكها عن مكانها ، فأجابت : « معذرة يا سيدي كائنات من كنت ، فإنني لم أصرف نظري عن المياه العميقة ، إذ كنت أشد ما أكون انتباهاً إلى صيّدتي . ولكي أخو شكوكك فإنني أشهد إله البحر الذي يعينني في مهمتي على أن أهدأ غيري رجلاً كان أو امرأة لم يظهر على هذا الشاطئ منذ وقت طويل » ، فصنّقتها سيدها واستدار يدوس الرمل بقدميه وابتعد بعد أن انخدع بالحيلة . وبعدها عادت الفتاة إلى صورتها الأولى

وحين علم أبوها أن ابنته حفيظة تريوباس تملك القدرة على التحوّل من صورة إلى أخرى ، باعها مرات عدة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متخذة صورة مُهرة مرة وصورة طائر مرة ثانية وصورة ثور يوماً وصورة وعلى يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النهم أطعمة مختلفة . ولما نفذ كل ما كان يمكن أن يطعمه دفعته حدة الجوع القارص إلى البحث عن غذاء جديد لسه مسغبته ، فأخذ إيريزينثون الشقيّ يقطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذّي بها نفسه .

ولكن كيف لي أن أضيع الوقت أيها الفتيان في سرد قصص الآخرين ، على حين أني أستطيع أن ٨٨٠ أحوّل وأظهر في صور عدة وإن كانت معدودة . فأنا أظهر أحياناً كما ترونني الآن ، وحينما أحوّل إلى ثعبان ، وحينما أبدو ثوراً يتصدّر القطيع قوته كلها في قرنيه . وأقول قرنين لأنه كان لي هذان القرنان ، وأنتم الآن ترونني ونصف جبهتي أعزل وأعقبته كلياته هذه ات

التعقبات

(١) السيرتيس هي تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطئ تونس وطرابلس وقرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازي ومصراته] هي الجزء الجنوبي الشرقي لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحة بسبب الشط الرمل المخفي تحت سطح البحر . والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هي الجزء الجنوبي الغربي منها . وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتى يفرضوا احتكارهم للتجارة في هذه المنطقة حارمين منافسيهم منهم . فالمعروف أن هذه السمعة لم تمنع ازدهار التجارة في جزيرة مينكس [جربه] التي اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكابي [قابس الحديثة] وميناء تبارورا [سفاقس الحديثة] .

(٢) هامت باسيفاي زوجة مينوس ولعا بثور ظهر بغتة من المياه بمشيئة نبتون فأمرت دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تتخفى داخلها كي تضاجع الثور الذي أنجبت منه إيتا هو المينوطور [الوحش ذورأس الثور وجسد الإنسان] . وإذ اشمئز الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه في المناهة . ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصري ، إذ يذكر هيرودوتوس في الكتاب الثاني من تاريخه قصة تخنيط إيتا منكاورع ودفنها في عمال خشبي أجوف لبقرة مطلية بالذهب .

(٣) يُرجع أوفيد كلمة كريس - دون أدلة - إلى الفعل اليوناني «خيرين» الذي يعني قطع أو جز .
(٤) ثمة رأي يقول إن دايدالوس هو اسم أسطوري يعني المهندس الصانع ، ويقال إنه من أهل أثينا وإنه ينتمي إلى أسرة آل إيرينثيوس . وكانت ثمة عشيرة في أثينا اسمها آل دايدالوس ، والراجع أن دايدالوس الحقيقي هو الذي قتل ابن أخته ، أما دايدالوس الأسطوري فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والعمارة وحفر الخشب والعاج ، وقد نسبت إليه تماثيل عدة ترجع إلى العهد السحيق ، فسمى أوائل المثاليين في أثينا بأبناء دايدالوس . وليس هناك دليل تاريخي على قصته التي حدثت في كريت إلا أنها تدل على الأهمية الكبرى التي كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية في تاريخ ثقافتهم وفنونهم .

(٥) يتيح لنا هذا الوصف للمناهة أن ندرك الأسس التي بنيت عليها الأسطورة ، فقصر مينوس الذي تم الكشف عنه في كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة ، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحرم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك ، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذي لا بد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانيهم . وقد تكون كلمة «لايرينثوس» أي المناهة مشتقة من الكلمة اليونانية في لهجتها الكارية [لابريس] التي تطلق على البلطة المزودة . ومعروف أن هذه البلطة دور كبير في الديانة الكريتية فهي منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة .

وقد تكون المتاهة هي « قصر البلطة » دون أن يقصد بها متاهة ، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل وبحث . ويُرجع البعض النور إلى أصول أسطورية مصرية إلا أنه موجود في الرسوم الجدارية لقصر كنوسوس في مشاهد لمسابقات الثيران . وقد عثر في حفائر كنوسوس على رموس ثيران من الفضة ذات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزودة المشار إليها ، وما يزال الأمر يكتنفه الغموض .

(٦) المعروف أن مينوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقدّمون غذاء للمينوتور . وكان ثيسبيوس قد تطوع بحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كي يقضى على الوحش . أما ديا فهر اسم قديم لجزيرة ناكسوس .
(٧) كوكبة الإكليل الشمالي (أو الفكة) الموجود بين نجم الجاني على ركبته [أو نجم الراصق] وكوكبة حامل الثعبان [الحورية] .

(٨) يوصي دايدالوس هنا ابنه بنفس النصائح التي أوصى بها فوبوس ابنه فايثون في الكتاب الثاني .
(٩) يخطئ أوفيد هنا كما أخطأ في وصفه لطيغان ميديا في الكتاب السابع ، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقي من جزيرة إيكاريا التي سقط بجوارها إيكاروس ، في حين تقع ديلوس شمال پاروس ، وجزيرتا ليتشوس وكاليثي شرقي ناكسوس .

(١٠) يروي أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتمياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [أجريتيوم الآن] ، فجاهه مينوس بأسطول ضخم يطلبه بالهارب . وتظاهر كوكالوس ودعا مينوس إلى وليمة حيث قتلته غرقاً في حمام من الماء المغلي بمساعدة بناته . وكانت هذه الأسطورة موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها « كاميكوي » .

(١١) كاليدون مدينة في إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوبينيوس هو والد ملياجر .

(١٢) سيريس أو كيريس إحدى ربات اللاتينيين تقوم بإثاء الزرع وحمايته .

(١٣) يبدأ أوفيد هنا سرد أسماء الأبطال الذين اشتركوا في صيد الخنزير البري مثلاً حين سرد أنواع الكلاب في مصرع أكتايون [الكتاب الثالث] ، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفراد بها أوفيد بل إنه قد اقتبسه عن مصدر أدبي مجهول الاسم .

(١٤) انظر الكتاب الثاني عشر (١٨٩) .

(١٥) كان أمفيارابوس الأرجوسي عراًفاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل من يشترك في الحرب ضد طيبة . وكانت زوجته إيريفيليه قد قُتلت بالعقد الذهبي الذي أهدها إليها بوليبيكيه وكان في الماضي عقد هارمونيا زوجة كاداموس . وعندما قرر أدراستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشن الحرب ضد طيبة بناء على رغبة بوليبيكيه طالب أدراستوس صهره أمفيارابوس أن يخرج معه إلى القتال فاختبأ أمفيارابوس في بيته لأنه يعلم سلفاً أنه ملاق حقه في المعركة حسب نبوءته هو نفسه ، فأجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك في هذه الحرب . وبعد أن لمى طلبها صاغراً أرسل جوييتز صابغة شقت الأرض أمام قلميه فابتلعت ، ويقال إنها حيلة لجأ بها جوييتز كي يضمن له الخلود . وما تزال أطلال معبدته الذي كان يتنبأ فيه بالغيب قائمة بجوار قرية أوروبوس في أتيكا .

(١٦) هي أثالانتا من تيجيا [في أركاديا] بنت ياسوس ، تركها أبوها في العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها ، فأرضعتها دبة وعاشت على الصيد في الغابات [انظر الكتاب العاشر] .

(١٧) اسم جبل في أركاديا .

(١٨) هن ربّات الأقدار كلوثو ولاخيسيس وأثروبيوس .

(١٩) تقوم ربّات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التي تحرم قتل الأقارب ، وقد قتل ملياجر خاله فاستحق عقابهن .
(٢٠) يفصل نهر أخيلوس بين نهر أركانتانيا وإيتوليا في غرب اليونان ، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كاليدون ، ولم يكن هذا النهر في الواقع على طريق عودة ثيسبيوس إلى أثينا . وبعد هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها مياهاً .

(٢١) هو بيريثوس نديم ثيسبيوس الذي رافقه حيناً هبط إلى العالم السفلي . [انظر قصة زفافه إلى هيوداميا وما وقع فيه من عراك بين اللاتيث والفتطور في الكتاب الثاني عشر] .

(٢٢) لا علاقة بين ليكس في هذا الفصل وليكس الوارد في الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الأهلة عند مصب نهر أخيلوس على الشاطئ الغربي لأركانتانيا ، ومن وقت لآخر كان الغرين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

(٢٤) لم يكن بيرثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذي حاول ذات مرة أن يتك عرض جونو . وكان بيرثوس قد هبط إلى العالم السفلي في رفقة نيسيوس لكي يختطف بيرسيغون ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبله بالأغلال . واستطاع هرقل فيما بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه نيسيوس .

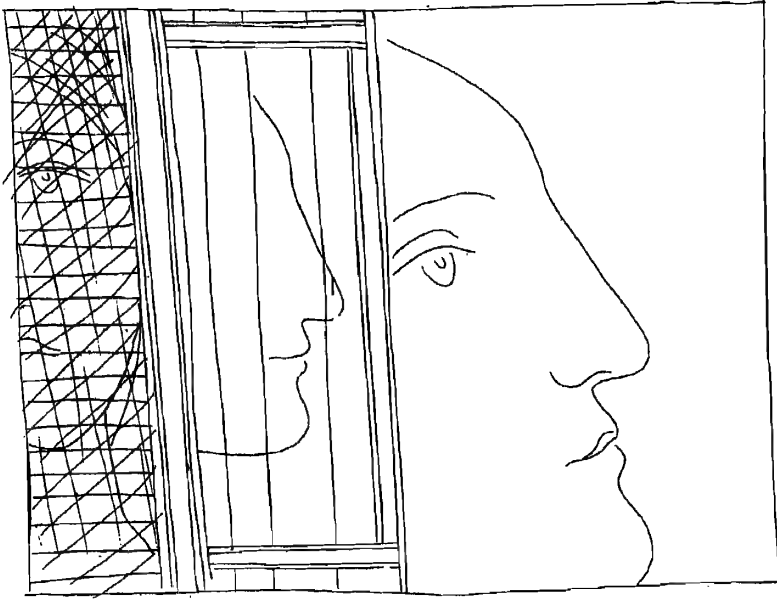
(٢٥) ليكس هو ابن بيثوس بن بيلوس بن تانتالوس الذي ولى عرش فريجيا ، ثم التجأ إلى اليونان بعد أن بعته الآلهة من الموت [انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعده] .

(٢٦) هي منسترا . وليست القصة التي سرويتا أوليد عن عذاب الجوع الذي فرضته الإلهة ديميتر على إيريزيخثون إلا أن توطئة تفسر كيف تلقت منسترا من نبتون هبة تحول شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يضبط مثلبساً وذلك لقدوته أيضاً على التشكل كيفاً يريد . وكان أبا لانتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [انظر الكتاب الحادى عشر والكتاب الثالث عشر] .

(٢٧) لاغرو فسيريس هي ربة الخصوبة والحصاد الوفير .

(٢٨) المركبة التي نجزها التناين المجنحة ، وكانت ديميتر [سيريس] قد أعطتها من قبل لترتوليموس ليضى بها إلى البشر ، كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير ترتوليموس فوق مركبته في الفنون الإغريقية .

(٢٩) حورية الجبال والمضارب .



بيكاسو

الكتاب التاسع

أخيلووس وهرقل

سأل البطل ابن نبتون الإله أخيلووس عن سر أنينه وعما أصاب جبينه من سوء ، فاجابه إله نهر كاليديون وكانت خصلات شعر رأسه تنسدل تحت تاج من قصب الغاب قائلاً : « إنك تطلب صنيعاً يكلفني إسداؤه الكثير ، وهل لمهزوم أن يفخر بمعاركه ؟ ولكني سوف أكون أميناً فيما أقصّة عليك . إن الخجل من الهزيمة يهون أمام مجد خوض المعارك ، وعزائي أن خصمي كان بطلاً عظيماً ، ولعل أصوات الجياهير قد حملت إلى سمعك اسم ديانيرا ، فقد كانت في الماضي عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خطّاب عديدون ، فمضيتُ مثلهم إلى دار من كان يتمنى كل منا أن يصاهاه ، وقلت له : « فلتقبلني زوجاً لابتك يا ابن پارثاوون » . كذلك قصده هرقل هو الآخر فانسحب المتنافسون الآخرون حين تباهى منافسي الوحيد بأنه يقدّم أباه چوپيتر ليكون هو الآخر حماً للفتاة ، ثم مضى يستعرض جلائل أعماله بتغلّبه على الأخطار التي عرّضته لها زوجة أبيه [چونو] . ولقد احتججت على ما ساقه من أسباب تزكيه بقولي : عارُ

٢٠ على إله أن يتدنّى فيُبيح لواحد من البشر أن يُصهّر إليه ، [فلم يكن هرقل قد أصبح لها بعد] . إنك ترى أننى سيد النهر الذى تتعرّج مياهه فى مملكته ، وأننى لن أكون ذلك الصهر الغريب الوافد إليك من بلد نازح ، بل صهراً غتاراً من بلادك وواحداً من بين رعاياك . وحسبى أن جئونو ملكة السموات لم تطاردنى عن كراهية ، وأن أحداً لم يفرض علىّ عملاً عقاباً لى . أو تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ولد جوبيتر مع أنه ليس أباك ؟ وإن صبح هذا فلم يكن إلاّ عن خطيئة . إنك حين تدعو جوبيتر أباً ترمى أمك بالزنا ، فاختر أحد أمرين : ألاّ يكون جوبيتر لك أباً أو أن تكون أمك قد أهدوت شرفها .

ولم ين هرقل عن أن يتوعّدى بنظراته خلال حديشى ، وعجز عن أن يكتم غضبه المشتعل فى نفسه ، فصاح بى : « إن ذراعى يفوق لسانى ، ولسوف أترك لك ميدان الكلام ، وحسبى أنا ساحة الوعى » ، وتقدّم نحوى بخطى جريئة ، وخجلت أن أترجع بعد كل ما صدر على لسانى من زهو وتباه ، فخلعت عنى عباءة الخضراء ومددت ذراعى وتأهّبت وثّيت قبضتى إلى صدرى وشّرت للعراك ، فقبض هو تراباً فى كفّه نثره علىّ ، فغطيته بدورى بالرمال حتى بدا أصفر اللون ، وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقى وتارة على ساقى وكنت دائب الحركة بها كى أفلت منه ، إذ كان يلاحقنى ويسدّ علىّ كل منفذ ، وكان ثقل وزنى يجمنى من ضرباته ، وكنت ككتلة من صخر تقف صامدة فى وجه الأمواج التى تحيط بها صاحبة ، غير أن هرقل لم يأبه وكان من ضخامة جسمه ما يكفل حمايته . وتباعد كل منا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لستأنف العراك ، وتشبّث كل منا بمكانه فى حزم لا تقبل معه استسلاماً ، ولا مست قدمائى قدميه ، وانحنيت بصدرى إلى الأمام ، وأخذت أعتصر أصابعه بأصابعى ، وأدفع جبهته بجبهتى ، وكنت قد شهدت قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجل بقرات القطيع ، وكان القطيع يرقب المتصارعين دون أن يعرف لمن تكون الغلبة فيظفر بالزعامة . وحاول هرقل مرات ثلاث أن يدفع صدرى بعيداً عنه ولكنه لم ينجح إلاّ فى الجولة الرابعة ، فقد استطاع فك قبضتى وإرخاء ذراعىّ المشدودين ثم سدّد إلىّ ضربة أدارتنى حول نفسى [فيجب أن أعترف بالحقيقة كاملة] ثم ألقى بكل ثقله على ظهرى . ولتصدّقنى فلست أحاول الزهو بادعاء الأكاذيب ولست أبالغ حين أقول إننى أحسست كأن جبالاً يدكّنى . وقد نجحت فى أن أدسّ بين جسدنا ذراعىّ اللتين كانتا تتصيّبان عرقاً ، وأن أخلّص جسدنى من ذراعيه اللتين كانتا تطوّقان عنقى ، بينما كنت ألثت وهو يضيق علىّ الخناق ولا يدعى أسترّد أنفاسى ، إلى أن أمسك بعنقى فتهاوت ركبتاى على الأرض وأخذت أعضّ الثرى .

وحين أدركت أننى أضعف منه احتلت كى أفلت من قبضة البطل فتحوّلت ثعباناً طويلاً ، ورُحْتُ أُنحَوِّى مرسلأ لسانى المشقوق بفحيح كربه ، فانطلق هرقل التيرنشى مستهزئاً بحيلى ، وقال : « لقد كانت هوايتى فى طفولتى الفتك بالثعابين ، وإذا كنت تفوقنى قدرة فلست غير ثعبان وحيد لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التى كانت جراحها تمّدها بالمزيد من القوة والبأس ، فكانت كلما قُطع لها رأس من رموسها نبت مكانه رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة ، وعلى الرغم من رؤوس الأفاعى العديدة التى كانت تشعّب منها ، وعلى الرغم من تزايد قواها مع كل محاولة للنيل منها فقد سيطرت عليها وقهرتها

وأحرقت جسدها . تحيّل إذن ما سوف يحقق بك بعد أن تحوّلت إلى ثعبان زائف تقاتل بأسلحة غريبة عليك وتتخفّى في شكل مستعار ١ . وحين انتهى من كلماته أطبق بأصابعه على حلقى حتى كدت أخنق ٨٠ وحاولت جهدى الإفلات من قبضته . وحين قهرنى ثعباناً استحلّت ثوراً مفترساً ، وهى الصورة الثالثة التى بقيت لى ، ونشب القتال بينى وبينه ، فانقضّ علىّ من الناحية اليسرى ولقّ ذراعيه حول عنقى ، ومع تراجعى أخذ يلتصق بى ويضغط بكل ثقله على رأسى حتى غرس قرنىّ فى الأرض ومرغنى فى التراب ، ثم أمسك أحد قرنىّ بقبضته العاتية وحركه حتى انتزعه من جبهتى التى تشوّت وطوّح به ، وأسّرت الحوريات إلى القرن فملأته بالفاكهة والزهور العطرة وقدّمنه قرباناً مقدساً للآلهة ، فازدادت إلهة الرخاء الحيرة ثراء بقرنى .

وحين فرغ أخيلووس من حديثه تقدمت إحدى قبان الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثياب ديانا ، ومرسلة شعرها يتموّج على كتفها ، وحاملة قرناً مليئاً بمختلف ثمار الخريف الشهية . ولم يكد النهار يطلّ على قمم الجبال مع أشعة الشمس الأولى حتى بادر الأبطال بالزحيل دون ترقّب لعودة النهر إلى سكونه الطبيعى فى مجراه قبل أن ترتدّ مياهه عن الضفتين ، وعندها أخفى أخيلووس بين الأمواج وجهه الريفى القسّات وجبهته التى فقد أحد قرنيها .

نيسّوس وموت هرقل

١٠٠ لم يفقد إله النهر فى معركته غير هذه الحلية التى سلبه إياها خصمه المنتصر بينما بقى جسده كله سليماً لم يمسه سوء ، وقد اعتاد أن يخفى هذه السوءة تحت تاج من أوراق الصفصاف أو من الغاب . أما أنت يانيسوس المتغطرس فقد لحق بك الهلاك الذى صبه عليك حبك وهيامك بالعذراء ديانرا بعد أن اخترق ظهرك سهم خاطف .

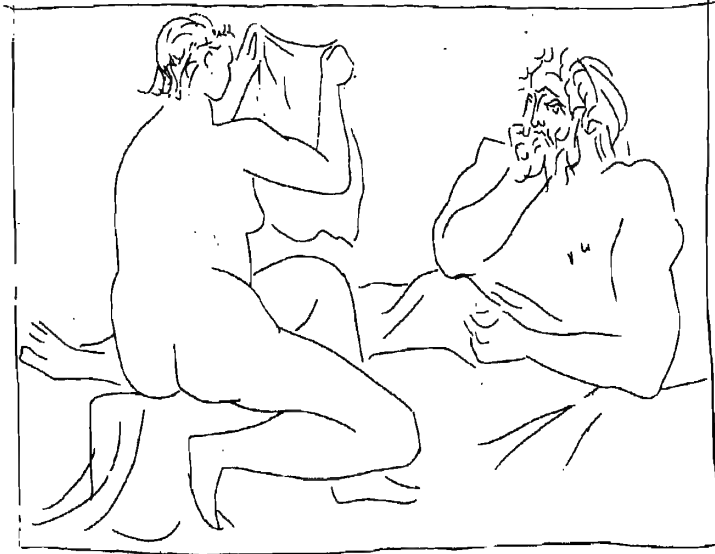
ففنيا كان هرقل بن جوبيتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة بلغ شاطئ نهر إفيقوس المصطخب الأمواج فوجده فائضاً على غير العادة بمياه الأمطار الشتوية التى كانت تثير فيه دوّامات عديدة يصعب معها عبوره . ولم يكن هرقل يخشى على نفسه بل كان قلقاً على زوجته ، وعندما اقترب منه القنطور نيسوس الجبار الذى كان خبيراً بأماكن العبور الضحلة وقال : « دعى أحمل عنك هذه السيدة إلى الشاطئ الآخر ، فأوفّر عليك جهدك لتقوى أنت على أن تعبر النهر سابقاً » ، عهد البطل البويوت إلى القنطور نيسوس بعذراء كاليدون التى عراها الشحوب وحلّت بها الرعدة هلعاً وخوفاً من النهر ومن نيسوس ، وطوّح هرقل بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يحادث نفسه وهو مثقل بكنائنه ويجلد الأسد الذى يرتديه قائلاً : « أما وقد شرعت فى خوض النهر فلا مضى إلى أن أبلغ الغاية » . وألقى بنفسه فى الماء دون تردّد ودون أن يعبأ بالمناطق التى تهدأ فيها حنة المياه أو بالمناطق الأخرى التى تندفق فيها المياه . وحين انتهى

١٢٠ إلى الضفّة الأخرى التقط القوس الذى كان قد طوّح به ، وإذا هو يسمع صراخ زوجته ، فتبين أن نيسوس كان يحاول أن يخرجه في زوجته التى حملها . فصاح به : « إلى أين تندفع أيها الوجد مستخدماً سرعة سافيك خادعاً إياى بأباطيلك ، إننى أخاطبك يا نيسوس ياذا الخلقين ، اصغ إلى وحذار أن تسلبنى زوجتى ، وإذا لم تُرّع حقوقى فلتتعطّ بالعجلة التى رُبط بها أبوك من قبل بسبب عشق محرم^(١) فلن تغفلت منى ، ولن يجديك ما رزقته من صفات الخيل فستلاحقك سهامى قبل أن ألحق بك عدواً » . وسرعان ما نفذ ما قال أخيراً ورمى بيده سهماً نفذ في ظهر القنطور الحارب وأطلّ منه المعقوف من صدره . ولم يكد نيسوس ينزع السهم من صدره حتى تدفّق الدم من جرحيه يمازجه سم^(٢) الهيدرا الرهيب ، فكتّم الدم الدافىء المتدفق بقميصه ليجعل منه وسيلة للثأر ، مناجياً نفسه : « لا . لن أقضى نحسى دون قصاص » ، وقدم قميصه المُسبّغ دماً للعدراء التى اختطفها راعماً أنه عوفة تحرّك دفين الحب .

١٤٠ ومَرَّ وقت طويل ، وكانت أمجاد هرقل العظيم قد عمّت الكون وزادت من حقد جونو زوجة أبيه ، وحين عاد متصراً من أويغاليا^(٣) أخذ يتأهب لتقديم القرابين تمجيداً لهوييتير ووفاء بلذره في كينايوم^(٤) . وانتهى إلى سمع ديانيرا ثنرة ربّة الشائعات التى يمتزج الزيف فيها بالحقيقة وتزكّيها بأباطيلها ، والتى تبدأ تافهة ثم تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هى أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيتريون وبين ينولى . وصدّقت الزوجة النبأ ، ولم تكد تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدّمع يفيض من عينيها لتروّح عن همّها . ولكنها عادت تنأجى نفسها وتقول : « فيم هذا البكاء ، فما أسعد غريمى بأن ترائى باكية ، وإذا كانت لابد قادمة علينا فعلى أن أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدى إلى وسيلة أحول بها بينها وبين أن تسلبنى فراشى . أيجئ لى أن أجأر شاكية أم ألزم الصمت ، أأعود إلى كاليلون أم أبقي هنا ؟ أهجر دارى أم أبقي فيها لأعكر عليها صفوها ، إذ لا حيلة لى أن أفعل غير هذا . وأذكر أننى أختك يا ملياجر^(٥) ، ولسوف أكيل لها ضربة قاصمة تقضى عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة امتهنت واعتدى على كرامتها » . غير أن فكرها ضلّ بين التجاهات عدّة ، وقرّ رأيها على أن تبعث بقميص نيسوس المُلطّخ بدمه إلى زوجها لكى يشعل فيه الحب الذى خبا دون أن يساورها شك في خطر قد يخلق به ، فلم تكن ديانيرا تحال أن هذا القميص سيُلْبسها ثوب الحداد ، فعهدت به إلى ليخاس الذى لم يخالج ذهنه هو الآخر شك في أمره وأسرت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدمه هدية لزوجها البطل الذى تقبله دون أن يدرى ما يجنيه له القدر ، فألقى على كتفيه ذلك القميص المُلطّخ بدم الهيدرا الليرناوية .

١٦٠ وفيما هو يحرق البخور بين السنة النيران المنبثقة متمتماً بصلواته للالهة ساكباً الخمر على المذابح الرخامية من دورق في يده ، كان السم يسخن ويذوب من حرارة النار ويسرى أثره المدمر حتى بلغ أطراف جسده . وقاوم البطل الآلام ما استطاع بشجاعته المعهودة دون أن يشّ أنه وحلة ، حتى إذا نفذ صبره حطّم المذابح وملاً غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهرولاً وهو يمزّق القميص المشوم ، غير أنه مع كل مُزقة منه كان ينزع قطعة من جلده . ألا ما أبشعها من ذكرى ! لقد كان القميص أشد ما يكون التصاقاً بجسده فكان عسيراً عليه أن ينزعه من فوق جسده إلا وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية . وكما كانت

دماؤه تنزّ أزيز الحديد المُحمّى عليه في النار حين يُغمس فجأة في ماء بارد كذلك كان فعل السّم في جسده وهو يتصره . ولم يكن هذا ما يعانیه فحسب ، بل كانت ثمة نارٌ نعمة تلتهم أحشائه وعرقٌ أسود يتصبّب من جسده كله ، على حين تتداعى عضلاته المحترقة ويذيب الألم الدفين نخاع عظامه . وعندما رفع يديه إلى النجوم وصاح : « انعمي بمأساتي يا ابنة ساتورن . نعم ، اشمقي بي في علياء سمالك أيتها الإلهة القاسية القلب ، وأشبعي نظراتك بعذابي ، وليسعد قلبك الغليظ ، أما إذا كانت حالي تثير الشفقة في قلب خصم



بيكاسو: القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى العنراء ديانيرا

مثلك ، فخلّصيني من الحياة التي أنا فيها فرسة آلام رهيبة ، خلّصيني من الحياة التعسة التي لا أذوق فيها إلا المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لي . سيكون هدية جديدة بزوجة أب ، أو لست أنا الذي هزمت بوزيريس^(٦) الذي كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء ؟ أو لست أنا الذي سلبت أنتايوس الرهيب قدرته التي كانت تدعّمها أمه الأرض ؟ أنا الذي لم يفزعني راعي هيريا ذو الأجساد الثلاثة ولا الكلب كيريروس ذو الرؤوس الثلاثة ! أو لستما أنتما يا يدَي اللتان مرّغتيا قرني الثور المخيف في التراب ؟ أو لم يشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيمفالوس وغابات پارثينوس ؟ أو لم تُعذّ بفضل بسالتكها حائل سيف ملكة الأمازونات الذهبى ، وكذا الثمار التي كانت في حراسة تينين لا يغمض له جفن ، أو ليس حقاً أنني أتيت على عَيْث القنطور والحنزير الوحشي الذي كان يجرب أركاديا ، وأن الهيدرا لم يُغن عنها شيئاً تزايد قوتها مع فقد بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى ؟ هل أذكرك أنني حين رأيت جياد ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتلئ حظائرهما بمزق الجثث الأدمية هدمت الحظائر وقتلت الجياد وصاحبها ؟ ها هما

٢٠٠ تان اليدان اللتان خنقت بهما أسد نيميا الوحشى ، وما هو ذا الكتف الذى حملت عليه السماء . كم أحست زوجة جوبيتر القاسية بالإرهاق من كثرة أوامرها لى دون أن أحس أنا الإرهاق فى تنفيذها ، وما هى ذى كارثة جديدة تكلل أمامها الشجاعة وعُدَّة الهجوم والدفاع معاً ، ففى أعماق رثى تضطرم نار تلتهم كل ما تجده فى جسدى من أعضاء بينها يعيش الملك يوريسثيوس^(٧) قوياً معافى ، فهل ثمة من يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة ! .

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى حطمه الألم فهام على وجهه فوق سفوح جبل أويتا بخطوات ثور قد أنخنه رمح صياد رماه وانفلت هارباً ، فكان أحياناً يثن وأحياناً أخرى يردد غضباً محاولاً أن يتزع عنه ثيابه أو يقتلع جذور الأشجار أو يصب غضبه على الجبال أو يرفع نواحيه إلى السماء مقر أبية جوبيتر .

٢٢٠ وما هو ذا هرقل يلمح ليخاس الذى اختفى مرتعداً فى جوف صخر فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً : « أنت يالليخاس من يهدينى هذه الهدية القاتلة ؟ أنت إذن من دبر موى ؟ » ، فأخذ ليخاس البائس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر ونبس بكلمات يعتذر بها يخنقها الخوف وهو يحاول أن يقبل ركبتي هرقل الذى أمسكه ودار به ثلاث دورات فى الهواء ثم قذف به فى مياه بحر يوبويا بالندفاع تربى على اندفاعه المنجنيق ، فإذا جسد ليخاس يجمد فى الهواء . وكما يقال إن أنفاس الرياح الثلجية تكثف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً ، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشة أن تتجمد وهى تدور حول نفسها ثم تستدير متخذة شكل حبات برد سميكة ، كذلك لم يكد ليخاس يُقذف به وسط الفضاء ويجمد الفرع دمه حتى تحوّل جسده كله إلى صخرة صلبة كما تقول أسطورة قديمة . وما تزال إلى اليوم صخرة مرجانية خطيرة منبطحة فوق وهدة منخفضة على صورة آدمية وكأنها جثة ، وما يزال الملاحون لا يجرمون على أن يطئوها ، ويطلقون عليها اسم ليخاس .

أما أنت أيها الإبن العظيم لجوبيتر ، فإنك بعد أن اقتلعت الأشجار من فوق قمة أويتا وسويت منها محرقة . أخذت قوسك وجعبتك الضخمة وسهامها التى ستفتح بها مملكة طروادة ، وقدمت ثلاثتها هدية لفيلوكيتيس بن پوياس^(٨) الذى عهدت إليه بأن يُشعل النار فى محرقتك ، وفيما كانت السنة اللهب النهمة تعم كومة الخشب الحافلة غطيتها بجلد أسد نيميا ثم تمددت فوقها متكئاً برأسك على هراوتك ، وقد بدا على وجهك الهدوء كما لو كنت مضطجعاً فى وليمة مزدان الجبهة بأكاليل الزهور وسط أفداح مليئة بالنبيذ .

٢٤٠ وتأجج اللهب وانتشر فى جوانب المحرقة كلها ثم بلغ أطراف البطل الذى كان يرقبه هادئاً فى استخفاف ، وخشيت الآلهة ما سيصيب بطل الأرض ، فتطلع إليهم جوبيتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً : « إن ما يبدو عليكم من خشية هو متعة لى يا سكان السماء ، إننى أغبط نفسى من كل قلبى على أننى رب شعب يدين بالجميل لمن أحسن إليه ، كما أنى سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابنى فهو جدير بها لما حقق من مآثر عظيمة خارقة ، إلا أن هذا لا يهون من تقديرى لموقفكم النبيل . فلتحرروا قلوبكم الوفية من هذا الفرع الذى لا معنى له ولا تقلقوا لهذه النيران المشتعلة فى أويتا ، فإن هذا الذى قهر الكثير

في قدرته أن يقهر هذه النيران . إنه لن يحسّ سطوة فولكانوس إلّا في هذا الجزء من جسده الذي أخذه عن أمه ، أما ما أخذه عنى فهو خالد في مآمن من الموت ومن عصف النيران . والآن وقد أصبح هذا الجزء لا بقاء له على الأرض فسأرفعه إلى في السماء ، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنهض به ، وإن كان بينكم من يضيق بأن يصبح هرقل إلهاً فهذا لأنه يضنّ على ابني بهذه الجائزة الثمينة ، ولكنه مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير وسوف يؤمن بما فعلت رغم ضيقه به » . وصقّ الآلهة لحديثه ، بل إن ملكة السموات وزوجة جوبيتر سمعت الشطر الأكبر من الحديث دون برّمْ به ، ولم يرتسم الضيق على وجهها إلّا مع الكلمات الأخيرة ، فقد رُئيت غير مرتاحة للزم الذي لمزها به زوجها . على أن إله النار فولكانوس [هيفايستوس] قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار ، فلم يعد من اليسير التعرف على هرقل بما تبقى منه لأن شيئاً مما يذكرّ بأمه لم يبق ولم يحتفظ إلّا بما يحمل من بصيات جوبيتر . وكما يحدث للثنبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق براقه حراشفه الجديدة ، كذا حدث للبطل التريثني إذ تحرّر من غلافه الأرضي الفاني وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته وبدا أعظم مما كان وعلّته هيئة جليلة تدعو إلى التوقير ، وعندئذ رفعه أبوه القدير في سحابة معتلياً عربية تجرها جياد أربعة ، وجعله ينفذ بين النجوم الثلاثة^(٩) .

ألكمينا وجالانثيس

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثقل عما هو معهود ، ومع هذا لم يغمض غضب يوريسثيوس بن سثينيليوس فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل بنفس الحقد الرهيب الذي كان في الماضي يطارد به أباه^(١٠) . واحسّت ألكمينا الأرجوسية في غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلّا يسرى صديقتها التي اختارتها نجية لها في شيخوختها ، ومضت تروى لها مآثر ابنها التي كان العالم كله يعرفها والمآسى التي تجرّعتها . وكان هيلوس نزولاً على ما مره به أبوه هرقل قد أعطى لهذه المرأة اليافعة مكاناً في فراشه وقلبه وأودع رحمها ثمرة سلالة كريمة ، ولهذا حدّثتها ألكمينا قائلة : « أننى أدعوك أن تكون الآلهة بك رحيمة وأن تخفّف الأملك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها ، يوم تدعين الربّة لوكينا حامية الحوامل حين الوضع وقد ساورك الخوف . أذكر كم كانت قاسية علىّ تؤدّد أمنها لجونو حين دنت لحظة ميلاد هرقل الذي كانت ثمة أعمال كبرى سوف يضطلع بها . كانت الشمس تتحرّك في برجها العاشر ، وكان حملى يثقل جنبى ، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف ما كان لجوبيتر من أثر في هذا الحمل المكتون ، ولم يعد في مقدورى أن أحتمل الآمى ، وحين أتحدث اليوم عن ذلك أحسّ الفزع يهتصر جسدى . لقد أصبحت ذكرى الولادة وحدها حتى اليوم موجعة . وبعد أن طال عذابى سبع ليال وسبعة أيام رفعت يدى إلى السماء خائرة القوى من الألم ، وصرخت عالياً منادية لوكينا ومعاوناتها ، وأقبلت لوكينا ، غير أن غريمتى جونو كانت قد رشتها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتي ، فلم تكذ تسمع أنأتى حتى جلست على هذا المذبح القائم على باهى

واضعة ساقاً على ساق ، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهى عاقدة العزم على العبث بمصري ، وصاتت بصوت خفيض كلمات سحرية عوّقت حركة الجنين الذى كان قد بدأ يهّل . وبذلّت جهداً خارقاً ، وكنت خلال شرودى أرمى جويتر بالبحر ، وكم تمنيت الموت بينا أرسل شكاة تلين قساوة الصخر ، وأخذت الأهمات فى مدينة كادموس يتوسّلن إلى الألهة ويشجّعننى وسط الآمى المضنية . وكانت إلى جانبى جالانثيس الشقراء إحدى وصيفائى التى غدت عزيزة علىّ لسرعة تليتها رغباتى ولما كانت تقدمه إلىّ من عون . وقد أدركت أن فى الأمر لمحات من شرور جونو ، ولمحت فى دخولها وخروجها من الباب غير وانية أن الإلهة جالسة على المديح ضامة ذراعيها عاقدة أصابعها على ركبتيها ، فقالت لها جالانثيس : « أنت كاتنة من كنت ، قومى فهنئى سيدتى الكمينى الأرجوسية فلقد خلّصت من آلامها وصارت أما وتحققت أمانيها » . ونهضت الإلهة التى عليها يتوقف وضع كل جنين فزعة وأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رعى وانحدر الطفل فخلّصت من الآمى . ويقال إن جالانثيس استغرقت فى الضحك حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة الفاسية واجتذبتها من شعرها الجميل . وإذا حاولت أن تنهض من الأرض أفسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعيها إلى قديمين أماميتين ، غير أن الفتاة احتفظت بخفة حركتها وتغيّر شكلها دون أن يتغيّر لون ظهرها وغدت تلد من فمها ، إذ كان هذا الفم هو الذى انطلق بالكذب على الإلهة مضللاً لتعين سيّدتها على الوضع ، وهى ما تزال تتردّد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضى [بعد أن تحولت إلى عرّوسة] .

دريوى . يولاووس

وبعد أن فرغت الكمينى من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها القديمة ندّت عنها زفرة ، فقالت لها زوجة ابنها التى أدركت عمق حزنها : « لقد كانت تلك المرأة التى تكيئها يا أمى غريبة عنا لا تجرى فى عروقها دماء أسرتنا ، فكيف بك لو قصصت عليك المصير الغريب لأختى ؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحدث إليك وأنا فى غمرة الدمع ووخز الألم . كانت دريوى وحيدة أمها فقد أنجبني أبى من زوجة أخرى ، وكانت أشهر نساء أويخاليا جمالاً ، وكان الإله الذى يسود دلفى وديلوس قد اغتصبها وافتضّ بكارتها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريون الذى كان يخال أنه سيسعد السعادة كلها بهذا الزواج . وكانت ثمة بحيرة ينحدر ساحلها فى لطف انحدر شيطان البحر ، وعلى أكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان . وقصّدت دريوى هذه البحيرة دون أن يخالها شك فيما سيكون من أمرها . على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أكثر إثارة ، فقد راحت تهدى الأكاليل للبحريات وبين يديها حمل رقيق ، طفل لم يكمل عامه الأول ، كانت ترضعه من لبنها الدافق المشبع . وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس^(١) صنّو المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بأرجوان مدينة صور وقد أذنت بالثمر . جمعت دريوى حزمة من الزهور لطفلها كى يلهو بها ، وأخذت أتبادل معها أطراف الحديث ، وكنت على وشك قطف بعض الزهور كما فعلت فإذا بى أرى فطرات من دم تتساقط من الزهور ، وأشاهد أغصانها تهتز كأنما تسرى بها رعدة . وقد علمنا من

الفلاحين بعد ذلك بوقت طويل أن الحورية لوتيس قد تحولت شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة ، ولكنها مع ذلك لم تغير اسمها .

ولم تكن أختي تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذى يهدد السابلة بتلك الأماكن . وقد رأت أمام ما اعتراها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتي جاءت للابتهاال إليهن ، غير أن قدميها كانتا قد انغرستا كالجذور فى الترى وعلقتا به ، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها ، وأخذ لحاء خشبي يكسو في بطء جسدها من أسفل قدميها إلى الركبتين ، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه ، فإذا يداها قد امتلأتا بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله . وأحسّ أمفيسوس الصغير [وهو الاسم الذى خُلق عليه جده يوريتوس] أن اللبن لم يعد يدرك فاه ، كما تصلب ثدى أمه . شاهدت هذا المصير المروع ينزل بأختي تحت بصرى وما كان يبدى أن أدفع عنها . أختاه ، لقد حاولت ما استطعت أن ٣٦٠ أؤخر بقلاتي زحف الجذع والفروع وكم تمنيت أن يكسو هذا اللحاء . وعندما جاء أندريمون زوج درويو وأبوها التعس يبحثان عنها فلوحت لهما كى يلتفتا إلى الشجرة التى حلّت محل من جاءا يبحثان عنها ، فغمرا بقبلاتهما الخشب الذى كان لا يزال ينبض بالحياة ، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضماها بأذرعهما . أختاه الحبيبة ! لم يبق فيك شيء لم يتحول إلى شجرة ، عدا وجهك وتلك الدموع التى تروى الأوراق المتبقية من جسدك ، ولم يبق منها غير فم ينطلق منه صوتها فى أجواز الفضاء شاكية : « إذا كان ثمة من يصدق البؤساء فأقسم بالآلهة أنى لم آت ما أستحق عليه هذا المصير الرهيب ، فقد حاق بى هذا العقاب دون جرم اقترفته . فكلم كنت نقية طاهرة فى حياتى ، وإن كنت كاذبة فليذبلن عودى ولتسقطن عني تلك الأوراق التى تظلنى ولاهوين تحت وقع ضربات البلطة وليأتين اللهب على حياتى . هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلق فى أغصان الأمومة على أن تعهدوا به إلى إحدى المرضعات ، ولتتيحوا لى أن أراه دوماً ٣٨٠ مضطجعاً فى ظلى ، وليختلف إلى كثيراً ليلهو فى ظلالى . وإذا ما بلغ أن ينطق فعلموه أن يحمينى على أننى أمه وليردّد فى أسى أن أمه يطويها جذع هذه الشجرة ، ولكن فليحذر المستنعات ولتجنب قطف زهور الأشجار وليحترس من لس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات . وداعاً أيها الزوج العزيز ، وأنتما أختي وأبى ، وإذا كنتم تحبوننى حقاً فاحموني من جراح النصل القاطع وأنياب قطعان الماشية ، وإذ كان من المتعذر على أن أنحنى إليكم ، فلتشبوا أنتم إلى كى ألثم شفاهكم مادام فى قدرتكم أن تبلغوا شفتى ، ولعلكم ترفعون إلى طفلى كى ألثمه . وما أنا مستطيع بعد ذلك أن أضيف شيئاً ، فها هو ذا لحاء رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقى الأبيض ، وأخذت قمة الشجرة تطوى رأسى . أبعدوا أيديكم عن عيني فمن العبث أن تمذوا إلى يد العون ، وخلّوا اللحاء الصاعد يغشى عيني المحتضرتين » . وعجز فمها بعد ذلك عن الحديث واختفى من الوجود ، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً بعد أن مُسخت شجرة » .

وبينما كانت يولى تحكى هذه القصة الغريبة كانت ألكمينا وهى تبكى تحفّف دموع ابنة يوريتوس بأناملها ، وإذا بأعجوبة جديدة تقع فتقطع اتصال أفكارهما الحزينة ، إذ رأتا يولاوس واقفاً بالبرابة الشاهقة وقد عاد صبيّاً ثمت على وجنتيه شعرات كالزغب ، فلقد استجابت هيبى [ابنة جونو]^(١٦) ٤٠٠

لتوسلات زوجها هرقل وخلعت على يولاووس قسبات شبابه الباكر . وكانت هيبي على وشك أن تقسم بالآ
تفعل أبداً مثل هذه المكرمة لأحد بعد ، فعارضتها ثيميس قائلة : « إن طيبة على وشك أن تسقط بين برائن
الحرب الأهلية ، ولن يستطيع سوى جوبيتر قهر كاهانيوس . وسيموت أخوان يقتل كلٌ منها الآخر ،
وسيشهد الكاهن أمفياراووس وهو ما يزال على قيد الحياة طيفه بعد الموت عندما تنشق الأرض لتتلقاه ،
وسيثار ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه فيصبح في آن واحد ابناً باراً وأثماً ، ثم يهوله جرمه فيفقد عقله ويُنفى
خارج وطنه ويفرّ تطارده ربّات الانتقام ، ويلاحقه شبح أمه ، وإذا يوم من الأيام تطالبه زوجته كاليرهوى
إبنة إله النهر أخيلووس بالقلادة الذهبية المشثومة التي سيكون معها حنفة ، وكذا سينفذ سيف فيجيوس
والد زوجته الأولى في جنبه إلى أن ينقد الدم من جسده . وبعد ذلك كله ستجثو كاليرهوى ضارعة إلى
جوبيتر العظيم أن يهب الشباب لولديها وهما مازالا في المهد صغيران ، وتسأله ألا يطول بهما الزمن حتى
يأخذاً بشار زوجها الظافر . وهما هي ذى دعواتها تبرز قلب جوبيتر ، فيمنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها
شابين قبل بلوغهما الحلم ، ويهبهما تلك الهبات التي تهبها عادة هيبي [إلهة الشباب] زوجة ابنه هرقل
الساوية وابنته من جونو في آن معاً » (١٣) .

بيليس

ولم يكذب مجرى لسان ثيميس بتلك النبوة كاشفة النقاب عن المستقبل حتى أخذ الآلهة يتناولون
الموضوع بمختلف الأقاويل في صخب ، وإذا هم يهمس بعضهم إلى بعض قائلين : « لماذا لا يكون ٤٢٠
للآخرين مثل هذه المنّة ؟ فشكت إبنة المارد بالاس (١٤) الشيوخوخة التي كانت لزوجها بالمرصاد ، وشكت
سريس إلهة الخصب والحصاد من الشعر الأبيض في رأس يازيون (١٥) ، وطالب مولكيبير [فولكانوس]
لإرخثونوس أن يكون له الحق في أن يبدأ حياته من جديد . وحاولت فينوس أيضاً أن يعود إلى أنخيسيس
شبابه بعد أن ساورها القلق على أيامه المقبلة ، وامتلأ كل إله حماسة من أجل أتباعه ، وتزايد صخبهم
وخلافهم ، ولكن ذلك كله ما لبث أن سكن حين تحدث جوبيتر قائلاً : « أيها الآلهة ، إذا كنتم تكتنون لي
شيئاً من التوقير فأفصحوا لي عن رغباتكم ، وهل من بينكم من يظن نفسه قادراً على قهر القدر ؟ إن القدر
هو الذي أعاد يولاووس إلى السنّ الذي كان قد تخطّاه ، والقدر هو الذي سوف يهب الشباب لطفلي
كاليرهوى لا بالقوة ولا بالخداع . ولكي ترضوا بهذا الناموس بتفوس راضية فاعلموا أننا جميعاً — أنتم
وأنا — رهن القدر ، ولو ملكت تغيير الأقدار لما انحنى ظهر ابني أياكوس تحت وطأة الأعوام ، ولبقى
رادامانتوس يرقل في ريعان الشباب أبداً ، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز (١٦) الذي تهوّن من أمره
شيوخوخته العاتية والذي لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التي أثرت عنه في الماضي » . فسكنت كلمات جوبيتر ٤٤٠
من شكاة الآلهة ، ولم يعودوا يجأرون بالشكوى بعد أن رأوا الشيوخوخة تدبّ في رادامانتوس وأياكوس
ومينوس . وكان اسم مينوس وحده حين كان في ريعان الشباب يلقي الرعب في الأمم الكبرى ، أما الآن

فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديونى المزهو بشبابه وبأبوة فويوس له ، فلقد كان جدّ مقتنع بأن ميليتوس يهدّد عرشه ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آبائه .

على أنك قد هاجرت من تلقاء نفسك يا ميليتوس ، وحملتك سفينة سريعة عبر أمواج بحر إيجة لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسسها^(١٧) ، وهناك عرفت سيان إبنة مياندر الفريدة في جهاها حين كانت تسير في إثر منحنيات ضفاف أبيها الذى كان يتعرّج مرّة ومرّة . وفي هذا الموقع وضعت لميليتوس توأمين هما بيبليس وكاونوس . وفي قصة بيبليس عبرة للفتيات حتى لا يبعدن عن الحب المشروع ، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أبوللو الذى يماثله جمالاً فأحبته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا ، ولم تكن تدرك أولاً كنه عاطفتها ، ولا تمدّ نفسها أئمة حين تغمر أخاها بقبلات متلاحقة أو لأنها تطوّق عنقه بذراعيها ، فلقد عاشت طويلاً في أسر خداع كاذب لعاطفة أخوية ، وشيئاً فشيئاً أخذ حبّها يجانب الطريق السوّى ، فكانت تأتى — حين تفد لزيارة أخيها — في أحسن زيتها حريصة على أن تلبو فاتنة في عينيه ، ٤٦٠ وتحسّ الغيرة حين تمجد إلى جانبه امرأة أكثر منها فتنة . ومع هذا لم تتبيّن حقيقة مشاعرها ، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجج في فؤادها من لوعة . كان الولد يغلى في أعراق قلبها فانبرت تتنادى كاونوس بـ « سيّدها » ، وتتفر من الأوصاف الدّالة على الأخوة والقرابة ، فتفضل أن يناديها بيبليس لا أن يناديها بأخته ، ومع ذلك لم تكن تفسح في نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يقظى ، أما حين كانت تستسلم لاسترخاءة حانية فما أكثر ما كانت ترى محبوبها في منامها ، بل لقد خيّل لها أنها ترقد في أحضان أخيها ، فتعلوها حمرة الخجل مع أنها ما كانت غير غافية في فراشها ، فإذا هرب من عينها النعاس التزمت الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها ، ثم تتأجج نفسها مضطربة الفكر قائلة : « يا لشقائي ! ما معنى هذه الخيالات التى تتراءى لى في هدأة الليل ؟ لكم خشيت أن تتحقّق . ولماذا تراودنى هذه الأحلام ؟ ما أجمل كاونوس حتى في أعين حاقديه وكم أنا به معجبة ، ولو لم يكن أخى لكان بوسعى أن أعشقه ولكان لى خير الأزواج فنكّد طالعى هو أننى أخته . ولكن مادمت لا أحاول أن أرتكب في يقظتى ما يجالبنى في سُبّاتى فكم أتمنى أن تتراءى لى تلك الرؤى لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب ، ثم إن متعتها لا تعود بضرر . أى فينوس ، وأنت يا كيوييد المرافق المجنّب للأُم الحانية يا لها من ٤٨٠ متعة تلك التى تذوّقتها . ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشى ، شعور الاستسلام الذى غمرنى حتى نخاع عظامى ، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت متعّية فيه قصيرة عابرة ، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألّمت به الغيرة من عطيتى . كم أتمنى لو أتيح لى أن أغير اسمى واقترن بك . كم كنت سأصبح كَيَّةً مثلى لأبيك ، وكم كنت ستصبح صِهْرًا كَفْتًا لأبى ! وكم تمنيت لو أن الآلهة جمعت بيننا في كل شيء غير أن نكون من صُلب واحد ! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنت سليل أسرة أنبل من أسرق . ولست أعرف إذن أية امرأة ستجعل منها أما لأبنائك يا أجمل الرجال ، يا من اختارت الأقدار التعميسة لنا نفس الأبوين . فلنكن لى أخاً شقيقاً فحسب ، فإن ما يربط بيننا هو ما يقصم هذا الرّباط ، فما بالى أحلم هذه الأحلام ، وهل لحلمٍ مهما بلغ قيمته ؟ ألا فلتغفر لى الآلهة قولى ؛ فقد يابى الآلهة بشقيقاتهم ؛ فلقد

٥١٠ بنى ساتورن بأوبس مع أنها من أصله الذى ينحدر منه ، كما بنى أوقيانوس بثيتيس ، وبنى سيد الأوليمپ بجونو . حقا لقد فاتنى أن للآلهة سنتهم ، وهل لى أن أسوى بين البشر والآلهة فى نواويسهم التى تخالف نواويسنا فتبيح للأخ أن يبنى بأخته ؟ لسوف أقتلع من قلبى هذا الحب المحرم ، وإن لم أقدر فما أولانى أن ألقى حتفى قبل أن أقع فى الخطيئة ، ثم ما أولانى أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جثة هامدة قبلات شقيقى .

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين ، وإذا افترضنا أننى حزمت أمرى فقد يعدّه هو جريمة ، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم^(١٨) ، ولكن كيف انتهيت إلى هذا ؟ ولماذا تترامى أمامى هذه الأمثلة ؟ وای منزلق أنحدر إليه ؟ فلتنفّس عني أيتها الرغبات المدنّسة ، فكم أنا حريصة على ألا يكون بينى وبين أخى إلا كل ما هو مشروع . ولو أنه هو الذى شغف بى أولاً فلعلّ كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه ، وما كنت أقدر أن أرفض توسلاته لو كان قد فعل . هيا أفصحى يا ببيليس ، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة ؟ بل ، فسيدفعنى الحب إلى ذلك . وإذا لم أستطع وأغلقت الخجل فمى فسأبعث إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبنى .

٥٢٠ وتولّأها الصمت عند هذا ، وإذا فكرتها تلك تخرج بها عن ترددها . ونهضت على جنبها قليلا واتكأت على مرفقها الأيسر وقالت : « لاكشفرّ له عن هذا الحب الطائش ، وعليه هو أن يتخذ قراره ، وأسفاه ، إلى أين يمضى بى هذا البلاء ، وأية نار هذه التى تحرق قلبى ؟ » ويعد أن استقرت على ما ستكتب أخذت تخطّه بيدها المرتجفة . وأمسكت القلم الحديدى بيّمنها ولوح الشمع فى يّسراها ، وإذا هى تردّد بعد أن بدأت ، ثم إذا هى تكتب ولكنها لم ترض ما كتبت ، فطمست وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت . وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها ، وتضعها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد ، وساءها كل ما كانت مُقدّمة عليه ، وامتزجت على وجهها الجراءة المرتسمة بالحياء . ويعد أن خطّت كلمة « أختك » قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت : « إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهى لا ترقب منك إلا السلام^(١٩) . وإن الخجل ، نعم الخجل ، يحول بينها وبين ذكر اسمها . وإذا سألتنى عما أطلب فهو رغبى فى عرض حالى من غير أن يذكّر اسمى حتى لا تتعرّف أنت على ببيليس فى شخصى قبل أن أطمئن إلى أن دعواى باتت مستجابة . ومن الممكن أن تقع على دليل قلبى الجريح فى شحوب وجنتى ونحول جسدى وتعبيرات وجهى وعينى الدامعتين ، وفى الزفرات التى أطلقها دون سبب ظاهر ، وفى ضمّات المتكررة لك ، ثم فى قبلاى التى لا بد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها . ومع ما أحله فى قلبى من جرح عميق ، وبرغم الجنون المشبوب المحتلم فى صدرى فعلت كل ما بوسعى [وأشهد الآلهة على ذلك] لكى أبرأ . وقد جاهدت طويلا وأنا فى مأساى من أجل أن أفلت من سهام كيوييد التى لا ترحم ، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة ، واليوم أجدنى مرغمة على أن أعترف بهزيمتى وأطلب عونك على استحياء . أنت وحلك تستطيع إنقاذى أو القضاء على الفتاة التى تحبك فاخر هذا أو ذاك . إن التى تضرع إليك اليوم ليست خصما لك ، بل هى أقرب ما تكون إليك ، تتلهّف شوقا لتزيد اقترابا منك

ولتتحد معك برباط أوثق . فلنترك للعجائز علم القانون ، فعليهم أن يبحثوا عما هو مباح وعما هو جريمة وعما هو ليس بجريمة ، ولنُخل الجيوب بينهم وبين القانون يفعلوا به ما يَمن لهم ، فإذا قانون فينوس الشجاعة هو الجدير بسنوات عمرنا . ما هو الحلال ؟ إننا مازلنا نجهله ، ولكننا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا في كبار الآلهة أسوة ، ولن يقف في طريقنا شيء ، فلا قوة تعترضنا ، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة تعوقنا ، ولنفرض جدلاً أن هناك ما يدعو للخوف فأى شيء نخشاه ؟ إذ بقدرتنا أن نخفى متعتنا المختلسة باسم محبة الأخ لأخته ، وإذا كنت حرة في أن أبثك سرى خفية ، فما أولانى أن أعانقك وأقبلك علنا . فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه ؟ فلنأخذك الشفقة بهذه التي تقرّ لك بحبها والتي لم تكن لتجرؤ على الصريح به لو لم تغلبها على أمرها تلك العاطفة المشبوبة . ناشدتك ألا يُذكر اسمك على شاهد قبري على أنك المشلول عن موتي . تلك كانت العبارات المرسله هباء وبلا جدوى ، والتي حفرتها يدها على لوح الشمع الذي ضاق بكلماتها ، فكتبت آخر سطر في هامشه ثم ختمت هذه الرسالة التي مهرتها أئمة بخاتمها المرصع بالجواهر والذي بلكته بدمعها [لأن لسانها كان جافاً] ، ونادت خادماً لها والحجل يغمرها ، وقالت له بصوت يشيع فيه القلق والتلطف : احمل هذه الرسالة إلى . . . ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة « أخى » . وفي اللحظة التي قدّمت له الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض ، فاضطربت لهذا النذير ، وعلى الرغم من هذا أرسلتها ، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية .

ولم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى غضب غضباً مفاجئاً وقذف بالألواح التي تسلّمها بعيداً ، وأمسك بيديه التي كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه : « أغرب عن وجهي بأسرع ما تملك أيها الشرير يا رسول العلاقة المحرّمة ، فلو لم يذع موتك عارنا لكان موتك ثمتاً لجريمتك » . ولأد حامل الرسالة بالفرار مذعوراً وأبلغ سيده ما كان من كاونوس من رد رهيب ، وعلا الشحوب وجه بيبليس حين علمت أنها كانت موضع الأزدراء ، وسرى في جسدها كله صقيع وغشيه الاضطراب ، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرح إليها معه ، وبصوت خافت كأنه الهمس قالت : « لقد نلت جزائي ، فما كان أشدّ حمقى حين اندفعت فكشفت له عن قلبي الجريح ؟ لماذا عَجَلْتُ هكذا وسجّلت على الألواح اعترافاً كان حرّاً بي أن أخفيه ؟ لقد كان جديراً بي أن أبداً باختبار عواطفه بكلمات مبهمه لا تورطني . كان ينبغي علىّ كى تدفع الريح سفيني ألا أسلمها إلا طرفاً من الشراع ، وأراقب شدتها فأبحر فوق مياه لا تتهدّدها الأخطار . أما الآن فقد تركت الرياح التي لم أختبر شدتها تدفع بكل أشرعتي ، فالقت بي فوق الصخور أنا وقاري المحطوم وابتلعتنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا للشاطئ . بل لقد حدّرتي قال لا ينبغي من أن أستسلم لهواى ، حين أمرت الخادم أن يحمل الألواح الشمع فأفلتت من بين يدي وهوت بأمنيائى إلى الأرض . أو لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر ، أو أن أنصرف عن هذا الأمر كله ؟ بل لقد كان علىّ أن أستبدل باليوم غيره ، فلقد حدّرتي الإله حين وجّه إلى علامة تحمل ما سوف يقع لو لم أكن سقيمة العقل . وقد كان علىّ أن أخاطبه بنفسى بدلاً من أن أهمس للألواح بسرّى . كان علىّ أن أواجهه فأطلق العنان لعاطفتي المحمومة حتى يلحم دمعاتي ويشهد ملامح

وجهي الذي يحبه . وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بحث به في رسالتي ، ولاستطعت بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعي حتى لو صدني . وعندها كنت أستطيع بينا أنظاها بالإشراف على الموت أن أقبل قدميه وأجنو على الأرض متوسلة إليه أن يمنحني الحياة . كان في مقدوري أن أستخدم وسائل شتى ، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفي لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تلين قسوة قلبه . من يدرى لعل الخادم الذي أرسلته إليه قد أتى خطأ ما ، أو لعله لم يحدثه الحديث اللائق ، وإنني واثقة أنه لم يختر اللحظة المناسبة ولم ينتظر الساعة التي لا تساور فكره فيها الهموم . تلك هي الأسباب التي عاقت تحقيق رغبتي ، فيقينا إن أخى ليس ابن ثيرة ، كما أن قلبه لم يقْد من صخر ولا من فولاذ ، ثم هو لم يرضع في طفولته لبن لبوة . ولسوف أفوز به ، فلأصْد له من جديد دون أن يدفعني نفوره إلى التخل عن مقصدي طالما بقيت تتردّد في صدرى أنفاس من الحياة . وإذا كانت بغيتي في البداية — لو أتيج لي أن أعود إلى ما أقدمت عليه — هي أن أخوض هذه المغامرة ، فقد أصبحت بغيتي الآن — وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت — أن أنتزع النجاح الكامل قسراً . ولو صبح أننى نبذت رغباتي جانباً فما أظنه ينسى أبداً جُرأتى ، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال ٦٢٠ حتى له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة منى لتعرّف ما يحمله لي من أحاسيس لأوقعه في شرأى ، أو على الأقل سيتصور أننى لم أكن مستسلمة لسلطة إله يعتصر قلبى ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهوات . على أننى غير مستطعة آخر الأمر أن أبدو مبراة لم أقترف جرماً كبيراً . لقد تدنّست نياي وما أستطيع أن أدعى البراءة . وما بقى على أن أقوم به لتحقيق آمالى قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يزيد جرميت شيئاً . وكانت كلماتي تعبر عن اضطراب فكرها واضطراب الصراع فيه ، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطية كل ما هو خلقى في محتتها ، معرضة نفسها لامتهان لا ينقطع .

وحين يشس كاونوس من رجوع أخته عن محاولتها معه قرر الفرار من الوطن هروباً من زنا المحارم ، وراح يشيد لنفسه مدينة جديدة فوق أرض غريبة^(٢٠) . وقيل وقتها إن إينة ميليتوس فقدت صوابها فمزقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خديها غائبة عن وعيها ، ثم كشفت علناً عن هوسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وجهها الأثيم ، وهجرت هي الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة ، وتتبع آثار أخيها في المنفى ، متشبهة بعابدات باكخوس على جبل إيسماروس حين يهيهجن ثيرسوسك^(٢١) يا ابن سيميليه ، فيُخين أعيادك التي يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة . وعبرت ببيليس الحقول الفسيحة وهي تصرخ على مشهد من نساء مدينة بوباسوس^(٢٢) ، ومن هناك ساقتها خطاها التائهة إلى بلاد الكارين وإلى الشعب الليليجي^(٢٣) المدبجج بالسلاح ، ومرت بليكي تاركة وراءها كراجوس وليميري ونهر زانثوس والهضاب التي يسكنها الخيميرا ، ذلك الكائن الوحشى الذى ينفث جسده ألْسنة اللهب والذى كان له جلد أسد وذيل ثعبان^(٢٤) .

وأخذت الغابات الفسيحة التي اخترقتها ببيليس تتضاءل في عينيها كلما بُعدت عنها حتى أضناها السير سعيًا وراء أخيها ، فسقطت عظمة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض

الصلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة . وأقبلت الحوريات الليليجيات فحاولن إيقاظها والتخفيف من آلامها وصرفها عن غيها ، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفيتها وظلّت راقدة تمرّق بأظافرها العشب الأخضر وتروى المراعى بأنهار الدمع ، ويقال إن حوريات الماء قد احترقن بجري لدموعها لم ينضب أبداً . وأى هبة خير من هذه كان يمكن أن يقدّمها إليها ! وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللّزج من الترية الحبيّلى به ، وكما يتجمّد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس ، تحوّلت حفيدة فوبيوس التى أنهكها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبتة ببيليس .

إيفيس

وكان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة سكان المدن المائة التى تنتظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فيستوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة ، ولكنه وُلد حرّاً تنكافاً ثروته ومكانته ، وعاش حياته بعيداً عن الشبهات .

وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحبها قائلاً : « إننى أصلى رجاء أمرين : أن تحفّ عنك آلام وضعك ، وأن تُرزق بمولود ذكر ، فإنجاب البنات جمل يثقل على من ضاقت موارده مثل ، على أنى إذا فشلت ضراعاتنا ورزقنا ببنت فسوف أقضى بقتلها [على الرغم مما أكنّه من مشاعر الأبوة . . . ولتغفر لى ذلك] . وبينما هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة ، وقد حاولت زوجته بتوسلاتها المتتالية ألا يضيق الحناق على أحلامها ولكنه كان صلباً فى تمسّكه بنواياه .

وحين بدأت تليثوزا تنوء بحملها ، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها ، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدسة وقد توجّج جبينها بالنّاج الهلالى المرصّع بالسنابل الذهبية تحيط بالصّل الملكى ، فبدت جليلة مهيبة^(٢٥) ، وقد صحبها كلبها أنوبيس العاوى ، والقطعة المقدسة بوباستيس ، وآيس ذو الرداء المتعدد الألوان ، والإله الذى يجبس صوته ويضع أصبعه على شفيتها داعياً إلى الصمت^(٢٦) ، وكذلك مصلصلاتها ، وأوزيريس الذى لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه ، والثعبان الغريب المنتفخ بالسّم المتوّم . وتحدثت الإلهة إلى تليثوزا التى خيلَ إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام ، وقالت الإلهة : « أنت واحدة من أفراد حاشيتى يا تليثوزا فعخّفى عنك قلقك ، ولا تطيعى زوجك فيما أشار به عليك ، ولا تبخلى بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكينا من مساعدتك فى وضعه . أنا إلهة الغوث أقدم العون لمن يتوجّه إلىّ بالرجاء ، ولن يحلر لسانك بالشكوى من أنك لجأت إلى ٧٠٠ إلهة لا تقرّ بالجميل » . ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتها ، ونهضت تليثوزا الكريته من

فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت في منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى أخفت الأمر عن زوجها وأدعت أنه ذكر . ولم تنجبه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلا لمرضعة الطفل ، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس . وسعدت الأم بذلك الاسم الذى يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز فلم تخدع أحداً بهذا الاسم ، وبقي سرّها خفياً بسبب هذا الاسم . وألبست طفلتها ثياب الذكور ، وأحفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تحفه على الآلهة التى باركت خطواتها . وكانت للطفلة قسّات تميز بالجمال الذى يشارك فيه الذكور الإناث . وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزواجها من إيانثى ابنة تيلستيس الكريتي أجمل بنات فيستوس وأكثرهن فتنة وكانت فى سن إيفيس ، تلقياً معاً تعليمهما على أيدي الأساتذة أنفسهم فمَسَّ الحب قلبيهما البريين ، غير أنهما كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين . فبينما كانت إيانثى شديدة الدهفة للزواج من إيفيس التى تحسبها رجلاً وتنتظر فى شوق يوم زفافها إليه ، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلهما لن تستطيع أن تجد إلى بجانبها السعادة ، وكان إحساسها بالضيق يزيدها التصاقاً بالفتاة ، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع ، وتردّد فيما بينها وبين نفسها : « أى مصير ينتظرني ، لقد وقعت فى حبال حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل ، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتى لحتررتى من قبضة هذا الحب ، أما إن شاءت هلاكى فلمْ لمْ تُصِبنى ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له . إن البقرة لا تهم بحب بقرة ، والفرس لا تعشق فرساً ، والنعاج تنجبه دوماً للكبش ، وأنثى الوعل تطارد ذكوره ، وعلى هذا النحو تتزاج الطيور . ولا ينطوى عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها . ليتنى لم أُولد ، غير أنه مقضى أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء . لقد أحببت ابنة الشمس^(٢٧) ثوراً حقاً ، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً . أما حى أنا فهو — لو كشف عنه — أكثر شذوذاً من حبها ، فقد كانت لذة الجسد التى ترقبها هى التى أغوتها ، وقد استطاعت بالحيلة حين تحفّت فى تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذى تحبّه عاشقاً حقاً . غير أنه على الرغم من ومضة العبقريّة التى تمثلت فى تمثال صنعة دايدالوس الذى حلّق فى السماء بجناحين ثبّتهما بالشمع ، فإنه لو عاد ما استطاع أن يفعل لى شيئاً ، ولما استطاعت فنونه السحرية أن تحيلنى من فتاة إلى شاب ، ولما استطاع أن يحيلك أنت يا إيانثى إلى صبيّ . إذن فلتحزمى أمرك يا إيفيس ولتتفضى عنك هذه العاطفة المخبولة الخرقاء ، وواجهى حقيقة الأمر إلا إذا كنت تخدعين نفسك فضلاً عن غيرك ، واستمتعى بما هو متاح للمرأة أن تستمتع به . إن الأمل هو الذى يؤلّد الحب ويغذّيه ، وقد حرمتك الطبيعة كل أمل ، إنك تستطعين معانقة تلك التى تعشقينها دون أن يقف فى طريقك زوج أو أب قاس ودون أن تمنع محببتك . ومع ذلك فلن تكون محببتك ملكاً لك ولن تجدى معها ما يمنحك السعادة معها عاونك فى ذلك الآلهة والبشر . إن شيئاً واحداً فقط لم تحقه لى الآلهة الرحيمة التى استجابت لكل ما رجوت . وهذا الذى أريده ويريده أبى وخطيبتى نفسها والدها تقف الطبيعة حائلاً دون تحقيقه وهى أقوى منهم جميعاً . إن الطبيعة هى سبب بلائى . لقد جاء اليوم الذى كانت دعوات كلها من

أجله واقترب موعد زفافي ، وستصبح إيانثى لى دون أن أقوى على تملكها ، وسأحس الظمأ وأنا وسط المياه ، مالى أراكها هنا يا چونو يا راعية الزواج وأنت يا هيمينايوس^(٢٨) ؟ وماذا تفعلان فى حفل ليس به زوج ، بل نحن فيه زوجتان ؟ . وما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت .

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل ضراوة عن حب إيفيس لها ، وراحت تتضرع قائلة : « مدّ إلى يد العون على عجل يا هيمينايوس » . غير أن تيليثوزا كانت تخشى ما تدعو إليه إيانثى وتؤجل الموعد متصنعة المرض أو متعللة برؤى مقلقة أو بفأل سيء حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع الزفاف الذى تأجل مرات عدة ولم يبق إلا يوم واحد . وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتقة حول رأسها وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها ، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت : « يا إيزيس ، أنت يا من تقطين الباريتونيوم^(٢٩) وحقول مريوط وفاروس^(٣٠) والنيل المتشعب إلى سبعة فروع ، أسرعى إلى نجدتنا . أتوسل إليك أن تمنحنا دواء لآلامنا ، أنت أيتها الإلهة التى رأيتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرفت على حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك ، وحفرت بإخلاص وصاياك فى ذاكرى . إذا كانت ابنتى مازال على قيد الحياة ، وإذا كنت أنا نفسى أحياء فى مأمن من العقاب ، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك التى أدين لك بها اليوم ، فلترفقى بنا نحن الاثنين ، وامنحنا عونك الكريم » . وانساب الدموع من عينيها مع انتهاء دعائها ، وخيل لها أن المحراب يهتز . وفى الحق إن المحراب اهتز كما اهتزت أبواب المعبد ، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بالقمر ، ودوّت جلبة عاصفة ، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه الدقة ، لكنها عدّت ذلك فالاً حسناً وامتلاً قلبها بهجة ، وخرجت من المعبد ومضت مع إيفيس التى اتسعت خطواتها عما كانت عليه من قبل ، وقد فقدت بشرتها نعومتها ، وغدا شعر رأسها قصيراً مصففاً فى بساطة ، وأصبحت قسماً وجهها أكثر صرامة ، ويدت أقوى مما كانت وامتلات نشاطاً قل أن يمتلئ به جسد أنثى ، واستحالت هذه الأنثى الرائعة الجمال فتى فى غمضة عين ! هيا إذن أيها الزوجان السعيدان ، احملا هداياكم إلى المعبد وانعما بالفرحة فى طمأنينة .

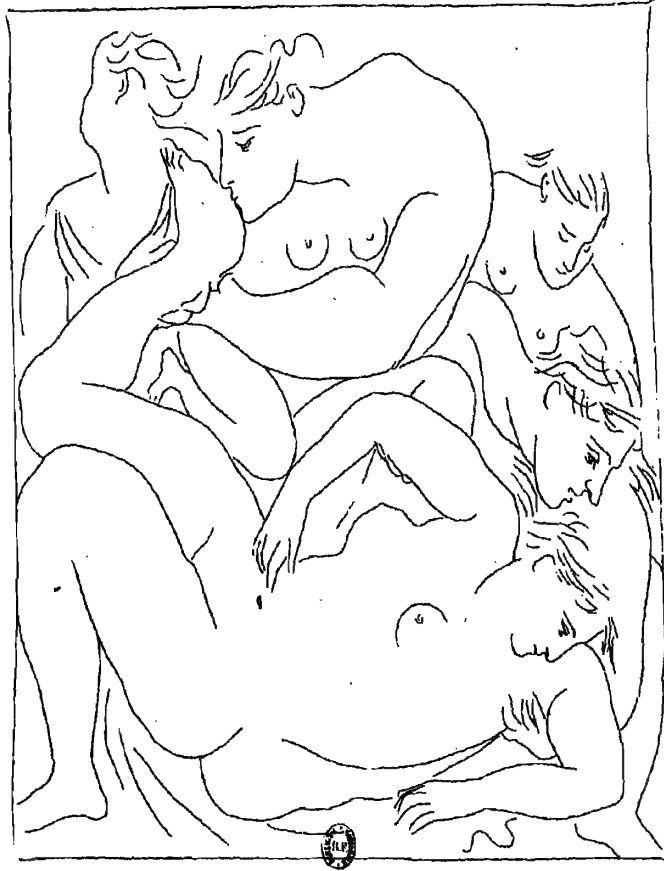
ومضى العروسان هداياهما إلى المعبد ، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول : « ها هو ذا إيفيس يقدم قرباناً نذر بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة ، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح - كما اشتاق - صبيّاً » .

ومع صباح اليوم التالى أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أركان العالم الفسيح ، واجتمع كل من فينوس وچونو وهيمينايوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة إيانثى^(٣١) .

التعقبات

- (١) نيسوس أحد القنطوري وهو ابن إيكسيون أنجبه من الغيامة التي أرسلتها چونو بينها وبين إيكسيون عندما حاول الاعتداء عليها . وقد نال إيكسيون عقابه في العالم السفلى بأن شدته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع .
- (٢) كان هرقل قد غمس سهامه في الدم السام للهدرا الليرناوية . عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الاثني عشر راجع المقدمة التي صُدِّرَ بها د. أحمد عثمان ترجمته لمسرحية سينيكا « هرقل فوق جبل أويتا » (من المسرح العالمي . الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص ١٠ - ١٠٧) .
- (٣) أويغاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها في ثيساليا والثانية في ميسينيا والثالثة في يوبويا . وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أبولو بهذه الأخيرة ، وكان رامى سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته من يقهره في مأواة الرماية ففاز هرقل ، غير أن يوريتوس وأبنائه أبوا تسليم يولى بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد ، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبنائه وأخذ يولى أسيرة .
- (٤) كان للإله جوبيتر معبد على رأس كينايون أو كينايوم إلى الشمال الغربى من يوبويا .
- (٥) تذكر ديانات مصر على يديه انتقاماً لإهانتها لأثالانتا [انظر الكتاب الثامن] .
- (٦) يبدأ أوفيد هنا استعراض مآثر هرقل . وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يقد إلى بلاده قرباناً للآلهة ، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطم قيوده وقتل بوزيريس وابنه وحاشيته .
- (٧) يوريسثيوس هو ملك أرجوس الذى فرض على هرقل القيام بالمغامرات الإثني عشر التى وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة .
- (٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياص أعز صديق لهرقل . وبعد أن عاون هرقل في إعداد المحرقة وعيه هرقل قومه وسهامه . واشترك فيلوكتيتيس في حملة الأخيين ضد الطرواديين ، غير أن ثعباناً أرسلته چونو لدغته في قدمه فتركه وفاقه الإغريق في جزيرة لنوس لاشتمئازهم من رائحة العفن الصادرة عن جرحه . وعندما قال العراف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التى كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسيوس ونيوبتوليموس وديوميديس لإحضاره . ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع .
- (٩) كانت اللحظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات « نساء تراخيس » لسوفوكليس .
- (١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا . إذ حاول يوريسثيوس بعد موت هرقل أن يخطف أبناءه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخيس الذى أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريسثيوس أثينا مطالباً نيسوس بهم إلا أن الأخير هزم يوريسثيوس . وهذه القصة موضوع مأساة « أبناء هرقل » لأوريبيديس .
- (١١) ليس المقصود هو نبات اللوتس العطرى بل المقصود هو شجرة العناب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس . ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء في نص لوفيد .

- (١٢) تزوج هرقل هيبى ابنة جونو بعد أن تحول إلهاً في السماء .
- (١٣) كان أمفيارايوس قد أوصى ابنه الكهايون بأن يشار له فقتل أمه . وقد فقد الكهايون صوابه نتيجة لذلك وظلارته ربات الانتقام كما ورد في « مأساة السبعة ضد طيبة » ، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من الفيسيبيو ابنة الملك وأمهرها قلادة أمه الذهبية . وازداد جنونه بمرور الأيام فقصدها الهاتف الإلهي البيشي الذي أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلوس حيث تزوج كاليرهوى بنت إله النهر التي طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية ، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى ، ولكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة في معبد أبوللو بدلفى . فتضرعت كاليرهوى إلى جوبيتر كي يتيح لابنائها الثار لأبيهم قبل إدراكهم سن الرشد ، الأمر الذي وافق عليه رب الأرباب .
- (١٤) هي أورورا التي مُنح زوجها تيثونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدى . ويبدو أن الصواب قد جانب أوفيد حين نسب أورورا إلى المارد بالاس بينما هي في واقع الأمر وفق رواية هزيودوس ابنة المارد هيبيريون .
- (١٥) ابن جوبيتر من الكترا بنت أطلس ، وكان يحظى بعطف سيريس التي عشقته وأنجبت منه بلوتوس فنضرب عليه جوبيتر وأرسل عليه صاعقة قتله .
- (١٦) مينوس وروادمانثوس وأياكوس أبناء جوبيتر من أوروبا .
- (١٧) مدينة ميليتوس في آسيا الصغرى التي كونها طمس نهر المياندر .
- (١٨) زَوْجُ إله الريح أيولوس أبناءه من بناته الست .
- (١٩) هنا نوع من البلاغة اللفظية ، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة في الوقت نفسه ، وهي تورية قصدها الشاعر .
- (٢٠) أسس كالونوس مدينة باسمه في كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كاليسيس بالقرب من البحر .
- (٢١) الثيرسوس عصا تنتهي بحلقة على شكل ثمرة صنوبر هي صولجان باكخوس .
- (٢٢) بوباسوس مدينة في كاريا شرقي كيتيوس .
- (٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة في كاريا بآسيا الصغرى .
- (٢٤) ذكر هزيودوس أن الخيميرا هي ابنة تيفون وإخيلينا ، ومن ثم كانت أختا للكلب كيريوس وللأفعوان الليرناري . وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافي يرجع إلى أصول شرقية بعيدة .
- (٢٥) روى أولفيد أسطورة ابنة إيتناخوس التي رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [انظر الكتاب الأول] . وتدل الإشارة الواردة في النص على إقبال الرومان على المعانيد المصرية ، والمعروف أن إيزيس كانت تمثل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلها كانت تمثل ليو . وفي وصفه لايو نسب أولفيد سنابل القمع والصل لها كما كانت الحال بالنسبة للالهة والفراحتة عند المصريين القدماء .
- (٢٦) هو حور [حورس] بن إيزيس وقد سَمَّاه الإغريق هارپوقراطيس وصَوَّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه في فمه .
- (٢٧) پاسيفاي زوجة مينوس ملك كريت .
- (٢٨) هيميثايوس هو الإله الجميل راعي الزواج وأحفال الزفاف . وقال البعض إنه ابن أبوللو من إحدى ربات الفنون ، وادعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس وفينوس ، ويصوَّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرحه الزفاف .
- (٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ربما هي مرسى مطروح الآن] وكثيراً ما كانت كلمة « پارتون » تعني المصري أو السكندري لدى الرومان .
- (٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصَلها بطلميوس « المنقذ » بالمدينة وشيَّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة .
- (٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً في فيستوس ، واسم بطل هذه القصة ليوكيبيوس لا إيفيس ، وإن الفضل في تحولها إلى فتي مرثه إلى لاتو لا إلى إيزيس . ويذكر نيكاندر بهله المتماثلة اثنتين تمتعا بنفس القدرة على التحول من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينوس اللاتيني ، وقد ذكر أولفيد أولهما في الكتاب الثالث وثانيهما في الكتاب الثان عشر .



پیکاسو: الأنقى تلذخ كاحل يوریدیکی

الكتاب العاشر

أورفيوس

استجاب هيميناوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكي يشهد حفل زفافه ، فشقّ أجواز الفضاء متلفّعاً بردائه الزعفراني^(١) إلى أن بلغ شواطئ الكيكونيين^(٢) ، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت لا جدوى فيها لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفل سوء الطالع . وقد بدا أورفيوس مقطبّ الجبين لا يعلو

وجهه سيبا البشر وانصرف عن شذو نشيده المألوف ، وكذ فهقت الشعلة التي يحملها وانبعث منها دخان كثيف يهبج دموي الحاضرين وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى . ووقع ما هو أكبر شرًا مما أنبأ به الفال ، فقد اعترضت أفعى طريق العروس وهى تتجول فى المروج بين صاحباتها ولدغت كاحلها فهوت على الأرض جثة هامدة ، فهال ذلك حبيبها الشاعر مُنشد جبال رودوبى وهوى هابطاً إلى عالم الموتى فى جُرة لا حدود لها شاقاً طريقه إلى شاطئ نهر ستيكس عبر بوابة تيناريوس^(٣) كى يحرك أرواح الموتى شفقة ، وأخذ ييوس بين أشباح الأرواح الداوية إلى أن انتهى إلى حيث بيرسيفونى وزوجها اللذان يهيمنان على هذه الأنحاء الممتعة ، وجعل ينشدهما على أنغام القيثارة :

٢٠ « أى إلهى العالم السفلى الذى ستمضى إليه نحن البشر الفانين ، هل لى أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة ؟ ما أتيتُ إلى هنا لأتجول فى دروب تارتاروس الممتعة ولا لأكبل بالأصفاذ كلب ميدوسا المقتصر ذا الرموس الثلاثة والشعر الكثيف المتلبد الذى تنساب بين تلافيفه الثعابين^(٤) ، وإغا أتيت سعيًا وراء عروسى التى خبت جذوة حياتها وهى فى ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت فى عروقها سمها الزعاف . وكم وددت لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزاني باذلاً جهدى لأتلذع بالصبر ، غير أن الحنين إلى عروسى غلبنى ، والحب كما تريان إله له شهرته بين البشر ، وما أدرى هل تكون له شهرته هذه بينكم ، وما إخالكميا يغيب عنكم أمره . وعلى أية صورة كانت الصلة بينكميا قبل أن تتزوجا ، فما من شك فى أن الحب هو الذى جمع بين قلوبكميا ، فبحق هذه الدروب الرهية والمتاهات ، وبحق هذا الصمت المخيم على ملكتكميا الشامسة أضرع إليكميا أن تُعيدا إلى يورديكى الحياة التى فقدتها يانعة ، وإنى لأعلم أن مصيرنا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى هذا المكان وكلنا ماضون إليه ، وأن سسلطانكميا على البشر أبدى لا انقطاع له ، وأن زوجتى سوف تُرد روحها إليكميا شأنها فى ذلك شأن غيرها ، وذلك بعد أن تقضى حياتها المقدورة على الأرض . وما أرجوه منكميا هو أن تهبانى الفرحة بصحبته ، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدها ثانية إلى الأرض فما فى نيتى أن أعود إلى عالم الأحياء ، ولكميا عندها أن تتشفّيا بموتى كما تشفّيتما بموتها . »

٤٠ وفيها كان أورفيوس يتغنّى بكلماته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الساحبة بالبكاء ، وغفل تانتالوس عن متابعة المياه وهى تفلت منه^(٥) ، وتوقفت عجلة إيكسيون عن الدوران ، وأمسكت الصقور عن نهش كبد تيتيوس ، وأغفلت بنات داناوس ملء جوارهن ، واستولى الدهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته^(٦) ، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشدو الحزين فابتلت وجناتهن بالدموع ، ولم يملك حاكم العالم السفلى وزوجته إلا الاستجابة لتوسلاته . ودعيا يورديكى ، فأقبلت من بين الأشباح تنهائى مُثقلة بجرحها ، ومضى أورفيوس الطراقى مُنشد جبال رودوبى بزوجته على شريطة ألا يمد عينيه إليها إلا بعد أن يغادرا وديان أفيرنوس^(٧) حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده .

وانطلقا معاً بين السكون والظلمة يرقبان السفوح وقد خيم عليها ظلام لا تُشَقّ غياهبه ، وحين اقتريا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحس

بلهفة إلى رؤيتها ، فإل يبصره إلى الورا فإذا يوريدىكى التعمسة تعود لساعتها إلى الأعماق ، وهى تمذ ذراعها إلىه ، وعبثا حاولت أن تحملها على الإمساك بها أو أن تتعلّق به ، وإذا ملء كَفّها هوا . وعاجل الموت يوريدىكى ثانية دون أن تلفظ بشكاة ، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها ! ولما همتّ بوداعه تبدّت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه ، وإذا هى تجد نفسها ثانية فى المكان الذى كانت قد خلّفته منذ لحظات .

ومزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموت ، وصار أشبه بذلك الرجل الذى هلع حين رأى كيريروس ذا الرؤوس الثلاثة عمّدا على الأرض مغلول الرأس الأوسط ، ولم يخلص من هلهه إلا حين فقد صورته الأولى وتحول حجرا^(٨) ، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التعمسين اللذين تحولا فى مراعى إيدا^(٩) حجّرين لشنة غرور ليثيا بجهاها ، مما حمل أولينوس على أن يحمل جريرة إثمها على عاتقه ، فإذا هو قد حمل وزرها وغدا من المذنين . وقد حاول أورفيوس أن يعبر نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء ، ولم تُغنّ توسلاته لحارس المعبر كى يأذن له بالعبور ، فبقى مطروحا على شاطئ النهر سبعة أيام لا يذوق طعاما أو شرابا ، يقتات من الحزن والقلق والدموع ، وعاد بعدها إلى جبل رودوى السامق وجبل هايموس الذى يقع فى مهب الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموت .

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النّدىة التى تتم دورات ثلاثا فى العام ، وكان أورفيوس قد هجر حب النساء خلال تلك الفترة كلها ، إما لتلك المأساة أو لعهد قطعه على نفسه . وكم من فتيات كن يتشوّفن للزواج منه استشطن غضبا لتجاهله إياهن ، غير أن أورفيوس أثر أن يقصّر علاقاته على صحبة الفتيان ذوى الشباب الغضّ ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وشبابهم القصير المدى ، فكان أول من جنح بشعب طارقيا إلى هذا السبيل^(١٠) .

كِياريسّوس

وجلس الشاعر سليل الآلهة فوق ربوة منبطحه يغطّيها العُشب وليس ما يُستظلّ به من أشعة الشمس ، ولكن ما إن أخذ يمرك أوتار قيثارته الشاحية وتنبعث منها أنغامها الأولى حتى أقبلت إليه الأشجار بظلالها ، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا^(١١) وأشجار الحور شقيقات فايثون ملتفة حوله ، وستديانة زيوس العملاقة السامقة الأفنان ، وشجر الزيزفون والزان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التى نصنع منها عيدان الرماح وشجر التنوب الأملس وشجر السنديان المثقل بجوزاته وشجر الجميز مكمن الفرح ، وشجرة الاسفندان ذات الأوراق المتباينة الألوان ، والصفصاف الذى ينمو بجوار الأنهار ، واللوتس عاشق الماء ، وشجرة البقس الدائمة الخضرة ، وشجرة الطرفاء النحيلة ، والريحان الثنائى اللون ، وشجرة اللّورة التى تحمل التوت الداكن الزرقة ، والبلاب أيضا جاء يجرّ ذبوله ، والكروم المورقة ، والدردار بين ثناياها ، وشجرة الغبيراء وشجرة الصنوبر الراتنجى ، والفرداد البرى المثقل بالثمار

الحمراء ، والنخيل اللدن الذى يُمنح سفعه جائزة الفوز في المباريات ، وشجرة الصنوبر أعزّ الأشجار إلى سيبيل [كويل] أم الآلهة ذات الأوراق المنتصبة وكأنها معرفة شعناء لجواد ، وذلك أن كاهنها آتيس كان قد استحال من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة^(١٣) . وإلى الجمع الحاشد انضمت شجرة السرو بهيئتها المخروطية التى تذكرنا بحدود زوايا المنعطفات في حلبة السباق ، وهى إن كانت اليوم شجرة ، فلقد كانت من قبل فقى عشقه ذلك الإله الذى يجيد غمز أوتار القيثارة إجمدة شدّ وتر القوس .

واليكم القصة : في سالف الأيام كان ثمة وعلّ بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا^(١٣) برعايتهن ، وكانت قرونة متشعبة تمتد هنا وهناك متألّقة بوميض ذهبي ، وتطوّق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تسدل على صدره ، وتبرق على جبينه تعويذة فضّية مثبتة بأشرطة جلدية رفيعة ، وتتدلّى من أذنيه لآلى وضاعة على صدغيه الغائرين . وكان لا يخالط قلبه خوف ، يدخل على الناس بيوتهم ويداعب الغرباء بمدّ عنقه نحوهم ، وكان كياريسوس أكثر شباب كُوش وسامة هو أقرب الناس إليه وأشدّهم التصاقاً به ، وكان يقتاده إلى المراعى الخضراء والينابيع الثرة ويكلّل قرونة بأجمل الزهور ، ويمتطي ظهره في بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد ، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق يميناً ويسرة بأعنة أرجوانية .

وفي ظهر يوم من أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطئ البحر أحسن الوعل بالإرهاق ، فاستلقى على العشب ينشد الراحة خلال الأنسام النّدية في ظلال الأشجار ، وتراعى لكياريسوس مداعبته فوخزه بحريته المسنونة دون قصد لإذاته ، فإذا الوعل قد جرح وانكفأ يحتضر وهمّ كياريسوس بقتل نفسه ليلحق بصديقه في رحلة الموت ، فأسرع أبوللو إليه يواسيه بأجمل القول ويحاول إقناعه بالقصد في حزنه ، غير أن الصّبي مضى يثن ويتنحب وانجه إلى الآلهة يسألها أن تحقق له رجاءه الأخير وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد . ولم ينقطع الصّبي عن البكاء حتى جفت من عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخضرة ، وبمجد شعره وتشتت بعد ما كان مُرسلاً يتموّج على جبينه الناصع البياض . وغمر الحزن العميق الإله أبوللو فناجى نفسه قائلاً في أسى : « لسوف أظل أبكيك أبداً ، وسوف تظل أنت تلذف الدمع من أجل الآخرين ، وسوف تبقى دائماً رقيقاً لزمرة المحزونين^(١٤) .

جَانِيْمِيدِيْس

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته محرّكاً إبهامه عليها متوسطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسرار الطيور ، حتى إذا اطمانت أذنه إلى أتساق النغمات المختلفة التى يعزفها بدأ يشدو قائلاً : « أمّه ، يا ملهمة الشعراء ، فليكن چوبيتر الذى تتحنى لجبروته جميع الكائنات أول من أستهل به أغنيتي ، وما أكثر ما رويت من قبل عن جبروت چوبيتر ، وما أكثر ما تغنيت بالعالمقة وبالصواعق المدمّرة التى هوت على سهول

فليجرا^(١٥) بنغيات أكثر جلالاً . أما اليوم فما أحوجنى إلى نغيات هائلة توائم قصص الغلمان الذين عشقهم الآلهة والفتيات اللاتي استبدت بأفئدتهم عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالياً .

فقد يماً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريجي . ولكي يبلغ كبير الآلهة ما يريد أثر أن يتخذ صورة كائن آخر بدلاً من صورته ، فاختار صورة ذلك الطائر الذي يطيق حمل صواعقه على جناحيه [النسر] ، وحين استحال إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن خطف ابن إيلوس^(١٦) ، الذي ما يزال إلى اليوم يعدّ كتوس النكتار ليحتسيها چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو بذلك .

هياكيتوس

وكان فوبيوس على وشك أن يمنح هياكيتوس بن أميكلاس منزلة سامية في السماء لو أن الأقدار القاسية قد أرخت له الزمن ليحقق هذه الأمنية ، ولكنه مع ذلك خلد على النحو الذي كان مقدراً له وقتها ؛ فإذا ما جاء الربيع في أعقاب الشتاء ، وإذا ما خلّف برج الحمل برج الحوت التّدى يعود هياكيتوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرة في المروج الخضراء .

لقد منح فوبيوس الصّبي حباً لم يمنحه غيره من البشر ، فهجّر مدينة دلفي صرّة العالم ، وأخذ يمتثل إلى يوروتاس ومدينة أسبرطة التي لا أسوار لها مُغفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة ، ولم يتردد في حمل شبك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكيتوس إلى حواف الجبال الوعرة ، فزادت هذه الصّحبة المستديمة نيران حبه تأججاً .

وفي يوم من الأيام ، وفي اللحظة التي تتوسّط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله الشمس والصّبي عنها ثيابها ، ودلكا جسديهما بزيت الزيتون الدّسم فبدوا يبرقان ، وأخذا يتباريان في قذف القرص العريض . وبدأ فوبيوس فأمسك بالقرص ثم قذف به في الهواء ، فمزّق القرص ببقته خلال مسيرته السحب الكثيفة ثم هوى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة . وشغف هياكيتوس الفتي الأسبرطي باللعبة دون أن يُعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به ، غير أن القرص ما كاد يرتطم بالأرض الصّلبة حتى ارتد إلى الوراء طائراً في الفضاء مرتطمًا بوجهه في عنف . فعلا الشحوب وجه ملك الشمس ووجه الصّبي ، وأمسك الإله بجسد هياكيتوس المتداعى وحاول وقف نزيف جرح الصّبي الدّامي ، كما أخذ يدلك أطرافه لكي يبعث فيها دفء الحياة ، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق جسده بعقاقير الأعشاب ، غير أن محاولات أبوللو راحت كلها سُدى فقد كان الجرح عميقاً لا يجدي معه دواء ، وتدلّى رأس هياكيتوس المحتضر تدلّى زهرة البنفسج في البستان أو زهرة الخشخاش الجامدة أو زهرة السوسن المصفرة البتلات حين ينكسر ساقها فلا يقف شاخاً بل تشنّى قمّته منهذلة محملة في الأرض في انكسار . وخارت قوى الصّبي فاندكّ عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض ، فقال له فوبيوس :

٢٠٠ «ها أنت يا هياكيثوس تقضى نحبك بين يديّ وتفقد عمرك على مرأى مني ، وإن الجرح الذي قضى عليك يؤنّبني معاتباً ، ولكن أية خطيئة ارتكبتها سوى أنني أشركتك في لُعبة ما ، وهل ألام على كلّفى بك ؟ ما أجدرني أن أقضى نحيبي معك ، ولكني لا أملك أن أفلت من قوانين القدر ، ولسوف تظلّ عالقاّ بذاكرك ، وسيبقى اسمك على فمي إلى الأبد ولن يغيب عن فكري أبداً ، وستردّد اسمك أغنيات كلما شدوتُ محرّكاّ أوتار قيثارتى ، وستحوّل أنت إلى نوع جديد من الزهور تعيد إلى الأذهان نحيبي عليك بما تحمله من اسم . وليأتين يوم يرتبط فيه أشجع الأبطال بهذه الزهرة ويُقرأ اسمه على أوراقها .»

وفى كانت الكلمات تنساب من فم أبوللو الذي هدّه الإلهاق ، كان الدم الذي انساب على الأرض ملطّخاً الأعشاب قد تحول إلى زهرة ، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء غير أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان ، وهكذا كرم فوبيوس هياكيثوس إذ حوّلته إلى زهرة . وحين لم يقنع بهذا سجّل أساءه على بتلاتها ، فحملت زهرة الهياكيثوس حروفاً تنمّ عن الحزن كأنها الآهات . ولم تخلج اسيرطة من ميلاد هياكيثوس على أرضها ومازالت تكرّمه إلى اليوم ، وما تزال تجرى الألعاب الرياضية لتكرّمه كل عام ، وتقدم عروضها لوفق العادات القديمة في احتفالات مهية^(١٧) .

الكيراستيس والبرويتيديس

٢٢٠ وإذا عرّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثونتي الشهيرة بمناجها^(١٨) عما إذا كانت قد أنجبت مختارة بنات البرويتيديس^(١٩) الفاجرات لبرئت من هذا الوزر البراءة كلها ، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تنجب أولئك الرجال المسمّين بالكيراستيس^(٢٠) [نسبة إلى القرون التي تعلو جباههم] والذين كان يتصدّر بوابتهم مذبح للإله چويرتر المضياف . ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الدامي لظن أنه قد ذبحت عليه عجول رضية أو خراف صغيرة ، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجرّ فوقه لتكون قرباناً بشرياً . وفزعت فينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة ، وأخذت الإلهة الرقيقة أهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفيسوا^(٢١) غير أنها ترددت وحدثت نفسها قائلة : «أى جرم اقترفته مدّني والمناطق التي أحببتها ؟ وأية جريرة تلك التي آخذها عليها ؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم ، فلما أن يعدّوا نفياً أو موتاً أو عذاب بين بين ، ولم لا يكون جزاؤهم أن يتحولوا إلى صور تختلف عما هم عليها ؟» . وفى كانت آخلة في التفكير في تلك الصور التي تختارها لهم وقعت عينها على قرونها ، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون . وعندما تجاسرت بنات البرويتيديس الفاجرات على إنكار الوهية فينوس غضبت عليهن ، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتي تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة ، وإذا فقدن كل إحساس بالحياء بدأت الدماء تجمد في وجناتهن حتى أصبح من اليسير تحوّلن بعد ذلك إلى قطع صلبة من حجر الصوان^(٢٢) .

بيجماليون

وحين رأى بيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات كره ما أودعته الطبيعة في المرأة من نقائص مردولة وارضى لنفسه حياة العزوية بعيداً عن النساء ، غير أنه في الوقت نفسه سخر منه الرائع في نحت تماثيل عاجي له بياض الثلج وصاغه أكثر حملاً من نساء الأرض ، وإذا هو يقع في غرام ما صنعت يده . وكان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياء يقف به . ما أروع أن تضفى البراعة على الفن لوناً من الأسرار ! لقد انبهر بيجماليون بما صنعت يده وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئاً بهذه المحاكاة لجسد المرأة ، فهم بالتمثال ومضى يتحسسها لا يفتّر ، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه حقاً من لحم ودم ، وبات بعدُ لا يصدق أن التمثال قطعة من عاج فحسب ، فكان حين يقبله يخال أن التمثال هو الآخر يقبله ، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص في لحم يخشى عليه من قسوة أصابعه . وكان يخاطبه مستعطفاً ويحمل إليه الهدايا التي تنهأ بها الفتيات كالأصداف وحمى الشيطان المصقول وصغار الطير ، والزهور المختلفة والكرات الملونة ، وقطرات العنبر المتساقطة من الأشجار التي كانت في الماضي أخوات فايثون [أى الكهرمان] ، ثم كسى تماثيله ثياب النساء ووضع في أصابعه الخواتم ولقّف حول عنقه العقود الطويلة وجعل اللآلئ تتدلى من أذنيه والقلائد على صدره . وكان التمثال جميلاً في حاله عارياً أو كاسياً ، فأضجعه فوق فراش مغطى بنسيج له لون أرجوان صُور ، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسدها ، وسّاه ضجيعة الفراش .

وبدأت أعياد فينوس تقام في أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال ، وأخذت العجول الملتفة القرون الموشاة بالذهب تُنحر على المذابح وتعمل الملتى في رقابها البيضاء ، وبدأ البخور يتصاعد في كل مكان ، وجاء بيجماليون يقدم قربانه ويصلى خاشعاً بجوار المذبح وهو يتمتم : « إذا كان في قدرتك أيتها الإلهة أن تهبى كل شيء ، فهبى لى القدرة على الضراعة إليك [ولم يشجع على أن يصرح برغبته في الزواج من الفتاة التي من العاج بل اجترأ قائلاً] : « امنحني أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية » . وما أسرع ما فطنت فينوس المثقلة بالحلى الذهبي والتي كانت في هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمى إليه من ضراعة ، فكدت في الهواء بالسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وعطفها عليه . وما كاد بيجماليون يعود إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تماثلاً ويميل عليها يقبلها حتى أحس بدفع الحياء يدب فيها ، ومدّ يده يتحسس صدرها فإذا العاج يلين وإذا بشرتها تلين للمس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس^(٢٣) من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه في أشكال مختلفة لأغراض شتى . وذهل العاشق وكان بين فرحة المصديق وشك المرتاب ، وأخذ يتحسس ما كان تماثلاً والذي طالما ضرع من أجله مرآت ويتلّس نبضات عروقه . وما إن استوثق بيجماليون فناناً بـافوس^(٢٤) أن التمثال عاد جسماً حياً حتى لهج بالشكر لفينوس . وانكفاً بهصر بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة ، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاهمرت وجتاتها

خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها ، فإذا هي ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار في آن واحد . وأعدت لها فينوس عرساً شهدته ، ويعد أن اكتمل القمر مرات تسع وضعت عروس ييجاليون طفلاً أسمته پافوس ، وبهذا الاسم سُميت الجزيرة بعد .

مُورِها

٣٠٠ أنجب پافوس ولده سينيراس الذى ترك من ورائه أسرة وليته لم يفعل ، ولو أنه لم يفعل لكان من السعداء المخلدين . وهاكم هذا النشيد المروع : لتعزفن عني أيتها الفتيات ولتأتوا عني أيها الآباء حتى لا تبلغ كلماتي مسامعكم ، وإن بلغتني فلا تصدقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع ، وإذا تراءى لكم أن تصدقوا فلتصدقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء .

وإذا كان قد كُتب على بيثة أن تَشْقَى وَيَشْقَى فيها شعبها ، فما أسعد إسباروس وأسعد بلادنا ببعدها بعداً شامعاً عن تلك البيثة التى ولد بها كائن يستطيع أن يكفر بالمقدسات . وقد تكون أرض پانشايا^(٢٥) غنية بالبلمس والقرفة وعشب الجدوار وأنواع كثيرة من الزهور ، ويفوح من أشجارها عبق الصمغ العربى والبخور ، ولكن ما جدوى هذا كله إذا كانت تنتج المُر كذلك ، تلك الشجرة الجديدة التى لم تكن تستحق ما يُبذل فيها من ثمن باهظ . ثم إن كيوريد يؤكد أن سهامه لم تُصَب «مُورِها» بنُجرح ، ويقول إن التى أصابها بهذا الداء المعبى هي إحدى الشقيقات الثلاث^(٢٦) ، تلك المسلحة بجمرات من نهر ستيكس وبالشعابين المنتفخة الأوداج ، وإذا عدنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة ، فإن عشقها له هذا العشق هو جريمة تُرى على جريمة الكراهية .

ولقد تابع الخاطبون في طلب يدك من مختلف الأنحاء ، وتنافس من أجل الظفر بيدك كل شباب الشرق . ولك يا مُورها أن تختارى من شئت من بين كل الرجال الذين تقدموا لخطبتك غير رجل واحد . وأجست الفتاة بما يجالجه وجاهدت أن تخلص من تلك النزوة التى كانت تتملكها ، وناجت نفسها قائلة : ما هذا الذى يُبلبلُ فكرى . . إننى أضرع إلى آلهة السماء التى تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطرى ما يجالجه ، وأن تحول بينى وبين أن أقترف ما هو جرمٌ حقاً . ولكن أهو حقاً جرم ؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نكته من حب للآباء ؟ إن الحيوان كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده في ذلك ، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها ، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه ، ولا على الجدوى حين يصطفى من سلالته عترته ، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها . ألا ما أسعد الحيوان بما يهنا به ، ثم ما أقسى ذلك الضمير الإنسانى بما يفرض من قيود جائرة حرمت ما أحلته الطبيعة . ولكن لازالت ثمة شعوب يقرن فيها الأبناء بأبائهم والآباء ببنائهم توثيقاً لروابط الحب بينهم^(٢٧) ، ولعل حظى العائر أننى لم أولد في بلد من هذه البلاد ، وعلى الآن أن أدفع ثمن

مولدى هنا . ولكن مالى أسترسل فى هذه الخواطر دون إعمال فكرى ؟ فلا طرح جاهدة تلك الشهوات المحرمة . إن سينيراس جدير بحب البنت لأبيها ولو لم أكن ابنته لتزوجته ، لكنى لا أملك أن أتزوج له لأنه أبى ، وهكذا تصبح صلة القرى بيننا هى مبعث نكيتى . ولو أننى كنت غريبة عليه لتحقق أحلامي فى يسر . ولقد كان من الممكن أن أجد الراحة فى رحيلى من بلدى كى أخلص من الشعور بالذنب ، ولكن حبيبى لسينيراس ورغبتى فيه يقضيان على أن أبقى بجانبه لأملأ عيني منه ولأتحدث إليه ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر . أيتها الفتاة المارقة أنتطلعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك ؟ أتحاولين أن تخطى الأنساب وتخرقى القوانين ، أو تريدان أن تنافسى أمك وتضاجعى أبك فتصبحى اختاً لابنك وأماً لأخيك ؟ أو لا تزهين ربات الانتقام الشقيقات الثلاث تنبت مكان شعورهن ثعابين سوداء تتلوى ، واللاقى يخشى المذنبون السنة اللهب التى يُطلقنها من شعلاتهن وهن يلوحن بها فى عيونهم ووجوههم ؟ فلنأخذى حذرنا ، ولا تدعى الأفكار الأتمة تعشش فى وجدانك مادمت لم تسقطى بعد فى وهلة الخطيئة ، ولا تحاولى انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطاة المروعة . وهى أنك عزمت على أن تقدمى فستجيبين بالحقيقة لأن أباك يعرى روابط الأسرة حق رعايتها ولا يفرط فيها يقضى به العرف . وكنت أتمنى لو أن ما أصابنى كان من مس .

وحين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من الخاطبين لابنته حار ولم يدر ما يفعل ، فأخذ يذكر أساءهم لها ويسألها عمن تختاره من بينهم فلزمت الأميرة الصمت فى بادئ الأمر ، ثم حلمت فى وجه أبيها حائرة اللب وفاضت عيناها بدمع غزير . وخال أبوها أن ما اعترأها من حياء العذارى فأخذ يحفف دموعها ويرتب على كفها لتكف عن البكاء ، وانحنى عليها يقبلها فإذا الفتاة تحس متعة أية متعة ، وسألها أبوها : « أى زوج تختارين ؟ » ففرزت الفتاة وهى نجيب : « زوجاً على مثالك » . وحسب الرجل ذلك منها لونا من ألوان البر ولم يفتن إلى ما تخفى ، وقال لها : « كم أتمنى أن تظلى بى بارة » ، وأحسّت الفتاة خجل الأتمة عند سماعها كلمات أبيها فأطرقت برأسها .

وأوى الناس إلى فراشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم ولكن إبنة سينيراس لم يغمض لها جفن ، وثارت فى قلبها لواعج لا تحمد ، وتملكتها نزواتها الطائشة ثانية . وكانت تستسلم حيناً للباس فتستكين خجلة ، وتتنازعها الجراءة حيناً فتتحرق شهوة . ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة ، فلقد أصبحت أعجز من أن تبث فى أمر طالما عناها وعاشت تحت ثقله ترتجج ، مثلها فى ذلك مثل شجرة ضخمة توالى عليها ضربات البلطة وهى تهتز بمنة ويسرة لا تدرى على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة ، والخطابون حولها يرقبون وقوعها . ولم تر « مورها » خلاصاً لها من حبها إلا فى الموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تنشدها ، فلقت حول عنقها الذى انقطع الدم عن بلوغه أنشودة وأثبتت طرفها فى عتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التلبّل : « وداعاً سينيراس يا من هو أعز الناس عنلى ، وما أظنك شيعيب عنك سرّ موق » .

وبلغت كلماتها سمع مربيتها وكانت ترقد على باب حجرة نومها فنهضت وفتحت الباب ورأت ما أعدته مورها للانتحار فأطلقت صرخة مدوية ولطمت صدرها مزمجة ثيابها ، وبادرت فحلّت الأنشطة الملتفة على عنق الفتاة وهى تبكى ، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسأله عن سر ما همت به ، لكن مورها ظلت صامته تحملي في الأرض حزينة لما فاتها من التخلص من الحياة ولاكتشاف محاولتها الانتحار .

والحّت المربية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها في الانحار ، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت أذناءها الضامرة الذابلة وهى تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها لها في مهدها وبالبن الذي غذتها به في طفولتها أن تسرّ لها بهموها ، لكن مورها لم تفصح عن سرّها وأشاحت عنها بوجهها وهى تئن وتزفر زفرات حارة ، وازدادت المربية إصراراً على تعرّف الحقيقة ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها . وقالت لها : « أسرّي لي بخيلتك أقدم لك عوني ، فلازلت غير متبلّدة رغم شيخوختي ، وإذا كانت ثمة لومة قد ألّمت بك فإني أعرف من يشفيك بالتعاويد والأعشاب ، وإذا كان هناك من مسك سحره بشرّ ففى الطقوس السحرية ما يخلصك من هذا الشرّ ، وإن كان ما بك من همّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرايين ضهان لرضى الآلهة عنك . وليس ثمة شيء بعد هذا ، فإنك تعيشين عيشاً رغداً ناعمة بجوار أمك وأبيك » .

وزفرت مورها زفرة عميقة حين سمعت كلمة « أباك » وما خالت المربية أن في هذه الزفرة ما يثين ، ولكنها أحسّت أنه ثمة غرام عارم هو سرّ شقاها ، وازدادت عزماً على أن تعرف خبيثة نفسها مها كلفها ذلك ، فأخذت تتوسل إلى سيدتها أن تطالعها بأمرها ، وضمت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين تردان وهى تقول لها : ما أعرفنى بسرّك ، إنه الحب يخفق به قلبك ، ولكن لا عليك فستجدينني إلى جانبك دوماً عندما يعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك .

فانترعت مورها نفسها من بين أحضان مربيتها شاردة الفكر ، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهى تصرخ : « أعزّى عني وإني أضرع إليك أن تخليّني وحدي ، رفقاً بي ولا تحاول أن تكسفى خبيثة عارى » . وعندما عادت المربية تلخ ، ثارت مورها قائلة : « إن ما تحاولين أن تعرفينه جرّم فاضح فكفى عما تحاولين » . وهلعت العجوز لما سمعت فارتعت على قدمي مورها ضارعة حيناً بما لها من دالة ومنذرة حيناً بأنها ستتهى إلى أبيها ما اعترمت عليه ، وكانت وهى في حديثها لها تلوح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وفزعها إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تساقط من عينيها على صدر مربيتها . وكم جهدت في أن تفصح غير أن شفتيها لم تنفجراً إلا عن كلمات قاتلتها وهى تستر وجهها بشوها : « ما أسعد أمتي حين ظفرت بأبي زوجاً » ثم تنهّدت ، فإذا المربية يرد الدم في عروقها ، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هولاً . لقد أدركت العجوز ما تخفيه الفتاة فلحذت تحلّوها عاقبة فعلتها الشنعاء .

وما كان عند الفتاة ما تنقضى به رأى مربيتها ، لكن حبها كان عارماً لا يستجيب لنصح ، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً . ورثت المربية الفتاة وأخذت تهون عليها ما هى فيه ،

ووعدها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغى كي تخلّصها من الموت ، ولكنها لم تعرض لذكر الأب ولم تعدها بالظفر به ، غير أن هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة .

وحلّ عيد الإله سيريس الذى تشارك فيه المتزوجات جميعاً ويرتدين لذلك ثياباً بيضاء ويمجلن حزمًا من بواكير سنابل القمح يقدّمها للإلهة ويقضين ليالى تسعاً يُجائِبن فيها الرجال ولا يضاجعن أزواجهن . .
وحين خرجت سنخرييس زوجة سينيراس تشارك الزوجات في هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى جواره ، انتهزتها المربية فرصة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحادثته عن فتاة هائمة به في عُمر مورها فطلب الملك من المربية أن تأتى بها . وما أسرع ما خفت المربية إلى مورها تحمل إليها تلك البُشرى ، ولكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولّاه شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة ، وظلت مضطربة بينها لا تدرى بأبيها تأخذ غير أن شعورها بالفرح كان غالباً .
٤٤٠ . وحين خيم السكون على الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبي الدب الأكبر والدب الأصغر خطت مورها إلى الإثم ، فإذا القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه ، وإذا النجوم تغشّيا سحب كثيفة سوداء ، وإذا الليل تحمد جدوة فحاته ، وكان أول نجم ولّى هونجم إيكاروس ، وولّت في إثره ابنته النجمة إريچونية التى لم تبلغ منزلتها في السماء إلّا لحبها الطاهر لأبيها . ولقد تعثّرت مورها المسكينة في طريقها مرات ثلاث ، وكانت البومة في كل عثرة تعثرها تحذرنا بنعيقها الكئيب ، غير أن مورها لم تلق لذلك بالا ولم تستمع لوخز ضميرها ومضت تمسك ببسراها يد مربيته وتلمس بيمينها طريقها وسط الظلام الدامس إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت الباب إلى حيث يرقد بخطى ثقيلة وهى شاحبة الوجه قلقة هلعة ، وإذا شعور بالندم يكاد يردّها عما أقدمت عليه ، ولقد همت أن تفعل وهى لم تستب أمراً بعد .

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها ، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيب وأسلمته الفتاة قائلة : « ها هى ذى لك يا سينيراس » ثم تركت الاثنين وحدهما . وضم الرجل إليه فلذة أحشائه على فراشه الدنس ، وأخذ يهدئ من روعها ويطمئنها واثراً أن يناديها « يا ابنتى » لعلّوسّه ، وإذا هى الأخرى تناديه « أبتاه » ، وهكذا اجتمع الاسنان على أمر محرّم .

وغادرت مورها مخدع أبيها وفى أحشائها نطفته ، واستقر فى رحمها الدنس حملٌ دنس هو الجنين الذى كان ثمرة الخطيئة . وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما ، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التى ضاجعها مرات عدة ، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبين فى ضوءه وجه ابنته ، وإذا هو تترامى له بشاعة جريمته ، وتولاه جنون فنهض إلى سيفه ينتزعه من غمده المعلق ، فهزّلت مورها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقق ، تضرب فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول بانشايّا .

٤٨٠ . ولقد شهدت مورها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة ضربت فيها على غير هدى ، وأدركت بلاد سبّا بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوى على احتمال ثقل حملها ، وأجست نفسها موزعة بين رهبة

الموت والنفور من الحياة . ولم تعرف ماذا تسأل الآلهة أن تحققه لها فأخذت تدعو : « أيتها الآلهة إذا كنتم تصفون لصراعة المذنبين فإنى أعترف أننى جديرة بهذا المصير ، وما أرضانى بما يلحقنى من عقاب صارم ، لكنى غير راغبة فى أن أدنس الأحياء ببقائى بينهم ولا الموتى بذهابى إليهم ، وإننى أتوسل إليكم أن تذهبوا بى بعيداً عن مملكتي الموت والأحياء ، وأن تمسخونى كائناتاً آخر تمتنع عليه الحياة والموت معاً . » ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقها وتنشق أطراف أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس فى الأرض ، وإذا هى ساق شجرة شائخة ، وإذا عظامها تخشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحول دمهإ إلى عصارة نباتية ، وأصبحت ذراعها غصوناً ممتدة وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجف جلد لها وغدا لحاء طوى رحم الفتاة بما فيه كما لف صدرها ، وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها فى طيات اللحاء ، ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مَرَّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعد ، وحملت اسم المَرَّة .

٥٠٠ وبلغ الجنين مبلغه وهو مكون فى جوف الشجرة ، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة ، وكم عانت مورها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة ولكنها لم تملك أن تفصح عما تحس ، كما لم تملك أن تنزع إلى الإلهة لوكينا لتأخذ بيدها فى وضعها . وأحست الإلهة لوكينا بشجرة تتلوى وتنبعث عنها زفرات متصلة وتندى بفيض تلك الدموع المنهمة ، فحفت تعين الشجرة فى محتتها ومسحت بيدها عليها وهى تتمتم بتعويدة الوضع ، فانشق الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ ولید قد أهل ، وأسرعت الحوريات يتلقين الطفل ووضعه فوق العشب الغض بعد أن غسلنه بدموع أمه . ولقد كان الوليد فى جمال كيوييد الذى يبدو عارياً فى لوحات المصورين ، ليس ثمة من فارق بينها غير جعبة السهام التى يحملها كيوييد حتى أن ربة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .

أدونيس وقينوس . أنالاننا وهيبومينيس

٥٢٠ ومرت الأيام فى تعاقبها وما بالى بها احد فما أسرع ما تمضى السنين ، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذى يقال إن أخته أنجبته من جدّه ، والذى كان خبيثاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب . وها هو ذا يصبح شاباً ، ثم ها هو ذا صار رجلاً يفتن بجماله قينوس ويتقم منها لما أشعلته فى أمه من شبق . فلقد تصادف أن اقترب كيوييد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه قينوس ليقبلها فإذا هو يחדش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يطل من جعبته ، فدفعت قينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذى لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه . غير أن افتتانها بجمال الشاب [أدونيس] أنساها رعاية شيطان جزيرة كيثيرا^(٢٨) ، كما لم تعد تردد كثيراً على جزيرة پافوس ، تلك الجزيرة التى كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ، ولا شبه جزيرة كينيدوس^(٢٩) الغنية بالأسماك ولا على أماتوس الحبلى بالمعادن ، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضلت صُحبة أدونيس على السماء .

وأصبحت فينوس رفيقة أدونيس تصحبه أين ذهب ، وهجرت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجهاها وزيتها ، وانطلقت تجول في الغابات والجبال مشمرة ثيابها إلى ركبتيها على غرار ديانا إلهة الصيد . وأخذت فينوس تستحث كلاب الصيد وتطارد الحيوانات السهلة الفئس كالآرانب البرية السريعة العدو والغزلان والوعول الشاحنة القرون ، لكنها تجنبت الخنازير البرية الوحشية ، ولم تحاطر بالتعرض للذئاب المتلصصة والدببة الحادة المخالب والأسود التي تحيا على دماء البهائم ، وحرصت على نصيح أدونيس باتباع نهجها محذرة إياه من الوحوش ، مؤملة في أن يقصى إلى نصحها ، وقالت له : « كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفر منك ، ولا تأمن الحيوانات التي تتصدى لك . ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو نعسة بعدك يا فتى الحبيب . لا تعرض للكواسر التي زودتها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تشوف إليه من مجد ، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذى يفتن فينوس أثر على الأسود والخنازير البرية المشبعة الشعر ، فهذه لا تذلج الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البرى كالبرق في انقضاضه بمخالبه ، كما أن الأسد إذا أثير يتوثب دوماً للهجوم . لشد ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات » .

وتساءل الفتى عن سر كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : سأقص عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجريمة التي حدثت منذ أمد بعيد . ها هي فئ شجرة حور يدعوننا ظلها الوارف أن ننفاه فلاضطجع تحتها إلى جانبك ، فإن ما أبذله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابنى بالإرهاق » . وتعددا على العشب ووضعت هي رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها وهي تبادل القبلات :

« لعلك سمعت نبأ الفتاة التي كانت تنافس الرجال في العدو وتبز أكثرهم مهارة . وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتانالانتا^(٣٠) تسبق الرجال جميعاً ، ولم يكن من السهل معرفة سر الإعجاب بها ، أكان لحفة قدميها في العدو أم لسحر جهاها الفريد . وقد استشارت يوماً أبوللو في أمر زواجها ، فقال لها : « لست يا أتانالانتا بحاجة إلى زوج ومع ذلك فلن تغلتي من الزواج ، وسوف تتحولين إلى كائن آخر دون أن يدركك الموت » . وتولاها خوف من هذه النبوة فلجأت إلى الغابات تحيا في ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : « لن أتزوج إلا بمن يسبقني في العدو ، فلتباروني وسوف يظفر بيدى ويفراش عرسى من يتقدمنى ، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة . تلك هي شرعة السباق » .

ولم يحجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق ، فقد كان سلطان جمال أتانالانتا طاغياً يجتذب الكثيرين ، وجلس هيومينيس وسط المشاهدين يربق هذا السباق غير المتكافئ وينحى باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً في سخرية : « كيف يرضى رجل أن يعرض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة ! غير أنه ما كادت تقع عيناه على وجه أتانالانتا وجسدها يعد أن أزاحت عنه غلاظه [ورأى قوامها مثل قوامى أنا فينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدت امرأة] حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه : « فليغفر لى أولئك الذين أنحيت عليهم باللائمة منذ حين ، إذ لم أكن

أعرف قدر الجائزة التي من أجلها يتبارون . واتصل اطراؤه للفتنة حتى تحول إلى افتتان بها ، وتمنى ألا يسبق أتالانتا أحد من الشبان فقد أثارت فيه الغيرة خوفاً من أن يفوز بها غيره ، وقال لنفسه « لم لا أجرب أنا الآخر حظي في السباق ؟ فإن الآلهة تناصر الجسور غير الهَيَّاب » . وانطلقت الفتاة بخطوات مجنحة تطوى المسافات أمام الشاب البويوي كأمضى سهم من سهام سكوثيا فزاد إعجابه بها . ولقد زادها السباق فتنة إذ تطايرت في الريح أربطة حذاءها خلف قدميها ، وتموج شعرها فوق كتفيها العاجيين ، وحفظت الشرائط المطرزة التي تزين ساقها ، واكتسى بياض بشرتها العذرى بحمرة قانية كيباض جدران الممر المغطاة بغلالات قرمزية في فناء دار رومانية . وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتالانتا بقصب السبق ، وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب يتزل بهم . وعلى الرغم من أن هيبومينيس شهد مصرع المتسابقين القاصي فإنه تقمّم إلى الأمام وتوسط الجمع وحلق في الفتنة قائلاً : « لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين بلوغه في يسر ، ولماذا تحاولين التغلب على منافسين ثقيل الخطى وهم على غير ذُربة كاملة ؟ فلتتبارع معاً فإن كتب لي الخط النصر فلن تحسّ بالخجل من هزيمتك أمام رجل في مثل منزلي ، فأنا ابن أونخيستيوس من ميجارا سليل نبتون وآخر أحفاد ملك البحار ، وليس إقدامي أقل شأناً من تحدي ، أما إذا كان الظفر من نصيبك أنت بعلى هيبومينيس فسوف تكسين مجدّاً وتعمّ شهرتك الأفاق .. » والتفتت إليه ابنة إسخوينيوس في حنان ، ولم تعد تدرى أتمنى فوزها أم هزيمتها أمامه ، وحذّنت نفسها قائلة : « وهل من إله يتنكر لصاحب هذا الوجه الجميل فيغيره بطلب يدي حتى ولو كان في ذلك حظه ؟ ما إخالني أهلاً لهذا ، وإنني لأحس برعشة تخالج قلبي من أجله ليس مبعثها جماله رغم ما له من سحر يهز القلب بل لأنه ما يزال فتياً شبابه الغض لا جماله هو الذي يثير شفقتي ، ثم إنه شجاع لا يهرب الموت ، كما أنه من أفراد الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار ، وإلى هذا كله فهو يجبني ولا يبخل عليّ بشئ ليظفر بالزواج مني ولو كان ذلك الثمن عمره إذا لم يسعفه القدر بالفوز . ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان ، ولتأ عن سرير زفافي الملطّخ بالدم فما أقساها من شروط تلك التي فرضتها لزواجي . ولسوف تمجد غيري من الفتيات راغبات فيك وأنت جدير بإعجابهن . ولكن مالي أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت والخطب يعينك ولا يعينني ، ولتلق جزاءك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة ، وقد يكون موتك من أجل رغبتك في الحياة معي ، ولكن هل يكون هذا جزاء حبك لي ؟ ولسوف يثير موتك بغض الآخرين لي ، ولكن ما جريرو ؟ هلاً عدلت عن السباق للظفر بي ، فما أشدّ نزقك ، فكم هي جميلة قسمائك النضرة التي تشبه قسماآت الغيد الحسان ، لبتك لم ترفي يا هيبومينيس المسكين فما أحقّك بأن تحيا ، ولو أني كنت من المحظوظات ولم يقف القدر حجر عثرة في سبيل زواجي لكنت أنت الرجل الوحيد الذي أسعد به شريكاً لحياتي . ولم تدر أتالانتا الغيرة التي لا تجرّ لها ما حدث لها بعد أن مسّتها سهام إله الحب للمرة الأولى ، فلقد وقعت دون أن تدرى في شرك الغرام .

٦٤٠ واحتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد ، فقصدني هيبومينيس سليل نبتون يطلب العون وهو يقول : « إنني أضرع إليك ياربة كثيراً أن تعينني في مغامرتي الجسورة ، وأن تؤجّجني في قلبي نيران

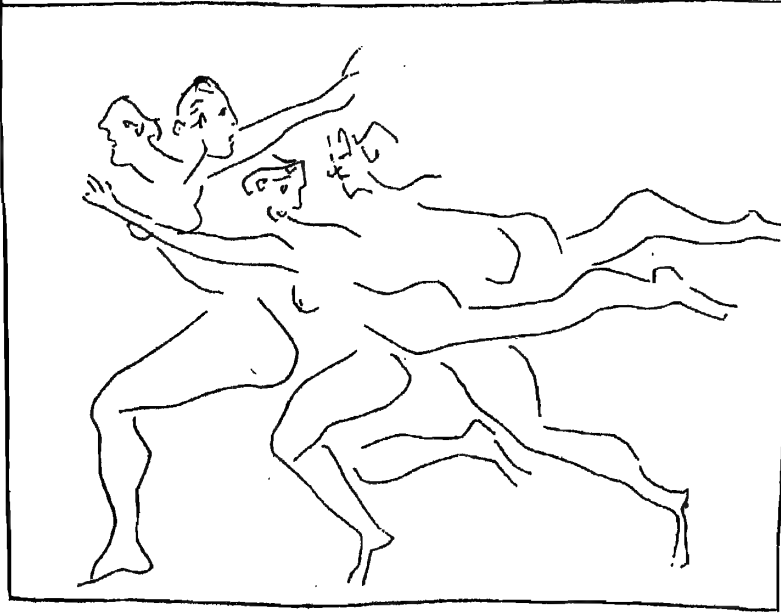
الحب التي أشعلتها أنت فيه » . وحملت الأنسام الرقيقة ابتهالاته إلى ومست قلبى فلم أتردد في مد يد العون إليه ، وكنت ساعيتها آتية من أجل بقاع جزيرة قبرص ، من حقل تلماسوس الذي أهدها لى شيوخ الجزيرة لينضم لمعبدى ، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن . وكنت أعمل فى يدى ثلاث تفاعات ذهبية من تفاع هذه الشجرة ، فأسرعت إلى هيبومينيس مخفية عن الجميع إلا عنه وحده وأعطيته التفاعات الثلاث ، وهمت إليه بأمر طلبت منه تنفيذه .

وآذن البوق ببداية السباق ، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مسرعين لا تكاد تمس أقدامهما سطح الرمال ، فبدوا وكأنهما يستطيعان الجرى فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما ، أو فوق أعواد القمح المنتصبة دون أن تنثنى ، وامتلا الفتى جرأة وسط صرخات النظارة الذين كانت قلوبهم معه فانبروا يشنون من أزره ويصيحون به : « فلتسرع يا هيبومينيس وتبذل أقصى جهدك ولأنت الفائز » . ولعل ابنة إسخوينوس كانت أكثر سعادة بهذه الصيحات من ابن ميجارا البطل . وكم من مرة تباطأت أتلاننا عنه وهى قادرة على سبقه ، تطيل النظر إليه قبل أن تخلفه وراءها على مضض .

وأخذت شفتا هيبومينيس تمهقان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والمهدف لا يزال بعيداً ، فدفع بإحدى التفاعات الذهبية الثلاث فأخذت الفتاة ببريقها وتوقفت ذهلة ، ثم انحرفت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاع الذهبية اللامعة مشغوفة بها . فانفسح المجال أمام هيبومينيس لكى يتقدم الفتاة فدوت أكف النظارة بالتصفيق ، واضطرت أتلاننا لمضاعفة جهدها لتعوض ما ضاع ، وقد نجحت فى أن تسبق الفتى وتخلفه وراءها . ومرة ثانية نجح هيبومينيس بصرفها عن الطريق بإلقاء التفاع الثانية ، غير أنها نجحت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاع الثانية . وبقي الشوط الأخير ، وأخذ الشاب يتضرع صائحاً : « أيتها الإلهة ، يا من وهبتي هذه الهدية ، كوني الآن فى عونى » ، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاع الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبذل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق ، واضطربت الفتاة وحارت فى أمر هذه التفاع ، ألمجرى وراءها أو تتركها ؟ غير أن فينوس دفعها وراءها . وحين التقطت الفتاة التفاع زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها ، وهكذا حاقت الهزيمة بأتلاننا فتزوجها هيبومينيس بعد أن كتب له النصر عليها .

غير أن الشاب النزق أنسى ما فعلته له الإلهة فينوس ولم يتجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور ، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه وأقسمت لتجعلن منه عظة للآخرين حتى لا يسلكوا مسلكه ، ولتنزلن بها العقاب معاً .

وبينا هيبومينيس وأتلاننا يمران إلى جوار المعبد المتوارى فى أعماق الغابة والذي كان إخيون^(٣١) الشهير قد نذر إقامته لأم الإلهة ، كان الجهد قد بلغ منها بعد أن قطعاً مسافة طويلة على الأقدام ، فأحسا رغبة فى أن يأويا إليه فيستريحاً قليلاً فإذا فينوس تحركت فى هيبومينيس الرغبة لمضاعفة زوجته ، وإذا هو ينزوى بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الخفاف له قدسيته منذ عهد بعيد ويجمع



بيكاسو: سباق أتلانتا وهيبومينيس

كثيراً من تماثيل الآلهة الخشبية . واستسلم هيبومينيس لرغبته ، وإذا هو قد دُئس المحراب ، وإذا التماثيل تزوّر عنه بوجهها . وكادت أم الآلهة كوييل ذات التاج المتعدّد الطوايق أن تفرق الأثمين في مياه ستيكس ولكنها رأتة جزاء دون ما يستحقان ، ورأت أن تغشى رقبتيهما بشعر أسود وأن تبدلها عن أصابعها مخالب ، وأن تحيلها حيوانين يعتمدان على صدريهما ، ومدّت لهما ذيلين ينسحبان على وجه الرمال ، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقطوب ، وجعلت حديثهما عواء ، وأسكتتهما الغابات التي أصبحت مأواهما الوحيد إذ قد أصبحا أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس . غير أن كوييل ما لبثت أن روضتهما فشدّتهما إلى مركبتها فباتا يقضمان شكيمتيهما . فحذار يا حبيبي العزيز أدونيس أن تقرب منها ، بل عليك أن تفرّ منها كما تفرّ من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التي لا تولى هاربة بل تهاجم من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سبباً في هلاكنا نحن الاثنين .

وحلّقت فينوس في الأجواء منطلقة بمركبتها التي يقودها البجع بعد أن حلّرت أدونيس ، غير أن الشجاعة لا تجدي معها التحذيرات ، فلقد لمح خنزيراً برياً كانت كلاب الصيد قد اقتضت أثره وأثارته من جحره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه المتدلّي ، فلدّب الذعر في قلب أدونيس وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه وعرض فخذيه قريباً من خصيته بنابه فتلوّى فوق الأرض محضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنأت أدونيس أسباع فينوس التي لم تكن مركبتها الخفيفة بيجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص فادارت طيورها البيضاء واتجهت إليه ، ولمحته عن بعد يتمرغ في دماته فاقد الوعي . وقفزت من مركبتها إليه وشقت ثوبها عند صدرها وشدت شعر رأسها ، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لمثل هذا الفعل العنيف وانبرت تلووم الأقدار وصاحت فيها قائلة : « لا ، لن يخضع لكن كل شيء . وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد . وسوف يمثل كل عام مشهد موتك يذكر بما كان فيه من نواحي^(٣٢) عليك . ولتنبئن زهرة من دمالك . لقد استطعت يا بيرسيفون أن تحولى امرأة إلى شجرة نعان عطرة ، فهل ألام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم صورة جديدة ؟ » .

وصبت فينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمسه حتى غلى الدم وتصاددت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشفافة فوق المياه المصفرة في الأماكن الموحلة . ولم تكد تمضى ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة في لون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفى بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها ، وهى زهرة شقائق النعمان^(٣٣) .

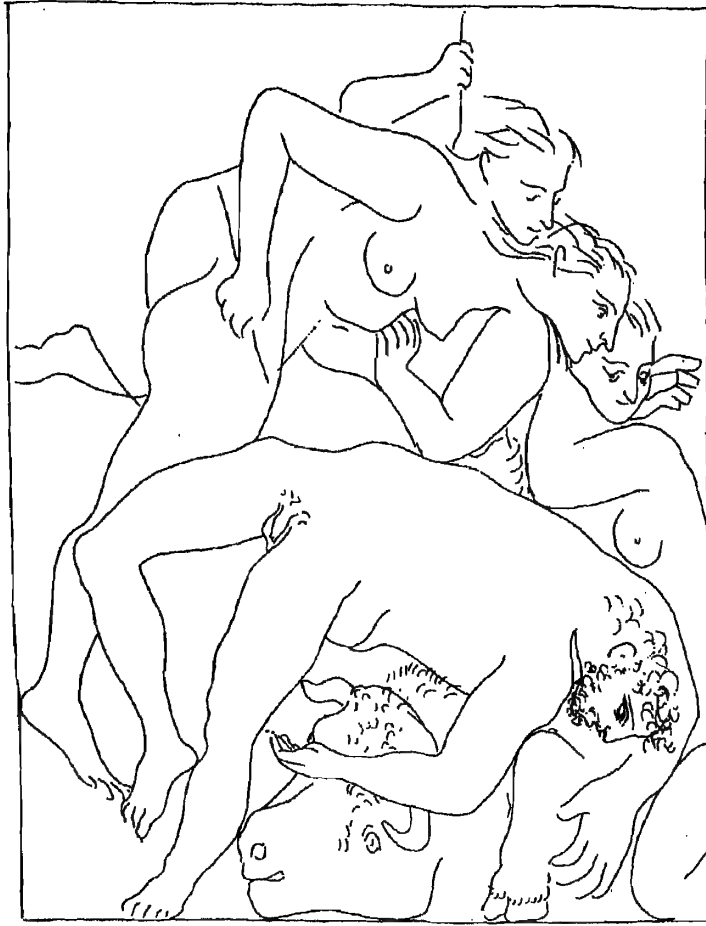
التعقيبات

- (١) كان الزعفران هو لون الطرحة التي تتلفح بها العروس عند الرومان والمسماة «فلاميوم» ..
- (٢) اسم شعب طراقي يقطن شواطئ نهر الميبروس .
- (٣) بوابه تيناريوس هي إحدى بوابات العالم السفلي ومكانها برزخ تيناريوس المسمى الآن برزخ ماثابان بالمورة .
- (٤) هو الكلب كيريروس .
- (٥) تانتالوس بن جوبيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك لبيديا ، صوره الشعراء من قديم الزمن بأنه قد عوقب على سرقة كلبا كان يحبه جوبيتر حيا شديدا ، وقيل إنه عوقب على سرقة للنكتار والأمبروزيا من على مائدة الآلهة ، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه بيلوس وطهى جثته طعاما للآلهة . وثمة رواية أخرى بأنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام جوبيتر المحبب معاشرة شاذة . وكان عقابه بالعالم السفلي أن يظلم ظمأ شديدا وهو واقف في بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقته فإذا ما قرب من فمه انحسر الماء ، كما علقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التي تبعدها الريح كلما حاول قطعها .
- (٦) كان سيزيفوس شقيقا لأثاماس وسملونيس وابنا لأبولوس والحورية ليناريتا واشتهر بأنه أخبث أمراء عصره . تزوج من مريوس بنت أطلس وأسس مدينة إيفيرى التي سميت كورنثوس فيما بعد . وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتدائه التلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنايمه . وقال البعض إن جوبيتر هو الذي عاقبه ، لأنه عندما مرض مرض الموت توسل إلى زوجته ألا تدفن جثته بعد موته فلما ذهب إلى العالم السفلي سمح له الإله بلوتو أن يعود إلى الأرض لكي يعاقب زوجته على تهاونها في تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور ، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد . فأرسل بلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلي رغم أنه ، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادي فيعود إلى دفعها من جديد فلا توقف . وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسي الوجودي أسطورة سيزيفوس عنوانا لكتاب فلسفى عن عبث الحياة ولا معقوليتها .
- (٧) دخل أورفيوس العالم السفلي عن طريق بوابة تيناريوس وهى كهوف في جنوب المورة ، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أفرينوس بجوار كوماى في إقليم كامبانيا بإيطاليا .
- (٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل ، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلي حاملا الكلب كيريروس .
- (٩) لا يعرف شيء عن أولينوس إلا أنه مؤسس إحدى مدن أخايا التي تحمل اسمه ، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التسعة فقير معروف . وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة في عهد أوفيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور .

- (١٠) يتغنى أوفيدوس بعد ذلك مباشرة بحب الآلهة للخلجان جاني ميديس وهياكتيوس وكياريسوس .
- (١١) خاؤونيا إقليم في إبيروس على شواطئ بحر أيونيا .
- (١٢) سجل أوفيد هذه الأسطورة في الكتاب الرابع من « التقويم » ، وهي أن كويل قد أحبت الشاب الفريجي آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التي ترعاها والتي انتقمته من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يعض ذاته ، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمي لكوييل . وقد اقترنت عبادته في روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ ق.م . وكانت شجرة الصنوبر هي شجرته المقدسة وتلعب دوراً هاماً في مقوس عبادته ، ويذكر أوفيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .
- (١٣) كارثيا مدينة في جنوب جزيرة كوس .
- (١٤) كان شجر السرو وما يزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان هذا الشجر يزرع حول محارق الجثث .
- (١٥) كانت سهول فليجرا هي الميادين الذي كتب النصر فيه لجوبيتر على العالقة . ويقول البعض إنها في خلقودونه بأسيا الصغرى في حين يعتقد البعض الآخر أنها قريبة من مدينة كوماي في جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غربي نابلي حتى اليوم باسم السهول الفليجيرية .
- (١٦) تنسب بنوة جاني ميديس عادة إلى ترويس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء في نص أوفيد .
- (١٧) كان يحتفل بأعياد هياكتيوس في شهر مايو بمدينة أميكلاي في لاكونيا على مقربة من أسبرطة .
- (١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهي مدينة في جنوب شرقي قبرص اشتهرت بمجدد الإلهة فينوس ربة الجزيرة .
- (١٩) البروييتيليس هن بعض نساء قبرص عن تمرّدن على الإلهة فينوس فقضت الإلهة بأن تولد بناتهن إلى الشواطئ لاحتراق الدعارة مع الغريباء . وقيل لإنهن قد مسخن أحجاراً لاستهترهن بكل شعور بالفضيلة .
- (٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوى قرون . ومرة ذلك إلى أن كلمة كيراستيس معناها ذو القرون . وقد لُقبت الجزيرة بهذا اللقب بسبب كثرة تنوءاتها وألستها في البحر .
- (٢١) أوفوسا وتعني جزيرة الأقاصى ، وهو لقب أطلق على جزر عدة في البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوفيد هو الشاعر الوحيد الذي أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسائها الأصلية .
- (٢٢) انفرد أوفيد بين الشعراء بقص هذه الأسطورة التي تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات في معابد فينوس .
- (٢٣) هيميتوس جبل باليونان مشهور بعسله حتى اليوم .
- (٢٤) پافوس اسم لمدينة تقع في الجنوب الغربي لجزيرة قبرص ، وقد عرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .
- (٢٥) اسم لجزيرة خرافية بالبحر الأحمر ، تصور أوفيد أنها اليمن أو طرف شبه الجزيرة العربية التي اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .
- (٢٦) هن ربات الانتقام « فوراي » ، ألكتر وميجيرا وتيسيفوى .
- (٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بخته وخاصة بين الفراعنة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .
- (٢٨) جزيرة على شواطئ المورة مكرسة للإلهة فينوس .
- (٢٩) اسم مدينة في جنوب مقاطعة كاريا على طرف شبه الجزيرة التي تحمل اسم كنيديوس في آسيا الصغرى ، وكانت فينوس ربتها .
- (٣٠) يشير إلى أتالانتا بنت إسخونيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلطون بينها وبين بنت ياسوس التي تحمل الاسم نفسه وبطلة اقتناص الخنزير البري في كاليدون [انظر الكتاب الثامن] . أما إسخونيوس فكان من أصل بيريوي وهاجر إلى أركاديا . والقصتان تدور أحدهما في أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللبس .
- (٣١) كان إخيون أحد العالقة الذين ولدوا من أسنان التين التي نثرها كادموس على الأرض [انظر الكتاب الثالث] ، وقد ساعد إخيون كادموس في تشييد طيبة باليونان وتزوج بابته أجافيه فأنجبا بتيثوس .

(٣٢) كان يحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر في بيبيلوس ببغايا إلى أن انتشرت في أنحاء العالم الإغريقي . فكانت النساء يلتفغن حول تمثال ممّدة لأدونيس على محفة الموت يُشعن ويكبن معبرات عن حزنهن ، وقد وصف ثيوكرطوس واحدة من هذه الحفلات بالإسكندرية في إحدى قصائده الرعوية . وكان البعث يلى موت أدونيس ، هذا البعث الذى أمر به جوبيتر بناء على التماس فينوس . وكان يحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يحتفل بذكرى موته . ويقال إن أدونيس كان يقضى بعض شهور كل عام في العالم السفلى بجوار بروسيرينا [بيرسيفون] التى عشقته ، ثم يخرج إلى فينوس ليقضى معها بقية العام . وتعتبر هذه الحرافقة عن أطوار المحسوبة في الكون وتعاقب الفصول والمواسم .

(٣٣) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيمون » وهى مشتقة من كلمة أنيموس التى تعنى الريح .



پیکاسو : موت أورفيوس

الكتاب الحادي عشر موت أورفيوس

وتغنى الشاعر الطراقي بأغان تَسَحَّرُ الصخور والغابات وتروّض الحيوانات الأبدية ، وأطَلَّت عليه نساء كيكونيا^(١) المجدوبات من فوق قمة تلّ وهو ينشد على أنغام قيثارته ، وصاحت إحداهن وشعرها

بتطايير في الهواء : « ها هوذا من يستخف بنا » وسدّت حربتها^(٢) إلى فم الشاعر الذي يهيم به أبوللو ، غير أن الحرية لم تصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار . وألقت أخرى عليه حجراً كبيراً فسقط عند قدميه مأخوذاً بجبال غنائه وشده قيثارته دون أن ينال منه وكان لسان حاله يعتذر عن حق من قذف به ، وتوالت قذائف النسوة وقد تولّتهن ثورة الغضب المحموم . ولقد كان من الممكن أن يطيش ما قذفن به بسحر أغنيات أورفيوس ، ولكن صياحهن الصاخب وأنغام الناي الفريجي والبوق المقوس والرق ولطم الصدور قد غطى ذلك كله على صوت أورفيوس وقيثارته ، وسرعان ما نزع دم الشاعر الأعزل وأخذ يصيح الحجارة بلونه القرمزي . ٢٠

وأصاب قذائف النساء الطيور العذينة والأفاعى التي كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته ، كما أصابت الحيوانات الأخرى التي خفت لتستمتع لغنائه . وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينما يلمحن طير الليل يخلق بينهن ، أو كمجموعة من الكلاب تطارد غزالاً ، يلقي بعضهم بالحجارة وبعضهن بأغصان الأشجار التي انتزعنها . وأثار تجمعهن الخوف في نفوس الفلاحين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرقوا أرضهم ويفلحونها بفؤوسهم ومعاولهم ومدّاتهم^(٣) . وأسرع النسوة نحو القنوس فمزقن بها الثيران التي تهتدهن بقرونها ، ثم اتجهن نحو الشاعر فتوسل أورفيوس إليهن أن يتركنه لكنه فشل في استدرا عطفهن ، وسدّن إليه ضربة قاضية فخرجت روحه من بين شفثتي اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر ومضت روحه تحملها الرياح . ٤٠

انسابت دموع الحزن من مآقي الطيور والوحوش والصخور والغابات الكثيفة التي كانت تتبعه حيث يفتى ، وتساقت أوراق الأشجار التي أخذت تبكي الشاعر وغدت الفروع عارية ، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدموع وفاضت بها ، كما مزقت الحوريات شعورهن وارتدين ثياب الحداد السوداء . وتناثرت أعضاء الشاعر في أماكن مختلفة ، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللذين طُفيا على الماء . عَجَباً ! لقد بقيت القيثارة تُصدر أليحاناً شجية ، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالغناء والنهر يردد صدى أنغامهما . وما لبث الرأس والقيثارة أن اندفعا إلى البحر الفسيح حتى بلغا شاطئ جزيرة ليسبوس قرب ميثمنا . فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغريب المطروح على الشاطئ والمغطى بشعر خالطه زبد الموج الأبيض ، وأوشكت الأفعى أن تلتهمه لولا أن ظهر أبوللو وحوله إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بفم الأفعى المفتوح . ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلى ، فتعرّف على الأماكن التي سبق له رؤيتها ، وظل يبحث عن زوجته يورديكي حتى وجدها فعانقها في شوق الملهوف . وأخذا يتجولان معاً ، يسبقها مرة ويتبعها أخرى ، ويطلق إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً . ٦٠

وحزن باكخوس أعمق الحزن على الشاعر العذب الأليحان ، ولم يشأ أن تمر جريمة قتله دون عقاب ، فثبّت نساء طراقيا في الأرض إذ غرس سيقانهم في أعماق الثرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة ، فأصبحن كالطير شدّت قوائمه في الشراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيد فإذا هو يزيد إحكامه كلما زادت



پیکاسو: موت اورفیوس [رسم اِشاق]

٨٠ حركته . وقد انتاب النساء الذعر وأصابهن الجنون وهن يحاولن الخلاص دون جدوى ، وكان ثبات أقدامهن في الترى يجمدُهنَّ عن أن يتحركن ، وأخذت كل منهن تمد يدها لتحسّس قدميها وأصابعها وأظافرها فإذا هي لا تجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقبها الجميلتين ، وجعلن يضربن أنفساهن فإذا هي الأخرى قد صارت خشب بلوط ، فتولّاهن أسى عميق . ولم تلبث أنداوهن وأكتافهن أن تحوّلت إلى جذوع أشجار وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة ، ولم يكن ذلك وهماً طاف بخيالهن ، بل كان حقيقة مفزعة .

ميداس

لم يكتف باكخوس بذلك ولم تهدأ نفسه فهجر طراقيا مصطحباً معه ثلة من أتباعه المعريدين ، ليزور كروم [جبل] ممولوس التي يؤثرها ونهر باكتولوس الذي لم يكن قد سال ذهباً بعد ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين . وسهر على خدمته حشد من كاهناته والساتير غاب عنه سيلينوس ، ذلك أن فلاحى فريچيا كانوا قد ألقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنحاً لشيخوخته وفعل الخمر به ، فقيّده بسلاسل من زهور واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذى كان أورفيوس الطراقى وليومولپوس الأثينى من بعده قد لقناه أسرار عقيدة باكخوس ، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفى للإله وشريك له في الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالي . وفي اليوم الحادى عشر عندما كان « لوسيفر » نجم الصباح يهدى قطيع النجوم إلى ما وراء السهاء مضى الملك إلى ليديا مُشرق النفس ، وردّ سيلينوس إلى راعيه وحاميه الفتى .

١٠٠ وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مرشده سيلينوس ورأى أن يكافئ ميداس ، غير أنه أعطاه حرية اختيار ما يشاء ، ولكن اختيار ميداس لسوء حظّه كان ينطوى على ما يكمن فيه شقاؤه ، إذ قد ولى وجهته إلى الإله قائلاً : « هَبْنِي قدرة على أن أحول ما ألسه إلى ذهب أصفر » . وإذا الإله يأسى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محققاً له مشيئته ، فانصرف الملك الفريچى سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يطمئن نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب . وما لبث ميداس أن دهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غصن فإذا هو يتحول إلى قضيب من الذهب ، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهج بلون ذهب مُنطفئ ، ثم لس حفنة تراب فاستحالت كتلة ذهب ، كما تحولت سنابل القمح الجافة في يده إلى خُصّابٍ من ذهب ، كذلك استحالت التفاحة التي اقتطفها من غصنها تفاحة من ذهب تحسبها هدية من الهيسبريدس . ولم يكد يلمس أعمدة قصره حتى تحولت هي الأخرى ذهباً براقاً . وحزن هم بغسل يديه تحوّلت قطرات الماء التي فسى كفّه شؤبوا من ذهب كفيلاً بإثارة شهوة داناي ، وتجاوز الخيال ما كان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً . وامتلات نفسه فرحاً بقدراته الجديدة وجلس إلى المائدة التي حلها الخدم بأطيب ما تشتهيه النفس من طعام ، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحولت إلى

١٢٠

معدن صلب ، ولم يكد يطبق أسنانه على قطعة لحم حتى وجدها تنطبق على قضيب ذهبي ، ومع رشفات النيذ كان السائل يتحول إلى ذهب سائل بين شفتيه .

فإذا الشقاء يهصره في هذا الثراء الطارئ وأحس بثقل وطأة المأساة ؛ ولم تعد له أمنية غير أن يُحرّم تلك القدرة ، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما غناه ، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب . وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت ، فتضرّع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً : « أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة ، لقد أخطأت ، وما أنذا أضرع إليك أن ترجئني وأن تحرّرنى من هذا البلاء الذى كان بدءاً بشير خير » . وتحرك الخبر الكامن في أعماق الإله — كما هم طبيعة الآلهة القادرين — حين اعترف ميداس بخطئه وردّ إليه طبيعته الأولى ، وقال له : « امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذى غمّيته بحماقتك ، وسر على شاطئ النهر المتدفّق [باكتولوس] بجانب مدينة سارديس العظمى^(٤) واصعد في اتجاه مضيقه عبر مرتفعات الشيطان حتى تصل إلى المكان الذى ينبثق فيه ماؤه في دقات كبرى يغطيها الزيد ، فاعمس رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك » . ومضى الملك ١٤٠ فامتسل عند منبع النهر ، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكست بلون جديد ، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبي صلبة الثرى لتشرّبها مياه النهر .

ورُهِد ميداس في الثراء ، وراح إلى الغابات يتخذ منها سكناً متعبداً للإله بأن المقيم بكهوف الجبال ، غير أن حماقته ظلت تلازمه فورطته في بلاء جديد . ذلك أن بان قد وقف عند جبل تمولوس الشاهق الذى تشرف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيبياي^(٥) الرثة الحال من ناحية أخرى ، ووقف يزهى بين الحوريات اليافعات بمواهبه الموسيقية ويفاخر بقدراته التى تفوق قدرات أبوللو في عزف المصفر المصنوع من قضبان الغاب المتلاصقة بالشمع ، ورأى أن يبارى أبوللو في مباراة غير متكافئة ، محتكماً إلى جبل تمولوس^(٦) ، فجلس المعجوز على سفح جبله جلسة القاضى ليقضى بين المتبارين ، وأزاح الأشجار بعيداً عن أذنيه غير أوراق لشجر البلوط تكلّل شعره الأسود ، وعناقيد جوز البلوط تدلّى فوق صدغيه الغائرين ، والتفت إلى إله القطعان قائلاً : « إن قاضيكم ١٦٠ على أهبة الاستماع » . وعزف بان على مزماره الرعوى لحناً أثار إعجاب ميداس الذى كان قريباً من المكان . بعدها التفت تمولوس إلى فوبيوس إله الشمس فتلفّت الغابة كلها معه ، وكان أبوللو قد كلّل شعره الذهبى بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس ، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صور ، وهمل في يده قيثارته المطعّمة بالعاج الهندى وبالأحجار الكريمة ، وأمسك بيمنه ريشة العزف وانطلق يحرك أوتار قيثارته بأنامل خديقة ، فانتشى تمولوس ودعا بان إلى الإقرار بهزيمة مزماره أمام قيثارة أبوللو^(٧) .

وقد سلّم الجميع بحكم إله الجبل عدا ميداس الذى لم يسلم به لمجانبته للعدالة ، مما أغضب أبوللو فأصرّ على ألا تبقى أذن ميداس الحماقوين على حالتها البشرية ، فأطالها وكساهما بشعر رمادى خشن ، ومنحها القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك . وبقي جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحولتا إلى أذن جحش ثقيل الخطو .

ونحجل ميداس لهيئة تلك الزرية فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه ، غير أن الحلاق وهو يقصّ شعره الطويل كشف عن هذا السر المخجل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرقه شوقاً لذلك . وحين ضاق بكتمان الأمر حفر حفرة في الأرض وهمس فيها بسرّ الأذنين اللتين رأهما في رأس سيده ثم أهال التراب على الحفرة وسوأها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه ، وخلّأها ومضى هادئ البال ، وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب مكان الحفرة . ولم يتنقّص عام حتى كان الغاب قد نما واستطال ، وأخذ يذيع السرّ الذي خبّاه الحلاق ، وينبئ بتحوّل أذن ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوادعة ، مكرراً الكلمات نفسها التي أسرّها إليه الحلاق .

لاووميدون . هيزيونيه

انطلق أبوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله تمولوس مرتحلاً عبر الأجواء ، وبعد أن تلبّث عند مضائق هيلليه « هيليسپونت »^(٨) بنت نيفيل هبط على سهول طروادة حيث شاهد معبدآ عتيقاً لجوبيتر ربّ الرعود في بانومفايوس^(٩) إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى اليسار من شبه جزيرة رويتيا المحاطة بالمياه العميقة ، وأبصر بالملك لاووميدون إلى جوار المبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة ، وهو ما كان يتطلب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصيّة ومصاعب جمة . فتنكر أبوللو في زي آدمى وأخذ في مساعدة طاغية فريجيا مستعيناً بإله البحر المتدفّق حامل الصولجان ذى الشعب الثلاث وربّ الهوات التي تثير العواصف ، ووعد الملك الفريجي بقدر من الذهب لقاء معونته . ولما اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعده ، فقال له ربّ البحار : « لن تمضي جريمتك بغير عقاب » ، ودفع البحار كلها تجاه شواطئ طروادة المتعطّشة التي أصبحت كالبحار فغطت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأمواجها الغاتية حقول الفلاحين وبيوتهم . ولم يقنع الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه ابنة الملك لتقديمها قرباناً إلى وحش من وحوش البحر ، غير أن هرقل هرع إلى الأميرة هزيونيه حين شلت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها ، وطالب بالجياد التي وعده بها لاووميدون مكافأة على صنيعه^(١٠) ، ولما لم يظفر بها اعترّم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التي انهارت متداعية للمرة الثانية . وقد رفض تيلامون الذي اشترك مع هرقل في إنقاذ هزيونيه أن يرحل دون أن يظفر بما هو أهل له من تكريم ، فنزل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها ، أما ييلئوس^(١١) الذي كان قد مدّ يد العون إلى هرقل هو الآخر فقد كرم بأن تزوج إلهة فأصبح جوبيتر بذلك حمّاً وجداً في آن واحد ، وبذلك لم يغد الإنسان الأوحّد الذي ظفر بأن يكون حفيد جوبيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحّد الذي اتخذ من إحدى الإلهات زوجة ، وإليك ما حدث :

ييلئوس وثيتيس

كان پروتيوس العجوز قد أفضى إلى ثيتيس بهذه النبؤة : « قضي القدر عليك أن تكوني أمّاً يا إلهة البحار ، وسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى ينافس أباه بطولته وبيزّه ، ويصبح في أعين

البشر أعظم منه قدراً . ولذلك حرص جوبيتر على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتي من صلبه من يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور في أعماقه من لهفة جامحة ، آذناً لحفيده بيليوس بن إياكوس أن يتزوجها ويسعد بضمّ عذراء البحار .

وكان في هايمونيا خليج تمتد ذراعه المنحنيان مثل ذراعى منجل ، ولولا ضحالة مياهه — إذ الماء ليس غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال — لأصبح مرفأً مختاراً ، وكانت سواحله جامدة لا تتعثر الأقدام عليها ولا تترك بها آثاراً ولا تنبت بها طحالب . وكانك ثمة غيضة من شجيرات الأس ذات ثمار مختلفة الألوان يتوسطها كهف لا يُعرف إن كان من صنع الطبيعة أم من صنع الإنسان ، وإن كان الراجح أنه من صنع الإنسان . وكانت ثيتيس دائمة التردد على هذا الشاطئ فتتجرد من ثيابها وتمتطي ظهر درفيل ، وذات مرة رآها بيليوس وهي مستغرقة في سبات عميق ، فدنا منها محاولاً في رفق اكتساب ودّها ، لكنها صدته فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها قهراً ، وكان على وشك أن يحقق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة ، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفّف من قبضته ٢٤٠ عليها ، حتى إذا أحالت نفسها ثمرة مخطّطة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها ، وراح يصبّ قربان النبيذ فوق مياه البحر تكريماً لآلهة البحار مُتَقَرِّباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كي تتيح له الزواج من ثيتيس ، فصعد إليه عراف كارپاثوس^(١٢) من أعماق البحر قائلاً : « لسوف تظفريا ابن إياكوس بالعروس التي تتمناها إذا أمكنك أن تغافلها وهي في الكهف الصخري وتشدّ وثاقها وهي غارقة في النوم خالية البال مما يُدبر لها ، وعليك ألا تنخدع بعشرات الصور التي تتمثل فيها الإلهة واشدّد قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى » . وغاص پروتيوس في الماء وغطت الأمواج آخر كلماته . وكانت الشمس تمضي بمركبتها في منحدر الأفق مقترية من بحر هسپريا [بحر الغرب] ساعة اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخري تضطجع على حشيتها المألوفة ، وانقضّ بيليوس على الحورية وأمسك بجسدها العذرى بقبضتيه القويتين ، وسرعان ما بدأت في تحويل شكلها ، غير أنها تبيّنت أن أطرافها غدت أسيرة وأن ذراعيها بقيتا مبسوطتين ٢٦٠ على جانبي جسمها ، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له « ما من شك أنك قهرتني بمعونة السماء » ، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقي ، فاحتضنها بيليوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم .

بيليوس لدى كيّكس

وعاش بيليوس سعيداً بزوجته وولده ينعم معها بحياة ملؤها الرفاهية والرخاء ، ولم يذق الشقاء إلا حين قتل أخاه فوكوس وطُرد على أثر ذلك من دار أبيه^(١٣) ، فالتجأ إلى بلاد تراخيس^(١٤) التي كانت تحيا في سلام تحت حكم كيّكس بن لوسيفر نجم النهار الذي ورث عن أبيه تالق وجهه ، والذي كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه . وقد وصل ابن إياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر ، ودلف إلى

المدينة في صحبة بعض الرفاق بعد أن ترك قطعانه في واد ظليل عند أسوار المدينة . وحين أذن له الملك بلقائه قدم له غصن زيتون وكشف له عن نفسه غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جرم وعيًا كان سبباً لنفيه ، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً في عاصمته أو في مملكته ، وأجابته الملك قائلاً في رقة : ٢٨٠

« إن بلادى تفتح ذراعيها لجميع الوافدين عليها يا بيليوس ، وتتيح لهم العيش في هناء ولا تضر عداء للغرباء فتلك شيمتنا ، وما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجؤك إلينا حتى نرحب بك بما يليق بجلال الاسم الذى تحمله لاسيما وأنت حفيد جوبيتر ، فلا تهجد نفسك توسلاً ورجاءً ، فلسوف تحظى بما تطلب ، ولتعّد كل ما تراه هنا ملك يديك ، وإننى لأتمنى أن تنعم هنا بأفضل مما نعمت به في حياتك السابقة » ، ثم أجهدش الملك بالبكاء فسأله بيليوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق فأجابهم قائلاً :

قد تظنّون أن الصقر الذى يحيا على اقتراس ضحاياه ويثرى الرعب في قلوب الطير كان يخفق بجناحيه المريشين منذ وُجد ، وليس هذا بصحيح ، فلقد كان أولاً رجلاً غليظ القلب يدعى دايداليون تواقاً إلى الحرب مندفعاً إلى العنف ، وكنت وإياه ابنين للنجم الذى يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها . وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأرعاه حتى لزوجتى ، كان أخى يجد متعته في إثارة الحروب وقهر الدول والملوك بشجاعته التى أصبحت تبعث الرعب في أسراب الحمام بمدينة تيزي^(١٥) . وقد وُلدت لدايداليون ابنة أسماها خيوى ، وكانت فريدة في جمالها عما جعل العشاق يتراحمون حولها منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها . وذات يوم رآها مصادفة كلٌّ من أبوللو وميركوريس ، وكان أولهما عائداً من دلفى وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقها في غرامها معاً لحظة رآياها . وبينما أرجأ أبوللو الظفر بها حتى يحنّ الليل أسرع ميركوريس ولس وجه الفتاة بعصاه التى تصيب من تمسّته بالنعاس فراحات الفتاة في سبات عميق واستسلمت بين ذراعى الإله القويّتين ، ثم أقبل أبوللو متخفياً في زى امرأة عجوز أثناء الليل الذى انتثرت في سماءه النجوم ، واستمتع بالفتاة التى سبقه ميركوريس إلى الاستمتاع بها . ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيوى توأمين أحدهما من الإله المجنّح القديم وهو أوتوليوكوس ، ذلك الطفل الماكر المطبوع على ضروب الخداع والمدرّب على إحالة الأسود أبيض والأبيض أسوداً مما جعله شبيهاً بأبيه في سعة الحيلة ، وثانيهما من أبوللو وهو فيلامون ، ذلك الطفل الذى ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته في العزف على الفيثارة .

٣٢٠ ترى ماذا أفاد خيوى أن تضع توأمين أو تكون موضع إعجاب إلهين ، أو تكون ابنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرعود ، أولاً يجرّ المجذّ الكوراث أحياناً ؟ فكم جرّ المجذ من ويلات على كثير من البشر وكانت تلك التعسة من بينهم ، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزهو بجملها وإزدراء جمال ديانا ، فغضبت الربة أشد الغضب وصاحت فيها : « ليأتين اليوم الذى تقرّيننى فيه على أعمالى » . وأمسكت بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاوّل عليها فشقّته فأصابه العي ، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها ، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دماها ، وأحسست أنا بالشقاء بينا أضّمّمها بين ذراعى ، وأخذت أواسيها بقلب محزون ، وأبثّ أخى الحبيب الذى كان يغمز ابنته بخنانه كلمات

عزائي ، غير أن الوالد المكلم الذي انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلماتي إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطئ هدير الأمواج ، وقد حاول مرات أربع أن يلقي بنفسه وسط هيب المحرقة حين رأى النار تشتعل في جسد ابنته لولا إمساكتها به ، غير أنه ما لبث أن انقلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عدواً لا يقوى عليه البشر وكأنما رُزقت قلعها جناحين ، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته في الموت على قمة جبل پارناسوس وألقى بنفسه من فوق الصخر الشاهق ، فأسرع إليه فويبوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يحلق في الأفق بجناحيه اللذين نبأ له في لحظات ، ومنحه فويبوس منقاراً معقوفاً وغالب مقوسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التي حققت له الشهرة في الماضي . وهكذا أصبح صقراً لا ينطوي اليوم صدره على قطرة من الشفقة يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملا نفوس الآخرين شقاءً .

٣٤٠

وبينما كان ابن لوسيفر يقص هذه القصة الغريبة ، كان آنتيور ابن بلدة فوكيس راعي قطعان فيليبوس يبحث الخطأ لاحقاً حتى إذا أقبل صاح : « أيا فيليبوس ، إنني أحمل إليك أنباء كارثة فادحة » ، فطلب منه فيليبوس أن يقص عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقباً وارتسمت على وجهه سياء الخوف بينما أخذ الراعي يسرد القصة قائلاً :

« عندما توسّطت الشمس كبد السماء في منتصف طريقها المرسوم وقد بقي لها قدرٌ ما قطعت ، سُقْتُ قطيعك المنك صوب الشاطئ المنحدر حيث خَرَّت بعض الثيران مستلقية على جنبها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها متعلقة بصفحة مياه المحيط ، وأخذ البعض الآخر يتجول هنا وهناك أو يسبح في الماء طافئاً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى . وقريب من الشاطئ يطلّ معبد من الخشب الغُفْل ، ليس مزوّفاً بزخارف ذهبية ولا مطعماً بالواح رخامية منقوشة ، وتظله أغصان أشجار عتيقة ، ويسكنه نيريوس وبناته ، وقد أخبرني ملّاح كان يحفّف شبابه عند الشاطئ أنهم أرباب هذا البحر . وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلفت مياهه من مياه البحر ، وكانت هذه الأرض الرخوة تنقص بأشجار الصفصاف وينبت منها أصداء لصخب عنيف يثير الملح في أرجاء المنطقة . وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع في صورة ذئب ملوث الجسد بالوحل القلر ، قواطع فكّيه مغطاه بالدم والرغاء ، مشتعل العينين بوهج أحمر ، وكان جوعه ومع ما في الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبية شديدة ، وكما لم تهدأ شرسته كذا لم يهدأ جوعه ، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مجندلاً الرؤوس جميعها قاتلاً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاولوا إبعاده ، واصطبغ الشاطئ والماء القريب منه بلون الدم القاني ، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن احمّرت ، كما أخذت أصداء خوار الوحش تتردد بين جنبات المستنقع ، وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلفنا الكثير ، وأصبحت المحنة ليس معها تردّد يعوق كل ما في طوقنا أن نفعله ، وأحسست بواجبنا في أن نمتشق سيفونا وأن نمضي إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد .

٣٦٠

وتوقّف الراعى عن الكلام ، ولم يعبا يليلوس بخسائره من القطعان ، وقد تذكر الجريمة التى اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية ، وأدرك ساعتها أن أمه الحورية هى التى تُنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياها قرباناً جنائزياً لابنها القليل فوكوس^(١٦) .

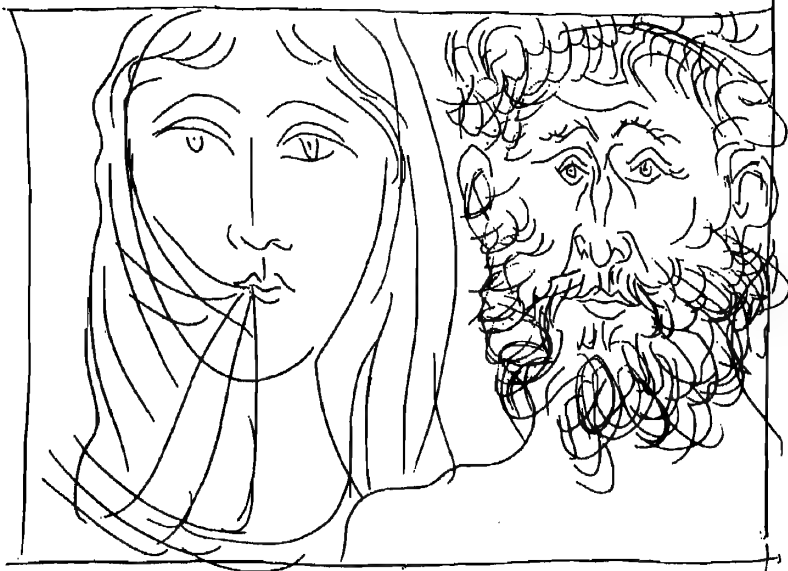
وما لبث كيكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والثأب للانتفاض على الوحش كما تهباً هو نفسه ليمضى معهم ، غير أن زوجته الكيونيه أسرع بالدخول عليه وقد أثارها الأحداث فأخذت تشدّ شعرها المشوش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسّلة إليه أن يقنع بإرسال الرجال دون أن يصحبهم ، وذرفت الدمع علّه ينقذ حياتها وحياته ولا يمضى لما عزم عليه ، فانبرى يليلوس ابن إياكوس يطمئنها قائلاً : « ليست مخاوفك إلاّ دليلاً على ما تكّين من عطف رقيق وحُبّ لزوجك أيتها الملكة . ألا فلتطرحى هذه المخاوف جانباً ، ومع عرفاني لك بجميل مساندتك لى فى هذه المحنة ، فما أريد أن يخرج أحد نيابة عني لئلاّ تلهى عنك من قبل ، وليس لى من مفزع أفزع إليه غير آلهة البحار التمس عونهم » .

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدى به السفن الضالّة ، فصعدوا فى هذا البرج وصوّبوا نظراتهم المفعمة بالآثأت إلى قطعان الثيران المجندلة على الشاطئ ، وأبصروا الوحش الذى اقترسها والدماء تقطر من فمه وتلوث فراه . وعندئذ بسط يليلوس يديه تجاه شيطان البحر الفسيح متوسّلاً إلى ٤٠٠
پساماثيه ذات الشعر اللا زوردي أن تضع حداً لغضبها وأن تمّده بعونها ، ولم تلق ضراعاته صدى فى نفس الربة ، إلا أن ثيتسس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذى كان ينشده ، ولم يكن من السير الحيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الاقتراس بعد أن جُنّ بلفق الدماء ، وظل كذلك حتى حوّله الرية إلى تمثال من الرخام وهو يخرس أنيابه فى عنق بقرة ، وبقي محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذى بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان ولم يعد يثير الرعب الذى كان يثيره من قبل . على أن ربّات القدر لم يأذن ليليلوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى ما لا نهاية فبقى منفياً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد الماجنيتين^(١٧) حيث تطهّر من جريمة القتل على يدى أكاستوس من ثيساليا^(١٨) .

كيكس والكيونيه

وكان الملك وقتذاك نبياً للقلق الذى يؤرقه على مصير شقيقه وتقصّ عليه مضجعه نُذر الشرّ التى بدت له ، فتأهب للذهاب إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التى تضفى الطمأنينة على النفوس ، غير أنه عرف أن ذهابه إلى معبد دلفى مستحيل بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرير وأتباعه الفليجيون . وما كاد كيكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرعدة فى أوصاله ، وشحب وجهها فصارت فى بياض خشب البقس ، وترقرق فى مآقيها الدمع ، وحاولت أن تتحدث مرات ثلاثاً فكانت

الدموع المناسبة على خديها والزفرات التي تطلقها تخنق صوتها ، وأخذت تعتب عليه في وله وتتوسل إليه قائلة : « أى خطأ اقترفته أنا فجعلك تتنكر لى يا أعز أعزائى ؟ أين هى رعايتك التي كنت تضيفها على وحدى دون أى انسان آخر ؟ كيف تستطيع الآن أن تتخلى عني وترحل لأعيش وحيدة ؟ أهكذا حزمت ٤٢٠ أمرك على الذهاب بعيداً عني ؟ وهل يمكن أن أبقي عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيبتى عنك ؟ أراك ستخبرني أنك راحل برا حتى لا تثير فكري المضطرب فيشغلني الحزن على فراقك عن الخوف عليك . حقاً إنه ليس ثمة شيء يخيفني مثل البحر ، ذلك المحيط الموحش المخيف ، فلقد تطيرت منذ أميد قريب حين رأيت الواحاً خشبية عظيمة على الشاطئ ، وكم من موق قرأت أساءهم على شواهد قبور خاوية^(١٩) ، فلا تفرّنتك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة في قلبك اعتماداً منك على أن حاك هو الإله أبولوس بن هيبوتيس الذي يمسك الرياح العاصفة ويهدئ نائرة البحر بإرادته ، فلما أنه أطلق العنان للريح فأتى لها السيطرة على المحيط لما استعصى عليها شيء ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها ، ولتصارعت السحب أمامها على صفحة السماء مُرسلة في تصادمها برقاً من الشرر الملهب ، وكلما تزايدت معرفتي بالرياح [فمعرفتي بها معرفة قوية فطالما رأيته في بيت أبى وأنا صبية] ازدادت يقيناً بوجود تحاشيها . على أنه إذا لم تنجح توسلاتي في إثباتك عن عزمك على الرحيل يا زوجي الحبيب ، وإذا كنت ما تزال مُصرّاً عليه فخذني إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة ، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلا ما قد يكون من نصيبى أنا ، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع ويُبحر معاً على صفحة البحار الواسعة . ٤٤٠



بيكاسو: كهكس والكهوتيه

وأَسَىَ زوجها ابن النجم المتألق بما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفت من دموع ، فقد كان لهيب الحب يُشعل قلبه بمقدار ما يشعل قلبها ، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل كما أنه لم يشأ أن يقحم الكيوني في مغامرة مخوفة بالخطار ، فحاول في النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح في كسب رضاها ، فأضاف يقول معزياً : « قد يكون الفراق بيننا طويل الأجل ، لكنني أقسم لك بالضوء المشع من أبي بأنني عائد إليك — بمشيئة ربّات القدر — قبل أن يُكْمَل القمر دورتين » .

ومع هذا العهد — الذى قطعه على نفسه والذى بعث في نفس زوجته الأمل في عودته سريعة — أمر بإعداد سفينته التى لم تكد تراها زوجته حتى ارتحفت أطرافها من جديد واغرورقت عيناها بالدموع كأنها تعرف سلفاً ما سوف تأتى به الأيام ، وعانقت زوجها مودعة إياه قانطة حزينة ثم انهارت مقاومتها وتهاوت ، فأخذ كيكس يتلمس الأعذار لتأخر إقلاعه غير أن ملاحيه الشبان كانوا قد جلسوا في صفين وقد أمسكوا بمجاديفهم العريضة وأخذوا يشقون الموج بضربات رتيبة الإيقاع . ونظرت الكيوني بعينها المبللتين بالدمع إلى زوجها الواقف على مؤخرة السفينة يردّ على تحيتها ملوحاً بيده مودعاً ، وما زالت تحدق بعينها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظرها ، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصارى الكبير حتى اختفت الأشرعة هى الأخرى ، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم . وحينما خلت إلى نفسها أحسّت بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت في البكاء من جديد .

غادرت السفينة الميناء بركبها وهزّت الريح حبال الأشرعة التى نُشرت على الصّواري تملؤها الرياح ، ونظّم الرّبان إيقاع ضربات المجاذيف . ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتنبأ عن جميع الشيطان حتى بدأ البحر يشتعل بياضاً في ظلّمة الليل الساجى بقفزات أمواجه العالية الزابدة ، وتزايدت قوة رياح الشرق ، فصاح الرّبان بملاحيه : « فلتُسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّارى وضّمّها جميعاً » ، غير أن رياح العاصفة التى كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحارة كما غطى هدير الماء على كل صوت ، ومع ذلك سارع بعض الملاحين من تلقاء أنفسهم باجتذاب المجاذيف داخل السفينة ، وأخذ بعض يدرعون عن السفينة ثورة العاصفة ، وقام آخرون بضمّ الأشرعة ، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقدفه في البحر . وبينما كان هذا يجرى على غير نظام أو تدبير تزايدت عنف العاصفة وتصارعت الرياح المقبلة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب في البحر الفاضب ، وامتلأت نفس الرّبان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ في أمر لا يُبدى ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حدّه ومهارته ، وكان الرجال يصيحون ، وحبال الأشرعة تنقطع ، والبحر كتلة ثائرة من الأمواج المتلاطمة ، والرعود تهدر في الأفاق ، والأمواج تعلو كالجبال مشرّبة كأنما تريد بلوغ السماء وتثرر رذاذها على الغيم المتكاثف ، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التى يثيرها من قاع المحيط ، وأحياناً يصبح أكثر سواداً من مياه نهر ستيكس ، وأحياناً أخرى يشر في الأجواء طبقات من الزُّبد الأصفر ترسل صفيراً عالياً . وكانت السفينة التراخيسية تميل يمّة ويسرة ، تعلو تارة وكأنها تطل من قمة جبل على أودية نهر أخيون بالجحيم ،

وتغوص تارة أخرى في جوف الأمواج متطلعة إلى أعلى وكأنما ترقد في إحدى بحيرات العالم السفلى . وكلما ارتطم أحد جنبهيا بموجة عاتية ارتفعت قعقة شديدة وانطلقت أنات موجعة وكأنها قلعة تتحطم وتعيد تحت ضربات المنجنيق و « بذلك » أبواب القلاع المحاصرة . وكانت الأمواج المندفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تندفع على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السباع الباسلة حين تستجمع شجاعتها لتندفع نحو الأسلحة المصونة إليها من كل جانب . وبدأت قوات السفينة تتزحزح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكك والقطران^(٢٠) الذي يغطيها يذوب وينمحي ، فانفتحت ثغرات ينفذ من خلالها ماء البحر الرهيب ، وانفجرت كوات السحب فجأة مطلقا الأمطار ، وبدت السموات وكأنها تنقُصُ جميعاً على البحر ، بينما بدا المحيط الثائر وكأنه يشرب إلى السماء وابتلت الأشرعة بالفيض المنهمر ، واختلطت مياه البحر بمياه السماء ، وغابت النجوم من القبة الزرقاء ، وضاعت العاصفة من ظلمة الليل ، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضيء فيها المشهد كله فتوهج المياه باحمرار لهبها .

تدفق الماء إلى قاع السفينة المحوّف شأنه شأن جندي يبرز وحده من بين صفوف الجند محاولاً المرة بعد المرة أن يتسلّق استحكامات مدينة محاصرة حتى يحقق أخيراً هدفه ، ويتمكن وحده من بين ألف رجل من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطربة في النصر . فقد استطاع المرح بعد أن ألقي بثقله مرات تسع على جوانب السفينة أن يرقى في المرة العاشرة إلى ارتفاع شاهق ، وأن يندفع في هجمة عاتية لم يرد عنها إلا بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينقض على أسوار حصن متداعية ، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها . وكان الملاحون أسرى رعب ممؤق شبيه بذلك الذعر الذي يستشرى في مدينة يحاول العدو تقويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها في دعمها خشية تداعياها . ونسى الملاحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم ، وبدأ الموت مقبلاً عليهم مع مقدم كل موجة تفتح ثغرة في استحكاماتهم ، وعجز البعض عن حبس دموعه ، واستبد الذهول بأحدهم ، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مهياة ، والتمس ثالث عون السماء التي أخذ يمدّ يديه إليها دون أن تشهدا عيانه ، وشرّد بعض بفكرهم إلى آبائهم وذويعهم ، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلّفوه وراءهم ، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بالكيونيه لا تتحرك شفتاه بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلا إليها ، ولكنه كان راضياً لأنها لم تصعبه ، وودّ لو قدر له أن يتطلع ثانية إلى شيطان بلاده وأن ينطلق إلى بيته عائداً ، ولم يكن يدري مكانه وسط الحضم المضطرب وعبر ستار السحب الداكنة التي أخفت صفحة السماء فضاعفت من ظلمة الليل المدهم . وكسرت الريح العاصفة الصّارى وتحطمت معه الدقة ، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفر يتوسط أسلابه ، ثم هوت هذه المرحّة في عنف وكأنها تقتلع به جبل آثوس وپندوس من جذورهما وتلقى بهما في البحر الفسيح ، ففاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج ، وغاص مع السفينة كثير من الملاحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد ، وتعلقت قلّة بأخشاب السفينة المحطّمة . وأمسك كيكس بيده – التي طالما قبضت على صولجان الحكم – قطعة من الحطام الطافي ، وأخذ يردّد عبثاً أساء أبيه وحميه ، وكان اسم

الكيونيه قد تردّد على شفّيته أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديته كله عنها وفكره مشغولاً بها . وأخذ يصل من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته ، وأن يدفن في نهاية الأمر بيديها الرقيقتين . وانطلق يردّد اسم الكيونيه بصوت عال وهو يطفو على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه ، فإذا أطبق البحر عليه من كل جانب قنع بأن يتمم باسمها ، وفجأة تدافعت على صفحة الخضم المزبد موجة سوداء غطت كيّكس فغرق . وفي تلك الليلة غشت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون ، ودفن وجهه في الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء .

لم تعرف الكيونيه بالكارثة ، وظلت كما كانت تحصى الليالى وهى تؤمل عبثاً عودة زوجها إليها ، وتُعجل في نسج بعض الأردية له كما كانت تُعجل في نسج أردية أخرى لها لتردان بها عند عودته ، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة في معبد جونو ، وأكثر من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب ، وردّدت دعواتها كي يعود زوجها إليها سالماً وألا يبيل عنها إلى امرأة أخرى يؤثرا عليها ، وكانت هذه الضراعة الأخيرة هى الوحيدة التى استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة . ٥٨٠

على أن الربة جونو عزّ عليها ألا تستطيع أن تسعفها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً ، وودّت أن تبعد عن هياكلها المقدسة تلكا اليدين اللتين لم تؤديا شعائر الدفن الواجبة^(٢١) فالتفتت إلى إيريس قائلة : « يا أخلص من حل رسائل إلى البشر ، أسرعى إلى دار ربّ النوم^(٢٢) » الغافى ، وسلميه أن يدع الكيونيه تحلم حلماً يتبدّى لها معه زوجها الراحل كيّكس لتدرك حقيقة الأمر . وصدعت إيريس لأمر الربة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف ، وانطلقت في مسار قوس قزح المقوس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذى أمرتها الربة بزيارته .

وعلى مقربة من بلاد السيمرين^(٢٣) كان ثمة كهف عميق مندّزت في جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافى ، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا ساعة شروقها ولا عند توسطها كبد السماء ولا ساعة غروبها . وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً في الجو ظلالاً خافتة من عتمة الغسق . ولم يكن هذا المكان ديك يخنّال بعُرفه ويؤذّن للفجر بصياحه ، ولا كلاب لَهْفَة تقطع الصمت ، ولا إوز يعلو صياحه على نباح الكلاب ، كما لم تكن هناك وحوش مفترسة ولا قطعان سوائم ، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر . كان الصمت الأبكم يخيّم على المكان ، وكان نهر « ليقى » الذى يُغرى بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخبره الخافت فوق الحصى الراقد في أعماق الكهف الصخرى ، وكانت أزهار الحشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف ، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل الندى من عصاراتها عطر النعاس الرّخى وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء . ولم يكن للدار باب واحد خشية أن يترّ فيه مفصل دوّار ، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبه ، وكان يتوسط الكهف فراش كبير من خشب الأبنوس ذاكن اللون تغطيه أستار سوداء في نعومة الريش ، وكان الإله نفسه يرقد في هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه في كلل ، ترقد حوله ربّات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالا متباينة ، ٦٠٠

فصورة لسنايل القمع وقت الحصاد أو للأوراق على أشجار الغابة وثالثة لرمال الشاطئ المتراصة الأطراف .

٦٣٠ ودخلت الرسالة إيريس العذراء وجعلت تزيح بيديها أطراف الأحلام التي اعترضت طريقها ، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميض ألتي في مسكن الإله ، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كي يفتح عينيه الكليلتين المُثقلتين بالنعاس ، وحاول النهوض فمال رأسه حتى لامست ذقنه صدره ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة ، إلى أن نهض مكتئباً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن السر وراء زيارتها ، فأجابته قائلة : « يا ربّ النوم ، يا من يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء ، يا أكثر الآلهة نشداناً للسلام ، يا من إليك تهدئة الحواطر وإزاحة الموموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الثقيلة فتنتعش بعد طول الجهد والكلل ، مُرّ أحلامك القديرة على محاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبعضها ثانية كما جرت في الواقع ، مُرّ ما أن تتقمّص مظهر الملك كيكس وأن تشدّ الرحال إلى الكيونيّة بمدينة تراخيوس التي أذاع شهرتها هرقل ، وأن تُربّها صورة الملك غريقاً . ذلك ما أمرت به جونو » . ورحلت إيريس بعد هذا كي تفلت من تأثير ربّ النوم القهار ، فلقد أحست بالنعاس يتسلّل إلى عينيها ، وعادت أدراجها سالكة نفس المسار المقوس الذي عبرته منذ لحظات .

٦٤٠ وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الآدميين ، ولم يكن أحد يفوقه مهارة في تقليد طريقة المشي وتعابير الصوت ورنّاته ، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدى الثياب نفسها التي تميز كل شخص عن غيره . وعلى حين تخصّص مورفيوس في محاكاة البشر ، درج ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسميه البشر فوينتور على تقمص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة ، كما تميز ابن ثالث هوفانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه في مظهر مخادع فيمثل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أي شيء من الأشياء الجامدة التي لا روح لها . وكان ثلاثتهم يقومون بتمثيل الأحلام التي تظهر ليلاً للملوك والقادة ، في حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثلون الأحلام للعامة من الناس . وقد برّز الإله العجوز أبنائه كلهم في مواهبهم في تمثيل الأحلام غير مورفيوس الذي اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفذ ما طلبته إيريس إبنة ثاوماس . ولم يكده يعهد إليه بهذه المهمة حتى غاص رأسه المائل على صدره في ثنايا فراشه واستغرق ثانية في نومه العميق .

٦٦٠ وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الخالكة دون أن يُسمع لجناحيه خفيف ، وسرعان ما بلغ مدينة هامونيّا حيث ألقى جناحيه جانباً ، وغير من هيئته ليبدو في صورة كيكس . وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية من الثياب اقترب من فراش زوجته البائسة الكيونيّة بلحية منمّدة وشعر رأس مبتل تساقط منه قطرات ماء ثقيلة ، ومال على الفراش دافع العينين قائلاً : « أي زوجتي التبعة المسكينّة ، أنستطيعين التعرف على زوجك كيكس أم أن الموت قد غير هيئتي ؟ تطلّعي إلىّ ولسوف تعرفينني حقاً ، وإن رأيت شبيهاً لزوجك لا صورته الحقيقية . أي الكيونيّة ، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأنني فارقت

الحياة ، فلا تدعى الأحلام الزائفة تداعب فكرك بعودى . لقد هبّت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفيتتنا فى بحر إيجيه ، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هشمّتها ، وجمّد الموت بشفتى اللتين كانتا تردّدان اسمك . وما يحمل لك هذا النبا رسولاً لا يوثق به ولا شائعات مُهمّمة ولا ألسن تتناقلها ، وإنما أنا الذى جثت بنفسى أحمله لك بعد أن ذقت الموت غرقاً كى أخبرك بقدرى ومصيرى ، فلتنفضى الآن من فراشك ولتدرفى الدمع من أجل ، واتّشحي بثياب الحداد ، ولا تدعىنى أذهب إلى غياهب تارتاروس غير مأسوف على ولا مشيع بالبكاء .

وبدا مورفيوس خلال حديثه مع الكيونيّه وكأنما يبكى حقاً ، وقد تعرّفت على صوت زوجها فى صوته وراّت إيماءاته فى إيماءاته ، وغالبها الأنين والبكاء فى نومها ، ورفعت ذراعها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض يداها على غير خواء ، فصاحت به قائلة : « انتظر ! لم تتعجّل الرحيل ورحلتنا واحدة ؟ » .

ونهمضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصوت صرخاتها ، وتلفّنت حوالها بادية ذى بدء لتستوثق مما إذا كان الرجل الذى ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها ، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح ، فلما لم تقع عينها على رجلها أخذت تلطم خديها بيديها وتشق ثوبها وتضرب صدرها ، وصاحت تقول لوصيفتها التى هرولت إليها تستطلع سبب حزنها : « لقد قُضى على الكيونيّه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيّكس . فلا تحاولى التسرّية عني بكلمات عزاء ، لقد مات زوجى إثر تحطّم سفيتته ، وقد رأيت وعرفته وملت إليه يدي حين أوشك على فراغى وحاولت استبقائه . ولم يكن من وقع عليه بصرى غير شبيح ، ومع هذا فقد كان هو زوجى ، ولئن شئت أن تعرفى كل شيء فإن قسّات وجهه لم تكن هى التى عهدتها فيما مضى ، إذ لم تكن تشع بتألقها السابق . لقد رأيت واقفاً فى هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء . يا للبائس المسكين ! وباله من مشهد مثير للرثاء » ، ثم عادت فتطلعت حولها لترى إن كان قد خلف وراءه أثراً ، واستطردت تناجى زوجها قائلة : « كان هذا هو سبب فزعى وخوفى حين رجوتك ألا تتركنى وألا تمضى إلى حيث تعصف بك الرياح ، فلئن كنت ماضياً إلى حتفك فيما كان أجدر بك بأن تصطحبنى ، وكما كان أولى بى أن أمضى معك ، ولو مضيت معك ما قضيت شطراً من حياتى بعيدة عنك ، وما كنا لنموت مفترقين ، فما أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك ، وعلى الرغم من أنك خلفتني هنا وحيدة ، وعلى الرغم من أنى لم أشاركك العاصفة التى عصفت بك ، فما أنذا تأتى على العاصفة ، ومع أن البحر لم يطوئ فى جوفه فقد غدوت وكأن البحر طوانى فى أعماقه ، ولو أننى حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت فى التغلب على أحزانى لأصبح قلبى أشد ضراوة من البحر . لا ، لن أحاول مقاومة أحزانى ، كما لن أحاول هجرى يا زوجى المسكين ، ولسوف ألحق بك . ومع أن رماد جسدنا لن يجتمع فى وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك . وهكذا إذا كان قد قدّر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد » . ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد ، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأنات عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكلم .

وأقبل الصباح فغادرت ألكيونيه دارها وقصدت قصد شاطئ البحر حيث ودعت كيكس وهو يُقْلَع بسفينة ، وأخذت تغدو وتروح عنده وهي تهمهم قائلة : « هنا كان يشدّ الحبال ، وعلى حافة هذا الشاطئ قبلى قبله الدواع » . وبينما كانت تستعيد أقواله وأفعاله وتذكرها حيث وقمت صوّبت طرفها صوب البحر فرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجثة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً ، غير أن الأمواج كانت تحمله نحوها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم من بُعد أنه جثة إنسان . وتحركت مشاعر ألكيونيه لمراى هذا الرجل الغريق ، ومع أنها لم تكن تعرف من يكون إلا أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة : « واسفاه على مصيرك أيها البائس كائناً من تكون ، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة » . ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجد من الشاطئ وأخذت ألكيونيه تحلق فيه ونفسها تنهار شيئاً فشيئاً فإذا هي في النهاية تتبينه وتعرف أنه زوجها ! فصاحت صارخة : « إنه هو » ، وسرعان ما شقت ثيابها ولطمت خديها وشدّت شعرها ومضت تعول وهي تقول بأسطة ذراعيها المرتجفتين ناحية جسد كيكس : « أى زوجى العزيز ، أعلى هذه الصورة تعود إلى أيها المسكين ! » .

وكان على الشاطئ حاجز صنعته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج النائرة فيكسر حدتها ويهون من قسوة لطاماتها فقفزت إليه ألكيونيه ، ثم ما لبثت أن طارت إليه فقد نبت لها جناحان في ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء في رقة وكادت تلمس الماء وهي محلقة على شكل يدعو للرناء ، وأخذ فمها الذى اتخذ شكل منقار ضامر يطلق في أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشجن وأنات شكاة وتراجع .

وحينما بلغت ألكيونيه الجثة الساكنة الخرساء التى لم تعد تحمل قطرة دم ضمّت بجناحيها الوليدين أطرافها العزيزة ، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها الصلب . وقد تسامل الناس عما إذا كان كيكس قد أحس بها أم أن اضطراب البحر هو الذى رفع رأسه ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أحس بوجودها ، فقد رحمتها الآلهة فأحالتهم طائر^(٧٤)ين ظل الحب يربطها معاً حتى بعد أن آل بها الحال إلى هذا الحال . وهكذا بقيا وقيين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لها أجنحة الطيور ، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء . ومنذ ذلك الوقت لا تزال ألكيونيه في عشها تحتضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام في فصل الشتاء . وفي هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدا ، ويحكم أبولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق ، متيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادى .

أيساكوس

وفيما كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخ كان يرقبها يُشيد بالحلب الباقي الخالد الذى يجمع بينهما وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطاس ذى عنق طويل ويقول : « أترى إلى هذا الطائر الذى يرق على سطح الماء بساقين دقيقتين قد امتدنا خلفه ، إنه

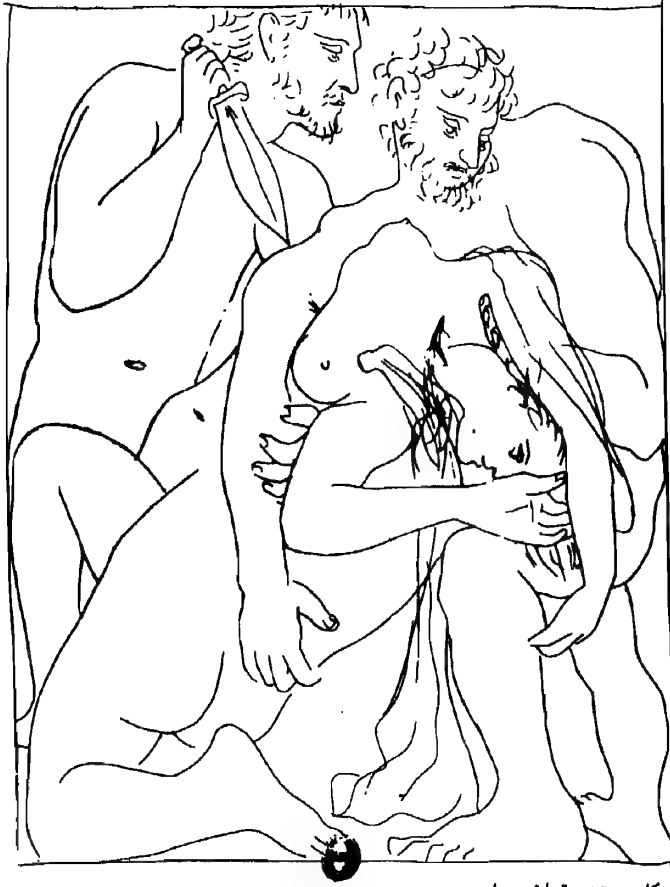
هو أيضاً من نسل الملوك ، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة بخطوة فستجد أنه ينتهي إلى أيلوس الذى أنجب أساراكوس ، ثم جانيميديس الذى اختطفه جوبيتر إلى السماء ، ثم لاوميدون وپريام الشيخ الذى قُدر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة . لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور ، ولو لم يكن قد لقي مصيراً غريباً فى شبابه الباكر لداغت لاسمه شهرة لا تقل عن شهرة اسم هكتور نفسه . غير أن هكتور هو ابن هيكوبا ابنة ديماس ، وإن كان يقال إن أيساكوس - وهو اسم هذا الطائر - كان ابناً لألكسيروى ابنة جرانيكوس ذى القرنين ، وضعبته أمه سرّاً فى غابات إيدا . وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً فى حى التلال بعيداً عن أهبة البلاط ، ولم يكن يتردد على مجتمعات إلبيوم [طروادة] إلاّ لماماً ، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظلاً عصياً على الهوى ، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسيرييه ابنة كبرينيه^(٢٥) خلال الغابات محاولاً الإمساك بها ، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينيه تحفّف شعرها المسدل على كتفها تحت أشعة الشمس . وما إن لمحتة الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مدعورة أمام ذئب أغبر ، أو كما تطير بطة أمام صقر طاردها بعيداً عن برّكتها . وقد أسرع الأمير الطروادى عدّواً بقدمين زادهما الهوى المشبوب خفة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من سرعة عقيبها ، وإذا حيّة كانت مستكنة فى العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تعدو ، ونضحت أنيابها سمّاً سرى فى جسدها فانقطعت عن العدوّ لتوها وانقطعت معه حياتها أيضاً ، وضم العاشق جسدها الذاوى فى جنون وأخذ يصيح : « ما أشدّ تعاستى ، إنى أنا الذى طاردتك وما كنت أتوقع هذا الذى سيحدث يا فتاتى المسكينة . لقد شاركت مع الحيّة فى القضاء على حياتك ، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإنى أنا الذى ألحمت لها هذه الفرصة ، على أنى أكثر منها جُرماً . ٧٦٠

فليكن موتى عزاء لك عن فراقك الحياة » ، وما لبث أن ألقي بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزجرجة قاعدتها ، غير أن ثيتيس أخذتها به الشفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقته على صدرها فى رفق وغطته وهو يسبح فى مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذى تمنّاه لنفسه . وتملّك العاشق غضباً لما رآه من إرغامه على حياة يأباه ، ولحرمان روحه من التحرر من محبسها التمس كما تاقّت أن تفعل ، وما إن اكتسب جناحيه الجديدين حتى حلّق بهما فى الأجواء على ارتفاع خفيض ، ثم ألقي بنفسه ثانية على صفحة البحر غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته ، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضى بها نجه . ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذى يباعد ما بين رأسه وجسده ، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم « الغطاس » إشارة إلى إيغاله فى أعماقها^(٢٦) . ٧٨٠

التعقيبات

- (١) انظر الكتاب العاشر .
- (٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذى ينتهى ساقه بشمرة صنوبر ، وهو المسمى ثيرسولوخوس ، أى الثيرسوس على شكل الحربة وينتهى ساقه بحد سهم ، وهو الثيرسوس المقصود هنا .
- (٣) المدمة أداة ذات أسنان لجميع العشب أو لتقليب التربة وتوسيتها .
- (٤) عاصمة مملكة ليديا بأسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها لحصار أعدائها من كل الأجناس .
- (٥) اسم مدينة أقل أهمية من سارديس فى ليديا على الطريق بين سارديس وإفسوس .
- (٦) قد يكون هذا هو المثل الوحيد فى الشعر اللاتينى لتجسيد الجبال ، فى حين كانت الأنهار كلها تخاطب كأنها أشخاص إلهية .
- (٧) قد يكون هذا الوصف لأبوللو ترجمة حرفية لتمثال أبوللو حامل القيثارة للحفوظ بمتحف الفاتيكان .
- (٨) الهيلسبونت وسط الدردنيل حيث سقطت هيليه إنة أناماس ونيغيل وهى تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش ذى فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها .
- (٩) المعنى الحرفى لكلمة بانومفاليوس هو المكان الذى تبتقى منه رسالة الهاتف الإلهى .
- (١٠) هذه إشارة إلى إريخثونوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس فى الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فارس خارقة للعادة ، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن اثنى عشر مهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تشفى أعوادها ، كما كانت تستطيع الركض فوق زيد الأمواج ، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحرى ، ولكن لاووميلون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لاووميدون وكل أبنائه واختطف هيزيونيه أسيرة له .
- (١١) كان بيليوس بن أياكوس وشقيق نيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل .
- (١٢) اسم جزيرة بين رودس وكريت اسمها الآن اسكارپانتو ، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها ، إذ يدعى البحر بين الجزيرتين بالبحر الكارباتى .
- (١٣) انظر الكتاب السابع .

- (١٤) تراخيس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا . وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذي لعبته في أسطورة هرقل ، وقد سميت مأساة و نسله تراخيس ، لسوفوكليس التي تقص موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكون من نساء تراخيس ، كما تدور أحداث المأساة في قصر كيكس ملك تراخيس .
- (١٥) اسم مدينة في بويوتيا سميت باسم الحورية ثيزي ، غير أنه لا يعرف شيء عن اقتران المدينة بالحمام ، إلا أن هوميروس لقبها في الكتاب الثامن من الإلياذة بأنها پوليتيروون أى العامرة بالحمام .
- (١٦) الحورية هساماثيه ابنة نيربوس هي أم فوكوس .
- (١٧) هم أهل ماجنيزيا ، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أولها - وهو المقصود هنا في ثيساليا - هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر بينيوس ، وثانيها مدينة في كاريا على ضفاف نهر المياندر ، وثالثها في ليديا على سفح جبل سيبيلوم حيث تحولت نبوى إلى صخرة .
- (١٨) ذكر أوفيد أكاستوس بن بيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا في حملة الصيد بكاليدون [انظر الكتاب الثامن] .
- (١٩) اكتشفت بالفعل بعض النصب الجنائزية في جبانة قديمة بأثينا مخصصة لضحايا البحر ، وأغلبها في جبانة كيراميكوس ، أى حي الفخارين .
- (٢٠) الشمع في الأصل .
- (٢١) المقصود هنا أن يدى الكيونييه مدستان من حيث لا تدرى ، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المستولة عن إقاعة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفى .
- (٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهينوس عند الإغريق .
- (٢٣) بلاد السيمبريين هي بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك ، وقد ذكر بعض القدماء أنها في أقصى الغرب ، وذكر البعض الآخر أنها في شمال البحر الأسود .
- (٢٤) هو الطائر المعروف باسم القاوند أو الأسهيون ، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس .
- (٢٥) كبريتيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة .
- (٢٦) اسم الطير باللاتينية هو « ميرجوس » ويعنى القطاس كما هو معروف الآن في اللغات الأوروبية ، ويعيل العرب إلى تسميته بالقطاس .



بيكاسو: تضحية إيفيجينيا

الكتاب الثاني عشر

الإغريق في أوليس . ربة الشجرة

لم ينته إلى علم بريام أن ابنه إيساكوس قد تحول إلى طائر يحلق بجناحين في الأجواء ، فراح ييكي لفراقه ، وأقام هكتور وأخوته لشقيقهم ضريحاً خاوياً عليه اسمه وليس فيه رفاته وقدّموا عنه القرابين ، ولم

يشهد الحفل الجنائزى أخوهم باريس الذى عاد إلى الوطن بعد غيبة مصطحباً زوجته وكان قد اختطفها وأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة في إثرها حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية سادت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار في بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك .

وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الآلهة وفقاً للعُرف المتبع ، وحين توهّجت النيران في المذبح العتيق زحفت أفعى ذات حرافش داكنة على شجرة دُلب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودنت من عُشٍّ يضم ثمانية من فراخ الطير في قمة الشجرة^(١) التهمت جميعاً مع أمها التي جهدت أن تدوّد عن صغارها المنكوبة . وبهت الجميع حين وقف العراف كالتاس ابن ثيستور ليطالعهم بهذه النبؤة قائلاً : « أبشر يا شعب اليونان فسيحالفنا النصر ، وسوف تسقط طروادة لكن بعد عناء طويل » ، فهذه الطيور التسعة تعنى تسع سنين من الحرب المتصلة ، وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهى تلتف حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجرى على صورة الأفعى المتسلّقة . ٢٠

ولم يقصر الإله نيريس عن إثارة الزوابع في بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض في تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك في تشييد أسوارها . غير أن كالتاس بن ثيستور لم ير هذه الرأى وطالع الجميع بما يرى ، وأنه لا معدى عن إباحة دم عذراء ليسكن غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث الناس أن رأوا أن مصلحة الجماعة فوق المصلحة الخاصة . وغاب الختان الأبوى لأجاممنون حين واجه واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين الكهنة يريقون دمها أمام المذبح وهم سيكون لسفك دمها الزكى تضحية وقرباناً للإلهة الغضبية التى سعدت بما كان ، فإذا هى ترسل سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ظبية حلت مكان الفتاة الموكينية في موقعها . وسكن غضب ديانا بهذا القربان الذى ارتفضته ، كما سكن غضب البحار فدفعت الريح السفن الألف حتى بلغت سواحل فريجيا بعد مخاطر جمة^(٢) .

وتأخذ ربة « الشائعات » مكاناً في قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر . فمن هذا المكان الذى تلتقى فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجري مهما نأى وتسمع كل صوت يخفق فيه ، وأقامت بيتها فوق ربوة عالية خلّته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّده بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتبتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيردّد صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسجاع . ولم ينعم البيت بالهدوء لحظة ، ولم يسد الصمت ركناً من أركانه ، ومع ذلك لم تعل فيه صرخات بل همسات كوسوسة الأمواج التى تُسمع من بعيد ، أو بقايا أصداء رعود أطلقها جوبيتر تدفعها السحب الداكنة . وملأت أركان البيت الشائعات التى اختلط فيها الصدق بالزيف ، تجول بين الأروقة والردهات وكأنها جماعات من أطياف يصبّ بعضها الأفايصص في الأذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيداً ، وكذا الشائعات تنمو بما يضيفه كل قاص . ٤٠

- ٦٠ وفي هذا البيت كانت تعيش ربة « السذاجة » التي تصدق كل شيء ، وربة « الخطأ الجامح » وربة « الفرح الطائش » وربة « المخاوف الجزعة » ، وربة « الفتنة التي تنفجر بغتة » وربات « الوسواس » التي لا يعرف أحد مصدرها ، وكانت ربة « الشهرة » نفسها ترقب كل ما يحدث في أرجاء السماء والأرض والبحار ، وترقب ما يحدث في كل أنحاء العالم .

سـيـجـنـوس

وأذاعت ربة « الشائعات » اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهبّة للحرب من طروادة التي لم تكن تتوقع هذه المفاجأة ، وسرعان ما تهبّ الطرواديون للدفاع عن شواطئهم محاولين منع اليونانيين من الهبوط فوقها ، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلاوس أول من يسقط في المعركة بسهم هكتور^(٣) ، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التي جشمتهم الكثير ، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائهم ، كما تحقق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التي انسكبت من أجساد ضحاياهم .

وغطى لون الدم المراق شاطئ سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نبتون^(٤) ، وتمزيق سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفح جبل پيليون أجساد كتائب كاملة من الجنود . وكان أخيل قد أخذ يشق الصفوف بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلق هكتور إلا في السنة العاشرة من الحرب ، بينما أسرع في لقاء سيجنوس الذي انطلق نحوه في مركبته الحربية التي تقودها جياد بأعناق بيض وكانها الجليد وهي تعلّق أعتتها ، ولوح بذراعيه صائحاً فيه : « ليكن عزائك في موتك أيها الشاب كائناً من كنت أن حتفك سيكون على يدي أخيل الوافد من ثيساليا » ، وأطلق حربته التي أصابت هدفها ، غير أنها تركت أثراً هيناً بصدر خصمه وكانها كانت حربة مثلومة السنّان . وبينما أمسكت الدهشة بأخيل ، صرخ فيه خصمه قائلاً : « يا ابن الإله ، لقد سبقني إليك شهرق لتعرف من أكون ، فكيف تعجب إذ لم تصبني حربتك بجراح ؟ » [ولقد كان أخيل عندها يعجب حقاً] ، فاستطرد قائلاً : « إننى لا أحمى رأسى بهذه الخوفة ولا أسترجسدى بهذه الدرع المقوسة ، وإنما أضعها كما يفعل الإله مارس . ولو شئت لنزعنت عن جسدى هذه العدة الواقية دون أن أصاب في حلبة القتال بأذى ، فليس من العبث أن يكون المرء إنناً لنبتون الذى يحكم البحار كلها لا إنناً لإحدى النيريايس » .

وفى هو يتحدث أطلق حربة اصطدمت بسنام درع أخيل البرونزى ونفذت من طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة^(٥) ، فأمسك بها أخيل وألقاها جانباً ، ثم قبض على حربته وسدّها بذراعه المقتولة لكنها مع ذلك لم تمس سيجنوس بأذى ؛ وكشف سيجنوس عن صدره ومع هذا لم تصبه الحربة الثالثة . واشتمل غضب أخيل مثلاً يشتعل غضب الثور الهائج في الحلبة عندما يقتحم طريقه بقرنيه المخيفين نحو الملاءة الحمراء التي تثرجونو إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مجدية ، وأمسك أخيل بحربته وبعد أن اطمأن إلى بقاء منها مثبتاً في ساقها الخشبى صاح قائلاً : « ترى هل فقدت ذراعى

قوتها التي ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان وأصبحت خائرة ؟ أولم تكن قوية يوم تقدّمت الجميع وهدمت جدران ليرنيسوس ، وحين أغرقت مدينتي تينيلوس وطيبية موطن إيتيون في دماء سكانها ، وحين صبغت نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التي تحيا على ضفتيه^(١) ، وحين ذاق تيليفوس مرتين طعم حربتي . أولم أقتل هنا كثيراً من الرجال تكدّست أجسادهم على شاطئ البحر ؟ ألا إنهم في مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعى التي مازلت أنعم بها حتى الآن .

١٢٠ وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينوتيس ، وهو أحد الليكيين البسطاء فانغrust في صدره بعد أن اخترقت الدرع المصفّح ، وسقط مينوتيس عمداً فوق الأرض الصلبة ، فنزع أخيل حربته من جسده وقال : « ها هي ذى إذن يمينا ، وها هي ذى حربتي التي حققت بها الآن نصراً . فلاسدّها إلى هذا الخصم أملاً أن أحقق النصر نفسه . »

١٤٠ وهاجم أخيل ثانية سيجنوس الذي لم يحاول تفادى الضربة التي لم تحد عن مرماها فاصطدمت به الحربة التي من خشب الدردار وخلفت صوتاً مسموعاً ، ثم ما لبثت أن ارتدت كما ترتد عن جدار أو عن صخرة ، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملكته الشوة التي لم يكن لها ما يبررها ، إذ لم يكن الدم الذي رآه سوى دم مينوتيس . ودفع الغضب أخيل إلى الوثوب من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بالسيف الذي استطاع أن يشق به درع سيجنوس وخوذته ، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذي لا يقهر ، ولم يستطع أخيل احتلال هذا الهوان ، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربع ، ومقبض سيفه هوى على صدغيه ، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه ، حتى استولى الخوف على سيجنوس وانتشرت سحابة سوداء أمام عينيه وتابع خطوه إلى الخلف حتى ارتطم بصخرة كانت تعوق تقهقره ، فأمسك به أخيل ثم رفعه وضرب به الصخرة ضربة قاتلة . ووقف فوق جسده فهشّم ضلوعه بترسه وبضغطة ركبتيه على صدره ، وكنم أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدة فمات سيجنوس غنوقاً . وحين أخذ يخلع عن خصمه عدّته الحربية وجد أن العدة خالية لا شيء فيها إذ أن إله البحر كان قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذي سُمي منذ يومها بطائر البجع [سيجنوس] .

كاينوس

١٦٠ ويعد هذه المعركة نعم الجيشان هبة لبضعة أيام ، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانات طروادة على أسوارها يعيون متطلّعة وديدبانات الإغريق في خنادقهم على أهبة الاستعداد ، ومضى أخيل الذي انتصر على سيجنوس ينحر بقرة ليقربها قرباناً للإلهة أثينا وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت في الأجواء رائحة الشواء التي تراح لها الآلهة . واقتطع أخيل قدرًا من اللحم خصّصه للطوقوس المقدسة ، ثم ورّع الأجزاء الأخرى من اللحم المشوى على المواقد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يرشفون النبيذ مضطجعين

لينسوا همومهم ، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المزمار من الغاب المتعدد الثقوب ، بقدر ما شئهم الحديث المتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذى حققوه ، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه ؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون فى حضرة أخيل ؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو عن الضربة القاضية التى أنزلوها بسيجنوس وكانت معجزة المعجزات ، فالمعروف أن الجراح لا تنفذ إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف يتلثم إذا مسه . وبينما كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشتهم وعجبهم إذا بنسطور يذهلهم بقوله : « لقد كان لكم فى سيجنوس خير مثال لمن تلقى الخراب يصدره ساخراً دون أن تنفذ فيه نصالها ، ولقد رأيت أنا قبل رجلاً شددت إلى جسده آلاف الطعنات فلم تنل منه ، وهو كايينوس ساكن جبال أوتريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت . أما ما يذهل له المرء حقاً فهو أن يعرف أن هذا الجسد الصلب الذى صمد للرماح وُلد جسد امرأة » .

١٨٠

فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروى لهم قصة هذه المعجزة العجيبة ، وقال له أخيل : « تحدث يا وريث حكمة العصور الماضية وصاحب الشخصية الفذة ومالك ناصية البلاغة الرصينة ، واسرد علينا قصتك التى تتحرق شوقاً لساعها . فلتكشف لنا عن شخصية كايينوس وسرّ تغيره من امرأة إلى رجل ، وما هى تلك المعركة التى تعرّفت فيها إليه ؟ وهل حاقت به هزيمة يوماً ، وعلى يد من ؟ » . وتحدث نسطور العجوز قائلاً :

« حقاً كم أوهنت السنون المتعددة من ذاكرتى ومحت من ذهنى كثرة من أحداث شبابه ، ومع ذلك فهازلت أذكر الكثير . على أن من بين جميع المخاطر التى وقعت لى سلفاً أم حرباً تلك القصة التى سأرويها لكم لأنها ألصق الأشياء بفكرى . وإذا كانت السنون الطوال تتيح للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أنى عشت قرنين من الزمان ، وهأنذا داخل فى الثالث (٧) .

وُهِبَت كايينيس ابنة إلاتوس جمالاً طاغياً فاقت به جميع بنات نيساليا ، مما حرك قلوب كثير من شباب المدن المجاورة بالأمل فى الظفر بها ، فلقد كانت كايينيس من مواطنيك يا أخيل . وقد حاول بيليوس هو الآخر الزواج منها ، وقد يكون قد حاول الظفر بأمك يا أخيل أو لعلها وعدته بالزواج منها ، غير أن كايينيس كانت تأبى الزواج من كل من تقدّم وإذا شائمة تذيب تقول إن إله البحار انتهب فرصة انفرداها على الشاطئ يوماً واحتاها بين ذراعيه ، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها : « لك أن تمنى على » ، ولسوف أحقق لك ما تطلين . فاجابته قائلة : « ما أكرهنى أن أفوق يوماً ما دُفقت الآن من مهانة ، وكم وددت لو صيرتني رجلاً ، فإن فعلتها حققت لى أعظم رغباتى » ، وإذا جُرُسُ كلماتها الأخيرة أشدّ عمقاً حتى ليُخال أنه جرس رجل ، وكان فى الحق جرس رجل ، فلقد حقق إله البحر للتو رغبتها ، فإذا الفتاة كايينيس تصبح رجلاً سعى من يومها كايينوس ، ومنح جسداً حصيناً لا تحده الرماح أو تهرجه .

٢٠٠

ومنذ ذلك اليوم وكاينوس يحيا سعيداً بهذا العطاء الإلهي مستمتعاً بما يستمتع به الرجال ، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر بينيوس .

القنطوري

ولقد ذهبت أشهد زفاف هيوداميا إلى پيريثوس بن إيكسيون الشجاع بين من دعاهم پيريثوس من جماعات القنطوري المتوحشين أبناء السحاب ومن أمراء ثيساليا إلى قصره الذي أخذ يضع بالمرح . وحين أقبلت العروس تنهادى وسط وصيفاتها من السيدات الوقورات الفاتنات واللاقي تيزهن جمالاً انطلقت أغاني الزفاف ، وانتشى پيريثوس بحظه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة . غير أنه قد حيل بينه وبين تلك السعادة التي كنا نرتقبها ، فقد أشعل وجه هيوداميا الندى نار الغرام في فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطوري الذي لعبت الخمر برأسه فاستسلم لشهواته المحتدمة ، وقام فقلب الموائد وأثار الفوضى في الحفل وقبض في شراسة على هيوداميا . وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالى صراخ النسوة ، وصاح نيسيوس قائلاً : « أمسك الجنون يا يوريتوس فإذا أنت تعتدى على پيريثوس وأنا حي بعد ، فأنرت غضب اثنين باعتدائك على أحدهما » ، وتقدم فأنقلد العروس من بين يدي يوريتوس الذي سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدى للبطل وسدد له ضربات بقبضتيه القويتين أخلعت تنهال على وجهه وصدره . فاستدار البطل إلى كأس عريق كان قائماً فوق المنضدة نتأت زخارفه البارزة فأخلده وطوح به في وجه القنطور فشج رأسه الذي طفح بالدماء وأسال دمه من جرحه ومن فمه معاً ، فسقط على ظهره وقوائمه تترنح في الهواء وتلافيف تحه تحتلط بالنبيذ المتدفق على الأرض . عندها احتدم غضب جماعة القنطوري وقد منحتهم الخمر جرأة وهرعوا صائحين « إلى السلاح . إلى السلاح » ، واحتدم القتال فإذا الكتوس تتحول إلى أدوات تراشق تنطير عبر البهو بعدما كانت وسيلة متعة .

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح المقدس فاقتحمه وحمل شمعداناً متعدد الأذعة مليئاً بالشمعات المتقدة ، وشهره كما يشهر الكاهن السكين التي ينحر بها القرابين ثم هوى به على رأس اللايث كيلادون فحطم عظامه وشوه وجهه ، فقد برزت عيناه خارج محجريها وغار أنفه داخل حلقه . غير أن پيلاتيس تصدى لأميكوس ويده رجل من أرجل منضدة فقهره بضربة دفعت بدقته داخل صدره ، وانثبق الدم من جسده وفمه ، ثم بعث به إلى عالم الموتى بضربة أخرى .

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متقدة وهو يقول : « ولم لا أأخذ من هذا عذة أستعين بها ؟ » ثم ألقى بها وسط جماعة اللايث فاودت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذي أجمع الناس على أن أمه ميكالي كثيراً ما جعلت بمؤذاتها ورقاها الهلال يهوى من السماء على الرغم من استعصائه ، وعندئذ صاح به إيكزاديبوس : « لو أن سلاحي في يدي لما أفلت من العقاب » وانتزع قرن وعمل كان معلقاً بشجرة صنوبر وجعل منه رمحاً دفع به في عيني جرينيوس فاقتلعها ، والتصق شيء من لحمها بالقرن بينما

سال سائره على لحيته وتدلّ منها ممتزجاً بالدم المتخثر فوقها . والتفت رويتوس إلى شعلة من شعلات الهيكل المتقدة فأمسكها وهشّم بها رأس خاراكسوس المغطاه بشعره الأشقر ، وأشعل النار في رأس جاجنيس التي احترقت وكأنها العشب الجاف ، وأخذ الدم في جراحه يفهق كما يفهق الحديد المحمى حين يُسقى بالماء . ٢٨٠
لكن خاراكسوس الجريح هزّ رأسه المشتعل وانتزع عتبة الباب الحجرية وحاول أن يقذف بها خصمه إلا أنها هوت من بين يديه على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطمت . وتملّكت الفرحة رويتوس فصاح : « ليت الباقون ينتفعون بقواهم كما انتفعت بها أنت » ، وأمسك بالغصن المحترق واستأنف هجمته محطماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثني وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللّزج .

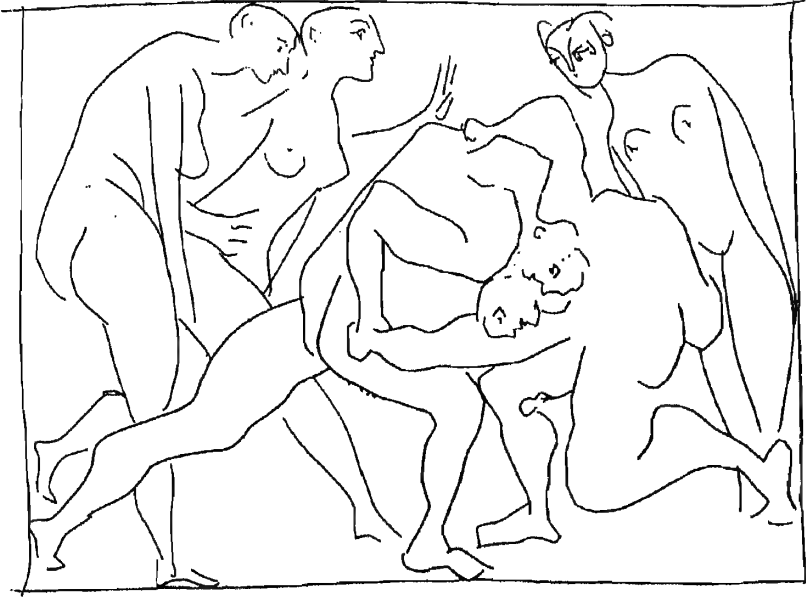
واستدار نحو إيفاجروس ودراباس وكوريتوس ذلك الشاب الغض الذي بزغت شعيرات عذّاره في وجنتيه فألقاه صريعاً ، فصاح إيفاجروس في القنطور : « أى مجد تحقّقه بالانتصار على هذا الصبي ؟ » فأسكتته رويتوس بدسّ قضيب محمى في فمه الفاجر تأهباً لاستكمال الحديد وأنفذه من فمه إلى صدره . ثم أخذ بهذا القضيب المحمى يُضيق على دراباس وما استطاع قهره على الرغم مما كانت له من انتصارات على من سبقوه ، فقد استطاع دراباس أن يغرس غصن شجرة محترق في مكان التقاء عنقه بكتفه فأطلق رويتوس أنيناً عالياً ويذل غاية الجهد حتى انتزع الغصن من عنقه ، وأسرع بالفرار والدم يتدفق غزيراً من جرحه .
ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون المجروح الكتف اليمنى ، ونحا نحوهم ثارماس وبيسينور وميرميروس تتفعل الجراح خطاه مع أنه برّ منافسيه عدواً من قبل ، ثم انفلت في إثرهم فولوس وميلاتيوس وآباس صياد الخنازير البرية وأستيلوس العراف الذى حاول أن يُثنى رفاهه عن القتال غير أنه لم يفلح . وصاح لينيسوس في نيسوس مهيباً به بعد أن رآه يحجم خوف أن يُصاب « ليس بمُتجك أن تولّى الأدبار ، فسيملّ القدر في عمرك إلى أن يودى بك سهم هرقل » . غير أن يورينوموس وليسيداس وآريوس وإمريوس لم يفتلوا من الموت إذ أودت بحياتهم ضربات دراباس فوق وجوههم ، كما تلقى كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب .

ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أفيداس وهو مضطجع على جلد دب اقتنته فوق جبل أوّساً ممسكاً كأس نبيذ في يده المتخاذلة . فما كاد يلمحه فورباس من بُعد حتى انقضّ عليه برمحه الذى أنفذه في رقبته صائحاً به « تجرّع هذا النبيذ ولسوف تجرعه ممزوجاً بمياه نهر ستيكس » ، ولم يمهله فرماه بسلّاح سنانه من حديد وساقه من خشب الزان وأنفذه في عنقه . وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلّاحه فأشرف على الموت وما درى أنه مُشرف عليه ، وتدفّق دمه أسود فملاً كأسه وغمر فراشه .

ورأيتُ بعيني بيترايوس يحاول أن ينتزع من التربة شجرة بلوط ضخمة وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة ليقتلعها من جذورها ، فانقضّ عليه بيريتوس من الخلف وأنفذ في ظهره حربه فمزقت ضلوعه وأصبقت صدره بجذع الشجرة ، وصرع بيريتوس كلاً من ليكوس وكروميس ، ثم حقق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ غصناً في رأس هيلويس محترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى ،

ومضى يطارد ديكيتيس الذى فرّ مدعوراً حتى سقط فى هوة سحيقة تحطمت ضلوعه على أسنان صخورها المذبذبة .

٣٤٠ وقد حاول أفاريوس - وكان على قرب - الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوى بها على خصمه ، غير أن ثيسبيوس عاجله بضربة من غصن شجرة بلوط حطمت ذراعيه ، ولم يُشغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه ، فلقد غدا عاجزاً ، وأسرع يقفز على القنطور بينور ثم غرس ركبته فى ضلوعه وجذب شعر معرفته الغزيرة إلى الخلف بيده اليسرى ، بينما هشم باليمين عظام وجهه بهراوته ذات الأُتُن [العُقَد] . ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها نيديمينوس وليكوتاس الماهر فى تسديد الرماح ، وهياسوس ذا اللحية المرسلة على صدره ، وريفبيوس الذى يفوق الأشجار طولاً ، وثيريوس صائد الدببة على سفوح جبال تيساليا الذى كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة لافتراسه إياها .



بيكاسو : اعتداء القنطورى على اللايث

٣٦٠ وضاق ديموليون بانتصار ثيسبيوس فحاول انتزاع شجرة صنوبر ضخمة لم تستسلم له فجزّ أحد فروعها ورمى به ثيسبيوس الذى ألهمته الربة باللاس أن يتفاداه - أو لعل هذا ما يريدنا ثيسبيوس أن نصدّقه - فانطلق الفرع إلى كراتنور الفاره الطول ففصل عنقه عن صدره وكشفه اليسرى ، وكان كراتنور هو حامل عُدّة أيك الحربية يا أخيل يوم قَدَّمها أمتنور كبير شعب الدولويس ضياعاً للسلم بعد هزيمته على يد أيك . وإذا شاهد أبوك بيليوس مشهد كراتنور بجرحه الرهيب الذى شطره إلى نصفين صاح « لسوف أنقم لك

يا كراتنور ، يا أعزّ جنودى إلى » ، وسدّد بيده التى زادها الغضب قوة حرية ذات ساق من خشب الدردار إلى القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت فى عظامه وهو يضطرب من قوة اندفاعها . ونجح القنطور فى انتزاع مقبض الحرية الخشبي دون أن يُخرج نصلها الحديدي المستقر فى رثتيه ، ومع ذلك تحرك القنطور وقد عاودته قوة جديدة وأخذ يبطأ بيليوس بحوافره ، وبيليوس يتلقى الطعنات بخوذته وترسه يحمى بها جسده ، إلى أن استطاع أن يُنفذ خنجره فى صدر القنطور . وكان بيليوس قد صوّب قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينوس وكلائيس ، ثم ألحق بهما دوريلاس الذى كان يعتمد بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه ، ويمسك بقرنى ثور مقوسين جعل منها حربته القائلة التى كم تلتطخت قبل بالدماء ، وقلتُ له ساعتها وقد ملأنى الغضب قوة : « انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك لحربتي » . ولم ألث أن سدّدت ضربة إلى جبهته لم يستطع تفاديا فرفع يده يحمى بها جبينه ، فنفلت الحرية مخترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة مدوية ، وخلفه جرحه القاسى عاجزاً عن الحركة . وكان بيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه طعنة مرّقت بطنه ، فقفز القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد .

ووسط المذبحة الدائرة لم يشفع للقنطور كيلاروس جماله بلحيته الذهبية التى كادت أن تنزع وشعره الذهبى المنسدل على الكتفين حتى منتصف خصريه . ولم يكن نصفه الأسفل الذى على شكل الفرس والسليم من العيوب أقلّ جمالاً من نصفه العلوى ، ولو كان فرساً كامل التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور فخر الفرسان ، إذ كان ظهوره خليقاً بأن يعلوه أقدر الفرسان كما كان صدره مفتول العضلات . وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو فى قسبات وجهه وفى عنقه وكتفيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسانى جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التى يُهَيّر بها الناس ويعجبون . وكان جُلّه أشد سواداً من حلقة الليل ، بينما كانت قوائمه وذيله فى بياض الثلج . ومع تراحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يمل إلا لأجلهن وهى هيلونوميى التى ملكت أن تسلبه لُبّه بحنانها ورقتها وبحبها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها ، فكانت تصفّف شعرها بالمشط ، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحصى البان تارة أخرى ، وأحياناً بتيجان تيشها من الزنبق الأبيض . وكانت تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفقة من غابات پاجاساى ومرتين تغطس بجسدها فى مياهه ، وتغطى كتفها بأفخر فراء الحيوانات البرية التى تتنقيها . وقد هام بها كيلاروس كما هامت به ، وكانا يتجولان معاً فى الجبال ، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما . وكانا قد ذهبا معاً إلى قصر ملك اللايث ، وإذا هما يشاركان فى تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان ، وفجأة انطلقت حرية من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى ففلتت فى ملتقى صدر كيلاروس بعنقه ، ومع أن الجرح الذى أصاب القلب كان هيئاً إلا أن جسد القنطور كان قد فقد الاحساس وغشيتته برودة الموت بعدما انتزع السهم منه . وأسرعت هيلونوميى باحتضان حبيبها المحتضر ، ووضعت يدها على الجرح محاولة كبته ، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس لتمنع روحه من أن تفارق جسده ، ولكنها ما إن رآته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوية ونذت عنها كلمات حالت صرخات المحاربين بينها وبين سماعيها ، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذى به مات زوجها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها .

وما تزال تتمثل أمام عيني حتى اليوم صورة فايوكوميس الذى كان قد دثر جسده الحصانى وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض ، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يشقُّ على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها ، وألقى بها على تيكثافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاه إلى أسفله ، وتهشمت جمجمته العريضة وانساب عصارة مخه خيوطاً من فمه ومنخريه وعينيّه وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة ، أو كما يقطر العصير من ثقب معصرة ثقيل ضاغطها ، غير أنى تقدمت لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المتهالكة وغرست سيفى فى فخذ ذلك العدو الظافر - وأبوك شاهد على صحة ما أقول - وكذلك هوى خثونيوس وتيليپواس تحت ضربات سيفى ، رغم أن أولهما كان مسلّحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّين ، وثانيهما بحربة استطاع أن يصيبى بها ، وهما أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثلاً فى هذه الندبة القديمة التى ما تزال واضحة للعيان . ولقد كان الأجدر فى تلك الأيام الحوالى أن يوفدون فى حملة لغزو پرجامون^(٨) [طروادة] ، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحت بأسلحتى فى وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه ، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد ، أو لعله كان ما يزال طفلاً . أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواى .

بماذا أحذّك ؟ أقصص عليك كيف تغلب پريفاس على القنطور پيرايثوس ؟ أو كيف دفع أمييكس حربته المنحوتة من خشب القرايا رغم فقدتها لطرفها المسنون فى وجه إيكيتلوس المنتصب على أربعة قوائم ؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدوبوس من پيليثرون بغرس وتد فى صدره ؟ وما زلت أذكر كيف رمى نيسوس حربة صيد استقرت فى ملتقى فخذى سيميلوس ، ولا تحسب أن موبسوس بن أمييكس لم يكن سوى عرّاف فقط ، فإن حربته هى التى أردت القنطور هوديتيس الذى حاول عبثاً النطق وهو ملقى على ظهره ، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة فى فمه .

٤٦٠ وخلال ذلك كان كايينوس قد أقى على خمسة من الأعداء هم : ستيفيلوس وبروموس وأنتياخوس وإليموس وپيراكتيس المسلح بالبلطة ، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أنى أذكر أساءهم وعددهم . ثم انطلق لاتريوس الفارع الجسد القوى الأطراف مسلّحاً بما غنمه من هاليسوس المقدونى إثر قتله ، وكان يعيش فى زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة ، يتدفّق فيه ريعان شاب وإن ونخط الشيب فوديه ، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية ، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راكضاً مرات عدّة فى دائرة محدّدة ، ثم تحدّث قائلاً فى خيلاء : « حتى أنت يا كايينس ، كيف لى أن أصبر على وقاحتك ؟ أنت كما عهدتك لا تزال امرأة وستظل كذلك فى نظرى ، فهل أنسيّت الهيئة التى وُلدت عليها ، أم أنسيّت الفعلة التى أتيتها والتمن الذى دفعته كى تستحيل رجلاً زائفاً ؟ أذكر الهيئة التى وُلدت عليها ثم أبحث عن سلّة من خيوط الصوف واجدها بإيهامك ، واترك شئون الحرب للرجال » . وحين استمع كايينوس إلى هذا الحديث المهين شهر حربته وهوى بها على القنطور حيث مَرَّجِل نصفه البشرى مع نصفه الحصانى ، فشقَّ جذعه وهو يشرب عالياً متأهباً للانقضاض عليه . وجنّ لاتريوس تحت وطأة الألم وضرب بحرته هذا

الوجه العارى لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس ، غير أن الحرية ارتدت ثانية كما ترتد حبات البرد من على السطح الذى تسقط عليه ، أو كما ترتد الحصاة عن سطح طبل أجوف . ثم دنا من كايينوس محاولاً ٤٨٠ غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه . ولكن لاتيوس صاح : « على الرغم من هذا فلن نُفَلت منى وسأقتلك بنصل سيفى وإن تُلَمَّ سنة » ، وشرع سيفه ليهوى به على فخذى كايينوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة ، وإذا السيف يرسل رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام ويتحطم وتتناثر أجزاؤه على الجلد الصلب . وبعد أن تعرّض كايينوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن يُصاب بأذى صاح فيه قائلاً : « والآن لنر ماذا سيكون أثر سيفى فى جسدك ؟ » وما لبث أن غرس سيفه الفتاك فى فخذى القنطورى حتى مقبضه وأخذ يديره ويحركه فى أحشائه وهو يُحْدث فيه جرحاً بعد جرح ، فاستشاطت جماعة القنطورى غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كايينوس يطعنونه بأسلحتهم غير أنها كانت تسقط من أيديهم مثلومة الأطراف . وبقي كايينوس بن إيلاتوس سليماً لم يصب بخدش ، فبُهِتَ مهاجموه لهذا الأمر الغريب ، وصاح مونيوكوس قائلاً : « يا للعار ، أينهم شعب بأسره أمام رجل وحده ، بل هو أقرب أن يكون رجلاً ، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجل حقاً . ولقد غدونا نحن بَجْبُنًا دواب على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً . فما نفع أطرافنا القوية وقوتنا المزدوجة ؟ ولم إذن ٥٠٠ جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات ؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء إيكسيون الذى ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضى جونو المتعالية مادما نسقط هكذا ضحايا عدو لا يعدو أن يكون نصف رجل . دَحْرَجُوا فوق جسده الصخور والأشجار والجبال ، وغطّوه بالغابات حتى تمحّد روحه المتشبّعة بالحياة ، ولتدقّ الأشجار عنقه ، ثم ليقض عليه ثقلها كما تقضي عليه الجروح » . وأمسك وهو يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريح جنوبية عاتية وقذف بها خصمه الباسل ، وتبعه آخرون فى اقتلاع الأشجار ، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل بيليون ظلال غاباته ، ودُفِنَ كايينوس تحت ثقل كومة هائلة من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكففيه القويتين ، غير أن تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطّى رأسه أخذ أنفاسه فإذا قواه تنحور ، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة ٥٢٠ الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك ، وكأنما نزل زلزال رهيب أخذ يهزّ جبل إيدا العظيم . ولا تعرف حقاً ماذا حدث بعد ذلك ، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم تارتاروس . غير أن موبسوس بن أمبيكس نفى هذه القصة ، وقال إنه رأى طائراً بجناحين أسمرين يُفَلت من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء ، وقد رأيت أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذى لم أر له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، وحين رآه موبسوس يخلّق تحليقاً لا عُسْر فيه فوق معسكره ويصرخ صرخات عالية جعل يلاحقه بعينيه وفكره فى طيرانه ، وصاح فيه قائلاً : « سلاماً لك يا كايينوس يا فخر جنس اللايث ، يا من كنت يوماً بطلاً صنديداً ، وصرت الآن طائراً فريداً » . ولما نعرفه من هيئة موبسوس صدقنا ما قال ، وضاعف الحزن غضبنا المحتدم لأن عدداً كبيراً من الأعداء قد احتشدوا على رجل واحد وظفروا به ولوّحنا بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا ، ولم نتلبّث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا ، وأقلت الباقون فراراً مخفّين فى ظلمة الليل .

پیریکلیمنوس

۵۴۰ واستشاط تليوليوموس غضباً لأن ملك پيلوس قد روى معارك اللايث مع القنطورى أنصاف البشر دون أن يتحدث عن هرقل فصاح قائلاً : « عجباً سيدى ، أفضت وأنسيت ما أبداه هرقل من ضروب البسالة ، مع ثقى فى أن أبى قد قال أكثر من مرة أنه هو الذى هزم تلك المخلوقات وليدة السحب السهاوية » . فأجابه نسطور بنبوة حزينة قائلاً : « لم تضطرنى إلى أن أستعيد أحداثاً تثير الأسى ؟ ولم تدفعنى لأنكأ جراحاً التامت مع الزمن ، وأتحدث عن أبيك مع كراهيتى إياه بعدما لحق بى الكثير من الأضرار بسببه . حقاً إنه أتى من الأمور - كما تعرف الآلهة - ما يفوق التصور ، وملأ الدنيا بمغامراته [وليس من شأنى أن أنكر هذا] ولكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه^(٩) ، فمن هذا الذى يمتدح أعداءه ؟ نعم لقد هدم أبوك مرةً جدران ميسينيه ومرة أخرى دمر مدينتى إليس وپيلوس اللتين لم تجنبا جناية ما ، كذلك أحرق بيتى بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على من فيه بحدّ سيفه ، ولئن أذكر شيئاً عن قتلاه العديدين ، وحسبى أبناء نيلئوس الاثنى عشر ، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء نيلئوس ، لكنه بطش بهم جميعاً سوى ، ولو أننا سلمنا هزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجبياً ، ذلك أن نبتون مؤسس سبط نيلئوس قد رزق ذلك الصبى بقدرة يقوى بها على أن ييدوفى أية هيئة يشاؤها وأن يخرج عنها حين يريد . ولقد تبدّل فى الهيئات كلها حذراً من هرقل ، غير أن ذلك كله لم يجده نفعاً .

۵۶۰ فقد جعل نفسه الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذى يحمل بمخالبه المحذبة صواعقه ، وأخذ ينهش وجه هرقل بمنقاره المعقوف ويخطبه بجناحيه ومخالبه ، فتصدى البطل الترنثى له بأن شدّ قوسه إلى صدره وأطلق سهمه الذى لا يخطئ أبداً ، فنفذ فيه وهوبين السحب عند منبت جناحه . ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن العضلات الممزقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران ، ولم يقو جناحاه المتهاويان على التحكّم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذى كان عالقاً بجناحه ، فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر . أو تظن أن من واجبى بعد ذلك أن أثنى على هرقل أيها الرّبان الوسيم لأسطول رودس ؟ ومع ذلك فكل ما أثار به لأخوق أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة ، لأن الصداقة التى تربط بينك وبينى وثيقة » .

وبهذه الكلمات التى جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة اختتم قصته ، ودارت كثوس النبيل ثانية ، ونهض الجالسون عن المائدة لبأوا إلى مضاجعهم ما بقى الليل .

موت أخيل

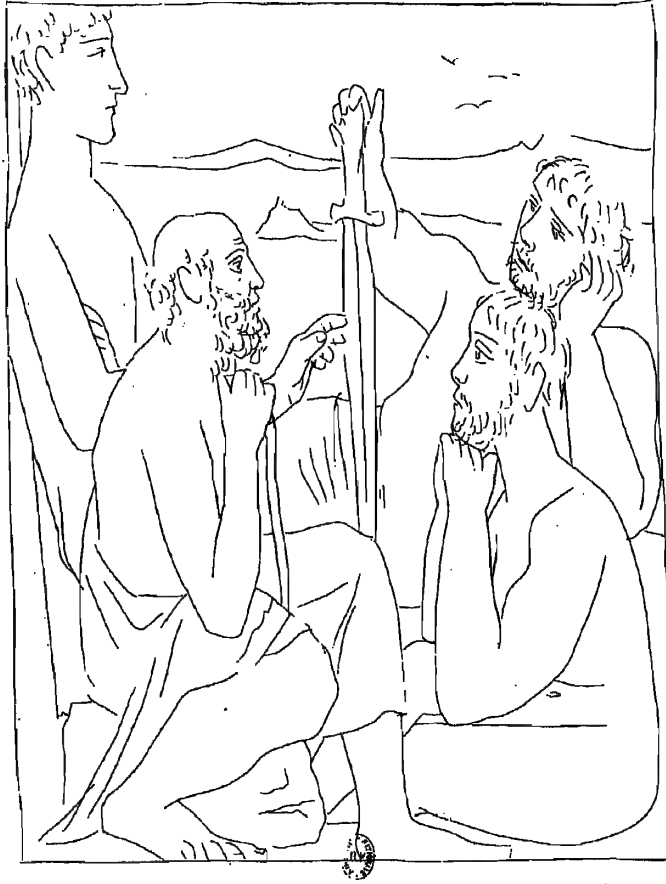
استبدّ الحزن بالإله نبتون الذى يسطر سلطانه على أمواج المحيط بصورلجانه الثلاثى الشعب لمصرع ابنه سيجنوس الذى مُسّخ بجعة من بجعات فايثون ، فأخذ يستنزل اللعنات على أخيل القاسى القلب

ويغلي غضباً على خصمه . وأخيراً ، وعندما طالت الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرين أخذ في الحديث مع أبوللو المسترسل الشعر قائلاً « يا أعزّ أبناء أخى عندي ، يا من شاركتمني في بناء أسوار طروادة دون أن تحبوني من ورائها نفعا ؟ ألم يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيدة تشرف على الزوال ؟ ألم يحزنك مصرع الآلاف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها ؟ ألم يترامى لعينك طيف هكتور — من بين القتلى — وجهته تُجرّ على الثرى مرة بعد مرة حول برجامون مدينته الحبيبة ، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة ، هذا البطل الممجى الوحشي الذي هدم ما شيدناه ويسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب ، فليأت إلى ولسوف يرى ما سننزل به حربتي ذات الشعب الثلاثة ! ولكن طالما أني لا أجد فرصة لملاقاته وجهاً لوجه فلتبتطش أنت به بسهم خفي من سهامك لا يُدرى من أين أتى » .

ووافق أبوللو إله جزيرة ديلوس مستملياً من كراهته لأخيل التي لم تكن تقبل عن كراهية عمه له ، فطوته سحابة ثم هبط منها في صفوف الطرواديين . ولح وسط المعركة باريس وهو يصوب سهمه إلى محاربين يونانيين لا شأن لهما فكشف عن نفسه لباريس وقال له : « لم تبذل سهامك في سفك دماء العامة ؟ إذا كنت تُعزّ أقاتريك فلتبذّر وجهك نحو حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقائك الصرعى ! » وأشار أبوللو إلى أخيل وهو يُحدّث باريس وكان أخيل ساعتها يحصد بسيفه أعناق محاربى طروادة ، ثم أدار أبوللو قوس باريس ناحية البطل اليوناني ، ووجه يده الباطشة سهماً أصاب في التّو هدفه ، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها بريام منذ مصرع ولده هكتور . وهكذا لقي أخيل قاهر الأبطال ذائمي الصيت هزيمته على يدى جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها . لعمري لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً في حومة الرغوى على يد أنثى^(١١) لآثرت الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون^(١٢) . ها هو ذا البطل الذي كان يثير الفزع بين الطرواديين يغدو طُعمةً للنيران وهو من كان فخر اليونانيين وزعيمهم المظفر في ساحات القتال . وأشرف على حرق جثته في المحرقة الإله الذي كان قد صنع له سلاحه ليخوض به الحرب^(١٣) واستحال أخيل العظيم رماداً ، ولم يبق منه غير تلك الحفنة التي لا تكاد تملأ وعاء صغيراً ، غير أن أمجادها عاشت من بعده حيّة في أسماع العالم ، فكانت شهرة ابن بيليوس ليست دون عظمتها وكان بهما جديراً ، كما أنه بعد أن ترك الحياة لم يعبأ بوحشة تارتاروس . وكم أثار ثمرسه المعارك بعد موته واحتدم الصراع من أجل الظفر به ، كما أثار سلاحه العراك للظفر به . على أنه لم يجرؤ على المطالبة بترسيه ابن تيديوس ولا أجاكس بن أويليوس ، ولا أصغر أبناء أتريوس ، [أجائمنون] ، ولا أخوه المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً [منيلاوس] . ولم يثن أحدٌ بجدارته لطلب هذا المجد سوى أجاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس . وعرف أجائمنون سليل تانتالوس كيف يُخلّص من مهمة قد تُجرّ عليه الأحقاد ، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر وجعلهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسين .

التعقيبات

- (١) شجر الدَّلب .
- (٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريبيدس : « إيفيجينيا في أوليس » .
- (٣) تنبأ عَراف يوناني بهلاك أول يوناني يبيط على شاطئ طروادة فقَدَم بروتيسيلوس نفسه قرباناً لتلك النبوءة وسقط بسهام هكتور . وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسبونت ، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذي يسجل اسمه قد اكتشف مؤخراً في حفائر طروادة .
- (٤) انظر الكتاب الحادى عشر .
- (٥) ليس المقصود هنا الدرع الذى اعطاه هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذى وصفه هوميروس في الكتاب الثامن عشر من الإلياذة ، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأچاكس [انظر مستهل الكتاب الثالث عشر] .
- (٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق في حصار طروادة ، وكانت ليريسوس مدينة في مملكة ميزيا بأسيا الصغرى ، وتندوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطئ الطروادى ، وأطلق أوفايد على نبيه اسم طيبه ، وهى مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس في ميزيا ، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماتى الذى قتله أخيل مع أبنائه ، أما الكاياكوس فهو اسم نهر في ميزيا .
- (٧) كان لنسطور أحد عشر ابناً قتلهم هرقل مع أبيهم ، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أبوللو الحق في أن يحيا مجموع عدد السنين التى كان مقدراً أن يحياها إخوته لو استكملوا عمرهم . لذلك يقال إنه عاش ثلاثمائة سنة .
- (٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق ، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه ، فيزهو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها في تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء .
- (٩) ديفوبوس هو شقيق هكتور ، وپوليداماس هو ابن پانتووس وكلاهما مذكوران في الإلياذة . وقد اتخذت الإلهة أثينا شكل ديفوبوس لتطمئن هكتور الذى كان يطارده أخيل ولتعيده إلى المعركة حيث كان مقدراً له أن يموت . أما پوليداماس فهو الذى نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه .
- (١٠) يشبه أوفايد هنا باريس بامرأة احتقاراً لشانه .
- (١١) الثيرمودون نهر صغير يصب في البحر الأسود ويسرى خلال بلاد الأمازونات في پونتوس على شاطئ البحر الأسود ، وكانت مليكتهن پتيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت في المعركة بأخيل الذى قضى عليها .
- (١٢) فولكانوس أو هيفايستوس هو إله النار والحداة ، وهو الذى صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعطه للمقاتل كما أحرقه فيما بعد بلهبه فوق محرقة الموتى .



بيكاسو: أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

الكتاب الثالث عشر

أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

جلس القادة وسط جماهير الجند الذين اصطَفَوْا وقوفاً ، ونهض أجاكس صاحب الترس المصنوع من جلود ثيران سبعة وأخذ يخطب فيهم مُرغياً مُزبداً وعيناه عالقتان بشواطئ سيجيا وبالسفن الراسية

عندها ، ولوح بقبضة يده وهو يصيح : ها أنذا أمام سفن الأسطول يا جوبيتر أذفع عن قضيتي أمام من جرعوا على أن يسووا بيني وبين أوديسيوس ! هذا الذي قرأ هاربا من نيران هكتور^(١) بيننا اقتحمتهما أنا لأدفعها بعيداً عن سفننا ، والذي يؤثر المقارعة بالحجة على المجاهدة بالسيف ، فقصاحته في الخطابة تعدل بأسى في القتال وإنى لأراغب عن منازلته بالكلام على قدر ما هو راغب في تجنب منازلتي بالدرع . على أن ما أنجزته من أعمال ليس في حاجة إلى أن تفصح عنه كلمات فقد شهدتموها أيها اليونانيون ، وما أعوز أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التي لم تشهدا سوى ظلمة الليل . وإن الجائزة التي أطمع فيها لعظيمة ، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يفقدها كل قيمة ، ولن يباهى إياكس بجائزة مهما عظم شأنها إذا ما تطلع إليها أوديسيوس . وها هو ذا الآن يظفر بمجد كبير ، لأنه بعد هزيمته أمامي سيغدو من المشهورين ، إذ قد جعل نفسه نذراً لى . ٢٠

وإذا كان ثمة شك في شجاعتي فإن لى إلى جانب ذلك سنداً قوياً هو نبل تختدى ، فانا ابن تيلامون الذى اقتحم أسوار طروادة في رفقة هرقل الشجاع ، كما أفلح في سفينة الأرجو التي بُنيت في باجاساي حتى بلغ شواطئ كوخيس ، ثم إن جلى هو إياكوس الذى يفصل بعدالته بين الموتى الهامدين في المملكة التي يتعذب فيها سيزيفوس بن أيولوس مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف جوبيتر كبير الآلهة بأبوته لإياكوس وهو ما يجعلني من الرعيلى الثالث لأحفاد جوبيتر . وما كان لى أن أزج بهذا النسب في قضيتي هذه لولا أنه نسب أخيل العظيم ، فلقد كان أخى وابن عمى ، ولهذا فإننى أطلب بميراثه . وأما أنت يا أوديسيوس يا من تشبه جدك سيزيفوس في الغش والخداع فكيف تستطيع إقحام اسمك في أسرة إياكوس وأنت غريب عنها ؟ . أو ترفضون أنتم منحى هذه الأسلحة وقد سبقته إلى ميدان الوضى دون أن يستحقني أحد ؟ أو تفضلون آخر من حمل السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التي فضحت جُبته إنساناً أشد دهاءً منه . لقد كان بالاميديس بن ناويليوس هو الذى حمل أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ من الحرب : أبحق له أن يحمل تلك الأسلحة العظيمة بعد أن كان يعزف عن حمل السلاح ؟^(٢) وهل أحرّم أنا من إرث قريبي لإقدامى على المخاطرة منذ البداية ؟ ليتنه كان مجنوناً حقاً أو ليتنه بقى كذلك بين الناس ! وليتنا لم ننسق إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريجية ! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن بوياس في ليمنوس حيث يقال إنه يأوى إلى أحد كهوف الغابات محرّكاً أشجان الصخور ببكائه وضراعتة للآلهة أن تنزل بابه لاييرتس [أوديسيوس] ما يستحق من جزاء^(٣) ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلا بد أن يستجاب لهذا الدعاء . ٤٠

إن هذا المسكين المنكود الحظ الذى خرج معنا مقسماً بين الولاء لقضيتنا وهو من قادة اليونان وورث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من ثياب غير ريش الطير ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن يرميها بسهامه ، تلك السهام التي كان عليه أن يقضى بها على طروادة . ومع ذلك فهو ما يزال حياً لأنه لم يصاحب أوديسيوس في سفينته . كذلك كان بالاميديس التعس يتعمى لو خلفناه هو الآخر في ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يرمى بتهمة ظالمة ، ذلك أن خصمى يذكر جيداً أن بالاميديس ٦٠

قد مرَّغ اسمه في الوحل حين كشف عن ادعائه الجنون ، ولم يغفرها له أوديسيوس فأنه زوراً بخيانة الإغريق ودلَّ على هذه التهمة بتقديم سيائك ذهب كان قد خيَّأها في مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع أوديسيوس أن يوهن من قوة الأخيين بنفى البعض وقتل البعض الآخر ، وكان هذا أسلوب أوديسيوس في الحرب ، وهذا الأسلوب نفسه كان يروُّع من حوله .

ومع أنه يملك من البلاغة ما يميِّز به نسطور الوقي فإنه لن يستطيع إقناعي بأنه لم يرتكب خطأ حين هجر نسطور العجوز الذي أرقه الإعياء وكان جواده جريحاً فتوسل إليه أن يساعده فلم يستجب لرجاء من كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أنني لا أخلق هذه الاتهامات ، فقد نادى على أوديسيوس باسمه مرات عدَّة ونعى عليه ذعره وهربه ، غير أن الآلهة ترعى أمور البشر من عليائها بالعدل ، فما هو ذا من رفض مساعدة نسطور تُعوِّزُه هو نفسه المساعدة ، وكما تخلَّى عن غيره كان طبعياً أن يتخلَّى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصيح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعَتْ إليه فرأته شاحب الوجه يُرعد فزعاً وذعرأ من الموت الذي يتهدِّده ، فحميته بترسي وهو جاث على الأرض وأنقذت حياة هذا الجبان ، وإن كان هذا في نظري أمراً تافهاً لا أحفل أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصرّاً على منافستي في الاستحواذ على هذه الأسلحة فلتعد معي إلى حيث أنقذتكَ من يد الأعداء ، لتعد بجرحك وصراخك المدويِّ وهاك ترسي لتخبيء خلفه وحاول وأنت في حمايته أن تبارزني . إنني لم أكُد أيها السادة أنترع هذا المحارب مما يحقُّ به من خطر - وكان جرحه قد أوهن قواه فلم يعد يقوى على الوقوف - حتى أخذ يجرى هارباً بعوني كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العدو . وتقدم هكتور إلى المعركة في صحبة آلهته ، وكان يثَّ الرعب حيث مضى لا في قلبك وحدك يا أوديسيوس بل في قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشدَّ الهول الذي يصاحبه في خطوه ، وقد استطعت أنا في اللحظة التي كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قذفته من بُعد بكتلة ثقيلة من الصخر ، حتى إذا تقدم يطلب الزوال انبريت له وكنت الوحيد الذي جرؤ على ذلك . وقد تضرَّعتُم للآلهة أيها الأخيون أن يقضى الاقتراع باختيارى لمنازلته واستجابت الآلهة لضرعتكم ، أتريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المباراة ؟ إن هكتور دون ريب لم يتغلب عليَّ . وأين كان أوديسيوس حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران في حماية چوبيتر ؟ لقد وقفت أحمى بصدرى سفنكم الألف التي كانت محط آمالكم في العودة إلى الوطن . من أجل هذه السفن العديدة ، أعطوني إذن هذه الأسلحة .

وإذا سمحتُم لي أن أقول الحق كله فإن أسلحة أخيل تترقَّب النصر على يدَيَّ أكثر مما أتقَّب أنا منها فمجدها متصل بمجدي اتصالاً وثيقاً ، وإن السلاح هو الذي يُيِّب بأچاكس ، وليس أچاكس هو الذي يُيِّب بالسلاح ، وليُقبَل أمير إيثاكا الذي لا يزن شيئاً [أوديسيوس] وليقارن بين ما أنجزت وما أنجز ، وليحدِّثنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الخانع وعن أسره لهيلينوس بن پريام ، وسرقة « للبالاديوم » ذلك التمثال المقدس في معبد باللاس . إنه لم ينجز شيئاً قط في وُضِعَ النهار ، ولم يقدم على عمل دون عون ديوميديس ، فإذا ارتأيتُم أن تكون هذه الأسلحة ثمناً لمثل هذه التفاهات فاجعلوها بينها وليكن لزميله

ديوميديس أكبر النصبيين . ولكن ما جدوى منح هذه الأسلحة لابن إيثاكا الذى لا يتحرك إلا فى الظلام ولا يصل إلا بالخدعة إلى العدو قليل الحيلة . وإن بريق خوذته الذهبية هو الذى سيكشف حركته وهو مختمى فى الظلام ، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها ، كما لن تستطيع ساعده المنهكتان حمل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون ، وستثقل الترس المنقوشة عليها صورة الكون بأسره على يده اليسرى المتخاذلة التى لا تحقّق إلا السرقة والخطف . كيف تطمع فى عطاء لن يزيدك إلا ضعفاً ؟ وما أشد فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة ، فما أيسر عليه أن يسلبك إياها لا أن يهاها وهى فى حوزتك ! قد يكون الفرار هو ميزتك الوحيدة يا أجبن الجبناء ، لكن سرعتك سوف تنه إذا حملت مثل هذه الأسلحة الثقيلة . ولتنظر إلى ترسك الذى لم يُختبر فى القتال إلا لاما ويبدو وكأنه لم يُمس ، بينما يحمل ترسى ألف أثر من ضربات السيوف التى تعرّض لها وما أوجهه إلى أن يستبدل به غيره . ثم ما أجدرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال ، فلتلقوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء ، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق من يعود بها .

وأخلد ابن تيلامون إلى الصمت وسرت تهمّات التقريظ بين الجميع حتى نهض ابن لايرتيس [أوديسيوس] واقفاً ، فأرخصى بصره قليلاً ثم رفع رأسه وجال ببصره بين قادة الجيوش ، وانفجرت شفاته استعداداً لأن يخطب ثم بدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير وقال : « أيها الإغريق . لو كانت الأقدار قد رعت آملنا جميعاً لكننا الآن فى غنى عن الخوض فى أمر هذا الإرث ، ولبقيت يا أخيل بيننا حياً حاملاً أسلحتك ولكنا أكثر سعادة بوجودك بيننا . ولكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يتّقى بطلنا بيننا [وهنا تظاهر بمسح دُمعة جرت من عينيه] فمن أحق بخلافة أخيل سوى من نصّب قائداً لجيوش الإغريق ؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألا يستميلكم خصمى إليه ، وهو كما يبدو فظ القلب غليظه [وهذه حقيقة لا مرأى فيها] ، كما أرجو ألا يستثيركم أحد على لذكائى الذى لم أستخلمه قط إلا لنفعمكم أنتم . فلا تدعوا بلاغتي - إذا صحّ وصف حديثي بالبلاغة - تنقلب سبباً لبُغضكم لئلاى ، فلسانى الفصحى يدافع الآن عن صاحبه الذى طالما دافع عنكم ، أو ليس من حق كل امرئ أن يستغل الملكة التى وهبها ؟

إن نبل أنسابنا ومآثر أجدادنا وهى ليست من صنع أيدينا لا تنهض مسوغاً لتمييزنا عن غيرنا ، ولكن مادام أجاكس قد أثار اتصال نسبه بجويتر فإننى أستطيع أيضاً الزهو بأن جويتر كان مؤسس أسرتى ، فأنسب أنسب إليه فى الدرجة التى ينتسب بها أجاكس إليه . وإن أبى لايرتيس هو ابن أركسيوس بن جويتر ، هذا إلى أنه ليس بين أسرتى من أدين ونفى خارج وطنه^(٤) ، كما أن نبل نسبى يتجلّ أيضاً فى قرابتي لمركوريوس عن طريق أمى . وهكذا يتمى كل من والدى بجذ من أجدادهما إلى إله . ومع ذلك فلست أطلب بهذه الأسلحة التى أمامكم لأننى من سلالة أكثر نبلاً من سلالة أجاكس لو قدّرنا فى الحسبان نسب أسرة والدق ، هذا إذا أضفنا أن أبى لم يسبق له أن سفك دم أخ له^(٥) . وإن أطلب بأن تزونا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف على ألاّ تُضفوا على أجاكس ميزة ما لا لشيء سوى أن تيلامون هو شقيق بيليوس . ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلا لمن كان ذا شجاعة وجراة دون الثفات إلى مجد الأسلاف . ولئن كنتم تبحثون عن

أقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم بيليوس والد أخيل أو ابنه بيروس . وإذن فما هو حق أجاكس في الإرث ؟ بل لتحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل في قِيَتَا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة في سكيروس ! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أجاكس^(٧) ، ومع ذلك فهل رأيتموه يطلب بنصيبه ؟ ولو طالب به لنفسه فهل كان له أن يُعطاه ؟

١٦٠ وإذا كان الأمر منافسة بالمآثر وحدها ، ففي استطاعتي أن أقول إنني أنجزت أكثر مما أستطيع عدّه . ولو سردتها عليكم على تتبعها التاريخي لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها .

كانت أم أخيل - وهي إحدى حوريات النيريايس - قد تنبّأت بالميتة التي تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بهذا الجميع ومن بينهم أجاكس المائل أمامكم ، ورحت أنا أعرض على أخيل سلعة من تلك التي تستهوى النساء بعد أن دمست بينها بعض الأسلحة التي تثير فضول الرجال الشجعان . وما كاد يراها البطل حتى أطرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرمح في يد والترس في يد ، فقلت له : « إن طروادة المشثومة ترقب دخولك يا ابن الإلهة فلم تتردد أن تقهر هذه المدينة المنيعه ؟ » ، وأخذت بيده لأدفع به نحو مستقبل زاخر بالمغامرات ، وأنا لهذا أعدّ مآثره مآثرى أنا . ومن ثم فانا الذي انتصرت على تيليفوس الصُلب ، وأنا الذي عاجلت جروحه استجابة لضرعته بعد أن أنفذت فيه رمحي ، وإن فتح طيه ليعود إلى وحدى . ولا يفوتكم أن تذكروا لي فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيوس وسيللا مدن أبوللو ، وسكيروس أيضاً ، واذكروا أن يمينى هي التي هذمت أسوار ليرنيسوس ، ولا داعى أن أذكركم بأساء كل من قهرهم أخيل . وفي الحق إنى أنا الذي قدّمت لكم مقاتلاً استطاع أن يقهر هكتور الجبار ، فل أنا الفضل في أن جنة هكتور الشهر ملقاة أمام عيونكم ، ولست أريد ثمناً لهذا إلاّ الأسلحة التي كانت بها بطولته . إننى أنا الذى أعطيتها إياها يوم أن كان حيّاً ، وقد آن لى أن أستردّها بعد أن قضى نجه .

١٨٠ ويوم أصبحت فجعية منيلاوس هي فجعية الداناوين^(٨) [الأخين أو الإغريق] جميعاً خرجت إلى المرفأ ألف سفينة تقصد قصد أوليس المواجهة لجزيرة يوبويا وبقيت طويلاً تنتظر الرياح التي تدفعها إلى الأمام بعد أن ظلّت تتعرض للرياح التي تردّها للمرفأ ، وهتف العراف بأمر أقسى ما يكون حين أنبأ بأن الآلهة قضت بأن يضخّى أجاممنون بابنته البريئة قرباناً للإلهة العطشى ، فأبى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكّنت مشاعر الأبوة من قلبه ، وكنت أنا الذى أقنعت ذلك الأب الحانى بليثار مصلحة الأمة على عواطفه^(٩) ، ولقد كانت محنة شاقة . وليغفر لى ابن أتريوس أننى نجحت في إقناعه وهو الوالد المنجوع ، فغلّبت مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسئولية الخطيرة التي يحملها على مشاعره قبل أن يدفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه . وقد بعثوا بى كذلك إلى أم الضحية كي أقنعا ، وكان إقناعها أمراً عصياً فلجأت إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها لى ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أجاكس لكانت شرعنا ما تزال مُستكنّة في المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية .

وقد أوفدوني كذلك سفيراً إلى قائد القلعة الطروادية فذهبت ومثلت بين يدي مجلس شيوخ طروادة المهيب ، وكان جميع أعضائه شهوداً وما اعترانى خوف بل دافعت عن القضية التي عهد بها الإغريق لى ،

وَأَلْقَيْتِ الثُّبَةَ عَلَى پَارِيسَ وَطَالَبْتَ بِإِعَادَةِ هِيلِينَا وَالْغَنَائِمِ ، وَأَثَرَتْ عَطْفَ پَرِيَامَ وَاسْتَمَلَتْ لِحَانِي أَنْتَنُورَ ، وَقَدْ أَفْلَتْ مَنْ أَنْ أَقْعَ فِي قَبْضَةِ پَارِيسَ وَإِخْوَتِهِ وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي شَارَكَتْ فِي خَطْفِ هِيلِينَا بِقِيَادَتِهِ . وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ يَا مَنِلاوَسَ ، فَقَدْ كُنَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَجَابَهُ خَطَرًا وَاحِدًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِنَا . ٢٠٠

كَمْ يَطُولُ حَدِيثِي لَوْ شِئْتَ أَنْ أَقْصَ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَا اضْطَلَعْتَ بِهِ مِنْ مَهَامٍ نَافِعَةٍ سِوَاهِ بَحْنِكُنِي أَوْ بِنْدِرَاعِي خِلَالَ هَذِهِ الْحَرْبِ الطَّوِيلَةِ ، فَقَدْ تَحَصَّنَ الْعَدُوُّ عَلَى إِثْرِ الْمَعَارِكِ الْأُولَى وَرَاءَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ فُرْصَةٍ يُوَاجِهُ فِيهَا بَعْضُنَا بَعْضًا فِي الْعَرَاءِ ، وَلَمْ نَلْتَحِمْ فِي قِتَالٍ صَرِيحٍ إِلَّا بَعْدَ أَعْوَامٍ عَشْرَةٍ ، فِهَذَا فَعَلْتُ أَنْتِ يَا أَجَاكْسُ خِلَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي لَا مَعَارِكَ فِيهَا وَأَنْتِ الَّتِي لَا تَجِيدُ إِلَّا الْحَرْبَ ؟ وَمَاذَا قَدَّمْتَ أَيَّامَهَا ؟ لَوْ سَأَلْتُكِ مَاذَا فَعَلْتَ أَنَا لَقُلْتُ لَكَ أَنَّنِي كُنْتُ أَعَدُّ الْكِمَائِنَ لِلْعَدُوِّ ، وَأَقِيمُ التَّحْصِينَاتِ حَوْلَ خَنَادَقَتِنَا ، وَأَسْرَى عَنْ رِفَاقَتِنَا ، وَأَسْتَحْثُّهُمْ عَلَى احْتِمَالِ صَعَابِ الْحَرْبِ بِصُدُورِ زُخْبَةٍ ، وَأَدْرِبُهُمْ عَلَى التَّسْلُحِ وَالتَّزَوُّدِ بِالْمُؤْنِ . غَيْرَ أَنَّ مَلِيكَنَا أَجَامِنُونَ ، بَعْدَ أَنْ أَفْزَعْتَهُ رُؤْيَا فِي مَنَامِهِ عَنْ نَصِيحَةٍ مِنْ نَصَائِحِ چَوِييْتَرِ ، أَمَرْنَا بِقَبْضِ أَيْدِينَا مِنْ هَذِهِ الْحَرْبِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ حَقِّ الْمَلِكِ أَنْ يَتَعَلَّلَ بِمَا قَرَّرَهُ نَاسِبًا قَرَارَهُ إِلَى كَبِيرِ الْأَلَهَةِ ، وَلَقَدْ كَانَ مِنْ حَقِّ أَجَاكْسَ أَنْ يَرْفُضَ تَنْفِيزَ هَذَا الْأَمْرِ وَأَنْ يَطَالِبَ بِاسْتِمْرَارِ الْقِتَالِ حَتَّى تَبِيدَ طُرُودَةُ مَا دَامَ يَمْلِكُ ذَلِكَ . فَلَمَّاذَا لَمْ يَعْتَرِضْ طَرِيقَ الْجُنُودِ الَّذِينَ حَزَمُوا أَمْرَهُمْ عَلَى الرَّجُوعِ ؟ وَلَمَّاذَا لَمْ يَقِفْ دُونَ هَؤُلَاءِ الْمُتَرَدِّدِينَ يَمْنَعُهُمْ بِسِلَاحِهِ ؟ أَوْ كَانَ هَذَا كَثِيرًا عَلَى عَارِبٍ لَا يَنْطَلِقُ إِلَّا عَنْ زَهْوٍ وَتَفَاخُرٍ ؟ إِنَّنِي أَسْأَلُكُمْ كَيْفَ تَفْسِّرُونَ قَعُودَهُ هَذَا ؟ لَقَدْ احْمَرَّ وَجْهِي خَجَلًا يَا أَجَاكْسُ عِنْدَمَا شَاهَدْتُكَ تَدِيرَ ظَهْرَكَ لِلْعَدُوِّ وَتَسْتَعِدُّ لِلِإِبْحَارِ بِسَفْنِكَ ! وَسَاعَتَهَا أَطْلُقُ الْأَسَى عَقْدَةَ لِسَانِي فَصَبَحْتُ قَائِلًا : « مَا هَذَا الَّذِي أُرَاكُمْ تَفْعَلُونَهُ يَا رِفَاقِي ؟ وَآيَ جُنُودِ هَذَا الَّذِي يَرُدُّكُمْ عَنْ طُرُودَةٍ بَعْدَمَا بَاتَتْ فِي مِتْنَالٍ أَيْدِيكُمْ ؟ وَمَاذَا تَرَاكُمْ حَامِلِينَ إِلَى دُورِكُمْ بَعْدَ قِتَالِ دَامَ عَشْرِ سِنِينَ سِوَى الْعَارِ ؟ » ، وَأَفْضَيْتُ فِي الْحَدِيثِ حَتَّى نَجَحْتُ بِقُوَّةِ حُجَّتِي وَبَيَانِي فِي إِنْهَاءِ الْمَحَارِبِينَ إِلَى صَفُوفِ الْقِتَالِ . وَحِينَئِذٍ عَادَ أَجَامِنُونَ وَأَمَرَ جُنُودَهُ الَّذِينَ هِيَمْنَ عَلَيْهِمُ الْفَرْعُ بَأَنْ يَحْتَشِدُوا ، وَلَمْ يَجْرَوْا ابْنَ تِيلَامُونَ أَنْ يَفْتَحَ فَمَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، بَيْنَمَا أَطْلُقُ ثِيرَسِييْتِسَ^(٩) لِسَانَهُ فِي سَبِّ الْمُلُوكِ فَلَمْ أَدْعِهِ يُقِلْتُ بِلَا عِقَابٍ ، وَرَحْتُ أَشَدُّ مِنْ عَزِيمَةِ رِفَاقِي الْمَذْعُورِينَ وَأَسْتَنْفِرُهُمُ لِلْقَاءِ الْعَدُوِّ إِلَى أَنْ رَدَّ حَدِيثِي إِلَيْهِمْ إِقْدَامَهُمُ الَّذِي كَادُوا يَفْقِدُونَهُ . وَلِهَذَا أَقُولُ إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ بِأَسْلِ حَقِّقَهُ أَحَدُ رِفَاقِي مِنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ هُوَ لِي ، لِأَنَّنِي أَنَا الَّذِي رَدَدْتُهُمْ عَنْ النُّكُوصِ إِلَى مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ .

ثُمَّ إِنَّنَا لَوْ قَشَّيْنَا بَيْنَ الْإِغْرِيقِ عَمَّنْ يَمْتَدِّحُكَ أَوْ يَتَوَقَّ لِرَفَقَتِكَ مَا وَجَدْنَا بَيْنَهُمْ أَحَدًا . وَإِنْ دِيُومِيدِسَ لَشَرِيكَ لِي فِيمَا أَفْعَلُ وَهُوَ دَائِبُ التَّقْدِيرِ لِي وَالثَّنَاءِ عَلَيَّ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ بَأَنْ أُوْدِيسِيُوسَ رَفِيقَهُ الْجَدِيدَ بَثَقْتَهُ . وَلَيْسَ اخْتِيَارُ دِيُومِيدِسَ لِرَفَقَتِي أَنَا مِنْ بَيْنِ آلَافِ الْإِغْرِيقِ شَيْئًا لَا يَقُومُ عَلَى سَبَبٍ ، وَمَا خَرَجْتُ لِلْقَاءِ الْعَدُوِّ بِحَكْمِ الْإِقْتِرَاعِ بَلْ أَنَا الَّذِي أَقْدَمْتُ بِمَحْضِ إِرَادَتِي مُسْتَهِينًا بِأَخْطَارِ الْقِتَالِ غَيْرِ عَالِيٍّ بِالظَّلَامِ ، وَقَتَلْتُ دُولُونَ الْفَرِيچِي ذَلِكَ الْبَطْلَ الَّذِي كَانَ مِثْلِي لَا يَهَابُ الْمَخَاطِرَ . وَمَا قَتَلْتُهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَرْغَمْتُهُ عَلَى الْكَشْفِ عَمَّا أَعَدَّهُ الْعَدُوُّ فِي طُرُودَةِ الْجَاحِدَةِ . وَكَانَ بُوَسْعِي أَنْ أَقْنَعُ هَذَا الْمَجْدُ وَأَعُودَ إِلَى خِيَامِي ، لَكِنَّنِي قَصَدَتْ خِيَامَ رِيْزُوسَ فِي مَعْسَكَرِهِ وَقَتَلْتُهُ وَرِفَاقَهُ ، حَتَّى إِذَا ظَفَرْتُ بِكُلِّ مَا تَقَتُّ إِلَيْهِ مِنْ نَصْرِ اعْتَلَيْتُ مَرْكَبَةً ٢٢٠

خصمى التي استوليت عليها ودخلت بها معسكرى يخفق قلبى بفرحة الانتصار . لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحنى أسلحة أخيل الذى طلب دولون عدونا الطروادى جياده ثمنا لتجسسه علينا ليلاً^(١٠) ولكن فى هذه الحالة يكون أچاكس أكثر كرماً معى منكم^(١١) . هل أذكركم بمعاركى مع كتاب ساربيدون الليسى وكيف أبدتها بسيفى حين أجريت نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيڤيتوس والأسطور وخروميوس وألكندر وهاليوس ونويومون وپريثانيس ، وحين قضيت علسى ثورون وخرسيداماس وخنارويس ولينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأنًا^(١٢) . وكم نالنى من جراح لو كشفت لكم عن مواضعها لعرفتم كم تكون هى مصدر زهو وفخار لى ، وإن كنتم غير مُصدّقى فيما أقول فما هى ذى جراحى فلتنظروا إليها ٢٦٠ [وعندها أزاح ثوبه بيده وقال : هاكم صدرًا لم يتعرض لخطر إلّا من أجل قضاياكم ، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه السنين الطوال ويخلو جسده من الندوب ومن آثار الجراح . ومع ذلك لماذا تلقون بالا لما يقول بأنه حارب الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك عن أوامر جوبيتر ؟ قد أسلم له بما يقول ، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولست ممن يقتلون من شأن أحد حقداً عليه ، ولكنى لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره . ألا تى يعترف لكم بنصيبكم أنتم فى المجد ، فپاتروكلوس هو وحده الذى ردّ هجوم الطرواديين ولاحق بظلمهم حين حاول حرق الأسطول ، وقد فعل ذلك فى عُدّة خلعت عليه مظهر أخيل ، وما هو ذا أچاكس يدعى أنه هو وحده الذى تجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لقيته بعد أن لقيته مليكنا وقادتنا وبعد أن لقيته أنا ، والحق إنه كان تاسع من تصدّوا لهذا الواجب المقدس . ثم إن الاقتراع هو الذى هيّا لى هذه المهمة ، ولتخبرنى أيها البطل الشجاع عما انتهت إليه مبارزتكما ، فمبلغ علمى أن هكتور قد خلف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد .

٢٨٠ ألا ما أشقانى وأقسى ما أحسنه من ألم وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذى سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم والذى لم تقعدى المموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدّد فوق التراب وحمله إليكم على كتفى هذين بأسلحته وعُدّته التى أنطلّع اليوم لارتدائها ، وأرجو أن تُعنينى قوّى على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحوننى إياه . وهل يُرضى أم أخيل حورية البحر أن تؤول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تمثل عملاً فنياً رائعاً إلى جندى فظ يفتقر إلى الإدراك السليم ؟ إن أچاكس هذا يقصر عن فهم معنى النقوش التى تغطى الترس والتى تصور البحر واليابسة بمدنها العديدة وآفاق السلاوات المرصعة بالنجوم وكوكبات الثريا والقلائص والدّب الأكبر وسيف الجوزاء المتألق ، إن أچاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التى يطالب بها .

وإنه يتهمنى بالفرار من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى المبارزة ، دون أن يدرك أن فى هذا خطأ من شأن أخيل الكبير القلب . فإذا كنتم تعدّون تظاهر المرء بغير ما يظن جُرماً أكون أنا وأخيل مُدانين ، وإن كنتم تعدّون التأخر فى المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أنى سبقت أخيل لى المعركة ، وما عوّفتى إلّا حب زوجة ودود ، وما أخره هو غير عطف أم حانية . لقد أعطيتانها الأيام الأولى من الحرب بينا

وقفنا عليكم بقية أيامها ، ولست أخشى تهمة بشاركتي فيها بطلٌ عظيم ، ومع ذلك فإن التعرّف على أخيل يعود إلى ذكاء أوديسيوس ، بينما لا يعود هذا إلى أچاكس .

لا تدهشوا حين يطفح لسانه الأحق سباً لى فهو يقول عنكم أنتم أيضاً ما ينبغي له أن ينجل منه ، فإذا كان يَشِيننى أنى وجهت إلى بالاميديس تهمة كاذبة فهل كان بما يشرفكم أنكم أنتم من أدنتموه بهذه التهمة ؟ لا . . لقد عجز ابن ناويليوس عن تبرئه نفسه من جرم بين بشع . ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التى وُجّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جرمته بأعينكم وهى الرشوة . وليس عدلاً أن أحاكم الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حيّاً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند فولكانوس ، فانا لم أنفرد بعمل كنتم معى فى الإجماع عليه ، ولست أنكر أنى نصحته باعتزال الحرب والأسفار رفقاً بنفسه التى قَسّت عليها الآلام فاستجاب إلى نصحتى ومن ثم بقى حيّاً حتى الآن ، وهذا ما يؤكد أنى لم أصدر رأى عن نيّة حسنة فحسب — وقد كان هذا وحده كافياً — بل لقد كان لنصحتى نتيجة طيبة أيضاً . وإذا كان الكهنة يريدون دعوته اليوم لِيُسهم فى إنهاء تدمير پرجامون فأناشدكم أن تعفون من تبليغه هذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة غضب رجل مريض نائر ، ولعله يجد حيلة يخرجه بها من عزلته . وسوف يجرى نهر سيمويس على الضد من اتجاهه المعتاد ، وسوف يُعرى جبل إيدا من الشجر ، وسوف تنقلب الأوضاع بأن تسرع اليونان إلى معونة طروادة قبل أن يستطيع أچاكس الغيى أن يفيد الإغريق بفكره البليد وقبل أن يفتّر حاسى لما فيه نفعكم أو قبل أن يفتّر إخلاصى لكم . وتستطيع أنت يا فيلوكتيتيس القاسى القلب أن تحمد علينا جميعاً ، على مليكك وعلى حلفائك وعلى ، وتستطيع أن تغمرنى بالسبّ وتطالب برأسى قرباناً للالهة وتودّ أن لو يلقينى الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمي وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتى ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أعاننى الحظ فسوف أظفر بسهامك كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدردانى ، وإننى لقادر على ذلك فقد فسّرت نبؤة الهاتف الإلهى وكشفت مصير طروادة (١٣) ، واختلست تمثال منيرفا الطروادية من مجراها متسللاً وسط الأعداء الذين كانوا يجرسونه ولم يكن من الممكن أن تأذن الأقدار بفتح طروادة دون الظفر به ، أو يمكن بعد ذلك مقارنة أچاكس بى ؟ وأين كان أچاكس بكل ما يفاخر به ؟ لماذا أمسك به الخوف فى ذلك اليوم ، ولماذا كان من حظ أوديسيوس أن يجسر على اختراق خطوط العدو الحصينة والتّستر بالظلام والعبور وسط سيوفه المشهورة ، وتحطّي أسوار طروادة والنفاذ حتى قمم قلاعها لسلب تمثال الإلهة من مجراها والعودة به إليكم من بين صفوف العدو ؟ ولو لم أنجح فى ذلك لما كان لجلود الثيران السبعة نفع على ذراع ابن تيلامون الأيسر ! لقد كان الاستيلاء على طروادة لينها ثمرة جهدى ، فقد مهّدت الطريق لفتح حصون طروادة ، ولتكتفّ يا صديقى ابن تيديوس عن التمتعة وإرسال النظرات صوب ديوميديس ، فإننى مقرّ أن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت نفسك لم تكن وحيداً حين أخذت تدافع عن أسطول الحلفاء بترسك فقد كان وراءك جيش كبير بينما لم يكن معى غير رفيق واحد ، ولو لم يعرف أن الحكمة تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بهذه الأسلحة

٣٢٠

٣٤٠

لطالب بها هو كذلك ، ولطالب بها أجاكس الآخر^(١٤) الذى يفوقك تواضعاً ، وكذلك يوريبيولوس الرهيب ثم ابن أندرايمون الذائع الصيت ، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس ، ومنيلوس أصغر أبناء أتريوس ، على أنهم جميعاً رغم قدرتهم البدنية وإقدامهم على الحرب قد سلّموا بتفوق حكمتي على حكمتهم . وإذا سلّمنا بأن ميناك باطشة في المارك فها أحوجك إلى تلمس مشورتي حين تحتاج إلى التفكير لحسم أمر من الأمور ، فإذا كنت تملك القوة فما أعوزك إلى ذكائي الذى ينفذ إلى المستقبل . حقاً إنك تحسن القتال ، غير أن منيلوس بن أتريوس لا يختار لحظة الهجوم إلّا عن مشاورتي ، فانت تخدم الإغريق بجسدك بينما أخدمهم أنا بعقلي ، وربّان السفينة أكثر شأناً من ملاحها الضارب بالمجداف . كما أن القائد أعظم شأنًا من الجندي ، فانا أفوقك كما يفوق القلب اليد في جسد الإنسان ، لأن القلب هو مصدر القوة كلها .

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلّدوا الأسلحة أقدر جنّديكم ، فامنحوني هذه الجائزة لقاء سنوات طويلة بذلت فيها الكثير من الجهد وحملت فيها الكثير من القلق ، امنحوني هذا الشرف جائزة لخدماتي . لقد قاربت مهمتنا من الانتهاء ، وكمن من عراقيل وضعها القدر في طريقنا وأزحمتها عنكم ، كما نجحت في أن أفتح لكم طريق قلعة بيرجامون بل لقد استوليت عليها بنفسى . إننى أناشدكم بالأمال التى تنطلق إليها وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط في أيدينا ، وبالألهة التى انتزعتها من أيدي الأعداء وبكل ما تمليه الحكمة وبكل ما تفرضه الشجاعة والإقدام أن تذكروني إذا ظننتم أن طروادة ما تزال أمامها بقية من حياة . أما إذا ما رأيتم ألا تمنحوني هذه الأسلحة فلتعطوها إلى هذه [وأشار إلى تمثال منيرقا] التى تصنع المصائر والأقدار .

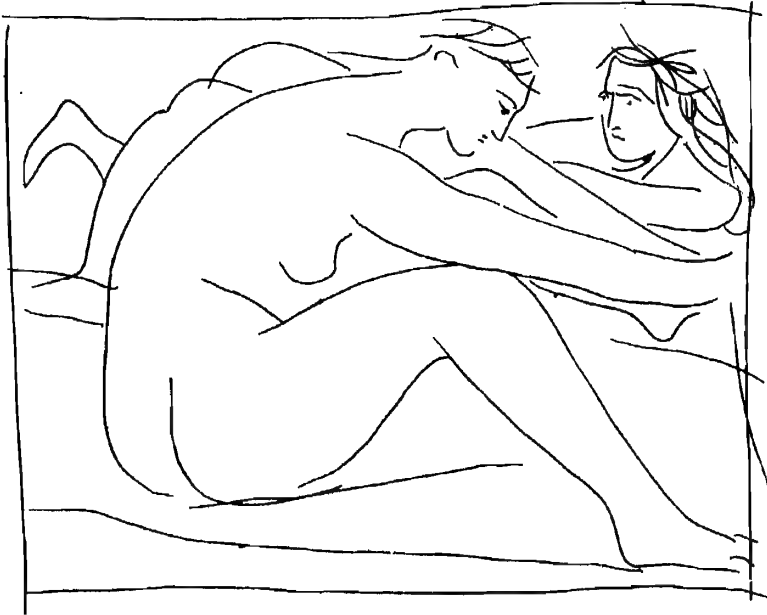
وهذا نجح أوديسيوس في استمالة زملائه القادة بكلماته ، وتحمّل سحر البلاغة وسطوتها في أنه فاز بعد خطبته الرصينة بأسلحة البطل أخيل ، بينما وقف أجاكس الذى كثيراً ما تصدّى لهكتور وواجه أخطار النار والسيف وصواعق جوبيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المحتدم في أعماقه . وقهر الأسى والحنق أجاكس العصيّ على القهر ، فلوح سيفه صائحاً : « وهذا السيف سيفى ، أولاً يريد أوديسيوس أن ينازعنى إياه أيضاً ؟ لسوف أحفظ به حتى أزهر به روحى ، وسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذى طالما شرب من دماء الفريجيّين ، وهكذا لا يقهر أجاكس أحد سوى أجاكس نفسه » .

ولم يكد ينتهى أجاكس من كلماته هذه حتى أعمد سيفه المميت في موضع قاتل من صدره الذى لم يمسه جرح من قبل ، ولم تستطيع كفّه أن تقتلع النصل من مكانه فبقى حتى دفعه الدم الجارف المنبثق خارج جسده^(١٥) ، وانتشر الدم وتخرّ على الأرض التى تحوّل لونها قرمزيّاً . ولم تلبث أن انبثقت من بين العشب الأخضر تلك الزهرة القرمزية التى نبثت يوم جرح الصبي هياكيثوس بن إيبولوس ، وقد خطّ على أجواف بتلات الزهرة حروف تنطبق على الغلام وعلى البطل ، فهى تسجّل اسم البطل وصبيحة أسى الصبي في آن واحد^(١٦)

هيكوبا

٤٠٠ وما كاد أوديسيوس يُظفرُ بالجائزة حتى أبحر صوب وطن هيسبييليه وأبيها الملك ثواس الشهير ، وهي البلاد التي تدنسُت بجرمة قتل النساء لأزواجهن^(١٧) بغية الحصول على سهام هرقل التي كانت في ذلك الموطن ، وحين بلغه أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه مليكها أسيراً . وبذلك أنهى حرباً طالت ، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن سقطت وسقط بسقوطها بريام . وبعد أن فقدت زوجة بريام التعسة كل ما كانت تملكه في حياتها إذا هي تفقد كذلك هيبتها الإنسية ، وانطلقت تملأ أجواء منفاها على شواطئ نهر هيلسبونت المختنق بضيق المضيق بعوائها .

كانت السنة تلهبُ طروادة بنارها ، ومحراب جويتر يوشف القطرات القليلة المتبقية من دم بريام الكهل ، والمتصرون يشدون كاهنة فويبوس من شعرها وهي تستصرخ الآلهة رافعة ذراعيها ضارعة دون جدوى ، وأمّهات الأسر الطروادية يحتضنُ تماثيل آلهتهنَّ ويقلبنها قبل أن يأتى على معابدها الحريق ، والإغريق الطافرون يسوقونهنَّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون على الفوز بها ، ويلقون بأستيئانكس بن



بيكاسو: هيكوبا

هكتور^(١٨) من فوق الأبراج التي كانت أمه تدفعه إلى أن يتطلع منها إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم .

وحثّ ريح الشمال الإغريق على الإبحار ، وكانت هباتها المواتية تمزّ الأشرعة التي أخذت تخفق ، وأشار الملاحون على الجند بالإسراع للإفادة من هبوب الريح ، وصاحت نساء طروادة الأسيرات بعد أن قبلن ثرى بلادهن وخلفن وراءهن ديارهن التي تنفث دخان الحريق « وداعاً يا طروادة إنا نتركك سيّات رغم أنوفنا » . وكانت هيكيوا [هيكاى باليونانية] التي يثير منظرها الرثاء آخر من غادر أرض الوطن ، وقد عثر الجنود عليها بمقبرة آبائها وهي تحاول تقبيل عظامهم ، فجراها أوديسيوس عنوةً بعد أن أفلحت في أن تقبض بيديها على حفنة من تراب أحد القبور ممتزجاً برماد جثة ابنتها هكتور وضمتها إلى صدرها بعد أن تركت على قبر هكتور خصلة من شعرها الأشهب ممتزجاً بدموعها قرباناً لمن فقدتهم . ٤٢٠

وكانت طراقيا التي يحكمها بوليمسطور ومن حوله حاشيته المفحشة الرثاء تواجه عبر البحر فريچيا التي تلالاً فيها نجم طروادة ذات يوم ، وكان پريام قد بعث بابته بوليدوروس خفية إلى الملك الطراقي لينشأ بعيداً عن أخطار الحرب الطروادية ، وكان هذا منه تدبيراً حكيماً لولا أنه زوّد ابنه بثروة ضخمة كانت كفيلة بإثارة الطامعين للظفر بها . فلم تكد الدائرة تدور على أهل طروادة حتى شهر الملك الطراقي الجاحد سيفه وأغمده في حلق الصبي الذي كان عليه وصياً ، ثم ألقي بجثته الهامدة في البحر الصاخب من فوق صخرة عالية وهو يظن أن جريمته ستختفى باختفاء جثة ضحيته^(١٩) .

وكان أجامنون بن أتريوس قد أرسى سفينته إلى الشاطئ الطراقي انتظاراً لسكون البحر وهبوب ريح مواتية ، وإذا الأرض تنشق فجأة في ذلك الموقع ويظهر شبح أخيل يهول ويهّد وكأنما عاد إلى الحياة وقد ارتسمت على وجهه سيما الغضب والوعيد كما حدث يوم أن هاجم أجامنون بسيفه في غضبة عاتية^(٢٠) : « أهكذا أيها الإغريق ، تبحرون وتُسوّنني ؟ هل دُفنت مع جثتي ذكريات بطولاتي ؟ لن يكون هذا ! إن عليكم أن تقدموا بوليكيكينا قرباناً تتقربون به لقبري حتى تهدأ روحي » . ٤٤٠

ومع أن بوليكيكينا كانت العزاء الباقي لأمها هيكيوا فقد انتزعها رفاق أخيل القدامى من بين ذراعي أمها استجابة لنداء الشبح المهيب ، واقتادوا العذراء النعسة التي أبدلت شجاعة تفوق شجاعة بنات جنسها كي يذبحوها قرباناً على القبر الموحش . ولم تنس بوليكيكينا نيل محبتها حين وقفت أمام المذبح الذي لا يرحم وافتأ وأدركت أنها لن تلبث أن تغدو ضحية هذه الطقوس الوحشية التي تعدّ . وما إن رأت نيوتوليموس أمامها شاهراً سيفه مخدقاً في وجهها حتى قالت : « أسرع بسفك دمي العريق فلن يحول بينك وبين سفكه شيء » ، أعمد سيفك في حلقى أو في صدري » ، وكشفت له مع كلماتها هذه عن صدرها وعنقها معاً ، ثم استطردت قائلة : فلن تقبل بوليكيكينا أن تكون أمّة لإنسان ما ، أترك تظن مثل هذه التضحية ستالون بها رضاء الآلهة عليكم ؟ كل ما أرجوه أن يبقى خبر مقتل خافياً على أمتي ، فإن انشغال بالي بها هو الذي يهزّ ويهون من فرحة لقاء للموت ، ولن يكون موت وحده مصدر عذاب لها ، بل أن أحيأ وأكون ٤٦٠

أمة لأحدكم . ولست أبغى غير أن أهوى إلى ظلال العالم السفلى حرّة طليقة . تنحوا عني قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبى ، ولا تدعوا يد رجل تمسّ جسد عذراء ، وإن من تبغون إرضاءه بذبحى أرضى له دم حرّة لا دم أمة . ولو كانت كلمائى ستستدرّ عطف أحدكم فليذكر أن من ترجوكم ليست من أرقائكم بل هى ابنة الملك پريام . ولست أرجو غير أن تظفر أُمى بجنتى بعد موقى دون أن تدفع عنها فدية ، فلا تكلفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاء حظّها المنكود فى إقامة قبر لى ، وما كان هذا أيسر عليها حين كان ذلك فى مقدورها . ولم تلبث الدموع التى احتبستها فى عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع ، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس الخنجر مُثَقلاً بالندم فى صدرها الناهد . وعلى الرغم من ارتجاف ساقىها وسقوطها على الأرض فقد بقيت قسماً وجهها تنبىء عن شجاعتها ، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين فى خفى وحياء . ٤٨٠

وهرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملنه مغولات مردّات أسماء أبناء پريام وبناته الذين كم بكت لمساتهم العيون بعد أن سال دهم واحد إثر الآخر ، وسرن يندبن مصير الفتاة وما أصبحت عليه أمها التى كانت إلى عهد قريب ملكة وقرينة ملك عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة ، ثم غدت بين الأسيرات أمة تعسة لاوديسيوس ، وما كان ليأسرها لولا أنها أنجبت هكتور الذى كانت بطولته الخارقة سبباً فى أسر أمه واسترقاقها .

وضمت هيكونا جثة ابنتها إلى صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فازقتها روحها الباسلة وانخرطت فى البكاء من جديد ، وانهمرت دموعها ثانية بعد أن انهمرت مرات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها ، وغطت قبلاتها فمها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرة على موتها السالفين ، ولطخت شعرها الأشيب بدم ابنتها المتخثر ، وخمشت جسدها بأظافرها وأخذت تصيح : « ابنته يا ذروة شقاء أمك ، ماذا بقى لى بعلك يا ابنتى ، ها هو ذا جسدك مُسجى أمامى هامداً . وإنى أتأمل جرحك الذى هو جرحى . يا ويحى هل كان قدراً محتوماً على أن أفقد أعزائى جميعاً قتلى ؟ لقد كنت أحسب أدنى ما أحسب أنك لن تموتى بنصل خنجر إذ كنت أنثى ، غير أنك وقعت فريسة له ضحية ذلك الوغد الذى قضى على إخوتك جميعاً : أخيل مدبر طروادة الذى تركنى تكلّى . لقد ظننت ساعة مرقته سهام باريس وفوبيوس ألا خوف منه بعد ، ومع ذلك فقد كان على أن أخشاه ، فرماده — رغم انتشاره فى قبره — يثور فى وجهى ووجه أسرق ممزوجاً بالعداء لنا . أتأتى قد أنجبت أولادى كي أقدمهم فريسة لحفيد إياكوس [أخيل] ؟ وها هى ذى طروادة العظيمة قد صارت دمناً وأطلالاً ، وحلت بدولتنا كارثة مروعة وانتهت إلى أبشع نهاية ، ثم إن الكوارث ما لبثت تلاحقنى ، وكأنما يرى فى الأعداء ما تخلف من طروادة ، أنا التى كنت منذ عهد قريب عظمى نساء وطنى بزوجى وأبنائى وبناتى وأزواج بناتى وزوجات أبنائى . ها أنا ذا اليوم أساق إلى المنفى تعسة مُتَزَعّة من بين قبور أسرق ، هدية إلى پنبولوى التى ستناولنى الصوف لأغزله وهى تشير إلى أمام نساء طروادة قاتلة : ها هى ذى أم هكتور الشهيرة زوجة الملك پريام . ابتناه يا من فقدتها بعد أن فقدت الكثيرين قبلها ، ويا من كنت سلوى أمك الوحيدة ، لقد ذبحوك على قبر

عدونا . أتراني قد حملت بك كي أقدمك قرباناً لعدونا ؟ ما أتعس قلبي ، كيف أستطيع لنفسى البقاء من بعدك والتواني عن اللحاق بك ، ولم أعيش وقد أثقلتني السّنون على امتدادها . أيتها الآلهة القساة القلوب لماذا تبطلون بموت امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدراً لي أن أحيا لأشهد مزيداً من الموت والشقاء ؟ من كان يظن أن بريام سوف يكون محظوظاً بعد دمار طروادة ؟ إنه لا شك محظوظ لأنه مات ولن يشهدك قتيلاً يا ابنتي ، فلقد فارق الملك والحياة معاً ، ألا ليتهم يمنحونك مراسم جنازية تليق بابنة ملك عظيم ! ويا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ ! لا ، لن تسعدني بهذا يا ابنتي فليس لبيتنا أن يظفر بهذا الشرف ، ولن يكون لك قربان سوى دموع أمك وحفنة من ترى غير ترى منشك . لقد فقدت كل شيء ، ولم يبق لي ما يجعلني أقبل الحياة أمداً آخر سوى طفل قريب إلى قلبي هو بوليديوروس الذي كان أصغر أبنائي وأصبح الآن وحيدى ، وكنا قد بعثنا به إلى شواطئ بعيدة ليكون في جنى ملك طراقيا^(٢١) ولكن لم أضيع الوقت سدى ؟ إنه لأجلدري أن أغسل جرحك الذى فتك بك ووجهك الملطخ بدم أهدرته يد لا تعرف الرحمة .

وقامت المسكينة بعد كلماتها هذه تمشى بخطى أثقلتها الشيخوخة تقصد الشاطئ وهى تشدّ شعرها الأبيض ، وتردد : « أعطوني إناء يا نساء طروادة » . ومالت لكى تغترف من مياه صافية فإذا هى تبصر جثة بوليديوروس وقد ألقت بها الأمواج على الشاطئ ، وشاهدت جراح جسده بفعل خناجر طراقيا . وبينما انطلقت نساء طروادة في العويل أصيبت هيكيوا بالحرس من فرط كربها ، فقد اختنق صوتها وجئت الدموع في مآقيها وجمدت في وقتها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصوان ، وثبتت نظراتها وهى تحملق في الأرض وأخذت تقلّب وجهها المتغضّن القساة بين السماء تارة وبين وجه ابنتها تارة أخرى ، ثم تطلّعت إلى جراحه وأخذت رغبة الثأر تحتدم في أعماقها والغضب يغلى في صدرها حتى إذا بلغ غضبها عنفوانه صمّمت على الانتقام وكأنها ما تزال ملكة ، وانشغلت بالألّ بالوسيلة التى سوف تثار بها ، وبدت كاللبوة التى انتزع منها شبلها الرضيع تهم على وجهها في كل مكان تتبع آثار أقدام من انتزعوه وتطاردهم لا تعرفه . وهكذا كانت هيكيوا أسيرة مزيج من الحزن والحنق ، أنسيّت شيخوختها ولم تنس شجاعتها ، فقصدت بوليمستور الشقي الذى ارتكب تلك الجريمة البشعة ، وطلبت لقاء الملك بدعوى أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أخفى من أجل ابنها فصّدها الملك الطراقى الذى أعماه جشعه الفطرى ، فجاءها وحده وتلطّف معها في الحديث كى يكرّمها وهو يقول : لا تضيعى الوقت يا هيكيوا وأعطينى كنز ابنك وأقسم بالآلهة أنى سأحتفظ به له ، إلى كل ما أعطيتنى إياه في الماضى من أجله .

ومضت تحدّجه بنظرة عابسة وهو يتكلم ويقسم حائثاً إلى أن فار غضبها المكبوت ، فاستغاثت بحاشيتها من الأمهات الأسيرات اللاتى أمسكن بالملك فغرست فى أصابعها في عينيه الغادرتين واقتلعتها من محجريها ، وقد ضاعف حزنها من قوتها فدست أصابعها الملوثة بدمه الآثم مرة أخرى في محجرى عينيه اللذين لم يبق منها شيء وانطلقت تعبت بها .

وحين سمع أهل طراقيا بما حلّ بملكهم تدافعوا يرمجون هيكوبا الطروادية بالأحجار ويرشقونها بالسهم ، وكانت كلها أصابها حجر أو سهم فتحت فمها ودمدمت به دون أن يصدر عنها غير صوت أشبه بنباح الكلاب فظل المكان الذى شهد هذه الأحداث معروفاً باسم مقبرة الكلبة^(٢٢) . وأخذت هيكوبا تهيم على وجهها فى حقول طراقيا وتعوى عواء حزيناً كلما ألحّت عليها ذكريات شقائها ، إلى أن أثار مصير هذه الملكة التعسة عطف شعبها الطروادى وأعداءها الإغريق والآلهة أنفسهم ، فإذا چونوزوجة چوپيتر وأخته تعترف بأن هيكوبا لم تكن تستحق هذا الشقاء كله .

ممنون

لم تجد أورورا ربّة الفجر فُسحة من الوقت تُشغّل فيه بمآسى طروادة وهيكوبا على الرغم مما كانت تضمّره من ميل إلى انتصار جيش طروادة^(٢٣) ، فقد استحوذ عليها شجن دفين لمصرع ابنها فى سهول فريجيا ، وقد رآته وهى تتلّغّ بردائها الزعفرانى مصاباً برمح أخيل ، وعندها شحب اللون الوردى الذى يكسو ساعات الصباح واختفى نور النهار وراء ستار من السحب . وحين وُسّد على المحرقة لم تقو على أن تُلقى نظرة عليه ، وما منعها كبرياؤها من أن ترتقى بين يدى چوپيتر مشوشة الشعر تبكى وتُعول متوسّلة قائلة : « أدركْ أننى أقلّ الآلهة شأنًا فى سنهاواتك الذهبية اللون ، وما شُيد لى فى العالم غير معابد قليلة ، ولكنى مع هذا لازلت إلهة ، وما جثت طمعاً فى محراب يُقام لى أو هيكل تتوجّع فيه النار ، ولا رغبة فى الظفر بيوم تُقدّم لى فيه القرابين . لم أجدى لهذا وإن كنت أهلاً له على الرغم من ضعفى وأنوثتى ، فأننا مع كل فجر جديد أؤدى لك عملاً جليلاً بفصلى النهار عن الليل . وما جئتك أطلب حقاً فى تبجيل وتكريمى فإن ما أنا فيه لا يتيح لى هذا ، وإنما جئتك لأننى فقدت ابنى ممنون ذلك الفتى الذى امتشق الحسام من أجل عمه [پريام] فى شجاعة لم تُجده شيئاً ، فلقد قُتل بسهم أخيل وهو ما يزال فى زهرة العمر . إننى أضرع إليك يا ملك الآلهة أن تمنحه قدرًا من التكریم كى تخفّف من كارثة موته على وكى تسكّن لوعة لأم قلبها جريج » ، فأوما چوپيتر برأسه استجابة لمطلبها ، وسرعان ما تداعت محرقة ممنون العالية وأتت عليها السنة اللهب المندلعة وهى تقذف بحمّم من الدخان الأسود إلى أعلى حتى أظلمت السماء ، فكان مثّل هذا الحَمَم المتصاعد مثّل الضباب المتصاعد من الأنهار فيحجب أشعة الشمس من النفاذ ، وما لبث أن تحول رماداً أسود فى الأفق واستحال جسداً له من النار الدفء والحياة ، وخلعت عليه خفّته أجنحة يطير بها ، وأصبح بادىء ذى بدء شبيهاً بالطير ، ثم ما لبث أن صار طيراً حقيقياً يبرّز ريشه فيثير صخباً مدوّياً . وسرعان ما انضم إليه عدد لا حصر له من طيور مثيلة ولدت مثله مما وُلد منه وملأت أجواز الفضاء بخفق أجنحتها ، وقد حلّقت حول المحرقة مرات ثلاث وهى تولول نائحة فى كل مرة . وحين حلّقت للمرة الرابعة انقسمت إلى سربين انطلقا فى اتجاهين متضادين ، ثم أقبلا يهاجم أحدهما الآخر فى غضب وشراسة تجلّلت فى تمزيق أجنحة بعضها البعض وصدورها بمناقيرها ومخالبها المحقوفة ، ثم تساقطت أجساد هذه الطيور التى تنتمى لأسرة واحدة وكأنها قرابين تُقدّم إلى الرماد المتبقى من جثة البطل الذى إليه خلقها ،

والتي أطلق عليها اسمه ، إذ سميت بالممنونيديس [أى آل ممنون] . وما زالت كلها أكملت الشمس دورة في أبراجها الاثني عشر تنهض فتستأنف قناتها ثم تموت من جديد تكرمياً لتُنَجِّها . وعلى حين كانت مأساة هيوكيا بنت ديماس التي لها عواء كعواء الكلب تثير شفقة بعض الآلهة ، بقيت مأساة أورورا حبسية في صدرها . وما تزال أورورا تذرّف دموع الأم الأسية فتتناثر على الأرض قطرات ندى .

أينياس عند أنيوس

لم تيشأ الأقدار أن تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها ، فقد حمل البطل أينياس بن فينوس إلهة كثيرًا تماثيل آلهة المدينة المقدسة ، كما حمل معها أباه الذي يشار إليها قديسيتها ، ولم يحمل أينياس شيئاً آخر مما يملك وسار بجانبه ابنه الحبيب أسكانيوس ، ثم أبحر من ميناء أنتندروس فأرّبا بسفنه عبر البحار مخلفاً وراءه ديار طراقيا الأثمة المملوطة بدعاء پوليدوروس ، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث وُلد أبوللو . وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يخدم شعبه وإلهه أبوللو بهمة وورع ، ففتح داره ومعبده لأينياس وطاف معه المدينة يدله على معالمها ومعبدها المشهور وجذعى الشجرتين اللتين احتضنتهما لاتو في وضعها جنينها^(٢٤) . وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وسكب النبيذ على البخور حسب العرف المتبع وحرقوا أحشاء البقرات الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكي حيث أعدت لهم الفرش الثمينة الطنافس ، فأكلوا من خيرات سيريس وشربوا من نبيذ باكخوس . وعندها أخذ أنخيسيس الورع يقول : « سيدى كاهن فويوس وخليله . أتراني مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرت مدينتك للمرة الأولى ؟ » ، فهز أنيوس رأسه المعصوبة بشرط أبيض يحفّ بصدغيه وأجاب في حزن واكتئاب : « لا لست مخطئاً أيها البطل النبيل ، فقد كنت يوم رأيته أبا خمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش محروماً منهم ، فهكذا تتلاعب الأقدار بحياة البشر . وما يجديني أن يعيش ابني بعيداً عني في بلاد أندروس التي سُميت باسمه ويحكمها نائباً عني . وإذا كان أبوللو إله ديلوس قد وهب ابني ملكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتي ملكات أعلى شأنًا مما توقّعن ، فما تلمس أيديهن شيئاً إلا تحوّل غلالاً أو جداول نبيذ أو زيت زيتون ، فكأنّ بذلك مورد رزقي وأى رزقي ! غير أن أجاممنون الذي نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتي فبادر ينزعهن من حضني . وهكذا ترون أن الأعاصير التي أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها . وقد أمر أجاممنون بناتي بأن يمددن أسطول الإغريق بالطعام والشراب ، غير أنهن جميعاً أبين في إصرار ولُذُن بالفراغ ، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا ، ولحقت اثنتان بشقيقتي في أندروس فاندفع وراءهما جيش العدو متوعداً بالحرب شقيقتي إن لم يُسلمهما إليه . وغلبت رهبة العدو في نفس الملك حبه لشقيقتيه فأسلمهما لمصريهما . ألا فلتغفر له خوّه فلم يكن إلى جانب هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التي قاومت عشر سنين . وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكي يقيّدوا بها أيدي الأسيرتين فإذا هما ترفعان ذراعيهما صوب السماء صائحتين في ضراعة : « امدد لنا يد العون » يا أبانا باكخوس . »

واستجاب باكخوس الذى منحها موهبتها فأمدّهما بعونه ، هذا إذا أسمى التحول من هيئة إلى أخرى عوناً ، وما أدرى كيف فقدتا شكليهما ، ولست إلى اليوم قادراً على أن أصف ما وقع لهما ، وما أعى غير تلك الكارثة التى حلت بي منذ أن نبئت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيهما يمامتين بيضاوين بياض الثلج ، هذا الطير الأثير لدى زوجتك فينوس» (٢٥) .

وأضى الرفاق الوقت خلال الوليمة يسرون عن أنفسهم هذه القصة ويقصصون أخرى مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأووا إلى النوم ، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عراف فويوس الذى أمرهم بالبحث عن أمهم العريقة وعن الشواطيء التى عليها نشأت أسرهم .

٦٨٠ وودّعهم الملك مقدماً لهم ما غلا وعزّ من الهدايا ووهب أنخيسيس صولجاناً ومنح حفيده عبادة وجعبة سهام ، وأسلم أيتياس كأساً ثمينة كانت قد آلت إليه من ضيفه ثريسيس الذى كان يسكن طيبة ، وكان صانعها الكون من هيلاي قد نقش عليها نقوشاً فصل فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة (٢٦) ، وصوّر أمام سور المدينة مشهداً جنائزياً بمواكب ومقابر ومخارقه المشتعلة وكذا الأمهات العاريات الصدور والهواء يعبث بشعرهنّ ، وحوريات البر والبحر باكيات شاكيات جفاف ينابيعهم ، وشجرة جرداء عارية ، ومجموعة من الماعز تتشمّم التربة الصلبة التى جمّدتها حرارة الشمس . وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتى أوريون (٢٧) وقد أمسكت إحداها بسكين تقطع بها عنقها العارى فى شجاعة ليست للنساء ، بينما أغمدت الثانية طرف مغزها فى قلبها فماتت شهيدة وطنها بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً . ثم صوّر جسديهما محمولين خلال المدينة فى موكب جنائزى مهيب يمضى إلى المحرقة التى ستلتهمهما نيرانها أمام جماهير المشيعين ، وفجأة ينفض من رماد العذراوين شبان اشتهرا فيما بعد باسم « التاجين » (٢٨) . وتقدّما يقودان الموكب الجنائزى لرماد جثتي أميهما ، وكان سرّ ميلادهما الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتى أوريون (٢٩) بوفاتها . وتنتهى نقوش هذه الوجوه البراقة فوق البرونز العتيق لنشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكائثا البارزة المذهبة . وقد تقبّل الطرواديون هذه الهدايا وقدموا لقاءها هدايا لا تقل عنها قيمة ، منها صندوق بخور للكاهن ، وصحن للقربان وتاج مرصّع بالذهب والجواهر .

٦٨٠

٧٠٠

وحين ذكر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر لجأوا بسفنهم إلى جزيرة كريت ، إلا أنهم لم يقووا على تحمل قسوة مناخها أمداً طويلاً فابحروا من هذه الجزيرة ذات المدن المائة أملاً فى بلوغ شواطئ أوزونيا (٣٠) [إيطاليا] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال فالتجأوا إلى موانئ جزر الستروفاديس (٣١) التى لم يجدوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم ذلك الوحش المجنّح أيليو الذى أفزعهم فولّوا يعبرون موانئ دوليخيون وإيثاكا وساميه وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسوس المختال ، وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التى تنازع الآلهة وهرقل السيادة عليها (٣٢) . كما رأوا على شاطئ أكتيوم تلك الصخرة التى مُسّخ إليها من حَكَم لصالح هرقل ، وهذه الصخرة قائمة اليوم بمعبد أبوللو (٣٣) ، كما مرّوا بدودونا

ذات أشجار البلوط الناطقة^(٣٤) ، وخلجان خاوونيا التي استطاع أن يُقِلّت من حريقها الذي أشعله الأثمون أبناء ملك مولوس بأجنتهم التي ظلوا بها محلّقين طويلاً في السماء^(٣٥) .

- ٧٢٠ ثم أبحروا إلى أرض الفاياكين^(٣٦) ذات بساتين الفاكهة الغنية بالثمار ، وأرسوا بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إبيروس التي بنيت على غرار طروادة ، وكان يحكمها كاهن فريجيا هيلينوس بن بريام الذي كان عرّافاً لا تخيب له نبوءة ، وحين عرفوا منه مصيرهم ومستقبلهم أبحروا إلى صقلية ، وهي جزيرة تمتد منها ثلاثة ألسنة داخل البحر ، وألها يواجه الجنوب المطر ويسمى باخينوس ، ويهب نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمى ليليبيوم^(٣٧) ، ويتطلع ثالثها وهو بيلوروس إلى الشمال وإلى كوكبيّ الذّين الأصغر والأكبر اللّتين لن تهبأ أبداً من سائهما فتطويهما صفحات الماء . واقترب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بما لمجاديفهم من قوة وبما أمدهم البحر من عون أن يبلغوا عند حلول المساء شاطئاً زانكليه الذي كانت تهبّده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاربيديس النّمة التي لا تنفك تلتهم السفن ثم تقيئها . أما سكيللا التي تلتف حول خصرها كلاب مفترسة فلها وجه فتاة ، وكانت قبل فتاة حقاً ، كما تروى قصص الشعراء وما نظنها غطّطة فيها تروى^(٣٨) ، وكم من خطّاب - كما قيل - طلبوا يدها لكنها رفضتهم جميعاً ، وكم كانت تختلف إلى حوريات البحر الهائيات بها وتقصّ عليهن عزوفها عن حبّ الفتيان . وفيما كانت يوماً جالسة مع الحورية جالاطيا تمشّط لها شعرها إذ نهدت جالاطيا قائلة : « حسبك أنك فتاة تتودّد إليك شبان لم تحلّ قلوبهم من الرحمة وتستطيعين صلّهم دون أن يُنال منك بجزء . أما أنا ابنة نيريوس فعلى الرغم من حماية إخوتي لم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلويس إلّا بعد أن دفعت من الألم والحزن ثمناً غالياً . » ونخنت الدموع كلمات جالاطيا ، فاختلّت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البرد وتسرى عن الحورية قائلة : « يا أحبّ الناس إلىّ خفّني عن نفسك وإرولي قصتك ولا تخفي عني سرّ حزنك فما أولاني بثقتك » ، فبدأت الحورية تقصّ قصتها على ابنة كراتاييس قائلة :

أكيس وجالاطيا وپوليفيموس

- « على الرغم من أن أكيس بن فاونوس من حورية البحر سيباؤوس كان محبوباً من أبويه ، فإن حبي له كان يُرى على جبهها له . فلقد كان وحده محطّ عواطفى ، وكان وسيماً بلحيته النابتة التي كانت أشبه بالزغب على وجنتيه ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . وبينما كنت أتلمّسه أنا أتى ذهب كان الكيكلويس [السيكلويس] پوليفيموس يتبعنى أنا ، ولو سألتني أيهما كان أشدّ ، حبي لأكيس أم كراهيتي لبوليفيموس ما ملكت أن أجيب ، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين حدّة . ما أقوى سلطانك يا فينوس الحانية إذ جعلت من پوليفيموس كائنًا يتلذّق الحب ، وهو ذلك الوحش الذي يثير الرعب حتى في الغابات الموحشة ، ويودى بحية أى طائرٍ . » يقع نظره عليه ، ويزدرى جبل أوليمپوس ومن عليه من الآلهة ، فأصبح أسير شهوة عارمة واشتعل حبه فأنساه قطيعه والكهوف التي يأوى إليها . وكم حاولت

يا پوليفيموس أن تهذب من هيتك لتنال إعجابى ، وكم مشطت شعرك المنفوش بالمدراة وحلقت بالمنجل
لحيتك غير المشدبة ، وكنت تتخذ من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول تغيير ملامحه ،
وأنسيت وحشيتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم ، فكنت ترك السفن تروح وتعدو لا تمسها
بضرر . وكان تيليموس بن يورموس الذى لم تخطيء نذره قط قد بلغ وقتذاك صقلية خلال إحدى جولاته
وصعد سفح جبل إتنا لزيارة پوليفيموس المروّع ونصحه قائلاً : « كن على حذر فسوف يقتلع أوديسيوس
عينك الوحيدة وسط جبينك » . وعندها ضحك العملاق وهو يقول : « إنك لمخطيء يا أكثر العرافين
حقاً ، فثمة فتاة سبقته إلى استلابها » . وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى ، فلقد امتنها پوليفيموس
ولم يلق بالألإ إليها ، وانطلق بخطى واسعة فوق كثبان الشاطئ حتى أدركه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه .

وصعد الكيكلوپيس فى تلّ يمتد مسافة طويلة على ساحل البحر فى شكل لسان ترتطم به الأمواج من
كل جانب ، وجلس على القمة وبين يديه قطع أغنامه ، ووضع إلى جانبه جذع الصنوبر الطويل طول
صارى السفينة ، والذى كان له عصا يعتمد عليها ، وأمسك بالمصفار الرعوى المكوّن من مائة قصبة ضمّ
بعضها إلى بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرعدية فتردّت الجبال والبحار صدها . وكنت أنا مسترخية فى
أحضان أكيس وراء صخرة وتسمّعت إلى كلمات الكيكلوپيس التى يتغنّى بها فيها ويشبّب بقوله : « لآنت
يا جالاطيا أنصع بياضاً من الورود البيض ، وأجمل من سائر زهور المروج ، وأرقّ رشاقة من شجر الحور ،
وأشدّ إشراقاً من البَلُور ، وأخفّ من الحَمَل اليافع ، وأنعم ملمساً من الأصداف التى يغسلها البحر
دوماً . يا من أنت أكثر دفئاً من الشمس فى الشتاء وأكثر حناناً من الظلال فى الصيف ، وأحلى مذاقاً من
الفواكه ، وأكثر بهاء من شجر الدّلب الشامخ ، وأشدّ تألقاً من الثلج ، وأشهى من الكَرَم الناضج ،
وأملس من زغب البجعة وأطرى من اللبن الخائر . لو لم تهرب منى لكنت أروع جمالاً من الحديقة الغناء
بجدواها ، لكنك يا جالاطيا أعصى نفوراً من الثيران الجاحمة ، وأشدّ إباءً من البلوط العجوز ، وأكثر
خداعاً من البحر ، وأشدّ مراوغة للبد من غصينات الصفصاف ومخاليق الكروم البيضاء ، وأشدّ صرامة
من هذه الصخور ، وأعنى ثورة من ذلك النهر ، وأكثر صلفاً من الطاووس يتيه زهواً ، وأقى من النار
وأخشن من نبات الشوك ، وأكثر توخّشاً من أم الدبّ ، وأصمّ من الحفصم ، وأخطر من الأفعى حين
تطوّمها قدم عن غير قصد ، وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذى أود أن أبرئك منه هو أنك أسرع فى العُدو من الوعل
الذى تطارده كلاب الصيد بنباحها ، بل أسرع من الريح العاصف . أه لو كنت تعرفين حق المعرفة ، إذن
لأسفت على هربك منى ولندمت على تمثّلك عفى ، ولحاولت الإستمسك بى ، فانا أملك فى سفح الجبل
غاراً تتصّلره صخرة نابضة بالحياة على شكل قبولا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء ، وعندى من
الأشجار ما تميل غصونها من ثقل ثمارها ، ومن الكروم ما يزحف حاملاً عناقيد العنب الشبيه بالذهب
والأرجوان . لقد أدخرت ذلك كله لك ، وببيدك تستطيعين قطف ثمار الفراولة الطيبة المذاق فى ظلال
الغابات ، وثمار الكرز والبرقوق فى الخريف ، ولست أقصد البرقوق الداكن وحده ، فهناك أيضاً نوع
أخضر ضارب إلى الصّفرة يشبه الشمع الغض . ولو اتخذتني زوجاً لذّقت الكستناء كما تشاءين ، ولنعمت

بشار البطيخ . وهنا مستصبح كل شجرة لك ، وتموزين كل هذه الأغنام التي ترين ، ولى كثير غيرها ترعى في الوديان أو تهيم في الغابات أو تُشَدُّ في حظائري . ولو سألتني ما استطعت إحصاء قطعاني ، فالفقير وحده ٨٢٠ هو من يحصي أغنامه ، وإذا شئت معرفة جملها فلا تُركنى لحديثي عنها بل تعالى هنا لتشهدي بنفسك كيف تعجز قواتها عن حملها لامتلاء أئذائها . وقد جمعت التناج الجديد في حظائر دافئة ، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة ، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندى ، أحفظ بعضه للشرب وأحمر الباقي ليخثر . ولتسأل إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك ، ولن أقدم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعل والأرنب أو الماعز والبيام ، أو صغار الطير فوق غصون الشجر ، بل سأقدم لك توأمين من صغار الدب الوحشى متشابهين يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتهما فوق الجبل وسأقدمهما لك كي تأنسى بهما ، وقد قلت لنفسى حين عثرت عليهما فلا أحفظهما من أجل حبيبتى . ناشدتك يا جالاطيا أن تطلّى بوجهك المشرق فوق البحر الأزرق ، هلمّى ولا تزدري هداياى . وليس يخفى على شكل ومع هذا فلقد رأيت صورق منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتنى . انظرى إلى طول قامتى ، وما أظن جوبيتر يفوقنى طولاً ، [هذا الذى لم أسمع إلا منكم أنه حاكم العالم] ، ٨٤٠ وخصلات الشعر الغزير تحضن قسبات وجهى الصارمة وتلقى على كنفى ظلالها وكأنها دغل كثيف . ولا تعدّينى دميماً لغزارة الشعر الحشن الذى يكسو جسدى ، فكم تبدو الشجرة قبيحة حين تكون جرداء ، فالجواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يَغشَى عنقه عُزْفٌ غزير ، ولا تجمل الطيور إلا بريشها ولا الأغنام إلا بفرائها ، وليس أنسب للرجل من لحية ثملاً وجهه وشعر غزير يغشّى جسده . حقاً ليست لى إلا عين واحدة وسط جبيني لكنها عين تشبه درعاً عظيماً ، وماذا فى ذلك ؟ أولاً تعانق الشمس بنظرها الكون كله من علياء سبائها الفسيحة وما لها غير عين واحدة ، هذا إلى أن أبى هو ملك البحار التى تمهين فيها (٣٩) ، ولسوف يصبح حماً لك إذا تزوّجتنى . فليس فى العالم كله من أسجد أمامه سواك ، أنا من ازدرى جوبيتر والسيارات والصواعق النافذة ، أخشاك يا أجمل بنات نيريوس ، ففضبك أشد هولاً من البرق . وقد ٨٦٠ أحتمل ازدراءك لى لو كنت تزدرين الجميع ، ولكن لماذا تصدّين الكيكلويس وتمنحين حبك لأكيس ، ولماذا تؤثرين عناقه على عناقى ؟ فليزّه أكيس ما شاء له الزهو وما شئت أنت يا جالاطيا . ليكن ، غير أنه لأول وهلة سيعلم أن فوقى كفء ضخامتى . ولسوف أنتزع أحشائه حياً وأمرّقه ثم أنثر أطرافه فى الحقول . تُراه هل يستطيع بعد ذلك أن يقترن بك ، إننى أحترق عشقاً ولهبى الهوى يلذعنى ويضحقى أشدّ لذعاً حين أكون موضع ازدراؤك وكأنى أحمل فى أحشائى بركان إتنا . ومع هذا فانت لا تبالين بى يا جالاطيا .

وبعد أن فرغ بوليفيموس من هذه المناجاة التى ذهبت أدراج الرياح وقف كالثور الذى جُنَّ بفقد بقرته ، وأخذت عينيّ تتبعه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه فى الغابات والمراعى التى يالفها . وإذا بصّر العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندرى ما سيعرض لنا من خطر ، وإذا هو يصبح فى وحشية : « ها أنذا قد رأيتهكيا ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما » . وكان صوته راعداً اهتز له بركان إتنا نفسه ، وأسرعت بالغوص فى المياه فزعة بينها استدار أكيس بن سيبايتوس هارباً وصاح بى

مستجداً : « عونك يا جالاطيا ، عونكم يا والدي ، ائذنا لي في أن أدخل مملكتكم ، فإن لم تفعلنا لحق بي الموت » . وانطلق الكيكلوبيس يطارد أكيس بعد أن انتزع كتلة ضخمة من سفح جبل وقذفه بها ، ومع أن طرفاً منها هو الذي مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه ، وما غلك غير ما تتيحه الأقدار فلقد منحت الأقدار طبيعة جلدّه^(٤٠) . كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التي سقط تحتها ، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الدم يشحب ، وشيئاً فشيئاً ظهر نبع صافٍ من المياه ، وتفتت الصخرة وانثقت وانثقت من شقوقها سيقان غاب طويلة مياسة . وتفتحت المياه صاخبة من جوف الصخرة . وفجأة ، ويا لها من معجزة ، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفي جبهته تاج من سيقان نبات السمار المجدول حول قرنين حديشي البنية ، ولو لم يكن ما بدا من قامته طويلاً ولو لم يكن لازوردي الوجه لكان هو أكيس نفسه ، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقى أكيس هو هو رغم تحوله إلى نهر ، وصار هذا النهر يحمل اسم أكيس .

جالاوكوس

وفرغت جالاطيا من حديثها وتفرقت حوريات البحر سابحات في المياه الساكنة إلا سكيللا ، فقد عادت مسرعة إلى الساحل لا تجمرؤ على البقاء في غرض مياه البحر ، وكانت تحظر عارية على الشاطئء تارة ، وكلما وجدت ظلمة بمعزل استترحت في ظلها تارة أخرى ، وإذا هي تستمع فجأة إلى صرخة مدوية تنطلق من أعماق البحر ، ثم أبصرت جلاوكوس الذي لم يسكن البحر إلا منذ قليل — لأنه قد مُسخ في أنثيدون القريبة من بحر يويويا — يشق الموج قادماً تجاهها^(٤١) ، حتى إذا ما رآها تجرد في مكانه وقد اضطربت في نفسه لهفة عارمة وتحرك شبقه ، فناداها بما عن له من كلمات ليصدها عن المضى هاربة منه لكنها أصمّت سمعها ، وكأنما أمدها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل الشامخ المكسدة بالغابات بجوار الشاطئء حيث امتدت أمامها رقعة فسيحة من المياه وجدت فيها مأوى آمناً استقرت فيه ، ولم تدر إن كانت ترى أمامها وحشاً أو إلهاً ، وأخذت تتأمل في دهشة لون بشرته وشعره الذي يغطي منكبيه وينسدل على ظهره وذيل السمك الذي يشبه تحت خصره . ولحها جلاوكوس متأملة ، فاعتمد على صخرة

قريبة وقال لها : « لست غولاً يا صبيّة ولا وحشاً مفترساً ، وإنما أنا أحد آلهة البحر ، وليس سلطان على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو پالايون بن أثاماس ، غير أنني كنت في الماضي إنساناً أعشق البحر عشقاً شديداً وكان عملي موصولاً به ، وكنت أجتذب الشباك مليئة بالأسماك تارة أو أجلس على صخر الشط أتصيد السمك بالشص . وكان على مقربة من المكان الذي أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر من جانب وتتفسح عند جانبيه الآخر مراعي بكر لم تطف بها قطعان الأبقار الطويلة القرون ولا الأغنام المسالة ولا الماعز الشعشاء الوبر ، ولم يخلق بها نحل يمتص زهورها ليحيلها شهداً ، ولم تُجذّل من أغصانها الأكاليل لتُجَلّل بها هامات الضيوف خلال الولايم ، ولم تتناولها يدٌ بقضبٍ عُشْبها بالمنجل الطويل ، وكنت أول من افترش هذا العُشب وقد جلست يوماً أجفّف الشباك المبتلة وأصفّ فوق العُشب السمك الذي جمعت

لأحصى منه ما قذفت به الصدفة في شباكى أو ما أوقعته السداجة في شصى المعقوف . ولك أن تظنى أنى
أختلق ، ولكن فيم يفيدنى الاختلاق ؟ فما كادت الأسماك تفتش العشب حتى أخذت تتلوى وتضطرب
وتسبح فوق اليابسة وكأنها وسط البحر ، وبينما كنت ذهلاً وأنا أشهد ما يقع إذا الأسماك تنزلق نحو البحر
٩٤٠ وتغوص ثانية بين الأمواج التى كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطئ والصائد . وقد جمدت فى مكانى
مذهولاً ألتبس تفسيراً لما حدث وأتساءل عن سر هذه الظاهرة ، أهى إرادة إله أم فعل عصابة العشب ،
وقلت لنفسى « ترى أى عشب هذا الذى يملك تلك القدرة ؟ » . واقتلعت بعض أعواده وعضبتها
بأسنانى ، ولم تكد عصارتها الغريبة تساب فى حلقى حتى أحسست بقلبى يتنفذ داخل صدرى وإذا
طبعى تأخذ فى التغير ، ولم أقاوم طويلاً فصحت قائلاً : « وداعاً أيتها الأرض ، فلن أعود إليك مرة
أخرى » . واندفعت إلى المياه حيث رحب بى آلهة البحر وتلطفوا بى فأجلسونى بينهم فوق منصة السلطة ،
ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يزيلا عنى ما بى من عناصر فانية ، فأخذوا يطهرانى مرّدين مرات تسعاً
تعويدة مقدسة خلصتنى من أدرانى ، وطلبوا إلى أن أغمس جسدى فى ماء نهر ، وسرعان ما أخذت أنهار
جميع بلاد العالم تتصوّب مياهها نحوى من كل صوب وتصبّها فوق رأسى . هذا كل ما أقوى على أن أسرده
عليك من عجائب مغامرتى ، فقد جمدت عند ذلك ذاكرى وفقدت القدرة على استخدام حواسى ، وحين
٩٦٠ عدت إلى وعى وجدت جسدى مختلفاً تماماً عما كان قبلاً ، كما أصبح عقل غير ما كان . ورأيتى لأول مرة
هذه اللحية التى يذكرنى لونها المخضرّ بصدأ النحاس ، وهذا الشعر الذى يتثر على الموج الفسيح ، وهذين
المنكين العريضين ، وبهاتين الذراعين اللازورديتين ، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتح كذيول
الأسماك ذات الحراشف ، ولكن فيم يفيدنى هذا الشكل الجديد ؟ وفيم يفيدنى تلك المكرمة التى اختصنى
بها آلهة البحار ؟ بل فيم يفيدنى أن أكون أنا نفسى إلهاً إذا لم تعيرنى أنت انتباهاً ؟

على هذا النحو استرسل الإله فى الحديث ، وكان على وشك مواصلته حين أمعنت سكيللا فى
هروبها ، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها ، واتجه إلى القصر المسحور الذى تمارس فيه كيركى^(٢٢)
ابنة التيتان معجزاتها العديدة .

التعقيبات

- (١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة .
- (٢) كان أوديسيوس يمشى ما تنبأ به العراف من أنه لو اشترك في حرب طروادة لما عاد إلى داره إلا بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً ، وقد دفعته شدة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يفسر إلى الإبحار للمعركة ، غير أن بالاميديس شك في تظاهره بالجنون فخطف تيليخوس بن أوديسيوس من مهله وجعله يمسك بمحراث يجره ثور وجواد ، فلذعر أبوه ولم يستطع المضي في التظاهر بالجنون واعترف بخدعته ولكنه لم يفتخر له بالاميديس ما صنعه .
- (٣) انظر الكتاب التاسع .
- (٤) هذه إشارة إلى نفى تيلامون والد أجاكس بسبب قتله أخيه غير الشقيق فوكوس [انظر الكتاب السابع] .
- (٥) مثلاً فعل تيلامون بقتله أخيه .
- (٦) كان تيوكروس بن تيلامون أخاً لأجاكس من والده بينما كانت أم أجاكس هي ابنة لاووميديون وشقيقة بيرام [انظر الكتاب الحادي عشر] .
- (٧) عرف الإغريق باسم الأخيين كما كانوا يسمون أحياناً إلى دانالووس شقيق إيجيروتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذي أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد .
- (٨) يتبع أوفيد هنا مأساة « إنيجينيا في أوليس » لأوريبديس متابعة تكاد تكون حرفية .
- (٩) أثارت وقاحة ثيرسيتيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أتعده مرتعداً من الخوف والألم . وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس في الكتاب الثامن من الإلياذة .
- (١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسس على مدلولات أجاممنون والقادة الإغريق في مقابل وعده بأن يهبوه جياد أنجيل ومركبته بعد قتله .
- (١١) إشارة إلى ما اقترحه أجاكس سائراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس مناصفة ، الأمر الذي يعد أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأي شيء على الإطلاق .
- (١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التي ينسج فيها أوفيد على منوال هوميروس سرد أساءه الأعداء القتل .
- (١٣) هو العراف هيليتوس الذي كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسللون إلى طروادة .
- (١٤) المقصود أجاكس بن أويليوس ملك اللوكريين .

- (١٥) كان أجاكس يلتف بفراء الأسد الذى أعطاه إياه هرقل ، الأمر الذى جعله منيعاً على ضربات السيوف إلا في مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده ، ويقول أوفيد أنه الصدر بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب .
- (١٦) أى تمثّل بداية اسم أجاكس كما ينطق باللاتينية « أياكس » ، ويذكرنا مقطعه الأول بصرخة الألم والاستنجاد التى صدرت عن هياكيتيوس .
- (١٧) تباونت نساء ليمنوس في تكريم الإلهة فينوس فترة طويلة ، أى أنهم لم يمارسوا مع الهوى وزهدن في مضاجعة أزواجهن مما دلع بالآخرين إلى هجرهن نحو نساء من طراقيا . فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيها عدا هيسبيله بنت الملك ثواس التى هربت أباهما من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها ، وهى التى رحت ببخارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بچاسون فحملت منه بوللين .
- (١٨) انتزع الإغريق استياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسراً وألقوا به من فوق أسوار طروادة . وقد سجل أوريبيديس هذا المشهد الفاجع في مأساة الطرواديات [البيت ٧٠٩ وما بعده] .
- (١٩) ذكر هذا الاغتيال في مقدمة مأساة هيكتورا لأوريبيديس على لسان شيخ پوليدوروس ، ويذكره فرجيل أيضاً في الكتاب الثالث من الإلياذة [البيت ١٩ وما بعده] .
- (٢٠) يشير إلى يوم طمع في الظفر بالأسيرة بريزيس في مستهل ملحمة الإلياذة .
- (٢١) يعرض الجزء الثانى من مسرحية « هيكتورا » لأوريبيديس قصة عثور هيكتورا على جثة ابنها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليمستور ملك طراقيا ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس في الإلياذة (٢٠ : ٤٠٧) من أن پوليدوروس هو ابن پريام من زوجة غير هيكتورا هى لاوثويه وأن أنخيل هو الذى قتله أمام هيكتور .
- (٢٢) توجد « كينوس سىا » أى مقبرة الكلية على مقربة من الهيلسبونث وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافى استرابو .
- (٢٣) أوردوا [ليوس اليونانية] هى أم نمون من تيثونوس شقيق پريام ، وفي تلك القرابة يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادى .
- (٢٤) انظر الكتاب السادس .
- (٢٥) كانت فينوس قد وقعت في غرام أنخيسيس . أما تسميتها بزوجه فهو من قبيل الأدب في الحديث .
- (٢٦) كانت لأسوار طية [بويوتيا] أبواب سبع .
- (٢٧) كوكبة الجوزاء .
- (٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوى والإكليل الشمالى عند الفلكيين العرب .
- (٢٩) كان أوريون بن هيريس من أهل طية ، وكانت له ابنتان هما متيوخى ومينيى تقدمتا بحض إرادتهما قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حل بها الطاعون ، وهو ما كان قد طالب به الهاتف الإلهى في معبد أبوللو بجوريتنا . وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فثالتا رضاء الآلهة التى حولتها إلى كوكبتين ، في حين تحول أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء . والملاحظ أن النص هنا يفتقر إلى الوضوح ، وأن الإكليلين تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية .
- (٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لفرجيل [الكتب الثالث — الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١] .
- (٣١) مجموعة جزر أمام الشاطئ الغربى من المورة .
- (٣٢) دوليخيون ونيريتوس اسما جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا . أما ساميه فهى جزيرة صغيرة في بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينا . وأمباريا مدينة في إيبيروس غير الأمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره في معركة أكتيوم وسماها نيكوبوليس أى مدينة النصر .
- (٣٣) تنازع كل من أبوللو وأرتميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوس الذى كان يرعى قطعانه بجوار المدينة ففضى بحكمه لصالح هرقل ، فغضب أبوللو ومسحه صخرة . وكان لأبوللو في مدينة أكتيوم معبد مشهور ، والملاحظ أن أكتافايوس قهرم الذى أصبح الأمبراطور أوغسطس فيما بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كلو باترة في معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ ق.م . على مرأى من مدينة أكتيوم .
- (٣٤) انظر الكتاب السابع .

(٣٥) كان مونيخوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرفاً مشهوراً بجيا حياة الورع بين أسرته . وقد هاجمه بعض اللصوص ذات يوم وأشعلوا النار في دياره فمسخ جوبيتر أسرته النقية سرباً من الطيور لإتقاذها من الحريق .

(٣٦) فاياكيا اسم جزيرة في بحر أيونيا قريبة من شواطئ ليروس تغير اسمها إلى كوركيرا [كورفو الحالية] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالترف .

(٣٧) تنوه في جنوب صقلية .

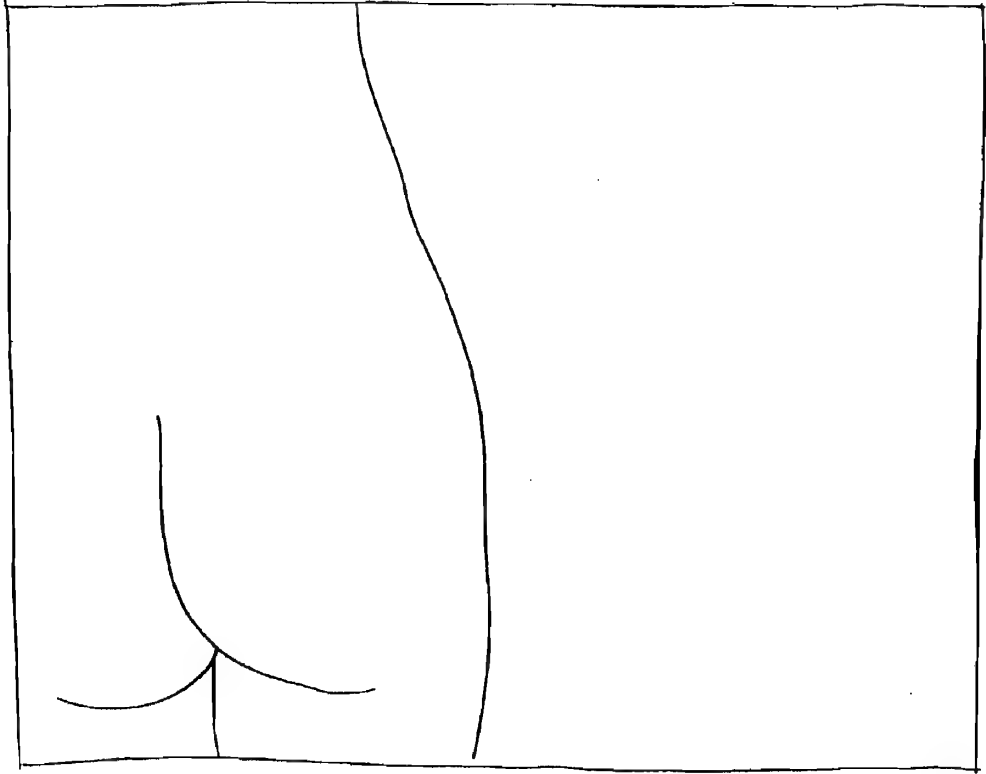
(٣٨) استوحى وصف سيكللا هنا من الأوديسيا لهوميروس [النشيد الثاني عشر . البيت ٨٥ وما بعده في خطبة كيركي أمام أوديسيوس] .

(٣٩) كان بوليفيموس ابناً لنتون إله البحار .

(٤٠) تحول أكيس حفيد نهر ثيايتوس بدوره إلى نهر ، وهو ذلك الجدول المتحدر من جبل إتنا والذي يحمل اسمه .

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته ، فهو يمثل أحياناً في شكل شاب أمرد ، وأحياناً أخرى في شكل عراف عجوز يشاه الملاحون ، وكثيراً ما يتخط بينه وبين بروتوس ، ويروي أوليفد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه .

(٤٢) كيركي هي بنت هليوس إله الشمس الذي كان — على ما رواه هزودوس — ابن هيريوس وثيا ، ويصفه أوليفد بأنه أحد المردة . وكان هليوس إله الشمس غير أبولو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً ، وكان أبوه المارد هيريون بدوره يُن جيا ربة الأرض وأخاً لكرونوس [ساتورن] .



بيكاسو

الكتاب الرابع عشر

سكيلاد وكيركى

خلف الإله الذى اتخذ أمواج بحر يوبويا الصاخبة سكناً له جبل إتنا وراءه ، ذلك الجبل الشامخ الذى قذف به الآلهة فى قديم الزمان لينقّ عنق أحد العمالقة^(١) ، كما خلف حقول الكيكلويس الذين كانوا يجهلون استخدام النورج والمحراث ولا يدينون بفضل للثيران المشدودة إلى النّير . كذلك خلف وراءه مدينة زانكلييه^(٢) وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها ، وكذا المضيق الذى ألق على سفن كثيرة بين ساحلى أوزونيا [إيطاليا] وجزيرة صقلية المتقابلين [ميسينا] . وبذراعه المقتولة استطاع عبور البحر الإثروسكى [التيرانى] حتى أدرك التلال السندسية حيث يشمخ قصر كيركى بنت إله الشمس ، ذلك القصر العامر

٢٠ بمن مسختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال . وما كاد يلقي كيركى ويادها السلام حتى قال لها : ناشدتك أيتها الإلهة أن تترفعى بالإله الذى يمثل أمامك ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تحففى عنى آلام حبى إذا كنت ترين أنى جدير بهذه المنّة ، فما أعظم قدرة النباتات يا ابنة التيتان ، ولا أحد يعرف هذا معرفتى به بعد أن عانيت المسخ بفعل سحر هذه النباتات . ولكى تعرفى سبب الاضطراب الذى يلم بى فإليك ما حدث : لقد وقعت عيى على سكيللا على شاطئ إيطاليا المواجه لأسوار ميسينا ، ومعنى حياى من أن أقص عليك كم من الوعود وعدت وكم من ضراعات وضعت وكم من عبارات غرام بعثت بها إليها فسخرت من هذا كله . وما أطلب إلا أن تنفج شفتك المقدستان عن عودة ، ففى عوداتك تكمن قدرة تعلق كل قدرة . وإذا كان ثمة عشب فى ملكوتك له ما ليس لعوداتك من تطويع العصى فلتسعفى به فلأت به خبيرة . وما أطلب منك ترياقاً ولا بلسماً لجرحى ، فما أنا فى حاجة إلى أن أهرب من الحب بل إلى أن نكوى سكيللا بنصيبها من النار التى تضطرم فى نفسى .

وإذ كانت كيركى أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب ، سواء لما طبت عليه أو لما مُنحت من الإلهة فينوس الناقمة على إله الشمس^(٣) [لوشايتة بصلتها بالإله مارس] فقد أجابت جلاوكوس قائلة : « كان أولى بك اختيار حبيبة تبادل لك إرادة بإرادة ورغبة برغبة ونحس بلوعة الحب كما نحس ، فما أجدرك بأن تكون النساء هن الساعيات إليك ، ولتطمئن بالأى إلى أن سعى النساء إليك حقّ عليهن لوسامتك ، بل صدقنى أنك لو تذرعت ببعض الأمل لأصبحت أنت من تسعى هى إليك بدلاً من أن تسعى أنت إليها . فلا يخالجتك الشك فى نفسك ولا تفقدن الثقة بوسامتك . انظر إلى ، فمع أن إلهة ومع أن ابنة إله الشمس المتألق ، ومع أن أملك العودات والأعشاب السحرية ذات القدرات الرهيبة ، إلا أننى أتمنك وأتوق إلى عشقك . فلتزدر من يزدريك ولتقبل على من تسعى إليك ، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء لأخرى » .

وقال جلاوكوس لكيركى يردّ على محاولتها اغراءه : « ما أنا بمتحول عن حبى لسكيللا مادمت حياً ، حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب فانشقت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال بأعشاب البحار » .

٤٠ وامتلأ صدر الإلهة غضباً ، وإذ كان حبها لجلاوكوس يحول بينها وبين التشكيل به فقد صبت نيران حنقها على غريميتها . وهرعت - تلك التى جرح كبرياؤها ولم تجد صدى لحنائها - دون أن تضع وقتها تهرس أعشاباً سامة ذات عصارات فتاكة ، وقرنت المزيج بعوذات لقتتها إياها الربّة هيكاتى ، ثم التفت بغلايتها اللازوردية وسارت وسط قطعان الحيوانات المفترسة التى كانت تحتشد حولها مشربة الأعناق طلباً للمداعبة وخلقت قصرها . ووصلت كيركى إلى مدينة ريبيوم المواجهة لصخور مدينة زانكلي ، ثم اندفعت فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة ، تدوس بقدميها سطح الماء فلا تبتلان به .

وكان ثمة مغارة صغيرة محذبة القباب متعرجة المسارب تنسرب مياه البحر إلى جوفها هى الماوى الأثير لسكيللا تختلف إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس المحرقة ساعة تتوسط قبة الساء

فتكشمش ظلال الأشياء . وإذا كيركى تلوث مياه الماوى وتنشر سمومها البشعة به ، وتنثر سائلاً من عصارات جذور سامة ثم تتمتع مرات تسعاً ثلاث مرات بتعاويز سحرية كلها لعنات غامضة وكلمات غريبة ملغزة . ولم تكذب سكيللا تغوص في الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً مفترسة تعوى محيطه بفخذيها . ولم يجل بخاطرها في بادئ الأمر أن هذه الوحوش قد باتت جزءاً لا يتجزأ من جسمها فحاولت الفرار وطرد هذه الوحوش وقلبها يمتلئ فرعاً من أنيابها الجارحة ، ولكنها كلما حاولت التخلص من هذه الوحوش شذتها معها ، وكلما تحسست فخذيها وساقها وقدميها وجلت مكانها مجموعة من الكلاب الشبيهة بـ كلاب كيريروس ذات الرؤوس المتعددة الفاغرة الأفواه ، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها تقوم على هذا الرهط من الكلاب المسعورة ورأت أن نصفها الأسفل ليس إلا كلاباً تلتصق بالجلد الذى يعلوها . أما عاشقها جلاوكوس فولّى فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه ، رافضاً أن يتخذ من كيركى زوجة له بعد أن استغلت قدرات أعصابها على هذه الصورة الوحشية . ويقت سكيللا جامدة في مكانها ، ولم تكذب تخمين أمامها الفرصة حتى اختطف رفاق أوديسيوس نقمة على كيركى ، وكادت أن تغرق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها مسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج منذرة بخطر يتحاشاه الملاحون .

الكيركوبيس

ما كادت السفن الطروادية تُفلح بقوة مجاذيفها في الإفلات من سكيللا وخاريديس النهمة حتى شارفت سواحل أروونيا وكادت ترسو بها ، وإذا ريحٌ قوية تدفعها إلى شواطئ ليبيا . وهناك استقبلت أينياس الملكة الفينيقية التي تنتمى إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها معاً . وقضت الأقدار ألا تحتمل ديدو فراق زوجها الفريجي [بعد أن هجرها بغتة] فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدتها متظاهرة بأنها لتقدم القربان . وكما هجرها أينياس على حين غرة هجرت هي الأخرى شعبها وهي تغافله .

وللمرة الثانية^(٤) لاذ أينياس بأذيال الفرار ، فخلف أسوار المدينة الجديدة المشيدة فوق الساحل الرملى مبتعداً ، وما لبث أن وجد نفسه يعود إلى أرض إريكس^(٥) وإلى الملك أكستيس^(٦) الوفي حيث قدم القرابين ونحر الضحايا أمام مدفن أبيه . ثم أبحر من جديد بسفنه التي كادت لإيريس مبعوثة جونو أن تشعل فيها النار . وخلف ملكة ابن هيبوتيس^(٧) ، تلك الأرض التي تنبت منها أبخرة الكبريت المشتعل . وبعد مروره بصخور « السيرينات » بنات نهر أخيلوس فقد رباته [بالينورس] ، ثم اجتاز شواطئ جزيرة إيناريميه^(٨) وجزيرة پروخيته^(٩) ومدينة بيشيكوزا^(١٠) المشيدة فوق تل أجرد والتي اشتق اسمها من اسم سكانها [بيشيخوى أى القردة] ، إذ يروى أن كبير الآلهة في قديم الزمان قد ضاق ذرعاً بالسنة الكيركوبيس ويرذائل هذا الجنس المخادع ، وقضى بإنزال العقاب بهم فحوّهم من أناسٍ إلى حيوانات ديمة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشبه به ، وجعل جوبيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم

فطساء ونحّد أصداغهم بتجاعيد الكهولة ، ثم كسا أجسادهم بشعر داكن وألزمهم هذا المأوى . غير أنه قبل أن يفعل حرّمهم القدرة على الكلام وجردّهم من ألسنتهم التي تحلف كذباً وتحث باليمين ، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلا بصراخ أجش وبأصوات ناشزة . ١٠٠

سـيـيـلا

وبعد أن مرّ أينياس بهذه الجزر وخلف عن يمينه أسوار پارثينوس^(١١) وعن يساره ضريح ميسينوس^(١٢) نافخ البوق الرنّان - الذي كان ابناً لأبولوس - رسا على شاطئ كوماى بمستنقعاته ذات المياه الراكدة . وهناك سعى إلى المغارة التي تأوى إليها سييلا المثقلة بالسنين ، وسألها أن تأذن له باختراق مملكة أفيرنوس [العالم السفلى] حتى يلقى روح أبيه . فثبّت سييلا نظرها في الأرض برهة طويلة ، وبعد أن رفعت رأسها تحدثت بصوت الإله الذي تقمصها قائلة : « إنك لتطلب الكثير أيها البطل الشهير ، يامن كشفت عن بسالتك بضربات سيفك وعن ورعك وبرك بأسلافك بنفاذك وسط أسنة نيران المدينة المشتعلة . فلتطرح عنك شتى ألوان القلق أيها الطرّادى فستحقّق أمانيك وساكون مُرشدتك ، وستعرّف عن قريب على ديار إليزيوم [العالم السفلى] آخر ممالك الكون ، وستلقى روح أبيك الحبيبة لأنه ليس ثمة طريق تعجز الفضيلة عن سلوكه » .

وأشارت إلى الغصن الذهبي المتألق في الغابة المخصصة لجنّو الأفيرنية ربّة العالم السفلى ، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذي يحمله فانصاع لأمرها ، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى التي يحكمها أوركوس ربّ الأهوال حيث شاهد أطراف أجداده وروح والده أنخيسيس الكهل السَّمح القلب ، وما هي إلا هنيهة حتى كان قد ألمّ بالشرائع التي تسود هذه الديار كما عرف المخاطر التي سيتعرّض لها في حروبه المقبلة . ثم عاد يسير بخطوات منهكة في الطريق الصاعد محاولاً أن يتلمّس الراحة من الإرهاق الذي أحسّ به وهو يبادل مرشدته سييلا كاهنة كوماى الحديث . حتى إذا خلف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات صاح بها : « يستوى عندي أن تكون إلهة أو أن ترعاك إلهة فساظل دوماً معترفاً بفضلك على ، لأنك أنت وجدك من أنحّت لي زيارة ملكة الموت ثم مغادرتها آمناً . واعترافاً بما أسبغت على من مآثر لأشيدّن لك معبداً عند عودتنا إلى سطح الأرض ولاحرقنّ باسمك البخور » . ١٢٠

فالتجهت الكاهنة نحوه وهي ترسل زفرة عميقة وقالت : « لست إلهة يا أينياس ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان . أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئة عن جهل . ولتعرف أنني لو كنت قد ضحيّت بمُذرّتي واستسلمت لنزوات الإله فويبوس الذي كان يعيشني لحظيت بنور الخلود . وكان فويبوس يأمل وقتذاك أن ينالني وما فتىء يغريني بهداياه ، ويقول لي : « يا علزراء كوماى ما أشدّ حرصى على أن ألبى لك أية رغبة تفصحين عنها » . فالتقطت حفنة من الثرى عرضتها عليه وطلبت منه في حماقة أن يهبني أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتي من ذرات التراب ، ولكنني نسيت أن أطلب في الوقت نفسه أن تكون هذه السنين كلها سبى إلى نهايتها . ومع ذلك فقد كان من اليسير على فويبوس أن يهبني أيضاً ١٤٠

الشباب الأبدى لو أننى ارتضيت أن يُشيع وله منى ، لكننى ازدرت ما طلب وبقيت عانساً حتى الآن . أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلت الشيخوخة الخزينة بخطواتها الراجعة ، ومازال على احتياها سنين طويلة أخرى . فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامى أن أشهد ثلاثمائة مرّة حصاد الغلال ، وثلاثمائة مرة انسكاب النبيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أكمل عدد ذرات التراب التى تقابل سننى عمرى . وسياق وقت أضمرّ فيه حتى أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضالّة ، وستنكمش أعضائى بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملء قبضة يد فحسب . ولن يصدّق مخلوق يرانى على تلك الحال أنى كنت ذات يوم معشوقة إله . ومن يدرى فقد يعافئى فوبيوس نفسه ، وقد ينكر أنه مال إلى ذات يوم ؟ وسأبلغ نهاية أيامى على هذه الصورة التى تختلف عما كنت عليه ، وإذا لم يعرفنى أحد لفرط ضالّتى فسيعرفنى الآخرون بصوتى ، وهو كل ما سوف تركه لى الأقدار .

أخيمينيديس وبوليفيموس

وبينا كانت سيبيللا مسترمة فى حديثها كان أينياس الطروادى فى سبيله إلى ضوء النهار خلفاً لمملكة ستيكس على مقربة من مدينة « كوماى » اليبوية . وبعد أن قدّم القرايين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطئ الذى لم يكن قد سُمى بعد باسم مُرضعته « كاييتا » . وهنا أيضاً كان مكاربيوس بن نيريتوس ١٦٠ اليونانى قد هبط هو الآخر واستقر بعد أن عانى الكثير فى مغامرة بحرية طويلة مرهقة برفقة أوديسيوس المحنك ، فإذا هو يتعرّف على أخيمينيديس الذى كان قد ترك مهجوراً منذ أمد بعيد بين صخور جبال إتنا . ودعش مكاربيوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قد قضى نحبه وسأله : « أى إله هذا الذى تدنّى له بنجاتك يا أخيمينيديس ، وأية صدقة تلك التى ترجع لها سلامتك ؟ وأنى ليونانى أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين ؟ وأى ساحل كانت تقصده سفيتك ؟ » .

وأجاب أخيمينيديس وكان قد نزع ثيابه الملهله التى كانت مخيطة بالأشواك فيما مضى بقوله : إنه لأحبّ إلىّ أن ألقى بوليفيموس مرة ثانية وأنظر إلى فمه الشرّ الذى تنساب منه قطرات الدم البشرى عن أن يكون وطنى إيثاكا أعزّ لدىّ من هذه السفينة أو أن يكون تبجيلى لأينياس دون تبجيلى لأبى . . . فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيه حقه من العرفان بالجميل . وهل لى أن أنسى أنى بفضلله أتكلّم الآن وأنفس وأرى الشمس كوكب النهار ؟ إنى مدّين له بحياتى فلقد أنقذنى من الموت فى جوف الكيكلوپيس . وها أنذا لومت الآن وفارقت الحياة ما فقدتُ الأمل فى أن أُدفن فى قبر وليس فى أمعاء الوحش . أو علمتم بما أحسسته ساعة تركتمونى وأبحرتم نحو البحر الفسيح ؟ [وإن كان الخوف قد سلبنى كل شعور وإدراك حينذاك] ، فكم كنت أودّ أن أناديكم ولكنى خشيت أن أكشف بذلك عن مكانى للعدو ، حتى أنتم فى سفيتكم كدتم أن تحيى بكم كارثة لولا هتاف أوديسيوس . فقد رأيت الكيكلوپيس ينزع كتلة من الجبل ، كما شاهدته يلقى بصخرة ضخمة فى وسط البحر ، ورأيت بعد ذلك يقذف بقوة صخوراً شاهقة بذراعى عملاق وكان

منجنيقاً يطوّح بها . وكم كنت أخاف أن تُفترق الرياح والأمواج السفينة وقد غاب عني أنى لم أكن فيها ، وما كاد الفرار ينجّيكُم من مِيتة بشعة أكيدة حتى جُنّ جنون الكيكلوبيس وأنّ أنات غضب وأخذ يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات التى تعترض طريقه بيده . وقد عوّق به جرمانه من الإبصار فأصبح يتعثّر فى الصخور البارزة ، ثم رفع ذراعيه المملّختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الأخيين قائلاً : « لو أن الحظ أعاد إلى أوديسيوس أو أحد رفاقه ، لافترسته غاضباً ولالتهمت لحمه ولمزّقت ييذى أطرافه النابضة ، ولرويت حلقى بدمه ولهشمت عظامه بين فكّى . لو أن هذا وقع لى لمان على فقدان نور عيني الوحيدة » !

وبهذه العبارات وغيرها التى أفصح بها عن غضبه امتّع وجهى من فرط فزعى وأنا أتأمل وجهه الذى أخذ تتساقط منه قطع اللحم ، كما حلفت فى فكّيه الجافيتين وفى المبحجر الفارغ الذى أضحى لا يُبصر وفى أعضائه القبيحة وفى لحيته التى تلتطّخت شعراتها بدماء البشر . ومثل الموت أمام عيني ولم يكن الموت إلا أقل ما أخشاه من شرّ ، إذ كنت على يقين أنه لن يلبث أن يقبض على ويلتهم لحمى فيستقرّ فى أحشائه . وتبادرت إلى ذهني صورة تلك الأيام التى رأيت فيها رفاقي يُلقى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعة وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدّ منفوش اللبدة يلتهم أحشاءهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التى ما تزال تنبض بالحياة . كان جسمى كله يردد وجمدّت فى مكانى ، كما جمّد الدم فى عروقي وتملّكني اليأس وأنا أتطلّع إليه وهو يلوك ضحاياه فى فمه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقىء بعضها فى سبل تختلط فيه قطع اللحم بالنبيذ . وما كان أشقائى وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيت الأيام الطوال أهيّم على وجهى مخبئاً بين كهف وآخر ، وكلما سمعت صوتاً ارتعدت فرائضى فكنت أخشى الموت وأتوق إليه معاً ، وكنت أسكن جوعى بأكل الأعشاب وثمار البلوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش فى وحدة كئيبة وفى عوز ويأس ضحية مُهمّلة معرّضة للهلاك فريسة للكيكلوبيس . وبينما أنا فى هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعت الرّيح بيدي مستنجداً وعذوّت نحو الشاطئ أنادى ملاحياً ضارعاً . وهكذا قلّدر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل رجلاً يونانياً ، فما بالك يا مكاريوس يا أعزّ رفاقي لا تكاشفنى بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين فى رفقتك وأنتم تحت رحمة الأمواج ؟

مكاريوس وأوديسيوس

وأخذ مكاريوس يروى كيف كان أبولوس بن هيبوتيس يسود بحار إتروريا^(١٣) ، وأنه بعد ما حبس الرياح فى جلد ثور قدّمه هدية لأوديسيوس ملك دوليكيوم الذى أخذه معه . وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم فى البحر ريحاً رخيّة وقعت أبصارهم على البلاد التى كانوا يقصدونها . وفى فجر اليوم العاشر ملأت الغيرة نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة فى تقسيم الغنيمة التى يضمّنها جلد الثور التى خالوها ذهباً ، فمزّقوا الرّباط الذى كان يمسك الرياح سجيّة فى هذا الجلد ، فإذا هم

تنطلق وتدفع السفينة في اتجاه مضاد حتى ألقت بها عند ميناء مملكة أيولوس . واستطرد مكاربوس قائلاً :
 « ومن هناك أدر كنا مدينة لاموس اللستريجونية التي كان يحكمها الملك أنتيفاتس ، وقد ذهبت موفداً إليه في
 حراسة اثنين من رفاقي ، غير أننا سرعان ما لُذنا بالقرار أنا وأحد رفيقي بعد أن رأينا رفيقنا الثالث قد أكله
 أهل لستريجون وبدت شفاهم ملطخة بدمائه . ومضينا هارين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس شعبه الذين
 ٢٤٠ أخذوا جميعهم يلقون كتل الصخور وجذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بما عليها من ملاحين إلا
 سفينة واحدة نجت هي تلك التي كنت عليها مع أوديسيوس . ويعد أن بكينا من فقدنا من رفاقي ،
 وأمضينا وقتاً طويلاً نرثى لمصيرهم رَسُونَا على تلك الشواطئ التي يمكن أن تراها من هنا على بُعد .
 وصدفني أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيته . أما أنت يا أشرف
 الطرواديين يا إبن الإلهة [إذ يتعذر عليّ يا أيُناس أن أدعوك بالعدو بعد أن انتهت الحرب بيننا] فنصبيحتي
 لك أن تتجنب شواطئ كيركي . ولما رَسَت سفينتنا بشواطئ كيركي أثينا أن نغادر السفينة أو أن نقصد
 بيتاً لا نعرف أهله ، فقد كنا ما نزال نذكر مغامرتنا مع أنتيفاتس والكيكلوبيس المفترسين . لكن الأقدار
 اختارتني — حين اقترعنا — أن أذهب ومعى بوليتيس الوفي ويوريلوكوس والينيور الشديد الولع باحتساء
 النبيذ في صُحبة ثمانية عشر من رفاقنا لتتعرّف على أسوار ديار كيركي^(١٤) . وما كدنا نصل حتى وقفنا بواب الدار
 وقد أفرعنا قطع من ألف ذئب ومعها آلاف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعد أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من
 هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشراً ، بل لقد داعبتنا بذبولها ورافقت خطانا في حنان وأبت مفارقتنا
 حتى قابلتنا الخادماوات اللاتي قُدُنَا إلى ربة البيت عبر أبهاء كبيرة مرصوفة بالرخام ، وكانت تترفع على عرش
 ٢٦٠ مهيب في نهاية قاعة شاذخة وترتدى ثوباً مخطف بريقه الأبصار ينشبه معطف مزدان بخيوط القصب ، ومن
 حولها الحوريات والنيريايس اللاتي لم يكن مشغولات كالعادة بغزل الصوف وجدل خيوطه الطيبة بأناملهن
 المدربة^(١٥) بل كن يُسَقِّن نباتات سيّدتهن ، كما كن يوزعن الزهور والأعشاب المختلفة الألوان بلا نظام في
 سلال متعددة . وكانت كيركي ترقب أعمالهن باهتمام فلقد كانت وحدها هي التي تعرف نفع كل ورقة كما
 تعرف أثر امتزاج بعضها ببعض ، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب بميزان دقيق .

وما إن رأتنا حتى بادلنا التحية وأشرق طلعتها وهي تعبر لنا عن تمنياتها الطيبة ، وبدا وجهها الباسم
 وكأنه بشير بنجاح حُطَّتْنا . ولم تلبث أن أمرت بأن يُعد لنا مزيج من الشعير المحمص والزيت والنبيذ واللبن
 الخثير ، وأضافت إليه عصارات غلبت حلاوة المزيج على مذاقها ، فتناولنا من يدها الكؤوس التي قدّمتها
 لنا يميناتها ، ولم تكد أفواهُنا الجافة ظمأً تُسلمها إلى أجوافنا ، ولم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا
 ٢٨٠ بعصائها [وما أستطيع أن أذكر ذلك دون أن أحس العار] حتى أحسستُ بجسدي تثبت فيه شعيرات
 متصبية ، وغاب نطقي وحلّ علّه خوار أجش ، وانكفأت بوجهي على الأرض وإذا فمي يتحوّل إلى خطم
 متهدّل ، وإذا عنيّ ينتفخ بعضلات غليظة ، وإذا يداي اللتان تناولتا بها الكأس تستحيلان قدمين أمشي
 عليهما ، ودفعوا بنا أنا ورفاقي سجناء في حظيرة بعد أن صرنا جميعاً ضحايا لهذا السحر [ألا ما أعظم قدرة
 الشراب السحري] . وكان أوريلوكوس هو وحده الذي لم يسخ خنزيراً لأنه رفض الكأس التي قدّمت

إليه ، ولو لم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان إلى الآن خنزيراً بين القطعان الخشنة الشعر ، فكان هو الذى أنهى إلى أوديسيوس الكارثة التى حلّت بنا ، فجاه لينقذنا ويثأر لنا من كيركى .

وكان ميركوريوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء بعنق أسود يسميها سكان السموات «مولى»^(١٧) ، فدخل أوديسيوس دار كيركى وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة وبفضل وعد الآلهة بشدّ أزره . ولما دعتة الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وبثّ الرعب فى الإلهة المذعورة بأن شهر عليها سيفه . وبعد ما تصافحا إيلاناً بعهد جديد يسوده صفاء النية ورحبت كيركى بأوديسيوس فى فراشها ، وطلب منها جزاء معاشرته إياها أن تردّ له رفاقه على صورتهم الأولى ، فثرت علينا عصارة عُشب مجهول وضربتنا على رؤوسنا بعصاها معكوسة ونطقت بعوذة تُبطل أثر العوذة الأولى . وكانت كلما رتلّت عوذتها أخذ قومانا يعتدل وتساقط الشعر التى يكسو جلدنا واختفت شقوق أظلافنا واعتدلت لنا مناكبتنا وعادت سواعدنا تظهر من جديد كما كانت . وما كاد أوديسيوس يرى هذا التحول حتى انخرط فى البكاء تأثراً وبكىنا معه نحن أيضاً بينما نحتضنه بأذرعنا ، وكان أول ما نطقنا به هو الاعتراف بالجميل . وقضينا هناك سنة واحدة رأيت خلالها الكثير من الغرائب وسمعت الكثير من العجائب . ومن بين ما سمعت ما روته لى سرّاً إحدى الوصيف . الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية . فذات يوم بينما كانت كيركى تختلي بقائدى قادتى وصيبتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالجليد وعلى رأسه طائر النّقار . وكان هذا التمثال فى معبد على جوانبه أكاليل زهور كثيرة ، فازدحت تشوّفاً لمعرفة من يكون هذا الشاب ، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس ، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذى على التمثال . فقالت لى : أصيخ السّمع يا مكاريوس وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّى ، فامسحنى إذن أذنًا صاغية :

بيكوس وكاننز

« كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضى الملك بيكوس بن ساتورن الذى كانت جياد الحرب المدربة هى شغله الشاغل . وأمام عينيك صورته تستطيع منها أن تكتشف كم كان وسيماً ، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشف طباعه . وكانت شجاعته تعادل جمال شكله ، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفى لأن يشترك مرات أربع فى مباريات المصارعة التى يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس ، إلا أن جمال وجهه قد اجتذب إليه أنظار الدرياديس حوريات جبال لاتيوم ، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجاراتها فى مسعاهما الناياديس بنات مياه نهر ألبولا ونهر نوميكيوس ونهر أنيو ونهر المون التى هى قصيرة مجارها ونهر النار المتدفق الصاخب ونهر الفارفاروس ذى الأشجار الظليلة ، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التى تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوئية^(١٧) وحوريات البحيرات المجاورة . غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة أن فينيليا كانت قد أنجبتها فوق جبل بالاتينوس بعد مضاجعة الإلهة جانوس^(١٨) الأيونى . وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر

نهداها حتى أثرت بيكوس من أهل لاتيوم على كل من تقدّم لخطبتها فتزوجت منه . كانت فتاة نادرة الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرداً ، ومن هنا سُميت كاننز [أى مغنية باللاتينية] . وكان لوقع أنغامها صدى يجرّك الصخور والغابات ويروض الحيوان الكاسر ويوقف جريان الماء في الأنهار الكبرى ، ويُعجّد بالطيور عن أن تحفّق بأجنحتها . وبينما كانت منهمكة بترديد أغانيها ذات يوم انطلق بيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرية في برارى لاتيوم وقد امتطى جواداً جائعاً وقبض بيده ٣٤٠ اليسرى على رعين وارتدى الخلايس^(١٩) الأرجواني اللون المضموم بمشيك من الذهب الأشقر . وكانت بنت إله الشمس الوافدة من البرارى التى تحمل اسمها . . . برارى كبرى ، قد دلفت إلى الغابة لتقطف من تلالها الخصبية بعض الأعشاب النضرة وما كادت عينها تقمان على الفقى المختبئ وراء إحدى الشجيرات حتى فتنّت به وسقطت من بين يديها الأعشاب التى كانت تضمّها ، وتخيّل إليها أن نارا ملتهبة تسرى كالبرق في عظامها . وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ لبيكوس بحبّها إلا أن انشغاله برقص جواده والشفاف تابعيه حواليه حالا بينها وبين أن تُعرب عن افئتنها به ، وعندئذ تمتمت تنأجى نفسها : « لن نُقلّ متى أيها الفقى ولو هلكت الرياح بعيداً عنى اللهم إلا إذا بطل سحر الأعشاب التى أجمعها وإلا إذا فقدت عوداتى قدراتها » .

وانكفأت على سحرها فإذا شبح خنزير برى أطلقته ليقطع الطريق على الملك ، وإذا الملك يترامى له كأنه يندفع صوب أجرة من الأشجار المتضامّة المشابكة الغصون والأوراق يتعدّر على الجواد اختراقها . فاندفع بيكوس دون روية أو تردّد ودون أن يظنّ إلى ما دبر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذى تخيّل ، ونزل ٣٦٠ عن صهوة جواده الذى رعى خطمه بالزبد من فرط إنهاكه ومضى الملك يعدو في الغابة العميقة وراء أمل زائف . عندها بدأت كبرى تتلو صلواتها لأربابها الحقيّة مردّدة تعاويذ سحرية لا تقلّ خفاءً فغطت الغيوم بياض القمر ونسجت فوق وجه أبيها الشمس سحباً ممطرة ، واستطاعت بسحر عوداتها أن تغشى السماء بظلام كثيف وتطلق من الأرض ضباباً معتماً ، فهام رفاق الملك على وجوههم يبحثون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته . وهكذا هيأت كبرى لنفسها المكان والزمان المناسبين ، وانطلقت تخاطبه قائلة : « يا أجهل بنى البشر الفانى ، ناشدتك بعينيك اللتين فتنتا عينيّ وبذلك القسيات الجميلة التى جعلتني أنا الإلهة أقف أمامك ضارعة أن تحفّف من لذع تلك النار التى تلتهمنى ، وأن ترضى بإله الشمس العليم بكل شيء حما لك ، ولا تذهب بك قسوتك إلى ازدراء كبرى ابنة التيتان » .

غير أن بيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً : « لن أكون لك أياً كنت ، فثمة امرأة أخرى تأسر قلبي ولا أبغى من الدنيا سوى أن أبقي أسيراً لها على مرّ السنين ، ولا أستطيع في سبيل حب محرم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترمى لى كاننز ابنة چانوس » . ٣٨٠

وبعد أن كررت بنت التيتان محاولاتها وضراعاتها سدى حدّرتة قائلة : « لا يبلغن بك الغرور أن ظنن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبداً لزوجتك كاننز ، وهاك مثلاً يدلّك على ما تقدّر عليه المرأة العاشقة حين تُهان . وإن هذه المرأة التى أحبت ثم أهينت هى أنا . . . كبرى » . وعندها التفتت مرتين نحو

مغرب الشمس ومرتين نحو مشرقها ، ثم مسّت الفقى مرات ثلاث بعضها السحرية وتمتعت بعوذات ثلاث ، ولكن بيكوس فر من أمامها غير أنه ما لبث أن دُهِش حين رأى أن سرعته تفوق قدرته المعهودة وإذا هو يرى أن الريش قد نبت على جانبيه . وإذا أحسّ المهانة لمسحه في غير إبطاء طيراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم غرس منقاره الصّلب في جذع شجرة بلوط برى كما نقر به غصونها الفارعة ، وإذا هو يرى أن ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلاميس الذى كان يرتديه ، وتحوّل مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب ، ولم يبق من الإنسان الذى كان يحمل اسم بيكوس غير اسمه^(٢٠) [الطائر النّقار] .

٤٠٠ وبينما بيكوس قد انتهى إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه في الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركى ، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وسمحت للريح والشمس بأن تبدّد السحب ، فانهال رجال بيكوس عليها شاكين مطالبين بمليكهم ، ثم هددوها أن يعنفوا بها ويهينوا لرشق سهامهم المروعة في جسدها ، ولكنها أسرعت فأطلقت عليهم سماً مُبِيداً ونثرت حولها عصارات فتاكة ، ونادت على الليل وآلهته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء ، ثم أطلقت صرخات طويلة متوسلة بها إلى الإلهة هيكاتى . ألا ما أعجب ما حدث : فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها ، وأرسلت الأرض أنات ملتاعة ، وشجبت الأشجار من حواليلهم ، وابتلت المروج في كل مكان بقطرات الدم ، وسمع الناس الأحجار تتأوه تأوهات صارخة كما سمعوا الكلاب تعوى ، وتنفط الأرض بحشود من الأفاعى الخبيثة ، ومضت أرواح الموت ترفرف في الهواء فذهل القوم مما شاهدوه . ولما رأتهم كيركى على هذا النحو من الهول لمست بعضها السحرية وجوههم التى علاها الذهول ، فإذا معجزة أخرى تتجلى إذ مُسَخ البشر حيوانات ضارية وتجردوا من هيئاتهم الأولى .

٤٢٠ كان فويوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس^(٢١) قبل أن يتوارى ، وعبثاً ظلت كانتر ترصد عودة زوجها بعينها ويقلبها ، وكان خدماها قد انتشروا في كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن بيكوس في أعماق الغابات حاملين الشعلات يبدون بها حلقة الليل . ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن ألمها بشتى الوسائل ، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون ، وشهدت أياماً سبعة وليالى سبعة لا تطعم طعاماً ولا تنوق نوماً تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة ، وكان آخر من رآها هورب نهر التير الذى ألقت بنفسها على ضفتّه بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة الحزن . ومع دموعها وبأسها كانت تردّد بصوتها المتهلّج شكاة ما أشبهها في شجنها بأنغام حزينة مرقّعة ليجعة قد أشرفت على الموت . وتحلّل جسدها مع الألم حتى ذاب نخاع عظامها ، وتهاوت شيئاً فشيئاً مختلطة بالهواء الذى علقت به . ومع ذلك فإن ذكرها ظلت خالدة حيث هلكت ، وكان هذا المكان هو الذى أطلقت عليه حوريات الماء المسمّيات بالكامينائى^(٢٢) اسم هذه الحورية كانتر .

تلك عجيبة من عجائب ظللت طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذى أو أشهداها بعينى . وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة في الإبحار حتى أمرنا يوماً بأن نبحر . وقد أنذرنا بنت التيتان أن الملاحة

غير آمنة في هذه المياه وأن الطريق طويل ، وأن هيجان البحر العنيف يندرننا بأخطار شتى فإذا الخوف يملؤني . وإذ كنت قد أدركت هذا الشاطئ قرّ عزمي على استيطانه .

٤٤٠

رفاق ديوميديس

وبعد أن فرغ مكاريوس من سرد قصته وضع أينياس رماد جثة مرضعته في إناء رخامي ونقش على قبرها هذه العبارة الموجزة : « ها أنذا كايتا . هنا أودع البطل المورع الذي أرضعته ثديى بقايا جثثاني في النار المقدسة كما تقضى شرائع الدين بعد أن انتشلني من نار العدو الإغريقي الحارقة » . وما لبث الطرواديون أن أرخوا جبال سفنهم من المرسى المغطى بالأعشاب وخلفوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة ماوى الإلهة السيئة السيرة ، ثم اتجهت السفن نحو منطقة الغابات حيث يصب نهر التير مياهاه المختلطة بالغرين الأصفر في البحر تحت ظلال الأشجار . وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره لأينياس قدّم له ابنته بالمثل ، غير أن تلك المشيئة لم يكتب لها أن تتحقق دون قتال ، فشبت حرب مع شعب عنيد شديد المراس . وكان تورنوس قد بذل كل ما يملك من وسائل الترهيب لكي يظفر بابنة لاتينوس التي كانت خطيبته فيها مضى ، وخاضت مملكة لاتيوم حرباً ضد مملكة تيرينيا (إتروريا) بأسرها وبقي جيشاهما يتنازعا طويلاً نصراً عصبياً . وأخذ كل منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية ، وكافحت شعوب شتى متحالفة مع شعب الروتولين أتباع لاتينوس ، كما كافح آخرون مساندة للمعسكر الطروادى^(٢٣) . ولم تكن زيارة أينياس لـ « إيفاندر »^(٢٤) بلا جدوى على حين جاءت بالفشل زيارة فينولوس [المنتمى إلى الروتولين] لمدينة ديوميديس المبعد عن وطنه^(٢٥) . وكان ديوميديس يحكم البلاد التي كانت مهراً من زوجته ، ولكنه كان يحكمها في ظل حماية داونوس الياپيجي^(٢٦) واستطاع أن يشيد في هذه الأراضي مدينة ذات أسوار عالية . ولكن ما إن جاءه فينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تمحاذل عن مساعدته معتزلاً بقلة موارده وضعف جيوشه إذ كان عازفاً عن توريث رعايا حيه . هذا إلى أنه لم يكن بين مواطنيه ما يكفى من المحاربين للاشتراك في القتال فاعتذر يقول : « ما أحب أن تحملوا ردى على أنه ذرائع وتعلات ، إذ كلما استعدت ذكرياتي أثارت فيّ ألماً مبرّحة ، ولكني مع ذلك سأتحمل بالشجاعة لأقصّ عليكم قصتي : بعد أن احترقت قلعة اليوم [طروادة] وبعد أن التهمت النيران التي أشعلها الإغريق مدينة پرجامون ، لأن بطل ناريكس [أجاكس] اختطف عذراء ممن تشملهن إلهة العذارى بالرعاية [كاساندرا] ، حقّ علينا أن نقاسم العقاب الذي كان يستحقه هو وحده . ودفعت الرياح سفننا في المياه المضطربة النائرة وجعلتنا نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر ثم تلاقي الهول الذي كان خاتمة المطاف في برزخ كافاريوس^(٢٧) . ولست أبغى الإسهاب في رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة ، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك محنة كان يسيراً أن تستدر حتى دموع هرّام ملك طروادة . أما أنا فقد نجوت لأن رحمة الإلهة منيرفا ذات الدرع والرمح قد أنقذتني من غضبة المياه ، وها أنذا الآن أجدني مطروداً من حقول أبي ، تعاقبني الإلهة فينوس الطيبة على جرح قديم جرحته إياها عن غير قصد^(٢٨) .

٤٨٠

وهكذا قُدِّر لي أن أشقى بهذه المحن في رحلاتي بالبحار العميقة كما عانيت محناً أخرى على اليابسة في معارك القتال ، حتى لقد صرت أعدّ أولئك الذين لم يشاركوا في القتال جُدَّ معطوطين ، وكم أسفت أن العواصف عند برزخ كافاريوس المنيع لم تأت على مثلهم . أما رفاقي الذين ذاقوا متاعب الحرب ومغالية الأمواج فقد انهارت شجاعتهم وأخذوا يتوسلون إلى أن أضع نهاية لرحلاتهم التي غناء فيها ، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الذي كان ثائراً بطبعه والذي أذكت المحن المتتالية من ثورته قائلاً : « تُرى بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق ما سوف يكون مدى احتمالكم ؟ وهل ثمة من أخرى نختبئها لنا إلهة كيثيرا ؟ فكلما خاف المرء أن يعرض له مزيد من المحن فوجيء بمحن أكثر . وما أقدر الإنسان على أن يغلب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة شقائه فلا يعود قلقه من المستقبل يساوره . ألا فلتسمعني الإلهة ولتلاحقنا بكراهيتها نحن رفاق ديوميديس ، فكلنا نزدري كراهيتها ولا ترهبنا سطوتها الكبرى » . ولقد ضاعفت قولة أكمون المفعمة بالتحلى من ثورة غضب فينوس . وعلى حين هَلَل بعض رفاق أكمون لقرولته لامته الكثرة وكنت أنا من بينهم . وحين حاول الرّد علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا هو يضمّر جسده ويتحوّل شعره ريشاً ، كما كسا الريش عنقه المسوخ وصدّره وظهّره ونبت ريش أطول على ذراعيه وتقوّس كوعاه فغدنا جناحين خفيفين ، وامتلأ ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق ، وإذا فمه منقار مدبّب فحلق في زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين وإذا هم الآخرون يمسّخون على هيئته . وهكذا انطلق أكثر رفاقي سرياً من الطيور يخفق بأجنحته في الهواء ويدور حول المجذّفين بمجازيفهم . وإذا أردت أن تعرف هيئة هذه الطيور التي وُلدت لتوها فاعرف أنها ليست بجعاً وإن كانت تشبه كثيراً ليايُص ريشها^(٢٩) .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقي فلقد غدونا نضطلع بشئون هذه الديار ونفعل تلك السهول الجرداء التي انتهت إلى مهراً من داونوس الياييجي لزواجي من ابنته .

شجرة الزيتون البرية

وبعد أن قصّ ديوميديس حفيد أوينيوس قصصه غادر فيتولوس مملكة كاليدون عائداً إلى بلاده عبر خليج بيوكيتيا وحقول ميسايا فوقع بصره على كهف تطلّهُ أشجار كثيفة وتحجبه عن العيون قصبات من الغاب ، وكان يسكنه بان الإله نصف التيس ، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنته قبل قديماً . ويروى أن راعياً من أبوليا حلّ ذات يوم بهذا الكهف فذعرت الحوريات من حوله وهربن فزعات . غير أنهن سرعان ما جعلن شتات رشنهن غير مباليات بمطاردهن وعادن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهن ، فمضى الراعي يسخر منهن ويقلّدهن بوثبات ثقيلة هوجاء ويقذفهن بشتائم بذيئة ولم يكفّ إلا بعد أن وقع ساق شجرة على حلقه فإذا هو يمسّخ شجرة زيتون برّى ، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه ، فمرارتها التي اكتسبتها من خشونة أسلوبه تَنِمّ عن بذاعة لسانه .

سفن أينيا س وقصة أرديا

وحين عاد الرسل من بعثتهم برفض الإيتوليين تقديم العون لم يقعد الروتوليون عن القتال على الرغم من عدم عون أولئك الحلفاء لهم فتدفقت سيول الدماء من الطرفين . وها هو ذا تورنوس يقذف شعلات النيران النّهمة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر فإذا هي تلتهب ، وإذا الرجال الذين نجوا من الموت غرقاً يتهيئون الموت حرقاً ، وكان مولكيبير إله النار قد أخذ يقذف في جوفه بالقطران والشمع ويكل ما يغذى النار وتسلق الصبارى الكبير مُصعداً نحو الشراع وسط الدخان المنبعث من العروق التي في مؤخرة السفن .

وحين تذكرت كوييل أم الآلهة المبهجة أن خشب الصنوبر الذى صُنعت منه هذه السفن قد جاء من أشجار جبل إيدا الذى تباركه ملأت الهواء بصفير المصفار وبقرق الصنوج ، وأقبلت تشقّ الهواء الرقيق على مركبتها التى يجرها زوج من الأسود المروضة وصاحت : « عبثاً تطوّح يدك الجاحدتان بهذه المشاغل المحرقة يا تورنوس فلسوف أنتزعها منك ، ولن آذن لنار أن تحيل جزءاً من غاباتى رماداً » .

٥٤٠

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أرعدت السماء ، وهبطت في إثر البرق أمطار غزيرة يتخلّلها برد متساقط . وأثارت الرياح أبناء أسترايوس^(٣١) في الهواء فتنة وفي المياه ثورة في هبوبها ، على حين جعلت أم الآلهة الحنون ريحاً من هذه الرياح تمزّق حبال الكتان التى تربط الأسطول الفريجى فدفعت سفنه أمامها حتى غرقت ، غير أن خشب السفن لم يلبث أن تحوّل لحماً واستحالت حيازيمها المقوسة وجوها بشرية ، كما أصبحت المجاذيف أنامل وسيقاننا قادرة على السباحة . وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع . أما الصالب^(٣٢) الذى يتوسط قاع السفينة فقد استحال عموداً فقرياً ، وأصبحت الحبال شعوراً مسترسلة ، وغدت ساريتا السفينة ذراعين غير أن لونها بقي لازوردياً كما كان من قبل ، وتحوّلت السفن التى كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر يعشن بالمياه . ومن عجب أن أولئك الحوريات اللاتي وُلدن على صخور الجبال بتن لا يفكرن في أصولهن بعد أن ضمّتهن المياه ، إلّا أنهن لم يُنسِن مخاطر رحلاتهن في الخضم ، فما أكثر ما كنّ يسندن السفن التى تلتطمها العواصف بأيديهن غير سفن الأخيين إذ كن مازلن يذكرن مامسى الفريجين التى غلّت كراهيتهن للبيلاجيين [الإغريق] ، لذلك فرحن لما رأين حُطام سفينة ملك نيريتوس [أوديسوس] ، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها عندما شهلن سفينة ألكينوس تتجمّد ، ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار .

٥٦٠

وحينما سرت الحياة في هذه السفن - التى تحوّلت إلى حوريات بحار - كان ثمة أمل في أن يفرغ الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب ، غير أن الروتولين لم يعدلوا عن الحرب بل استمروا يواصلونها . وكان لكل فريق آلهته التى ترعاه ، كما كانت لكل منهم شجاعته التى تعدل رعاية الإله . فلم يُعدّ النزاع قائماً حول مملكة أتيفق أن تكون مهراً ، ولا حول صولجان صِهْر ، ولا حولك أنت يالاثينيا العذراء ، بل أصبح هدف المعركة هو النصر وحده . واستمرت الحرب خشية عار الانسحاب ، إلى أن اطمأنت فينوس في نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس ، وسقطت مدينة أرديا

التي اشتهرت بياسها في حياة تورنوس^(٣٢) ، حتى إذا تهاوت عترة وسط السنة النيران التي اشعلها الدردانيون وتساقطت بيوتها تحت الجمر المتوهج ، انطلق من بين الخرائب والأطلال طير لم يشهده أحد من قبل أخذ يرفرف فوق المدينة وينفض الرماد من أجنحته الخفاقة ، وأخذت صيحاته وشحوبه ونحوه تذكر كلها بالمدينة الضائعة ، حتى اسم المدينة نفسه قد حمله هذا الطير فسمى أرديا [أى مالك الحزين] ، وهو طير دائم الخفقان بجناحيه والبكاء على مصيره والرثاء لمصابه . ٥٨٠

تأليه أينياس

لقد أنست شجاعة أينياس الآلهة جميعاً ومن بينهم جونو الكراهية التي كانوا يضمرونها له منذ القدم . وكانت سلطة ابنه يولوس التي اكتمل نموها قد رسخت ، وأن لهذا البطل أينياس بن فينوس أن يصعد في السماء ، ومن أجل هذا أخذت فينوس تسعى سعيها لدى الآلهة واحداً بعد الآخر وطوّقت بذراعيها عنق أبيها جوبيتر قائلة : « أبتاه ، أنت لم تقس على يوماً ما ولم ترفض لي رجاء ، لذا فإن أسألك أن تمنحني اليوم أعظم ما أتمناه عليك فتهب ابني العزيز أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً ، فهو من دم ابتك ومن ثم فهو حفيدك . فحقق رجائي يا أجل الملوك ، وحسبه أنه ألم بمملكة الظلال يوماً وأنه عبر نهر ستيكس ذات مرة » .

وما إن سمع كبير الآلهة رجاءها حتى أجابها إلى ما طلبت ، وقد قابسته ملكة السموات رضاها فبلدت غير متجهمة يفيض وجهها بالخير . وقال لها كبير الآلهة : إنك وابنك جديران بهذه الهبة الساوية ، أنت يا من رفعت إلى رجاءك ، وهذا الذي تتوسلين من أجله ، فأليك يا ابنتي ما تبغين » .

كانت هذه كلمة كبير الآلهة ، وعندها قدّمت فينوس التي عمّها الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التي تجرّها اليمامات البيضاء ، وحلّقت في الأثير حتى وصلت شواطئ لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس ليصبّ في البحر المجاور ، هذا النهر الذي تفيض على جانبيه القصبات . وهناك أمرت فينوس ربّ النهر أن يغمس فيه أعضاء أينياس حتى لا يُصيبها الموت بالتحلّل ، كما أمرته أن يغوص بها إلى أعماق النهر المائدة ، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فأن إلا ما كان أسمى وأنبّل فلا يحتاج إلى أن يمسّه ماء النهر . وعكفت أمه بعد ذلك على دهان جسمه بعطّر إلهي ثم مسّت شفّيته بمزيج من شهد الآلهة « الأمبروزيا » ونبيلهم العذب « النكتار » ، وهكذا جعلت منه إلهاً ، فرحّب به أهل كويرينوس [أحد تلال روما] ودّعوه ربّاً للمكان فشيدوا له معبداً وهايكل . ٦٠٠

يومونا وثيرتومنوس . إيفيس وأناكساريتي

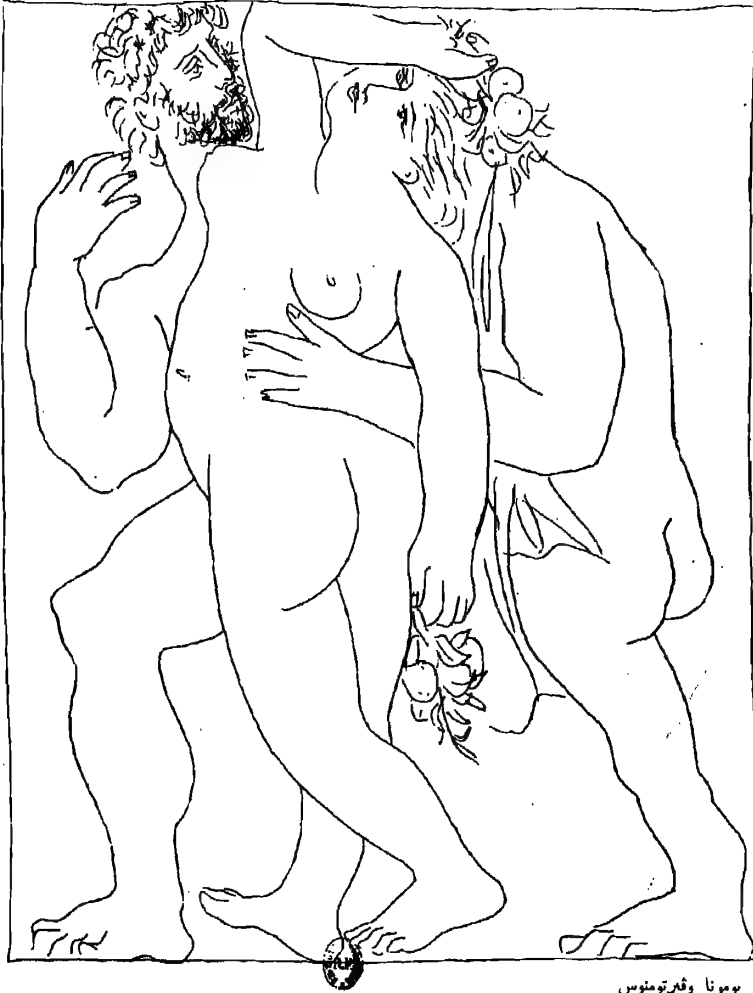
وأصبحت مملكة ألبا ومملكة لاتيوم بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس بن أينياس الذي حظي باسمين^(٣٣) ، إلى أن خلفه سلفيوس . ومن بعده حل لاتينوس بن سلفيوس اسم سلفه ملك لاتيوم القديم

كما حمل صولجان حكمه . وجاء ألبا الشهير بعد لاتينوس ثم ابنه إميثوس ثم تولى كاييس الحكم ومن بعده كاييتوس . ومنها تسلم التاج تيرينوس الذى سُمى النهر الإترورى باسمه بعد أن غرق فيه . وأنجب تيرينوس ريمولوس وأكروتا المقاتل المعز بنفسه . وقد صعق البرق ريمولوس أكبر الأخوين عندما كان يحاول أن يقلد البرق فى صعقه . وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلم صولجان الحكم إلى أفثيتينوس الباسل الذى دُفن بعد موته فى سفح التل الذى كان قد تقلد الحكم فوقه ، فأطلق اسمه على هذا التل بعد مماته . ٦٢٠

وأصبح پروكا ملكاً لشعب البالاتينوس [أحد تلال روما] ، وفى عهده عاشت پومونا ، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها فى فلاح البساتين وتنسيق الحدائق ، أو تنافسها فى العناية بشرا الأشجار ومن هنا أطلق عليها اسمها پومونا^(٣٤) ، فلم تكن تعشق الغابات والأنهار فحسب بل تعشق أيضاً الحقول المزروعة وغصون الأشجار المثقلة بالفاكهة الوفيرة ، ولا تحمل يدها حربة تثقل يدها بل تحمل المنجل المقوس تشدّب به أحياناً ذؤابات النبات وتنسّق الغصون المشعبة أحياناً أخرى . كما تشق أحياناً لحاء جلود الشجر لتدسّ فيه غصن شجرة يتغذى من عصارة شجرة أخرى ، وكانت دائمة السّهر على النباتات لا تدعها تعاني ظمأً بل كانت تروىها من الجداول الجارية حتى تشرب بها أطراف الجنود المشعبة . كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة فى الحياة ، لا تعاني من لفقة الحب . وكان خوفها من عنف سكان الريف الذين من طبعهم دوماً الشوق إلى المرأة سبب عزلتها فى غوطة الفاكهة التى حرّمت على الرجال دخولها . وكـم حاول الساتير أولئك الفتيان المعربدون الذين لا يعرفون غير الرقص عملاً ، وكـم حاول أتباع بان ذوو القرون المحاطة بأكاليل ورق الصنوبر ، وكـم حاول سيلينوس^(٣٥) الذى يبدو دائماً أصغر سنّاً من حقيقته ، وكـم حاول پرياپوس ذلك الإله^(٣٦) الذى كان يروّع اللصوص بالكشف عن مذاكيره الضخمة الممّعة طويلاً والتلويح بمنجله الحاد ، كـم حاول سدى أولئك جميعاً الاستمتاع بها . ٦٤٠

كذلك كان فيرتومنوس يكرّ لها حباً أعظم من حب هؤلاء جميعاً ولكنه مثلهم لم يسعد بها . كـم مرة ارتدى رداء الفلاح البسيط كى يحمل إليها سنابل القمح فى سلّة فيدا فلاحاً حقاً ! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ المحصود حول رأسه أنه عائد لتوه من حقل الحصاد . وما أكثر ما كان يقبض على السّوط بيده القوية مما يجعل الناس توفن أنه منته لتوه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة ، وإذا أمسك بالمنجل ظنّ الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم .

وكان يسير أحياناً والسلم على كتفه فيظنّ الناس أنه ذاهب لقطف الفاكهة ، وإذا أمسك بسيف ظنّوه جندياً محارباً ، وإذا أمسك بقصبة ظنّوه صياد سمك . وأخيراً استطاع بعد هذه الحيل الكثيرة من التنكر أن يجد الوسيلة التى يقترب بها من پومونا التى كان دائم الشوق إلى إمتاع عينيه بجهاها . وذات يوم أحاط بجيئته بشرى مطرّز بالوان مختلفة واتكأ على عصا ، وسوى شعراً أبيض فوق صدغيه ليليدو فى صورة امرأة عجوز ، ودلف إلى حدائقها المنسقة الغرس ، وأبدى إعجابه بالفاكهة التى شهداها قائلاً : « ما أعظم هذا التاج الغزير الوفير ! » وأغرق فى الشئ على پومونا ، ثم هو بعد هذا الشئ يقبلها قبلات لم يشهد مثلاً من امرأة عجوز ، واقترب من الأرض وقد قوس ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدلية بثقل عطاء الخريف . ٦٦٠



بيكاسو : بومونا وفيرتوموس

وكانت ثمة شجرة دردار شائخة تنتصب أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكانت قلادة لها مبهرة ، فأطرى تلك الشجرة ورفيقتها الكرمة قائلاً : « لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكرمة التي تكتنفها لما قصدتها أحد إلا ليقطف أوراقها ، كذلك هذه الكرمة التي تستند إلى جلع الدردار لو لم تقترن به لمهبطت إلى الأرض متخاذلة . أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا المثل الذي تضربه هذه الشجرة ،

فأنت دائمة المروء من مباحي الحب ولا تحرصين على الاقتران برجل . ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن ترضى يوماً بالزواج . فكم من عشاق قصدوك أكثر عن قصدوا هيلينا نفسها ، أو هيبوداميا التي كانت سبب المعركة بين اللايث والقطرور ، أو بينيلوي زوجة أوديسيوس الذي كان يبدو شجاعاً حيناً وجباناً حيناً آخر^(٣٧) . وإلى الآن وأنت تتمنين على العشاق ، فكم من ألوف من الرجال وقعوا في هواك ، وكم هناك من عشاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومن هم دونهم من الآلهة التي تعيش على جبال ألبا . ولو رُفِيت شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك ، ثم لو كانت لك الرغبة في أن تعيش في ظل رجل تسعدان معاً لأنصت إلى تلك المرأة العجوز التي تقف أمامك ، فحبها لك يطغى على حب الرجال لك وفوق هذا الحب . وما أنصح لك به يا ابنتي ألا تهبطي إلى مستوى العامة واجعلي من فيرتومنوس رفيقاً لك في مضجعك ، وأنا كفيلة باقناعه فما أدراكي به . وهو ليس ممن يميمون على وجوههم في الأرض وراء مغامرات لا طائل تحتها ، بل هو هذا الذي يُفلح تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك . وهو لا يسقط في حب امرأة رآها آخر ما رأى كما هو شأن من يتوددون إليك كل يوم ، بل مستكونين له أول من أحب ولن يحب بعدك لأنه مشوق أن يجعل حياته كلها لك . ولا تنسى أنه مازال شاباً وأن الطبيعة قد أسبغت عليه حظاً كبيراً من الوسامة ، وأنه قادر على أن يتحول إلى أية هيئة شاء ، وأنه رهن إشارتك دوماً لأن يتحول إلى الهيئة التي تؤثرين . هذا إلى أنكما تتفقان مشارباً وأذواقاً . أليس هو أول من يذوق التفاح الذي تزرعين ، ومن يملأ كفيه فرحاً بثمار الأشجار التي رعتيها ؟ ولكني أقول لك إنه ما به من رغبة الآن في ثمار أشجارك ، كما أنه ما به من رغبة في نتاج بستانك ولا في فاكهتك الغضة ، بل هو أشوق ما يكون إلى طاعتك أنت . فارحمي عاشقاً يعصف به عاصف الحب ، واستيقني أن كل ما تمناه قد عبر عنه على لساني . واحذري آلهة الانتقام وإلهة إيدليا [فينوس] ، تلك الآلهة التي تبغض القلوب الغليظة المتحجرة ، ولتحذري غضب نيميسيس المتحفز إله الثأر وراعية رامونتي التي لا تحونها الذاكرة أبداً . ولكي تدركي ما قد تعرّضين له من سطوة الآلهة إليك قصة ذاعت في قبرص ، فقد جعلتني حياتي الطويلة أقف على الكثير من الخفايا ، ومن يدرى لعل قصتي تلين قلبك وترقق عواطفك .

- ٦٨٠ « كان ثمة رجل من أسرة متضعة يدعى إيفيس قد وقع بصره على الأميرة أناكسارتي حفيذة تيوكير [ملك فريجيا في قديم الزمان] ، وسرعان ما أحس بنار الهوى تلهب عظامه . وحاول كثيراً أن يكبح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق ، فجاء متوسلاً إلى عتبة بيت معبودته حيث اعترف لمرضعتها بحبه اليائس للأميرة والتمس منها السعى لديها لتبثها ما له عليها من آمال ، كما توسل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المذهب ليمنحته تأييدهن ومساندتهن . وكثيراً ما أودع في رسائله عواطفه الحانية ، وكثيراً ما كان يعلّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مبتلة بدموعه ، وكثيراً أيضاً ما كان يلقي بنفسه على عتبة الباب مُسلماً جسده لقسوة الحجر الصلب وهو يلعن القفل المنيع الذي حال بينه وبين الدخول بصوت حزين . وكانت أناكسارتي أشد قسوة من البحر نفسه ، ذلك البحر الذي يبيع عندما يأفل نجاة الجديدين زيتاً وإيتا ، وكان قلبها أعنى من حديد مسابك نوريكوم^(٣٨) وأصلب من الصخور الراسخة في الأرض . وما

أكثر ما سخرت منه ، وما أكثر ما ردت على تشبيهه بعبارات قاسية ملؤها التعالي والخيلاء حتى سدت في وجه عاشقها طريق الأمل . ولم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرته على المعاناة فانطلق أمام بيت الفتاة يردد كلماته الأخيرة بصوت عال : « لقد كُتِبَ لك الفوز يا أناكساريقي ولن تضيقى بإلحاحي بعد اليوم دُزَعاً . فلتفرحى ولتسعدى بنصرك المؤزر ، ولتتشدى نشيد النصر ولتعصى جبينك بأكاليل الغار المتلألئة . فانت من كُتِبَ لك الفوز ، وما أنذا أموت طوع إرادتي . اذهبي راضية يا من قُدَّ قلبك من فولاذ ، ولعل يوماً يُقبل تشهدين فيه أن موقفك مني جعلني أفعَل ما يحرك إعجابك بي وتقدريني قدرى . ولكن اذكرى أن حبي لك دائم مادمت حيّاً إذ أن نور الحياة ونور الحب يجمدان معاً . ولن يحمل لك خبر موق شائعة من الشائعات المتداولة بل سأمثل أنا نفسي أمام عينيك حتى يكون لك يا أقسى النساء أن تمتعي نظرك بروية جسدي الهامد . ناشدتكم أيتها الألهة في علاكم أن تجعلوا قصتي مروية على ألسنة الناس على مرّ العصور كلما عَنَ لكم أن تنظروا في أعمال البشر [وما يملك لسان أن يتوسّل إليكم بأكثر من هذا] ، وأن تضموا إلى ذكراى تلك السنين التي اقتطعتموها من عمري » .

٧٢٠

ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذي كثيراً ما علّق عليه أكاليل الزهور ، وبذراعيه الممدودتين ربط حبلاً بأعلى مصراعي الباب وشدّ به أنشودة ، وصاح من جديد قائلاً : « انظري . هاك الأكاليل التي ترتضيها يا أناكساريقي القاسية ! » ثم دسّ رأسه في الأنشودة وشنق نفسه . وظل حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه معلّقاً بالباب فاقد الحياة متجهاً ببصره صوب الأميرة . وأخذت قدماء ترتطبان بمصراعي الباب فإذا لها نحيبٌ وكأنه يندب ما حدث في مرارة ، وانفتح الباب قليلاً وإذا أهل البيت تتكشف لهم المأساة وصرخ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس ، ثم حملوا جثته إلى دار أمه الأرملة ، فضمت أبنها بين ذراعيها واحتضنت الجثة الهالمة الباردة وفاهت بعبارات الأسى التي نسمعها للآباء والأمهات في مثل هذه المواقف ، وأقدمت على ما تُقدم عليه الأمهات الشقيّات فانفجرت بكاء وقادت جنازة طويلة اجتازت المدينة حاملة جثمان أبنها على النعش في طريقه إلى المحرقة . وكان بيت أناكساريقي قريباً من الطريق الذي تمرّ به الجنازة ، وبلغت أصوات النحيب أذن الفتاة المتحجرة القلب ، وشرع إله الثار في إثارة ضميرها . وعلى الرغم من طبيعتها التي لا مبالاة فيها بدأت الشفقة تتسلل إلى قلبها وصاحت : « دعوني أشرف على هذه الجنازة الحزينة » . ثم صعدت إلى حجرة مرتفعة في بيتها لتطلّ على المشهد من نافذتها المفتوحة على مصراعها ، وما كاد طرفها يقع على إيفيس وهو مُسجّى على نعشه حتى جددت عيناها وسرى في جسدها شحوب الموت وجفّت دماؤها وانطفأت فيها حرارة الحياة وحاولت أن تعود إلى حيث كانت ولكنها ظلت جامدة في مكانها ، وحاولت سدى أن تلتفت بوجهها مرة إثر مرة ، وإذا التحجّر الكامن في قلبها يسرى في جسدها كله . وحتى لا تظنّ أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمى أن في سلايس إلى يومنا هذا تمثالاً لمعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم « فينوس المتخطرة المتوجّسة » .

٧٤٠

٧٦٠

فلتذكرى هذه القصة أيتها الحورية وخلّ عنك هذا الكبرياء الذي يملؤك صداً وتمنعا ، وهى نفسك

لعاشقك ، حتى لا يُخمد لفتح الصباح البارد في الربيع براعم ثمارك ، ولا تنثر ريحه في هبوبها زهراتك التي هي الأمل في ثمارك .

وهكذا حاول الربّ المتكرر في صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيته على يومونا ، ولكن إذ ذهبت مساعيه هباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الجذابة ، وخلع رداء الشيخوخة وظهر أمام الفتاة في أوج مجده كالشمس حين تظهر من وراء السحب البادية أمام طلعتها ، وتأهب لأن يأخذ أموره بالعنف فيحقق مآربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك ، إذ ما أسرع ما افتتنت الحورية بجمال الربّ وأولعت به كما كان هو بها مولعاً .

رومولوس وهيرسيليا

وحكم مملكة أوزونيا ذات الثروة الوفيرة بعد بروكا أموليوس الظالم اعتماداً على جيشه الجرار إلى أن استرد نوميستور^(٣٩) العجوز يعون حفيده مملكته السلية . واكتمل خلال مهرجان الهاليليا^(٤٠) إرساء أسس أسوار مدينة روما . ثم جاء تاتئوس ورؤساء قبائل السابين فشنوا الحرب على قلاع المدينة ، وكانت الفتاة طارياً قد مهدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هي تلقى جزاءها العادل حين لقيت حتفها بقذائفهم المتتابعة . ثم تسلّل أبناء قبيلة السابين^(٤١) من مدينة كوريس في خفاء وصمّت الذئاب وهاجوا حراس المدينة وهم غارقون في نومهم . وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا باب واحد فتحته چونو بنت ساتورن في حرص حتى لا يكون له صرير . وكانت فينوس هي وحدها التي رأّت مزلاج الباب وهو ينزع وكادت تحاول إغلاقه لولا ما جرى عليه عُرف الآلهة بالأا يُبطل إله عمل إله آخر . وإذا كانت حوريات المياه الأوزونيات يعشن قريبات من هذا المكان إلى جوار معبد جانوس في منطقة تتدفق فيها مياه عين نديّة ، لجأت فينوس إليهن فلم يستطعن إلا أن يُعاونها فقد كان مطلبها عادلاً ، ففجّر مياه الأنهار والجداول التي تُمدّ يناييعهن [للحيلولة دون العدو وبين اقتحام أسوار المدينة] . وبالرغم من ذلك عجزن عن أن يَسُدْنَ الطريق المؤدى إلى باب معبد جانوس ولم يُفلح الماء وحده في صدّ العدو ، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر في أعماق النبع المتدفق وأضرمن النار فيه تحت سطح الأرض بالقار الذي يتصاعد منه الدخان ، فتسرّبت الحرارة إلى أعماق الينبوع وغدت المياه التي تحدّت برودتها ذات يوم برودة جبال الألب في حرارة المُهل والنار نفسها . ومن هذا الشواظ الناري الملتهب اندلع الدخان في جِصْنِي بوابة المدينة التي استعصى على السابين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طمعوا في احتراقها [وما كان أضعف أهلهم] ، فقد وجد أهل المدينة في هذه المياه المتدفقة عوناً لهم ريثما يجد جنود مارس فسحة من الوقت يتسلّحون فيها ويحملون تروسهم .

وقاد رومولوس جنوده في الهجوم وانتثرت جثث السابين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث ٨٠٠ المواطنين الرومان ، فامتزج دمُ الصُّهر بدمِ زوج ابنته على نصال السيوف الغادرة يجري في جداول .

وعندها رأى الجيشان أن يكتفيا عن مواصلة القتال ، وأن يُبرِما بينهما صلحاً ينهى الحرب ، وأن يشارك تاتايوس رومولوس عرشه .

ومات تاتايوس وتزوج رومولوس ملكاً على الشعبين فخلع مارس إله الحرب نخوذته وتوجه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً : « ألا لقد حان الوقت يا مولاي . ها هي ذى روما قد استقرت ولم تعد تركز إلى حماية بطل واحد ، وأطل الأوان الذى ستمنحني فيه الجائزة التى وعدتني بها فترقى برومولوس من الأرض إلى السماء . وإنى لأستعيد قولك لى فى مجلس من مجالس الآلهة [وإنى لأذكر كلماتك الجلييلة التى بقيت مخفورة فى ذاكرتي] : لترفعن يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء . ألا فلتكن كلماتك الآن أفعالاً » .

فأوما جوييتير الجبار برأسه مستجيباً ، وما لبث أن ملأ الأجواء بسحب داكنة وألقى الفزع والرعب فى قلوب الناس برعده وبقربه ، فأمرك مارس أن هذه بشائر رضا رب الأرباب على ارتقاء ابنه إلى السماء . واعتاداً على رجه الطويل اعتل مركبته التى تجرها الجياد يشق الأنفس وبينها عريش ملطخ بالدم ، وساطها بسوطه مراراً فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الهاليتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضى بين شعبه بالحكمة والعدالة فانتزعه مارس من بينهم ، وتناثر جسد الملك القاتل فى الفضاء كما تتناثر فى السماء قذيفة متفجرة قذف بها المنجنيق وإذا جسد البشري فى جلال يليق بجلال الآلهة فى علاهم ، وغدا اسمه كويرينوس مُرتدى الترابيا [ثياب الاحتفالات السماوية] . ٨٢٠

وحين انخرطت هيرسيليا زوجة رومولوس باكية عليه متخيلة أنها قد فقدته ، أمرت جونو كبيرة الآلهة وصيبتها ورسولتها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتزف للأرملة البائسة بُشراها : « أيتها الملكة ، يا فخر القبائل اللاتينية والسابينية ، ما كان أجدرك فى الماضى أن تكونى زوجة لمثل هذا البطل العظيم ، ثم ما أجدرك الآن أن تصبى زوجة لكويرينوس . جففى دمعك ، ولوشئت رؤية زوجك فهلئى معى إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذى تظل أشجاره معبد ملك الرومان » .

ونفذت إيريس رغبة جونو وانزلت نحو الأرض عبر قوس قزح ذى الألوان البهيجة ، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة جونو ، ولم تجسر الملكة أن ترفع عينيهما فأجابت فى خشوع وتواضع : أنا لا أعرف من تكونين أيتها الإلهة إلا أنه من الجلى أنك تحملين سيات الألوهية . خذينى لأرى وجه زوجى ، فلو أذنت لى الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبت نفسى قد دلفت إلى الجنة » .

واتجهت هيرسيليا إلى تل رومولوس فى رفقة بنت ثاوماس العذراء [إيريس] ، وإذا بنجمة من السماء تسقط بغتة إلى الأرض لتشعل النار فى شعر هيرسيليا وتتحد بها ثم تعرج بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضمها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين تعرفها حق المعرفة ، ثم وهبها جسداً واسماً جديدين ، فأصبحت « هورا »^(٤٣) الإلهة التى ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس .

التعقيبات

- (١) اسم العملاق المشار إليه إنكليديس [انظر الإلياذة لفرجيل الكتاب الثالث ٥٧٨] .
- (٢) مدينة بصقلية .
- (٣) كان إله الشمس قد وشى بحب مارس وفينوس [انظر الكتاب الرابع] .
- (٤) كان فراره في المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها .
- (٥) جبل في صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلى جواره .
- (٦) ملك من ملوك صقلية قدم العون إلى بريام في الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته .
- (٧) أمير طرواى تحول إلى نهر وهو والد أنيولوس .
- (٨) جزيرة إسكيا اليوم بإيطاليا .
- (٩) جزيرة پروكيدا الآن .
- (١٠) تعلمو جلاً بجزيرة بيشكوزا التي يظن البعض أنها سميت كذلك نسبة إلى أن سكانها قد مسحهم جوبيتر قروداً . ويشيخوى تعنى الفرد الصغير باللغة اليونانية .
- (١١) الاسم القديم لتابل .
- (١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان نائىء في البحر عند شواطئ كامبانيا ، وكان ميسينوس قد دفن به بناء على توصية أينياس [انظر إنياذة فرجيل الكتاب السادس] .
- (١٣) أقحم أوغيد خطبة مكاريس كما فعل فرجيل من قبل في قصته عن بوليفيموس لكى يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس .
- (١٤) اقتبس أوليد هذه الحادثة من الأونيفسيا [الكتاب العاشر البيت : ٨٧ وما بعده] . أما فرجيل فلا يروى في إنياذته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نبتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [الإنياذة ٧] .
- (١٥) يتبع أوليد هنا وصف هوميروس بدقة ولكنه ينحرف عن الأصل في وصف غزل الصوف ، فإن النص الهوميروى يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركى وهي تغنى أمام نولها نشيدها الذى دعاه هوميروس « نشيد النسجية » .
- (١٦) يرى بعض العلماء أن المقصود بنبات « المولى » هو « رجلة البحر » غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده .
- (١٧) هى بحيرة نيمى المشهورة بجوار روما ، وسميت أيضاً امرأة ديانا . وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا ربة مدينة أريسيا ، ويلاحظ أن عبادة ديانا في هذا المعبد كانت قريبة جداً في طقوسها من عبادة أركميس [ديانا] بجبال طوروس ، مما جعل أوليد يلقبها بديانا السكوتية .
- (١٨) جانوس هو ابن أبولو وقد أسس قرية بجوار نهر التير سميت جانيكولوم ثم أصبحت فيما بعد جزءاً من روما ، وقد توج أول ملك لإيطاليا القديمة كما آله بعد موته ، وكان يمثل بوجهين لأنه كان يعرف الماضى والمستقبل .
- (١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشباب .

- (٢٠) تعفى بيكوس باللاتينية الطائر النّار .
- (٢١) منطقة مصب نهر الوادى الكبير بإسبانيا .
- (٢٢) الكاميناي اسم لحوريات المياه وأشهرهن إيجيريا التى كانت ملهمة الفيلسوف نوماً پومپيليوس ، ومن ثم كان اسم إيجيريا يطلق على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين .
- (٢٣) يشير أولفيد إلى الكتاب السابع من الإتيادة الذى تدور كل أحداثه حول ما يومىء إليه أولفيد .
- (٢٤) جله من أركاديا وأسس مدينة بالتيمور على سفح تلال بالاتينوس ، وقد أصبحت فيما بعد جزءاً من روما .
- (٢٥) تدور هذه الأحداث فى الكتاب الثامن والحادى عشر من إتيادة فرجيل ، ويذكرها هنا أولفيد فى إيجاز مفرط اعتياداً على أن جمهور القراء وقتئذ كان على بينة كاملة بكل ما ورد فى الإتيادة وبخاصة تلك الأساطير التى تقصّ نشأة روما .
- (٢٦) المقصود زوجته الثانية ، فقد تزوج ديوميديس ابنة أدرستوس ملك أرجوس ، غير أن زوجته خاتنه فطلقها وعاد إلى بلاده فى أيتوليا . وخلال عودته إلى دياره انحرفت سفينته نحو شواطئ يابيجيا التى يحكمها الملك داونوس . وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يعينه فى حربه ضد المسابيين وهو شعب مجاور لبلاده ، وبعد انتصارهما تزجه الملك ابنته إيفيهيه .
- (٢٧) فى الطرف الجنوبى الشرقى لمقاطعة يربويا .
- (٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد فيثوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس .
- (٢٩) المقصود طائر النورس .
- (٣٠) استراتيوس هو ابن التيتان كريبوس ، تزوج من ليوس [أورورا عند الرومان] وأنجب رباحاً ثلاثة هى النسيم « زفير » وريح الشمال « بورياس » وريح الجنوب « نوتوس » .
- (٣١) العارضة الرئيسية التى تمتد على طول قاع المركب .
- (٣٢) كانت لافينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا ، وكانت قد خطبت لقرينها الملك تورنوس ولكن الهاتف الإلهى أمر أبها أن يزوجه من أمير أجنبي ، لذلك قُدمت لأينياس عروساً له .
- (٣٣) أسكانيوس ويولوس .
- (٣٤) نسبة إلى يوموم أى ثمار الفاكهة أو الثوت .
- (٣٥) ابن راع وعززة كان يعيش فى الغابات ، وكثيراً ما يصوّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لانه كان قد عشق غلاماً تحول إلى شجرة سرو هروباً من ملاحقته له .
- (٣٦) كان الساتير وأتباع پان وسيلينوس من أرباب الرف . أما هذا الإله فهو الإله اللاتنى القديم راعي الحقول . ويصفه أولفيد بأنه بريابوس الذى كانت تشيّد له التيثايل العاروة الناعمة العضو التناسل لرد شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض .
- (٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين ، وهو « الشجاع أمام الجبناء » ، ورايت الأخذ بالنص القديم .
- (٣٨) منطقة جبلية فى وسط أوروبا على الضفة اليمنى لنهر الدانوب مشهورة بمناجم الحديد .
- (٣٩) الابن الأكبر لهروكا وكان أخوه أموليوس قد خلعه ، ولكن حفيديه رومولوس وريوس ساعده على أن يسترد ملكه المسلوب .
- (٤٠) عيد لتكريم پاليس إلهة القطعان والمراعى وهى التى أضفت اسمها على تل الهاليتينوس فى روما .
- (٤١) السابين قبيلة مجاورة للآتين الذين احتلوا منبث روما الأصل ، ولم يكن بين الآتين من النساء سوى بعض العاهرات ، وقد شاء رومولوس لرجاله الظفر بنساء كرمات حتى يتكاثروا فيخلقوا حضارة جديدة . وكان السابين يأبون الزواج من غير عشيرهم فدعا رومولوس أشراف السابين إلى حفل كبير فى الهواء الطلق وهمس إلى رفاقه أن يخفوا سيوفهم فى العشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كل بسيفه وقتل أحد رجال السابين ودفع إحدى العذارى السابينات إلى قلعة المدينة الجديدة . [انظر الكتاب الأول من « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور] .
- (٤٢) كانت هورا كويرينى [أى التابعة لكويرينوس] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا السابينية الأصل التى تلعب دوراً كبيراً فى الأساطير الرومانية . وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويرينى وبين الإلهة هورتا التى يبدو أنها من أصل إتروسكى ، والتى أقام الرومان لها فيما بعد معبداً مفتوح الأبواب . ويقول بعض الشراح أن هورا كويرينى قد تحولت إلى إلهة راعية للشباب فى العقيدة الرومانية .



بيكاسو

الكتاب الخامس عشر

نوما . موسكيلوس وكروتون

كان الناس آنذاك يتطلعون إلى رجلٍ له القدرة على حمل تلك المسئولية الضخمة على نحو ما كان عليه السلف العظيم . وظهرت المتنبئة وإذا هي تصطفى نوما^(١) الذائع الصيت ليمسك بزمام السلطة . وكان نوما حكيماً لم يقنع بتعرف طقوس الشعب السابيني بل سعى إلى ما هو أسمى ، وهو اكتشاف أسرار الكون . وأملت عليه حماسته أن يهجر موطنه في مدينة كوريس^(٢) ويقصد قصد مدينة كروتونا^(٣) التي التجأ إليها هرقل يوماً . وهناك سأل عن أول من شيد مدينة يونانية على سواحل إيطاليا ، فأجابه شيخ من قاطني البلدة وكان عنده قصص الماضي قائلاً :

يروي الرواة أن هرقل بن جوبيتر عاد من المحيط ومعه قطعان أبيرية كان قد اغتنتها ، وبعد رحلة موفقة بلغ شواطئ لاكينوم فترك هذه القطعان ترعى العشب الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفياض الجود حيث وجد متنبئاً يرتاح فيه من عناء الرحلة . وحين عن له أن يغادر المكان قال : « لتقومن في هذا الموقع مدينة على أيدي خلفنا من الأحفاد » وحقت الأيام ما قال . وكان لاليمون الأرجوسي ابن اسمه موسكيلوس كان من أحب الناس إلى الآلهة ، فإله عليه الإله حامل المراوة وهو مستغرق في نومه وممس إليه : « هلم معي ، واهجر بيت أبيك ولتقصد الجداول المغطى قاعها بالحصى في بلاد آيسار البعيدة » . وخشى الشاب أن يخالف أمره فتتوالى الكوارث الطاحنة ، وحين نهض ابن آليمون من سباته وأخذ يتدبر رؤياه احتدم في نفسه صراع بين الاستجابة لأمر الإله وبين الشرائع التي تحرم الهجرة وتقضى بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر .

٢٠

وحين غاب وجه الشمس المشرق جمالاً في البحر ، ورفع الليل رأسه المرصع بالنجوم خيل للأمير أنه يواجه الإله من جديد ، وأنه يسمعه يكرر تهديده ووعيده ، وأنه سيصيبه بأضرار أشد قسوة إن لم يستجب لندائه . واستحوذ الخوف على موسكيلوس فإذا هو يعد العدة لينقل ما ورثه عن أبيه إلى موطن جديد . وإذا الناس قد بدأوا يتهامسون بخبره وإذا هو يقدم إلى القضاء متهماً بالخروج على قانون البلاد ، وانتهت المحاكمة بإدانته دون حاجة إلى سماع شهود ، فارتست على وجه الفتى المتهم آيات الأسى ورفع بصره إلى السماء باسماً كفيه وهو يستغيث قائلاً : « يا هرقل يا من صعدت إلى السماء بمأثرك الاثني عشر ، أتوسل إليك أن تجئ إلى يد العوزة فانت من دفعني إلى هذا الموقف » . وجزت العادة أن يستخدم المحلفون الحصى الأسود إذا كان المتهم مديناً والحصى الأبيض إذا كان بريئاً . وإذ حكم المحلفون في هذه القضية بإدانة المتهم وضعوا الحصى الأسود في الوعاء ، غير أنه سرعان ما استحال ما فيه من حصى أسود إلى حصى أبيض بقدرة الآلهة فتغير الحكم وبُزئت ساحة موسكيلوس ، فهب يزجي الشكر لربه ابن أمفيتريون ، ثم ركب سفينته وأقلع بها في البحر الأيوني تدفعه الرياح المواتية ، فمر بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [الأسهرطية] ، ثم مدينة سيبازيس وفيريتوم مدينة السالنتيين^(٤) ثم بخليج الثوريين^(٥) بتييميسا^(٦) ، ثم بحقول ياكس^(٧) ومضى بمحاذاة الشاطئ يرقب الأراضي المظلة على البحر حتى بلغ مصب نهر آيسار الذي دفعته الأقدار إليه ، حيث وجد مقبرة يضم ترابها المقدس عظام كروتون ، فبدأ يشيد في ذلك الموقع — استجابة لأمر تلقاه — أسوار مدينة تحمل إسم البطل المدفون في ثراها . وهذه هي قصة أصل المكان كما رواها الرواة من قديم الزمان ، وتلك كانت أسباب بناء هذه المدينة في أطراف إيطاليا .

٤٠

پيثاجوراس

وفي جزيرة ساموس^(٨) ولد پيثاجوراس ، غير أنه تركها لطغيان حكامها واختار عليها أرضاً أخرى هرباً من البطش والاستبداد . وكان پيثاجوراس مشغول الفكر بالآلهة في علياء سمائها ، وببصيرته النافذة تعمق أسرار الطبيعة الكامنة التي تخفى عن البشر . وكان له من رجاحة العقل وعمق الدراسة ما نفذ به من

٦٠

ظلمة الجهل إلى نور العلم الذى بسطه ليدركه العامة فى يسر ، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقنهم أسرار الكون الفسيح معللاً الأسباب ، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنْه الألوهية ، وهل هو جوبيتر الذى يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التى تفرق السحب عن بعضها البعض ، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة ، كما كان أول من أخذ على البشر أكل لحوم الحيوان . وهكذا كان بحق أول من نطق بالحكمة لكن أحداً عندها لم يصدقه حين قال : « أيها البشر الفاني لا تدنسوا أجسادكم بطعام تبغضه الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التى تثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيبات من النباتات تنضجها النار وتحيلها لينة شهية . وما تضرن الطبيعة عليكم باللبن ولا بالشهد الذى يفوح بأريج الزعر ، وحقول الأرض سخية تقدم لكم نتاجها ، وغذاؤها الشهى تزحم به مواثلكم دون حاجة إلى ذبح أو سفك دماء . فالوحوش هى التى تشبع جوعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها ، فالخيل والأغنام والأبقار لا تغتذى إلا بالأعشاب . أما الحيوان المعروف بالقسوة والمطبور على الوحشية مثل ثور أرمينيا والأسود السريعة الغضب والذئاب والدببة فهى التى تجد متعتها فى لعق الدم . والأسفاه . ما أبشع أن تزدد الأعماء أعماء أخرى ، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر ، وأن يمينا كائن على قتل آخر ! ألا تقع بكنوز الأرض الأم وخيراتنا عن أن تمزق بأنيابك أشلاء جسد آخر لئلا فمك كما يفعل الكيكلوبيس ؟ هل من وسيلة أخرى لتسدّ نهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك ؟ ففى العهد السحيق الذى كنا ندعوه العهد الذهبى كان الناس لا يأكلون إلا من ثمار الأشجار ونباتات الأرض ، ولا يدنس الإنسان فمه بدماء الذبائح . وكانت الطيور أيامها تخلق فى الأجواء دون أن تنهدها أخطار ، وكان الأرنب البرى يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل ، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطعم الملقى إليه فيعلق بالشخص . كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وقتئذ فى كل مكان دون أن يحسب أحد حساباً للمكائد والخداع ، حتى ظهر إنسان شرير واسع الحيلة لا أدرى من هو ، حسد السباع على طعامها ، وقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئ الطريق إلى الجريمة الآثمة . وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهتد البشر ، وقد كان هذا أمراً ينال الرضا فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا هم له إلا افتراسنا . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه ، فما أبعد عن الحق حين يتخذ من الحيوان غذاءه . ولكن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها ، ويقال إن الخنزير كان أول الضحايا التى استحققت الموت لاقتلاعه البثور من التربة يخطمه المدبب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد ، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قرضه الكروم ، فإن كانت هذه هى جريرة تلكا الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خلقت إلا لنفع البشر . فى ضرورك شراب نغتذى به ، وعلى ظهورك أصواف ننسج منها ثياباً حانية ، فنفعك لنا حية أكثر من نفعك لنا ميتة . وما أشقى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أثق الأعباء ! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه شرهه إلى أن يرفع الثور عن عنق الثور الذى يحرث له حقله فيذيبه غير راض بما يغل له ، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكثود فى خدمته وفى حرارة الأرض الصلبة لإنبات الحصاد بعد الحصاد .

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم بل شاءوا إشراك الآلهة في إثمهم وخالوها تستمتع هي الأخرى بذيح الثيران الوديع ! لقد اتخذوا من فتوة الثور مسوغاً لهلاكه قصاده إلى المذبح متوجاً بأكاليل الغار والذهب ، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها ، ويرى بلور الغلال التي حرثها من قبل تنثر على جبينه وتنساب من بين قرنيه ، ثم يهون عليه بالساطور الذي سرعان ما يتخضب بدمه ، ذلك الساطور الذي كان الثور يرى صورته منذ حين وديعاً ساكناً في المياه الطاهرة التي تحتويها آنية المعبد فلا يراه يحمل له شراً . ثم يستخرجون أحشاءه وهي ما تزال تنبض وترتف بالحياة يتفحصونها بحثاً عما تدبره الآلهة للبشر . كيف تمسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم ، ألا ما أشدّ نهم الإنسان إلى الغذاء المحرم . ناشدكم أن تقلعوا عن ذلك ولتصغوا إلى نصيحتي ، واعلموا أنكم حينما تمضغون بأسنانكم لحم الثور الذبيح إنما تلتهمون حارثكم الوقي .

١٤٠

ومادمت أتحديث عن أمر إله فسانصاع لأمره كلمة كلمة ، وساكشف لكم الستار عن أسرار دلفي^(٩) التي أكتها في صبرى ، وسافتح أمام عيونكم منافذ السموات ، وأكاشفكم برسائل الحكمة العليا وأبشركم الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغها فظلت خفية عليهم . وكما أورد أن أحلّق في الأفاق بين الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التي تقعد الممم معتلياً السحاب حتى أهبط على كفتي « أطلس » الجبار ، وأنطلع ببصرى إلى البشر عن بعد وهم يبيمون على وجوههم على غير هدنى فأنشر لهم لفاقة القدر المطوية وأبشّر في قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت . أيها الجنس البشرى المفزع الذي وقف جامداً خوفاً من الموت الجاثم ، لماذا تخشى نهر ستيكس والظلمات والكليات الجوفاء التي ليست غير بضاعة يستخدمها الشعراء في قصائدهم ؟ لماذا تخشى أخطار عالم لا وجود له ؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر إلا بعد الموت سواء تحوّل إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت بطيئاً في الثرى مع مرور الأيام . أما الروح فإن الموت لا يدركها ، فهي ما تكاد تخلف مأوى حتى تجد لها مأوى جديداً يفتح أمامها وتعيش فيه راضية^(١٠) . وأذكر واعياً أنني وقت حرب طروادة كنت يوفوريوس بن پانثوس الذي تلقى في صدره طعنة قاتلة من رمح منيلاوس ثانى قادة الإغريق . وقد تعرّفت على تلك الترس التي كنت أحملها على ذراعى اليسرى أيامها حين رأيته منذ قليل بمعبد جونوفى أرجوس مدينة أباس^(١١) . إن كل شيء يتحوّل ولكنه لا يفنى ، وإن نسيات الحياة تمضى في الكون من هنا وهناك تضم من الأطراف ما تشاء ، وتنفذ إلى جسد من تختار . قد تكمن في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشر . وهذه النسيات التي تبتّ فينا الحياة قد تنتقل منا إلى الحيوان دون أن تفقد ذاتيتها ، فهي كالشمع المرن الذي يتشكل صوراً جديدة مختلفة ولا يبقى على شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد طابعه . أقول لكم إنى أؤمن أن الروح تبقى هي هي دوماً معها حلّت في أجساد مختلفة ، فاحذروا - ناشدكم الآلهة - أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بينها وبين أرواحكم وشائج قرى فتنتهكوا بذبحها الحرمات ، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرّ بأقربائكم ، ولا تدعوا الدم يعدو على الدم .

١٦٠



ومادمت قد أبحرت كالسفينة في خضم أفكارى وجعلتُ الرياح تملأ شراعَ حديثى فسأستورد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس في الكون كله نعمة شيء ثابت ، فكل شيء في تغير مستمر يسيل كالماء ، وأشكال الكائنات عارضة ، والزمن نفسه يمضي منساباً وكأنه النهر بل أسرع ، لأن ساعة الزمن العجل لا تستطيع أن تتوقف ولو شاءت . فكما تدفع الموجة الموجة أمامها وتأخذ مكانها فكذلك الساعات تهرب ١٨٠

الواحدة من الأخرى ، وتطارد هذه تلك في تجدد بلا تلبث ، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل . وليست كل برهة من الزمن إلا خلقاً جديداً ، وإنكم لتشهدون الليل ساعة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر ، ويشرق نور النهار ليخلف ظلمات الليل ، وإن لون السماء ليختلف في أوج الليل ساعة يسترخى الناس بعد الكد عنه ساعة يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضم منمتطياً جواده الأبيض ، كما يختلف قبيل الفجر ساعة ترقش أورورا ابنة باللاس العالم بألوانها قبل أن تسلمه إلى فوبيوس . وإن قرص الإله نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض في الصباح الباكر ، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ في الغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض . وهو يضحى أبيض حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء في الطبقات العليا أكثر نفاذاً لبعده عن أدراج الأرض . أما كوكب ديانا [القمر] الذي يتألق ليلاً فإنه لا يبقى في صورة واحدة بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى ، إذ يكبر كل يوم وهو في طريقه إلى الاكتمال ، ثم يصغر كل يوم وهو في طريقه إلى المحاق .

٢٠٠ ثم ماذا ؟ ألا ترون العام يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هي الفصول التي تحاكي مراحل حياتنا . فهي طفل وديع يتغذى بلبن الثدي حين يهل الربيع ، ويظهر العشب الجديد غضاً رقيقاً لكنه زاهر بالعصارة ، يبعث السعادة في قلوب المزارعين الذين يمثل لهم الأمل ، ثم يزدهر كل شيء وتأخذ الورود المختلفة الألوان في الابتسام للأرض الحانية ، ولكن ما تزال الأوراق غضة يعوزها النماء . وبعد انصرام الربيع يصبح العام أقوى جلدًا مع دخول الصيف مثلما يصبح الطفل شاباً قوياً ، فهي المرحلة الحافلة بالقوة والخصوبة والدفء والحياة . وحين تفتت حرارة الشباب يهل الخريف في إثر الصيف ، وهو فصل الامتلاء بالنضج ، يلتقي فيه الشباب بالشيخوخة ، وتظهر بعض الشعرات الشهباء فوق الصدغين . ثم يأتي الشتاء الهرم مرتجفاً متعثراً الخطى نالح الشعر ، وإن بقيت منه بقية كانت ذات لون ناصع البياض .

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها ، ولا تكون في الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هي عليه اليوم . ولقد كنا يوماً في أرحام أمهاتنا - يوم كنا فيها نطفة فحسب - الأمل في إنسان مكتمل ، فتناولتنا يد الطبيعة المخضمة وأمدتنا بالعون ، ولم تشأ أن نبقي سجناء في رحم الأم الضيق لا نستطيع به حراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق . وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له ، ثم يجبو زاحفاً ٢٢٠ على يديه وقدميه كدوات الأربع . ورويداً ورويداً ينتصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان ، وقد يعتمد على ما يستند ، ثم يصبح قوياً سريع الحركة والعدو ، يمر بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة ، ثم يأخذ في الانزلاجه على منحدر الشيخوخة التي توهن عزم السنين الخالية وتزعزع أركانها . ويروى أن ميلون^(١) كان لا يكف عن البكاء في شيخوخته كلما أحس ضعف ذراعيه ونحوها بعد ما كانتا في قوة وصلابة ذراعي

هرقل . كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها في المرآة وقد بدت فيه تجاعيد السنين وتساءلت متعجبة كيف حدث أن اختطفت مرتين متتاليتين^(٢) ؟ إيه أيها الزمن ، إنك تلتهم كل شيء ولا تشيع ، وكذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيورة ، تطحنين كل شيء بأنيابك وتنتهين به إلى الموت .

لا ثبات لعناصر الطبيعة ، وإليكم تقلباتها . إن العالم الأبدى يشمل عناصر أربعة هي أصل كل شيء ، اثنان منها ثقيلان يغوص بهما ثقلهما إلى أدنى وهما التراب والماء ، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شيء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشد نقاء . وعلى الرغم من أنه ثمة فراغ يفصل بين هذه العناصر فإن كل شيء يبدأ منها وينتهي إليها . فالأرض حين تذوب تستحيل سائلاً ، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء ، والهواء بعد أن يفقد وزنه كله ويرق ينطلق نحو الأثير الملتهب . ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحوّلات في اتجاه عكسي ، فتعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلي مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذى ذكرته . فالتار مثلاً تتكاثف فتصبح هواء . والهواء يصبح ماء ، والماء عند تجمّده يتشكّل أرضاً صلبة ، فلا شيء يحتفظ بشكله الأصل ، فالطبيعة في جدد مستمر ، والمادة دائمة التشكّل في أشكال مختلفة ، إذ لا شيء يفتى ، فالكون فسيح ، وكل شيء فيه يتشكل على صور جديدة متغيرة . واليلاذ ليس إلّا بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها ، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها ، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره ، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغير ، فليس ثمة شيء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً . وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد ، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم والحضارات . وقد رأيت أنا نفسى تحوّل أرض جامدة إلى بحر متدفق ، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صلبة ، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطاة بالأصداق رغم بُعدها عن البحر ، أو نعر على مرساة قديمة فوق قمة جبل ، كما حوّل الفيضان سهولاً إلى وديان ، وكم دفعت السيول جبالاً إلى وسط السهول ، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارى جرداء ، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة الماء . وفى ذلك دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء في مكان ما وحجب غيرها في مكان آخر . والزلازل الهادرة في أعماق الأرض تفجّر الأنهار فوقها تارة وتمتصها تارة أخرى تاركة مكانها بواراً . وقد انشقت الأرض تحت نهر الليكوس^(١٤) وابتلعتة في جوفها ، وإذا هويتفجّر ثانية في مكان بعيد عبر فجوة خرج منها إلى النور . وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم^(١٥) ، فبعد أن ابتلعتة الأرض ظل يسرى في أعماقها حتى طلع من جديد في حقول أرجوس ، وكذلك نهر كايأكوس^(١٦) في ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فتركها إلى ضفاف أخرى . أما نهر أمينانوس^(١٧) الذى يشقّ مجراه في رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويجف حيناً آخر . وقد كان الناس يشربون في سالف الأيام من مياه نهر الأنيجروس^(١٨) بينما لا ثملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التى أحدثتها سهام هرقل^(١٩) حامل الهراوة ، اللهم إلا إذا لم تأخذ بما يزعم الشعراء .

ولنذكر أيضاً نهر الهيبانيس^(٢٠) الذى ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت علوية مياهه قديماً بماء البحر الأجاج . وفى قديم الزمان كانت مدن أنتيسا^(٢١) وفاروس^(٢٢) وصور الفينيقية محاطة بالمياه ، وقد خلصت اليوم ثلاثتها من الماء فلم تعد جزراً . ويذكر شيوخ ليوكاديا^(٢٣) تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهى اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات ، ويقال كذلك إن زانكلييه^(٢٤) كانت متصلة بإيطاليا حتى ذهبت الأمواج ببرزخ هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة . وإذا كنت تبحث عن مدينتى هيليكيه^(٢٥)

ويور^(٣٥) في البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليها إلا تحت المياه ، فما يزال الملاحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتداعية الغائرة في الماء . وثمة تل عال أجرد بجوار ترويزن^(٣٦) مدينة الملك پيشوس كان في الماضي سهلاً مستوياً وأصبح اليوم ركاماً من التراب ، فعندما حُست الرياح في كهوف مظلمة انطلقت تبحث عن متنفّس فلما لم تجد شقاً ولا منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخلدت تنفث في الأرض كما ينثث امرؤ في مئانة حيوان أو قرية من جلد جدى ذى قرنين ، فإذا هذا النفث يخلف تلاً عالياً عذباً . ٣٠٠

وكم من أمثلة تتتابع على ذهنى سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر ، وسوف أسرد لكم طرفاً منها . فلما يتخذ أشكالا غريبة المظهر ، فنبُعْكَ يا آمون إذا القرنين^(٣٧) مياه باردة في الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب ، ويقال إن الأثامانيين^(٣٨) يوقدون مشاعلهم بسُها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكمش أصغر ما يكون . ولدى شعب السيكونيس نهر عُجْمَد مياهه أحشاء من يشرب منه وتحيل إلى رخام كل ما تمسه من أشياء . وهناك نهر الكرائيس والسياريس ، وهما ييلغان مشارف حقولنا ويحيلان لون الشعر إلى كهرمان وذهب^(٣٩) ، وأكثر من ذلك غرابية أن هناك مياه ذات قدرة على تغيير النفوس لا الأجساد وحدها . ومن ذا الذى لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية^(٤٠) التى يُجْن من يشرب منها جرعة أو يسقط في نوم عميق ، وينبوع كليثور^(٤١) الذى يُصاب شاربُه بتقرُّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ذلك أبداً . ولعل ذلك مرده إلى ما بين مياه ذلك ينبوع وبين النشوة التى يولدها النبيذ ، فبروى أهل البلاد أن ميلاموس بن أميثاؤون استطاع أن يشفى يسحره ويعاقبه بنات پرويتوس من هديانن حين ألقى العقاقير في هذا النبع الذى كنَّ يشربن منه ، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الكراهية للنبيذ . أما مياه نهر اللينكستيد^(٤٢) فإن لها أثراً على النقيض من ذلك فمن شرب قليلاً منها ترنح سكرأ كمن شرب نبيذاً صيرفاً . وهناك بحيرة في أركاديا سماها الأقدمون فينيوس^(٤٣) تخشى مياهها لخواصها المتباينة المتغيرة ، فهي ضاربة خلال الليل لا النهار ، وهكذا تختلف خواص كل بحيرة عن الأخرى . وفي قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا^(٤٤) طافية فوق سطح الماء بينما هى اليوم ثابتة . وكانت سفينة الأرجو تخشى صخور السميليجاديز^(٤٥) التى تتأيل في المياه كلما لطمتها الأمواج ، أما الآن فهي ثابتة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها . وحتى بركان إتنا — ذو الحَمَم الكبريتية — لم يعد يقذف بلهيه دوماً كما كان في الماضي ، لأنه إذا كانت الأرض تنفّس تنفس الكائن الحى في أماكن مختلفة تلفظ منها أنفاسها الملتهبة ، فمن الممكن تغيير تلك المنافذ كلما تحركت فتسد بعضها لتفتح البعض الآخر . وإذا كانت هناك رياح سجيئة في كهوف الأرض العميقة هى التى تقذف الأحجار في إثر الأحجار ومعها مواد قابلة للاشتعال تلتهب حين تصطلم بأشياء صلبة ، فإن هذه الكهوف تبقى باردة حين تهدأ الرياح . ٣٤٠

وإذا كان القار هو الذى يشتعل فجأة ، والكبريت هو الذى تلتهب مادته الصفراء هو الآخر فجأة مُطْلَقَةً دُخاناً خفيفاً ، فإن الأرض ما تكاد تفقد قدرتها مع الزمن على مدِّ النار بهذه العناصر القابلة للاشتعال حتى تفقد الطبيعة النّهمة مادة غذائها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب^(٤٦) . ويروى أن في مناطق

الهيبربورين^(٣٧) في باليني رجالاً يكسو أجسادهم زغب خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات في بحيرة تريتون^(٣٨) ولست أصدق شيئاً من ذلك ، وإن قيل أيضاً إن نساء سكوثيا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية .

وإذا كان لنا أن نسلم بالأشياء التي هناك أدلة قاطعة على صحتها^(٣٩) ، فأمامكم الأجساد التي تتحلل بفعل الزمن أو الأشياء التي تتحلل بفعل الحرارة . ألا تعلمون أنها تتحول بهذا الفعل إلى حيوانات صغيرة ؟ اختاروا بضعة ثيران ممتازة واذبحوها وضعوها في حفرة ثم غطوها ، ولسوف ينبثق منها نحل يمتص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه ، يشبه في ذلك الحيوانات التي تولد عنها . وإذا دفنت جواد حرب في التراب فسوف تولد من بقاياها أسراب من الزنابير ، وإذا نرعت من سرطان البحر غhalبه المقوسة ودفنت بقاياها في التراب لم يلبث أن يخرج منها عقرب يهددك بذيله المعقوف . واليسروع الذي ينتشر في الحقول ويغشي ورق النباتات بخيوط نسيجه يتحول إلى فراش جنازى كما يشهد بذلك الفلاحون أنفسهم ، ويحتضن الغرّين بذوراً تثبت الضفادع الحضر ، ولكنها تثبتتها في بادئ الأمر بلا سيقان ثم تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف في النمو رويداً رويداً حتى تنمو بعد ذلك قوائم خلفية تطول عن القوائم الأمامية وتعينها بعد ذلك على الوثب البعيد . وما تضع أنثى الدب دباً صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة ، وتظل تلعمها حتى تبرز لها أعضاء وتتشكل كما تشكلت هي من قبل وتأخذ صورتها . ألا ترون أن يرقات النحل منتجة الشهد التي تعيش في خلايا النحل لا تكون ساعة ولادتها إلا أجساداً بلا أعضاء وتظل كذلك طويلاً حتى تنمو لها أجنحة وقوائم ؟ أما طير جونو [الطاووس] المرصع الذيل بالنجوم ، وطير چوپتر [السر] حامل صاعقته ، ومامات فينوس إلهة كيثيرا ، وجماعات الطير كلها ، فهي تولد جميعاً في بيضات . ولكن أنى لمصلي أن يصدق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هي الحقيقة ؟ وهناك من يعتقد أنه حين يتحلل الكائن الحى في قبره يتحول نخاعه الشوكى إلى ثعبان .

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى ، وليس هناك غير طائر وحيد هو الذى يتكاثر ذاتياً وهو ما يسميه الأشوريون العنقاء ، ولا يتغذى هذا الطائر على الأعشاب أو الحبوب وإنما يمتص عصارة أعواد البخور وعصارة الحبان ، فإذا قارب عمره الذى يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عشاً وسط السعف في قمة النخلة المتأرجحة في مهب الريح ، يجمع بمخالبه ويمنقاره النقى من كل دنس أجزاء عشه من نبات القرقة وعلوج عطر الناردين الطيب الرائحة ، ويسيط فوقها أعواد الكافور المختلط بالمر البرى ، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط جو من العطور البقية . ويقال إن ذكر عنقاء صغير يتولد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد إلى عمر أبيه نفسه . ومع تطوّر ثمّو تتطوّر قواه على حمل الأثقال ، فيتخفّف من أعواد عشه التى هي من سعفات نخل باسق شيئاً فشيئاً ، ثم يحمل في خشوع ما بقى من مهدد الذى كان قبل لحد أبيه ، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة هيبريون حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبد هيبريون^(٤٠) ، وإذا كان في هذا ما يذهب فلسوف تكون دهشتكم أكبر حين تسمعون عن الضبع الذى يتحوّل من ذكر إلى أنثى ثم من أنثى إلى ذكر^(٤١) ، كما سندهشون أيضاً من حيوان يتغذى على

الريح والهواء ويتلَوْنَ بلون المكان الذى يحلّ فيه^(٤٢) . وقدماً أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق^(٤٣) إلى باكخوس الإله المتوجّ بعناقيد العنب ، ويقال إن كل ما تلفظه مثانة هذا الحيوان يجمد ويتحجّر إذا ما خرج إلى الهواء^(٤٤) ، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود لين يعيش تحت الماء ويتجمد حين يخرج إلى الهواء .

سينطفئ النهار وسيقود فوبيوس جياده اللاهنة إلى أعماق البحار قبل أن أفرغ من إحصاء كل ما يتحوّل في الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً ، فسنة الحياة أن يتغير كل شيء ، وهكذا تقوى بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتندهر . وقد كانت طروادة مدينة عظيمة البأس شاذة بابطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة ، وما هي ذى اليوم كومة من الأطلال الخربة التى لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض ، وقبور شيوخها هي كل ثروتها الباقية . وكانت أسيرة ذائعة الصيت ، وموكنائى مزدهرة ، ولم تكن تقل عنها مجداً مدينة كيكرويس [أثينا] ولا مدينة أمفيون [طيبة] ، ولم تعد أسيرة اليوم غير أرض جرداء ، كما تقوّضت أسوار موكنائى الشاذة ، وماذا خلّفت طيبة مدينة أوديب غير أسطورتها ؟ وماذا بقى من أثينا مدينة پانديون^(٤٥) ؟ لم يبق لها إلا اسمها . واليوم يقال إن ثمة مدينة شاذة أسسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التير هي روما تُرسى أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن ، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم ، وستصبح عاصمة للكون الفسيح كما تكهن بذلك الهاتف الإلهي والمنبثون بالمصائر والأقدار . وإذا لم تخنّ ذاكرى فإننى أذكر أن أينياس كان ينشج منشككاً في الخلاص ساعة أخذت طروادة ترتج فوق دعائهما ، فجاءه هيلينوس بن پريام قائلاً : « إذا كان لك أن تصدّق ما تنبأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تزول حقاً ، لأنك سوف تحيا ، وسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك پرجامون بعد أن تنتزعها من وسط الكارثة ، وستحملها إلى حيث تجد أرضاً أجنبية ترحب بكما أكثر مما رحبت بك أرض آبائك . وإننى أنبأ كذلك بأن أحفاد الفريجيّين سوف يؤسسون مدينة لا مثيل لها ولن يكون لها مثيل كما لم يكن لها مثيل في الماضي . وعلى مدى القرون الممتدة سيهيء لها قادتها البأس والسلطان ، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيدة العالم ، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً ، تاركاً الأرض إلى أسمى البقاع » .

ذلك ما أذكر أن هيلينوس قد تكهن به حين كان أينياس يمضى حاملاً معه غنائيل آلهتنا^(٤٦) ، وما أسعدنى أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القرى بمدينتنا تكبر وتزدهر ، وأن انتصار الهيلازييين [الإغريق] قد استفاد منه الفريجيون [الطرواديون] .

ولا ينبغي الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن مقصدنا ولنعد إلى موضوعنا . إن السماء وكل ما تحتها يتغير ، وكذلك الأرض وما تضمّه ، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب ، بل نحن كذلك أرواح مجنحة تستطيع أن تجد لها مأوى في أجساد الحيوانات المفترسة والاليفة . لذلك علينا ألاّ نَمَسّ هذه الأجساد بأذى ، فقد تضمّ أرواح آبائنا أو إخوتنا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين ، فلترفع إذن عن تدنيس جنسنا ولنعتف عن حشوظنونا بلحوم كالحوم المأدبة التى أقامها

أترىوس لأخيه ثايسيتيس^(٤٧) . ألا ما أشنع عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم البشرى حين يتقدم ممسكاً مسكيناً ويهوى بها على عنق الثور الياقع دون أن يلين قلبه لخوااره . من منكم من يرتاح ضميره إذا ما ذبح خلاً يصرخ صراخ الطفل الوليد ؟ وهل منكم من يستطيع أن يقطع لحم طير غذاه بيده ؟ وهل ثمة فرق بين هذا الفعل وبين الجريمة الحقّة ؟ وإلى أين تنتهى بنا هذه الأفعال ؟ اتركوا الثور يُفْلَح الأرض لا تقضى عليه غير الشيخوخة . اتركوا الأنعام تزودنا بما يكون لنا فيه دفاء من ريح الشمال الباردة . اتركوا الماعز تملأ بطونها لتدّر علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا . اتركوا الشراك جانباً والكثائن ووسائل الغدر ، ولا تخدعوا الطير بعضاً مكسوة بعصارات النباتات اللزجة فتلتصق بها ، ولا تسخروا من الوعل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذى تضعونه فى طريقه فيتحوّل عنه إلى شراككم^(٤٨) . ولا تخفوا الشصّ المعقوف فى الطعم الخادع . لكم أن تقضوا على الحيوانات الضارة ، وحسبكم هذا ، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لأفواهكم . ولتبحثوا عن وجبات لا تحصلوا عليها بأساليب همجية ، ولا تجعلوا شفاهكم تلمس غير غذاء حصلتم عليه دون عنف أو عدوان .

إيجيريا وهيوليتوس

كانت هذه — كما قيل — هى الدروس التى انبنى عليها فِكرَ نوما حين عاد إلى وطنه واستجاب لنداء شعب لاتيوم [الشعب اللاتينى] وأمسك بزمام السلطة . ومن حين حفظه أن زوجته كانت حورية ، كما ٤٨٠ كانت الكامينائى حوريات الماء^(٤٩) ملهاته ، فلَقّن شعبه الشعائر الدينية ، وحوّل أمة تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمة تجنح إلى فنون السلام . ولما أدركته الشيخوخة كانت نهاية حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً ، ويكته نساء لاتيوم كما بكاه الشعب ومجلس الشيوخ . وقد هجرت زوجته المدينة وآوت إلى أدغال أريسيا حيث أخذت تبكي وتندب حتى بلبلت أناتها شعائر الإلهة ديانا التى كان أوريستيس قد أرسى قواعد^(٥٠)ها . وكمن مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من آلامها ، وكمن مرة قال لها البطل هيوليتوس وهى غارقة فى دمعاها : « هوّن عليك من عذاب نفسك ، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة وكمن كثرات غيرك عاتين مثلها ، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة ولتخففى من شجنك ، وإليك ما وقع لى أقصه عليك حتى تهون عليك مصيبتك . أو لم يبلغ سمعك نبأ موت هيوليتوس الذى ذهب ضحية لسذاجة والده وخيانة زوجة أبيه الأثمة ، وستدهشين حين تعلمين ما حدث كله وإن لم أكن أقوى على أن أقدم لك دليلاً على صحة ما أقول من أننى أنا هيوليتوس ، وعلى الرغم من هذا فهوليتوس هذا ليس ٥٠٠ غيرى . وكانت فيدرا بنت پاسيفاي زوجة أبى قد حاولت إغوائى وما نجحت فى حمل على أن أدنس فراش أبى وأحمل وزر جرمها ، فاتهمتني بأننى كنت أبغى منها ما كانت هى تبغىه منى ، ولست أدري حتى اليوم أكان اتهامها لى عن خوف من أن أفصح أمرها أم عن كراهية لى لرفضى الإذعان لرغبتها . ولقد طردنى أبى من المدينة رغم براعتى وشيئى بلعنات كلها كراهية ، فركبت عربى وقصدت المنفى فى ترويزن مدينة الملك بيثيوس . وبينما كنت فى طريقى إليها عبر شاطئ كورنثه ، رأيت البحر يثور فجأة وترتفع كتلة من الماء

٥٢٠ وكأنها جبل لها خوار الثيران ، وإذا هذا الجبل المائي ينشق وينطلق من وسطه ثور ذو قرنين قد برز صدره ، وأخذ يلفظ مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه ، فعلا الفزع قلوب رفاقى ولم يتطرق الفزع إلى قلبى الذى كان مشغولاً بأمر منفاى ، فتحولت جيادى الجاحجة عن طريقها وانجهت صوب البحر ، ثم انتصبت آذانها وانتفش شعرها هلعاً من الوحش فجمحت شاردة ملقية بالعربة بين الصخور العالية . وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحس بجذب الشكائم فى أفواهاها المزبدة بالرغاء الأبيض ، فملت إلى الوراء أجذب الزمام ، وكنت واثقاً من أن جموح جيادى لن يغلبنى على أمرى لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشمة العربة وإطارها ، فسقطت أسفل عربى متعثراً فى اللجام ، وكانت أحشائى ترى على الأرض نابضة متحركة ، ولصقت عضلاتى بجذع الشجرة وتناثرت أشلاى إلى الأمام وإلى الوراء ، وتشتت عظامى وكانت لها قعقة مسموعة ، ولفظت آخر أنفاس حياى المكدودة . ولم يكن ثمة جزء من جسدى يمكن ضمه إلى جزء آخر ، فلم يعد جسدى غير أشلاء . فهل تَرَيْنَ أيتها الحورية بعد هذا أن مُصَابِك يبلغ مصابى ؟ لقد شاهدت أنا الآخر ملكة الظلمات وحاولت أن أغتسل بمياه « فليجثون »^(٥١) ملتصقاً الشفاء لأعضائى الممزقة ، ولولا عقاقير إسكليپوس بن أبوللو ما عادت إلى حياى . وإذا كنت قد عدت للحياة بأعشاب إسكليپوس الشافية وفن بيون [أبوللو] طبيب الآلهة رغم إعتراض ديس [بلوتو] ملك العالم السفلى ، فقد غشيتى الإلهة ديانا بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد من يشهد هذا العطاء الذى مُنِحتُه وحتى تحمى من كل الاخطار فأظهر دون أن يُصِيبَنى أذى ، ثم أضافت بعض السنين إلى عمرى وغيّرت من قسماى وجهى حتى لا يعرفنى أحد . وقد أنعمت الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت تمنحنى جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون وطناً لى إلى أن استقر رأياى على ألا تمنحنى واحدة منها فحملتنى إلى هنا ، كما طلبت إلى أن أبذل اسمى الذى يوحى بذكرى الجياد قاتلة : يا من كنت هيبوليتوس ، لتكن منذ اليوم « فيريبوس »^(٥٢) . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش فى الغاية متخفياً رهن أوامر سيدتى التى أخدمها ، ولست غير واحد من الآلهة الثانوين .

تاجيس وكيبوس

ولم يُخَفِّف ما قصصته من مأسى الآخرين شيئاً من آلام إيجيريا التى بقيت مستلقية عند سفح الجبل تنسكب دموعها منهمة ، حتى أقبلت عليها ديانا أخت فويبوس التى تأثرت بوفاء الحورية التعمسة لزوجها فبدلت جسدُها نافورة نديّة وجعلت من أطرافها جداول من الماء لا تنضب . وقد ثارت الحوريات دهشات لهذه المعجزة ، كذلك لم تقل دهشة ابن الأمازون [أبوللو] عن دهشة الفلاح التيرينى^(٥٣) الذى شاهد وسط حقله كتلة من الأرض تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد إذ كانت فى يد القدر يحركها كيف يشاء ، ثم تحولت إلى إنسان وفغرت فماً برز بين قسماى وجهها ، فأخذ يُحدِّثُ بنبوءات المستقبل . وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق ، وكان أول من علّم الأمة الإيتروسكية أسرار التنبؤ بالمستقبل . وكان رومولوس قد أصيب فى غابر الزمان بالدهشة نفسها حين رأى حربته مثبتة فى سفح تل

٥٦٠ الهالاتينوس وقد اكتست فجأة بأوراق أشجار قد اتخذت لنفسها جذراً جديداً ، فلم تعد النصل الحديدى نفسه الذى غرسه فى الثرى وإنما استحالت شجرة تبسط فروعها اللدنة ظلاً لم يكن يتخيله المشاهدون . وكذلك أصابت الحيرة كيبوس [قائد جيوش الجمهورية] حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر ، إذ رأى قرنين خالهما فى بادىء الأمر وهماً وفرع يديه إلى جبينه مرةً بعد مرةً ، وما كان أشدَّ عَجَبَه حين لمسها فلم يكذب بعد ذلك عينيه ، وتلبث فى طريق عودته بعد أن رجع مستصراً على عدوّه ، ورفع عينيه وذراعيه إلى السماء هاتفاً : « لست أدري يا إلهة السموات عن أى شيء تنبئ هذه المعجزة ، فإن تكن بشير خير فليكن الخير لوطى ولشعب كويرينوس ، وإن تكن نذير سوء فليقع على وحدى شرّ ذلك » . وتناول حزماً من العشب الأخضر أقام بها مذبحاً أطلق فوقه البخور قرباناً للآلهة ، وأراق أمامه نبيذ القربان من أوانى الأضحية ، ثم نحر أغناماً وبقر بطونها كى يعرف من أحشائها التى ما تزال نابضة بالحياة ما يجتبه له القدر . وما كاد العراف الإتروسكى يشهد الأمعاء حتى أدرك أن المستقبل يجئى له أحداثاً كبرى وإن لم يتبين ما هى ، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الأغنام إلى قرنى كيبوس وقال له : « مرحباً بك أيها الملك . لك أنت يا كيبوس ولقرنيك^(٥٤) ستخضع هذه المنطقة ، بل وقلاع لاتيوم كلها . فلا تضع الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة ترحيباً بك . تلك هى مشيئة الأقدار ، فلن تدخل المدينة حتى تتوج بها مليكاً ، وترتقى عرشاً خالداً » .

ارتد كيبوس إلى الوراء وأشاح بوجهه العابس عن أسوار المدينة ، وأجاب الكاهن قائلاً : « فلتحجب الآلهة عني ما تعد ، وخيرلى أن أقضى حياتى فى المنفى عن أن يرانى الكابيتولينوس ملكاً » . ولم يكذ بتنهى من قوله هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ الموقر بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار رمز السلام^(٥٥) ، ثم اعتلى رهوة سواها له جنوده البواسل ، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد حسب العرف المألوف ، ثم خطب فى الحشد محذراً : « إن بينكم رجلاً إن لم تبادروا بطرده بعيداً عن المدينة فسوف يصبح عليكم ملكاً ، فمن تراه يكون ذلك الرجل ؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه ، لا بلذكر اسمه بل بذكر العلامة التى تميّزه ، فله قرنان يعلوان جبينه ، وقد أعلن العراف أنه إذا دخل روما فسيخضعها لقوانين تستعبدكم ، وقد كان بوسعه أن يدخل أبوابكم المفتوحة ، ولكنى منعت من ذلك على الرغم من أنه أقرب أقاربى ، إن عليكم أن تمنعوا هذا الرجل من دخول مدينتكم ، ولتقيده بالسلاسل الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك ، أو فلتتخلصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذى يتهددكم » .

وانتشر الهمس وسرت المهمة بين الناس وكأنها الريح الشرقية العنيفة تصفع غصون أشجار الصنوبر الشاخة أو هدير أمواج البحر المنحدرة من بعيد ، غير أن صيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات تقول « من هو ؟ » ، فأخذ الناس يتطلعون إلى رؤوس بعضهم البعض ليتعرفوا لمن تكون له هذه القرون ، فانطلق كيبوس قائلاً : « ها هو ذا من تتطلعون إليه » ، وعندها نزع إكليل الغار الذى يغطى رأسه رغم معارضة الناس ، وكشف عن صدغيه وقرنيه المطلين منها فعرّفه الجميع .

وزجر الشعب وغض من بصره ، ولم تشرب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلعت إليه القلوب
ببصيرتها لترى ذلك الرأس المهيب وقد توجته جلائل الأعمال ، ورفض الجميع أن تبقى رأس كيوس عارية
عن رمز مجده وأرغموه على إعادة الإكليل إلى رأسه . ورأى شيوخ المدينة — إذ كان عمره عليه الدخول إلى
قلب المدينة — أن يهبوه نصيباً من الحقول بقدر ما يقوى على حرثه بزوج من الثيران من شروق الشمس حتى
غروبها ، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة قرنين يمثلان قرى البطل تخليداً للذكرى
هذه المعجزة لسنين مديدة مقبلة .

٦٢٠

إسكيبوس

حدّثني ياربّات الفنون يا ملهيات الشعراء ، فأتّنّ أدري بما أسأل عنه ، وما يتخفى عنكن شيء من
أسرار الماضي البعيد ، فلتكشفن لي كيف استقبلت الجزيرة التي يحتضنها حوض نهر التير العميق ابن
كورونيس^(٥٦) وجعلته واحداً من آلهة مدينة رومولوس ؟

فلقد حدث قديماً أن لوّث وباء بشع جولايتوم ، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً في إثر الآخر بعد
أن جُذّت أجسادهم الشاحبة وقد غاب عنها الدم ويات مشهدها بشعاً كريهاً . وحين ضاق أهل روما
صدراً بكثرة من يشيعون من الموتى ورأوا عجز جهود الناس وقصور فن الأطباء عن القضاء على الوباء طلبوا
عون السماء ، فقصدوا دلفي « صرة » العالم ليستشيروا عراف فوبيوس متوسلين للإله أن يدركهم برحمته
ويُسّفعهم بما يطعنهم ويضع نهاية لهذه الآلام الفادحة التي طحنت مدينتهم . واهتزّت الأرض واهتزّ معها
شجر الغار وارتقت كنانة السهام التي يحملها الإله نفسه ، وإذا كرسى العرافة الثلاثي القوائم يصوت
فاهتزت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفزع في نفوس الحاضرين وإذا صوتها يقول :

« كان بوسعك أيها الروماني أن تلتمس وأنت قريب من بيتك ما جئت تطلبه هنا ، فعد إلى هناك
ولست في حاجة إلى أبوللو ليخفّف عنك شقاءك . إن ابنه هو الذي سيجعل عدد موتاكم يتناقص ،
فاقصدهو محمّلين ببركاتي أنا واستضيفوا عندكم ولدى الذي أنجبته . »

٦٤٠

وحين علم حكماء مجلس الشيوخ ما أمر به الإله تساءل أعضاؤه عن المدينة التي يحيا بها ابن
فوبيوس ، واختاروا وقدأ حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطئ إبيداوروس ، وما كادوا يبلغونها
بسفيتهم المحبّبة الجوانب حتى مثلوا أمام مجلس كبار المدينة اليونانية ، ورَجَّوْهُ أن يدنّهم على الإله الذي
سيحقق خلاص أمة الأوزونيين [الإيطاليين] على يديه حسبما صلح به هاتف إلهي موثوق به له شأنه .
وتداول المجلس الأمر ، وتفرقت الآراء بين قلة ترى أنه لا يمكن رفض مدّ يد المساعدة ، وكثرة تشير
بالرفض حتى لا يُجرّموا رعاية الإله حين يُسَلِّمونه إلى غيرهم . وطال نقاشهم حتى طارد الشفق ضوء النهار
ولفت الليل وجه الأرض بظلمته ، وإذا أنت تحلم برؤية الإله المغيث منتصباً أمام سريرك أيها الروماني على
نفس هيئته وهو في معبده ، تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية ، ويمسح بيمنه لحية الطويلة ، ويقول في

صوت رفيق : « لا تخشى شيئاً فسوف آتى مخلصاً طيفى ورائى وإن كنت سأبدو فى غير صورى . فأنعم
النظر إلى هذا الثعبان الذى يلتف على عصاى ، وتبين أجزائه لتعترف عليه حق المعرفة ، فلسوف أبدو فى
هيئته غير أن حجمى سيكبر حجمه ، وسوف ترى لى قامة عالية لا تليق إلا بالآلهة حين تتحول من هيئة إلى
أخرى » (٥٧) .

ثم اختفى الإله واحتجب صوته وتبدد النوم . ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع الخير
يوميض ، وأخذ فجر اليوم الجديد يطغى على نور النجوم ، ومضى أعيان المدينة وهم لا يعلمون ما هم
فاعلمون يتوافدون على المعبد الرائع (٥٨) للإله الذى طلب إليهم أن ينزلوا عنه ، والتمسوا من الإله أن يوحى
إليهم بالمكان الذى يختاره للنزول فيه . ولم يكدها دعائهم ينتهى حتى كان الإله قد تحول إلى ثعبان ضخم
العرف يُفصح بفحيحه عن ظهوره بينهم ، وعندها اهتز التمثال (٥٩) والهيكل والبواب والأرض المرمرية
والسقف المذهب . ثم شمع الإله برأسه وصدره وتوسط المبنى مجيلاً فيه نظرات لها وميض فأزعج الناس
هلعاً حين تعرف عليه الكاهن - الذى كان يعقد شعره المقدس بشرط أبيض - وقال : « انظروا ها هو ذا
الإله ، ها هو ذا الإله . فليصمت الجميع ، ولتطردوا الأفكار المدنسة من رؤوسكم ، وليكن ظهورك بيننا
أيها الإله العظيم بشير خير للشعب الذى يخلص فى عبادتك » . وسجد الحاضرون للإله المائل أمامهم
مرقدين دعاء الكاهن . وضم ممثلو شعب أيناى دعاءهم إلى دعاء الإغريق ، وتقبل الإله طقوس الطاعة
والولاء وحرك عرّفه تعبيراً عن رضاه ، واستأنف فحيحه بلسانه التذبذب ، ثم انزلج على درج السلم
المصقول ، والتفت إلى الوراء قبل رحيله يلقى نظرة أخيرة على المعبد العتيق . وبعد أن حيا مسكنه الأليف
والمعبد الذى عاش به زحف بجسده الضخم على الأرض التى غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه .
واخترق المدينة حتى بلغ الرفأ الذى يكتنفه رصيف صخرى دائرى ، فتلبث ونظر إلى مودعيه الذين جاءوا
فى إثره ترحيماً له نظرة مفعمة بالسكينة تحمل الشكر وتأذن لهم بالانصراف ، ثم أخذ مكانه فى السفينة
الأوزونية التى أحسّت هى الأخرى أنها تحمل فى جوفها لها إذ بدأت تميل تحت ثقله وغاصت قليلاً فى
الماء .

وامتلأت قلوب وفد مدينة أيناى بالفرحة ، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطئ ، وفكّوا حبال
السفينة المزدانة بالزهور فدفعها الرياح الرقيقة فى طريقها إلى بلادهم ، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً
عنقه على مؤخرها المقوس يتأمل الأمواج اللازوردية . وعندما أشرقت أورورا ابنة باللاس للمرة السادسة
أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطئ لاكينيوم الشهيرة بمعبد جونو ، وشواطئ سكولاكيوم مخلفة وراءها
يا بيجيا (٦٠) ، وتحاشى الملاّحون بمجاديفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكثوس عن يمينهم ، ثم
مضوا بمحاذاة روميثيوس وكولون وناريسيا لا توقعهم أخطار البحر ، واخترقوا مضيق بيلوروس الضيق
حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيبوتيس ، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا ويساتين الورد فى پايتوم المشمسة . ثم
لزمّت السفينة الشاطئ بجوار كاپرى وبرزخ منيرفا (٦١) وتلال سورنوم ذات الكروم الشهيرة ، ثم مدينة
هرقل (٦٢) وستاباي وپارثينوى (٦٣) التى يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ ، حتى أدركت كوماى

حيث تقيم الكاهنة سييلا في معبدها . وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة بايى الدافئة المياه ، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المصطكا ، وتجاوزتها إلى مصب نهر الفولتورنوس الذى تحمل مياهه اللدومة قدراً ضخماً من الرمال . ثم أدركت سينويسا التى يحن إليها اليام الأبيض ، ثم مستنقعات ميتورناى الموبوءة ، وكايتا التى دفن فيها البطل أينياس مرضعته ، إلى أن اجتازت ديار أنتفاس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركى ، وأخيراً بلغت شاطئ أنثيوم برماله الراسخة ، وكان البحر عاصفاً فقام الملاحون بربط سفينتهم وأشرعتها مبسوطة .

٧٢

ومدّ الإله جسده وزحف حتى بلغ المعبد المكرس لأبيه بجوار الشاطئ الذهبى . ولما هدأت الأمواج ترك حامى إبيداوروس هيكل أبيه الذى لقي فيه أجل ترحيب ، وعاد زاحفاً إلى السفينة غلغلاً أخذودا في الرمال شقّه جسده بحراشفه الحادة ، وتسلى مؤخرة السفينة واستقر فوقها معتمداً برأسه على حافتها ، وظل كذلك حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لافينيوم العريقة ثم مصب نهر التير . فلما بلغ ذلك الموقع توافد الناس للترحيب به ، وأقبل الرجال والنساء وكاهنات قستا العذارى الطرواديات الساحرات على نيران الهياكل ، وكان الجميع يتصايحون فرحاً تحية للإله . وعلى امتداد الطريق الذى تشقّه السفينة كانت المذابح والهياكل المشيدة على الضفتين تتصاعد منها سحب الدخان المطلق من البخور يشيع عطره في الأجواء ، وكانت دماء القرايين تسيل فوق نصال المذبح المستخدمة في نحرها ، ثم ها هي ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة العالم فيتصب الثعبان مستنداً إلى قمة الصارى يتأمل ما حوله باحثاً عن مقام يليق به .

وفى الموضع الذى يتفرّع عنده نهر التير إلى فرعين يضمن ما يسمى الجزيرة ، وكأنما يمد النهر ذراعيه ليضم الأرض بينهما ، اتجه الثعبان ابن فويوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة حيث ارتدت إليه هيئته الإلهية فإذا هو يقضى على الوباء ويخلص المدينة منه .

٧٤٠

تأليه يوليوس قيصر

على أن هذا الإله لم يكن غير غريب نزع إلى بلادنا ، على حين أن قيصر إله مدينة هو منها . ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً ، ولكن لا الحروب التى خاضها وانتهى فيها إلى النصر ، ولا أعماله الضخمة في روما ، ولا الهيأة التى رزقها في لمح البصر ، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضىء على صورة كوكب جديد مذنب في السماء ، بل مردّ هذا كله إلى أرومته التى ينتمى إليها فهي وحدها التى بلغت به هذه المرتبة . فلم يكن من بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الإبن^(٦٤) . وما فعله قيصر من قهر للبريطانيين فرسان البحر ، وما فعله من بعثه بسفنه الظافرة في النيل ذى الروافد السبعة والذى تغشى مياهه أوراق البردى ، وما كان من إخضاعه الثوار النوميديين [الليبين] لشعب كويرينوس ، وما كان من انتصاره على الملك « چوبا » سيد الكينيس وپونتوس المزهوة بملوكها المثيريداتيس^(٦٥) . ثم ما كان من

انتصارات لا عد لها وخروج شعبه في مواكب نصر عديدة شارك قيصر في أكثرها^(٦٦) ، كل هذا لا يبلغ في جلاله أنه كان أباً لهذا الابن العظيم . وحين غدا ابن قيصر وصياً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمتها العظيمة ، وحتى لا يكون ابنه من بذرة فانية ارتقى هو إلى مصاف الآلهة .

٧٦٠

وإذا فينوس أم أينياس الإلهة المزدانة بالذهب تشهد مراسم تأليهه ، غير أنها شهدت قبل تلك المؤامرة التي حيكت ضده ، كما رأت تلك الميتة البشعة التي كانت تترصد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها ، فانتابها فزع شحب له وجهها ، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة : أترون تلك المؤامرات التي تحاك لي ، ثم هذه المؤامرة التي تهدد حياة من بقى لي من أسرة يوليوس سليل داردانوس ؟ ترى هل ساقبى وحدى تنازعنى المومم ويساورى القلق ؟ أصبح يوماً جريحة برمح ديوميديس بن تايدوريوس الكاليدون ، وإذا أنا يوم آخر أحمل عار سقوط طروادة التي أخفقت في الدفاع عنها ، ثم أرى ابني يميم السنين الطوال على وجهه تنقاده البحار ، وأشهدته ينفذ إلى عالم الموت الهامد ثم وهو يصارع تورنوس ، وإذا شئنا الحق نقول إنه كان يصارع جونو نفسها ، ولكن لماذا أستعيد اليوم ذكرى المصائب التي نزلت بأسرق في الماضي ؟ إن الخوف الذى أستشعره اليوم يفوق كل ذكريات الماضي ، ها هي ذى السيوف الغادرة تشحذ من أجلي ، هلا رددتموها عني وحلتم دون وقوع هذا العدوان حتى لا تدعوا نيران معبد فستا تحمد غريقة في دماء الكاهن الأعظم .

وعبثاً حاولت فينوس أن تشيع شكواها في أرجاء السماء لتستثير شفقة الآلهة ، فقد كانت الآلهة عاجزة عن أن تحول دون نفاذ الإرادة الصلدة للأخوات العنيدات [ربات القدر الثلاثة] ، لكن الآلهة لم تفعل غير أن أرسلت بعض النذر التي تنذر باقتراب الكارثة ، فإذا السحب الداكنة تسمع خلالها قعقة السيوف ، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل الساء بعنف منذراً بالمأساة ، ولم يعد للشمس المكشبة غير أشعة باهتة ترسلها على الكون القلق ، وخفقت أذنان المذنبات بين نجوم السماء ، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء ، وخيف وجه كوكب النهار وغشت وجهه صفرة قائمة ، وتلطخت مركبة القمر بالدماء ، وتردد نقيق البومة طير نهر ستيكس المشوم في أكثر من ألف مكان . وفي أكثر من ألف مكان بكّت تماثيل الآلهة العاجية بدموع حقّة^(٦٧) ، وترددت الصرخات وأصوات الرعيد في أرجاء الغابات المقدسة ، ولم تدلّ القرايين المذبوحة على دلائل طيبة بل كانت أحشاؤها تحمل نذراً باقتراب الكارثة ، فقد بدا رأس الكبد مبتوراً^(٦٨) ، ودلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية أصبحت وشيكة ، وإذا الروايات أيضاً تنقل أنه قد سُمع عواء كلاب ، كما شوهدت أشباح موق صامته تجوس في السوق وبين الدور والمعابد خلال الليل ، وإذا زلزال يهز أرض روما . وعلى الرغم من تحذيرات الآلهة فلم تغلج في القضاء على الخيانة والغدر . وشهّرت السيوف المسلولة من أغمادها داخل المبنى المقدس ، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان يُختار لارتكاب جريمة الاغتتيال البشع إلا قاعة مجلس الشيوخ . عندها ضربت فينوس على صدرها بيدها وحاولت إخفاء أينياس العظيم في السحابة التي أنقذت باريس من غضب ابن أترئوس كما حمت أينياس من سيف ديوميديس ، غير أن أباه ناداها قائلاً : أو تخالين يا ابنتي أنك في قدرتك وحده تغيير القدر

٨٠٠

المقدور . توجهي إلى مقر ربات القدر الثلاث حيث ترين سجلات الكون . ستجدين اللوح المصنوع من البرونز والحديد ، ذلك اللوح الخالد الذي لا يتحطم ولا يخبث رعد السماء ولا غضب البرق ولا أى زلزال عاصف ، وسترين ما قُدر على ذراريك محفوراً على الصُلب الذي لا يلى . ولقد طالعت بنفسى ما هو مكتوب ووعته ذاكرتى ، وسأعيد على سمعك ما قرأت يا فينوس إلهة كثيراً حتى لا تظنن يا ابنتى جاهلة بالمستقبل . لقد انتهى عمر هذا الإنسان الذى تبكين من أجله وأكمل سنيه التى كُتبت له فى لوح القدر أن يحياها ، غير أنه سيصبح بعد إلهما يصعد إلى السماء ، وسوف تُقام طقوس عبادته فى معابد الأرض جمعاء . وسيكون هذا على يدك أنت وعلى يدى ابنه الذى سيرث اسمه ويحمل وحده عبء الحكم الذى سيُلقي على عاتقه ، وسيثار فى جرة لأبيه الذى اغتيل ، وسيجدنا إلى جانبه نشد أزره فى معارك القتال ، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها طالبة السلام (٦٩) ، وستشعر حقول فارساليا بقوة بأسه ، وسيسيل الدم ثانية فى فيليبس ، وسيلقى اسم يومى العظيم الهزيمة فى مياه صقلية ، وستسقط الزوجة المصرية لقائد رومان مخدوعة فى أملها بالزواج منه ، ويصبح هباء تهديدها بأن تخضع الكايتولينيوس المقدس لمدينتها كانوبى (٧٠) . وما لى أقص عليك قصص بلاد البرابرة والأمم التى تعيش على شواطئ المحيطين ، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما تحمل الأرض المعمورة ، ولسوف يذل له البحر نفسه . وحينها ينشر السلام على العالم سوف يرعى حقوق المواطنين ويشرع القوانين التى تكفل العدالة بينهم ويطبّقها بنفسه ، وسيصبح مسئلكه مثلاً يحتذى من رفيع الأخلاق ، وسيجته بفكره وينفذ بصيرته إلى المستقبل وذرارى شعبه ، فيأمر أن يحمل ابن قرينته المبهجة اسمه وأثقال الحكم معاً . ثم إنه فى النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نبطور حاكم بيلوس الكهل سيرقى إلى السماء حيث سيتخذ مكانه بين كواكب أسرته . أما الآن ، فخذى معك هذه الروح التى فاضت عن جسد قيصر الذبيح وأحليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤله إلى الأبد من علياء سمائه على الكايتولينيوس المقدس والقورم .

٨٢٠

٨٤٠

وما إن فرغ جوبيتر من حديثه حتى وقفت فينوس الحانية وسط قصر مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر ، ورفعت روح قيصرها الغالى من جسده بعد ما فارقته وقبل أن تتبدد فى الهواء وحلتها وسط نجوم السماء ، فإذا هى تحسّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهمت حقاً ، وإذا هى تنفلت من صدر فينوس محلقة عالياً حتى جاوزت القمر وهى تهمر وراءها جدائل من أشعة لها شكل كوكب متالى (٧١) .

وحين رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه أذعن إلى أنها تفوق مآثره وسعد بأن يتفوق ابنه عليه ، وإن كان الإبن قد حرم على الناس أن يُقدروا أفعاله فوق تقديرهم لأعمال أبيه ، غير أن شهرة الإنسان تجرى على ألسنة الناس طليقة لا تخضع للقيود . ولقد رفعت الشهرة عالياً على الرغم منه ولم تخضع لغير إرادة القدر وحده ، كما تراجع مجد أثريوس أمام مجد أجاممنون العظيم ، وكما برزت شهرة ثيسبيوس شهرة أبيه إيجيوس ، وكما فاق أخيل أباه بيلوس . ثم يأتى فى ختام الأمثلة الجديرة ببطلينا (٧٢) ذكر ساتورن الذى

تراجع أمام ذكر ابنه چوپيتر حاكم السماوات العلى وممالك الكون الثلاث . كذلك خضعت الأرض لسلطان أوغسطس ، وكان كل من چوپيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيداً عليها .

٨٦٠

ابتهال

أيها الآلهة المقدسة ، يارفاق أينياس ، أنتم يا من تفتح أمامكم السنة اللهب وصليل السيوف الطريق رجباً لا نهاية له ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [رومولوس] ، يا أب المدينة الحاني عليها وصاحب الطول فيها ، وأنت يا جراديفوس [مارس] والد كويرينوس الذى لم يُقهر قط ، وأنت يا فستا يا من تُقام لك الصلوات تسيحاً باسمك الكريم وسط آلهة أسرة قيصر . وأنت يا فوبيوس يا من تسكن مع فستا قصور القياصرة ، وأنت يا چوپيتر يا ساكن قمة تل تاربيوس^(٧٣) . أيها الآلهة جميعاً ، يا من يحق للشاعر بل يلزمه أن يسبح بأسمائكم القدسية ، ناشدتكم جميعاً أن ترجئوا إلى ما بعد هذا الجليل ذلك اليوم الذى يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التى تدين لحكمه ثنائص ، يوم يصعد إلى السماء نجماً مضيئاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر إلهاً ، ولو أنهم سيُخرمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

خاتمة

٨٨٠

ها أنذا قد فرغت من كتابي ، هذا الكتاب الذى تعجز غضبية چوپيتر الجبار عن أن تمحو أثره ، وتعجز النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تطمس كلماته . ولتضع الأقدار — ما شاءت — خاتمة لحياتي ، فهي لا تملك إلّا جسدى ، أما أنبل ما فى ذاتي فسينطلق خالداً فوق مسرى النجوم والأفلاك ، وسيبقى اسمى مشرقاً ما بقى الدهر . وأنى ينبسط سلطان الدولة الرومانية ، فلسوف تردّد ألسنة الناس شعري ، وإن صدق حدس الشعراء فلسوف أخلد باقياً على مرّ العصور علماً خفّافاً شهيراً .

التعقبات

- (١) اشتهر روما بومبيليوس من السابينيين بالحكمة والمعرفة ، وقيل إنه تتلمذ على پيثاجوراس وتولى العرش في أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح .
- (٢) مدينة قديمة كان السابينيون قد اختاروها عاصمة لهم .
- (٣) مدينة عند بداية خليج تورنتو وكانت جزءاً من « اليونان الكبرى » افتتح فيها پيثاجوراس مدرسته الشهيرة .
- (٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايطاليا .
- (٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه ، وحلت محل سيابريس بعد تدميرها ، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو في جنوب إيطاليا .
- (٦) مدينة قديمة في مقاطعة پروتيوم ، وهو اسم الإقليم الذي يشغل كل جنوب شبه جزيرة ايطاليا ، وقد اشتهرت بمناجم النحاس .
- (٧) هم البابيجيون [انظر الكتاب الرابع عشر] .
- (٨) الاسم القديم لجزيرة كيغالونيا ، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة بها .
- (٩) يدعى پيثاجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحى إلهي ، مثله في ذلك مثل الهاتف الإلهي في دلفي الذي يَصُوتُ بصوت أبوللو .
- (١٠) يبدأ پيثاجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأرواح التي اقترنت باسمه عبر التاريخ .
- (١١) كان أباس الملك الثاني عشر لدولة أرجوس . وروى أن معبد جونو [هيرا] في أرجوس الذي كان يحوى تمثالاً للإلهة من صنع بوليكليتوس كان يضم ترس البطل الطروادي يوفوريوس الذي قتله نيلاولس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الماعلة .
- (١٢) كان ميلون بطلاً شهيراً في حلبة ألعاب القوى بمدينة كروتونا عاش في أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفي الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية ، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيثاجوراس الذي يتحدث بنفسه في هذا النص .
- (١٣) اختطف ثيسبيوس هيلينا وهي بعد فتاة بينا كانت تقدم القرابين لأرغيس وذهب بها إلى أثينا ، ثم اختطفها باريس بعد زواجها من نيلاولس وهرب بها إلى طروادة .
- (١٤) نهر في فريجيا يخشى في غار ثم يظهر من جديد ليرقى في نهر مياندر .
- (١٥) نهر في أركاديا يصب في خليج كورنث .
- (١٦) نهر في آسيا الصغرى .

- (١٧) نهر في صقلية بجوار مدينة قطانيا .
- (١٨) نهر في اليونان .
- (١٩) نهر في صارماتيا جنوب روسيا يصب في البحر الأسود واسمه الآن نهر البوج .
- (٢٠) مدينة صغيرة على الشاطئ الغربي لجزيرة ليزبوس .
- (٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينها لسان ضيق من اليابسة ، اشتهرت بمنارتها [رأس الثين حاليا] .
- (٢٢) إحدى الجزر الأيونية .
- (٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية .
- (٢٤) دُمرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م .
- (٢٥) كانت تولم هيليكيه ودُمرت معها .
- (٢٦) لعل أولفيد كان يقصد برزخ ميتونه أو ميشانا ، ويقع إلى الشمال من المنطقة التي يشير إليها .
- (٢٧) ذكرى هيرودوتوس ينبوع آمون في « تاريخه » وما يزال معروفاً في الصحراء السودانية ، ويبدو أن حرارته قد تصل أحيانا إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحيانا أخرى إلى درجة الصفر .
- (٢٨) شعب كان يقطن لبيروس على الحدود الألبانية .
- (٢٩) اشتهر هذان النهران بفزارته طميهما فكان من يستحم فيها من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُفَشَّحاً بالطين البقي .
- (٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تجرى أحداث قصة هيرودوتوس وسالماكيس . لما البحيرات الأثينية فلا نعرف ما يقصده أولفيد منها .
- (٣١) مدينة أركاديا .
- (٣٢) منطقة جبلية في مقدونيا .
- (٣٣) اسم للمدينة في شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها .
- (٣٤) هي جزيرة ديلوس الآن ، وكانت في الماضي تتأرجح فوق المياه ، اختارتها ليتوماوى تلد فيه بعد أن طاردها جونوني في جميع أنحاء الأرض ، ولم تثبت الجزيرة إلا بعد وضعها لأبوللو وأرتميس .
- (٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود .
- (٣٦) يعالج سنديكا في كتابه السادس « عن أمور الطبيعة » سر الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا .
- (٣٧) شعب خرافي كان يسكن منطقة في أقصى شمال العالم المعروف .
- (٣٨) خلط أولفيد هنا بين تريتون الموجودة في طرايا وباليثي الموجودة في خالكيديكس .
- (٣٩) يبدأ بيتاجوراس في سرد بعض الخرافات الشعبية السائدة .
- (٤٠) ذهب هيرودوتوس إلى أن معبد هيريون هو معبد الشمس في هليوبوليس بمصر ، بينما ذهب بلينيوس إلى أنه موجود في جزيرة خرافية اسمها بانثاشيا في بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وبويوتيا .
- (٤١) كان ثمة اعتقاد شعبي بأن الضبع يبذل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطئ .
- (٤٢) هو الحرياء التي قال عنها « بلينيوس » إنها تتلون بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض .
- (٤٣) من فصيلة السنابير وهو أصغر حجماً من النمر .
- (٤٤) ثمة حجر كريم يسمى « بول الوشق » يقابل حجر التورمالين لدينا .
- (٤٥) أحد ملوك أثينا في قديم الزمان .
- (٤٦) سبق أن ذكر بيتاجوراس أنه عاش حياة سالفة في طروادة ، إذ كانت روحه تنقص جسده البطل الطروادي يولفوربوس المعاصر لأينياس .
- (٤٧) كان أترپوس بن بيلوبس عدواً لأخيه ثايسيتيس ، وقد تظاهر بالصلح معه ودعاه إلى وليمة يح فيها أبناء أخيه وقدم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدري .

(٤٨) إحدى طرق صيد الرعول ، وتقوم على وضع حبل في طريقها مزدان بالريش الأحمر الذي يصيبها بالفزع فتتحرف نحو الشراك التي تنتظرها .

(٤٩) الكاميئات كن حوريات ماء ، أشهرهن إيجيريا التي كانت مُلهمة نوما كما أسلفنا ثم تزوجها حسبيا بقرار أوليفد في هذا النص . ولكن يتكهن بالمستقبل كريت الفن « الموساى » ، وكان لمن معبد عند أحد أبواب روما ، هو الباب الكاميئى في طريق ألبا جنوى المدينة .

(٥٠) كان وادى أريسيا عند سفح جبال ألبانوس بإيطاليا غير بعيد من بحيرة نيمى وعلى مقربة من معبد ديانا الأريسيانية الذى كان يتولى كاهنه منصبه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذى كان أوريسيتيس قد اختطف منه صنم « الإكسوانون » بصحبة إيفيجينيا كاهنة المعبد . وكان سكان أريسيا يدعون حيّزة هذا الصنم الذى حمله إليهم أوريسيتيس ، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعبد أركيس فى هالاي باتريكا [وذلك بالنسبة لأهل أثينا] بينما يدعى أهل أسهرطه أنه فى معبد أركيس أورثيا فى أسهرطه نفسها .

(٥١) نهر من الذهب فى الجحيم .

(٥٢) اسم جنى غابة قرب بحيرة نيمى ، وكانت هذه الغابة عرمة على الجياد ، وقد أصبحت عبادة فيريوس مقترنة بعبادة ديانا الأريسيانية ، وكان فيريوس أول كاهن لها فى معبدها .

(٥٣) أى فلاح إتروريا .

(٥٤) كانت القرون فى الماضى رمزاً للقوة .

(٥٥) هى رمز الانتصار وبالتالي السلام الذى يجيء فى إثر الانتصار .

(٥٦) إسكليپوس بن أبوللو من الحورية كوريس ، وقد بدأت الطقوس تقام له فى نيساليا ، ثم أدخلت تنتشر حتى عمت أنحاء اليونان ، وعمرزت فى ليدادوروس ، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق.م. بعد الطاعون الذى اجتاحتها عام ٢٩٣ ق.م .

(٥٧) كانت الألفة تبدو فى التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .

(٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ — ٣٧٥ ق.م. وكان على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، وقد اكتشفت فى أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .

(٥٩) قام بنحته الممثل تراسيميلىس الفاروسى .

(٦٠) اسم قديم للوكانيا .

(٦١) يرزخ كلبانللا حالياً .

(٦٢) هرقولانيوم .

(٦٣) الاسم القديم لنابلى .

(٦٤) يضع أوليفد أوكتافيوس وهو ابن قيصر بالتبني فى مصاف أبنائه الحقيقيين ، ويتحدث عنه بهذه الصفة .

(٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة فى آسيا الصغرى والمطلية على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .

(٦٦) يشير أوليفد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق.م. وحرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م. وهزيمة جوبا ملك نيميديا ، وإلى انتصاره على فارناكوس بن مثرديات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق.م. ويلاحظ أن قيصر لم يشارك فى غير موكبين من مواكب نصره ، أولها عام ٤٦ ق.م. بعد انتصاره فى بلاد الغال ومصر وپونتوس وثانيها عام ٤٥ ق.م. بعد انتصاره فى أيبيريا .

(٦٧) كان العلاج يستخدم فى صنع تماثيل الألهة أو بعض أجزائها ، وكانت التماثيل الماجية تدفن بالزيت فترسل بريقاً يوحى ألبا تلمع .

(٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء الذبائح ويهتمون بالقلب والرئتين والمعدة والطحال والكليتين ، وكانوا يسمون أهل الكبد رأسه ويعلمون فصله عن بقية الكبد تلير سوء .

(٦٩) انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس فى مودينا عام ٤٣ ق.م. ، وكان أنطونيوس هو الذى حاصر المدينة التى كان على رأسها ديكيكوس بروتوس عافظ المقاطعات الرومانية جنوى الألب ، ويبدو أن أوليفد قد خلط هنا بين المحاصر والمحاصر .

- (٧٠) كانت كليوباترة هي ملكة مصر التي تزوجت أنطونيوس ، وتقع كانوبى شرقى الإسكندرية ، وكانت مركزاً دينياً بينها كان معبد الكاينيتولينوس أقدم معابد روما ، وبهذا يريد أوليد اتهام كليوباترة بمحاولة إحياء آلهة المصريين عمل آلهة الرومان .
- (٧١) يروى سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التي أقامها أوكتافىوس تكريماً لقيصر المؤله ، كان الكوكب المذنب يتألق في السماء طوال ليالٍ سبع ، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر قد تحول إلى كوكب هو المعروف باسم فينوس .
- (٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس .
- (٧٣) الجزء الشرقى من تل الكاينيتولينوس وكان يضم القلعة التي سميت باسمه ، بينما يضم الجزء الغربى معبد جوبيتر ، وكان يسمى قبلاً بجبل تاريوس ، وقد انحصر اسم تاريوس بعد ذلك في صخرة بالطرف الجنوبى الغربى من التل كانت تستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام بقلف المحكوم عليهم من فوقها .

ثبت التراجم

THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES. PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.

OVID: THE METAMORPHOSES. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND)

OVIDE: LES METAMORPHOSES. TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.

OVIDE: LES METAMORPHOSES.
TEXTE ETABLI ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.

ثبت المعاجم

CARY, M., DENNISTON, J.D., WIGHT DUFF, J., NOCK, A. D., ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J., HARVEY, H. P. AND SOUTER, A, THE **OXFORD CLASSICAL DICTIONARY.** OXFORD, 1949

ERNOUT, A. ET MEILLET, A. **DICIONNAIRE ETYMOLOGIQUE DE LA LANGUE LATINE.** 3 EME EDITION. PARIS, 1951.

- HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.: *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY*. F.S. CROTS. NEW YORK 1987.
- LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS*. ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963
- LEWIS, CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY*. LONDON 1879.
- STIMPSON, D.P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* 2nd EDITION. LONDON 1962.

ثبت المراجع

- BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS*. (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936)
- BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE*. 1933.
- CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART*. LONDON 1949.
- FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS*. BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.
- HAGSTRUM, JANH.: *THE SISTER ARTS*. CHICAGO 1958.
- LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS*. (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEQUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.
- LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.
- MORNAND, PIERRE & THOME, J.R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE*. LE COURRIER GRAPHIQUE, ALBERT CYMBOLISTE, EDITEUR, PARIS.
- MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES*. LONDON, 1291.
- PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN MAINLY ICONOGRAPHIC*. PHAIDON, OXFORD, 1970.
- RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE*. BOSTON 1925.
- RIPERT. EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL*. PARIS 1921.
- WILKINSON, L.P.: *OVID RECALLED*. CAMBRIDGE, 1955.

الملاحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية
المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد(*)

التصوير

آدم الزهايمر : « الطوفان » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
أنجر : « تأليه هومروس » . متحف اللوفر .
أحد أتباع بيزيلينو : « صيد الخنزير البرى فى كاليدونيا » . متحف متروبوليتان بنيويورك .
أحد أتباع فرا أنتجيليكو : « باريس يحتفل هيلينا » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
إدوارد بيرن جونز : « بيجاليون » . متحف برمنجهام .
إلخوتشينو : « أبولو يسلخ مارسىاس » . جاليرى بيتى بفلورنسا .
إلخوتشينو : « أورورا » . قصر لودوفيكى روما .
إلخوتشينو : « كبرى » . متحف اللوفر بباريس .
أنطون فان دايك : « جوبيتر وأنتيوى » . متحف ميونخ .
أنطون فان دايك : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تورنتو بكندا .
أنطون فان دايك : « سيلينوس ثملا » . متحف درسدن .
أنطون فان دايك : « كيويدي ويسبيخه » . هامبتون كورت بانجلترا .
أنطون فان دايك : « فينوس إلى جوار كور فولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
أنطون فان دايك : « فينوس وفولكانوس » . متحف اللوفر .
أنطونيو بولايولو : « أبولو ودافنى » . الناشونال جاليرى بلندن .
أنطونيو بولايولو : « خطف ديانرا » . متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهافن .
أنطونيو بولايولو : « هرقل والهيدرا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
أنطونيو فانتوزى : « كبرى وملأحو أوديسيوس » . مدرسة فونتنبلو .
أوجين ديلاكروا : « ميديا وأطفالها » . متحف اللوفر بباريس .
بارثولوميو سبرانجر : « فينوس وأوديس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا

(*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الإغريق بين الأسطورة والإبداع » لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية ١٩٩١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

بارثولوميو سهرانجر : « منيرفا » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 بارثولوميو سهرانجر : « هيرمافروديتوس وسالمكيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 بارثولوميو سهرانجر : « أوديسيوس وكيركي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 باروتشي : « ايناس يفر من طرواده مع زوجته وابنه حاملاً أباه » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 باسانو : « هرقل وأومفالوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 پرودون : « اختطاف پسيخيه » . متحف اللوفر .
 برويكل : « ايناس في العالم السفلي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 برويكل : « سقوط إيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 برويكل : « سيريس توزع الحيرات » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 بلاتشار : « حفل باكخوسى » . متحف نانسي .
 بشتوتو تشليني : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف البارجلو بفلورنسا .
 بوتشيللي : « أثينا [منيرفا] والقنطور » . متحف أوفتزي بفلورنسا .
 بوتشيللي : « مولد فينوس » . متحف أوفتزي بفلورنسا .
 بوشيه : « حوريتان وجان الغاب [الساتير] » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 بوشيه : « داناي » . متحف كونياك .
 بوشيه : « ديانا تأخذ زيتتها » .
 بوشيه : « زيوس وأنتيوي » . متحف پوشكين بموسكو .
 بوشيه : « ليدا وطائر اليبع » . متحف لوكسمبورج .
 بيرو دي كوزمو : « إنقاذ أندروميذا » . متحف الأوفتزي بفلورنسا .
 بيرو دي كوزمو : « مصرع پروكريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 بيرو دي كوزمو : « المعركة بين اللايث والقنطوري » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 پير نارسيس جيزان : « تقديم القربان لإسكليبيوس » . متحف اللوفر بباريس .
 تسيانو : « اختطاف أوروبا » . متحف جاردنر بيوسطن .
 تسيانو : « باكخوس وأريادن » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 تسيانو : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 تسيانو : « تانتالوس » . المتحف البريطاني .
 تسيانو : « چوپتر وأنتيوي » . متحف اللوفر .
 تسيانو : « داناي » . متحف الهرادو بمدريد .
 تسيانو : « ديانا وأكتايون » . متحف پردچوتر هاوس بلندن .
 تسيانو : « ديانا وكالستو » . متحف پردچوتر هاوس بلندن .
 تسيانو : « سيزيفوس يحمل الحجر » . متحف الهرادو بمدريد .
 تسيانو : « فينوس وأدونيس » . المتحف القومي للفنون بواشنطن .
 تسيانو : « فينوس تتوسل إلى أدونيس كي لا يخرج إلى الصيد » . متحف الهرادو بمدريد .
 تسيانو : « فينوس على أجنحة النغم » . متحف الهرادو بمدريد .
 تسيانو : « فينوس في استرخاء حالم » . متحف أوفتزي بفلورنسا .
 تسيانو : « فينوس وكوييد » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 تسيانو : « كالستو » . متحف جلاسجو .
 تسيانو : « مصرع أكتايون » . متحف جلاسجو .

تسميانو: «النسر ينهش كبد تيتوس». متحف اليرادو بمدريد.

نتوريو: «أريادن وياكخوس». قصر الدوج بالبندقية.

نتوريو: «باكخوس وأريادن». قصر الدوج بالبندقية.

نتوريو: «پيرسيوس وأندروميديا». متحف الارمييتاج بلنجراد.

نتوريو: «چونو وهرقل». كويام هول بانجلترا.

نتوريو: «ريات الفنون في الأوليمپ». هامپتون كورت بانجلترا.

نتوريو: «كور فولكانوس». قصر الدوج بالبندقية.

نتوريو: «كيويدي وفينوس وفولكانوس». متحف بيتي بفلورنسا.

تيرنر: «پوليفيموس يهزا بسفينه أوديسيوس». متحف الناشونال جاليري بلندن.

تيرنر: «ديدو تشيد قرطاجه». الناشونال جاليري بلندن.

تيرنر: «ديدو وأينياس». الناشونال جاليري بلندن.

تسيولو: «أبوللو ودافني». متحف اللوفر بپاریس.

تسيولو: «تشيد حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن.

تسيولو: «داناي». متحف ستوكهولم.

تسيولو: «سحب حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن.

تسيولو: «فينوس والزمن». متحف الناشونال جاليري بلندن.

جان راو: «پيجاليون وجالاطيا وفينوس». متحف اللوفر بپاریس.

جان ريسو: «هيرا [چونو] تزور أوقيانوس ونيثيس». متحف پوشكين بموسكو.

جانستر: «فينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بفيينا.

جوتزولي: «اختطاف هيلينا». الناشونال جاليري بلندن.

چورچ فردريك واطسن: «أورفيوس ويوريليكي». متحف تيت جاليري بلندن.

چوردانو: «أريادن». متحف دوسدن.

چوستاف مورو: «پاسيفاي والثور».

چوليو رومانو: «پوليفيموس». متحف مانتوا.

چوليو رومانو: «چونو وهرقل». بريدج ووٹر هاوس بلندن.

چوليو رومانو: «رقصة أبوللو مع ريات الفن». متحف بيتي بفلورنسا.

چوليو رومانو: «طفولة چوپيتر». الناشونال جاليري بلندن.

چوليو رومانو: «فينوس وفولكانوس». متحف اللوفر.

چيلوريني: «أبوللو يسلم جلد مارسيا». متحف ميونخ.

چيلوريني: «اختطاف هيلينا». متحف اللوفر.

چيلوريني: «أورو». قصر روسيليوزي بروما.

چيلوريني: «باكخوس معتلا». متحف فيلا بورجيزي بروما.

چيلوريني: «هرقل وآخيلوس». متحف اللوفر بپاریس.

چيلوريني: «هرقل والهدرا». متحف اللوفر بپاریس.

چيران: «أورو وكيغالوس».

چيران: «تقديم القران لاسكليپوس». متحف اللوفر.

داليد: «پاریس وهيلينا». متحف اللوفر.

دانتي جابريلي روسي: «پروسپرينا». متحف ليفريول.

درير : « الحوريات بنعين إيكاروس » . تيت جاليري بلندن .
 دورو : « هرقل والطير السيمفالية » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 دومينيكيو : « ديانا وأكتايون » . قصر بيتي بفلورنسا .
 ديلاكروا : « القنطور خيرون يعلم أخيل تصويب السهام » . مجموعة خاصة .
 ديلاكروا : « هرقل يحمل الخنزير البري » . متحف كارنافاليه .
 دوسو دوسى : « كيركى وعشاقها » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .
 ديبه : « بيجاليون وجالاطيا » . متحف تور بفرنسا .
 رافائيل : « أبوللو ومارسياس » . متحف اللوفر بباريس .
 رافائيل : « جالاطيا » . قصر فارنيزينا بروما .
 رافائيل : « حفل الآلهة في البارناسوس » . متحف الفاتيكان .
 رافائيل : « كيويد ويسيخيه » . قصر فارنيزينا بروما .
 رمرانت : « اختطاف پروسرينا » . متحف برلين .
 روبنز : « أچاكس وكاساندر » . متحف ليختنشتاين بفيينا .
 روبنز : « اختطاف پروسرينا » . قصر بلنهم وودستك بانجلترا .
 روبنز : « أنالانتا وملياجر » . متحف اليرادو بملريد .
 روبنز : « أورفيوس ويورديكى » . متحف اليرادو بملريد .
 روبنز : « أينياس وديدو » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
 روبنز : « پيرسيوس وأندروميديا » . متحف الإرميتاج بليتنجراد .
 روبنز : « پيرسيوس وأندروميديا » . قصر بلنهم .
 روبنز : « تحكيم باريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 روبنز : « جونو وهرقل » . متحف اليرادو بملريد .
 روبنز : « ديانا » . متحف درسدن .
 روبنز : « زيوس يخطف جانيميديس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 روبنز : « سيلينوس في حفل باكخوسى » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
 روبنز : « عيد فينوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 روبنز : « فايثون وأمفيترى » . متحف برلين .
 روبنز : « فينوس وأدونيس » . متحف الإرميتاج .
 روبنز : « منيرفا تحمى السلام من مارس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 روبنز : « مولد فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 روبنز : « هاديس [پلوتو] يخطف پروسرينا [پيرسيغوى] » . متحف لويق پاليه بباريس .
 روبنز : « هزيمة المردة » . متحف بروكسل .
 وينيو : « تحكيم باريس » .
 ويتولندز : « موت ديدو » . قصر باكنجهام بلندن .
 سباستيان پوردون : « انتحار ديدو » . متحف بيزيه .
 سيزان : « ليدا وطائر البجع » . مجموعة بيليران بباريس .
 سكيلفون : « أسطورة ميداس » . أكاديمية الفنون الجميلة بالبنديقية .
 شارل ده لافوس : « باكخوس وأرديان » . متحف ديچون .
 شلزيان : « پوزيدون [نپتون] » . متحف بيزانسون .
 فاني : « زيوس وأنتيوى » . متحف اللوفر .

فان هيمز كرك : « فينوس ومارس وفولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرانسوا لوموان : « نارسيسوس » . متحف هامبورج .
 فركيوز : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنشسكو ألباني : « أيرلو وداقي » . متحف اللوفر بباريس .
 فرنشسكو ألباني : « أوروبا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
 فرنشسكو ألباني : « فوز جالاطيا » . متحف درسدن .
 فرنشسكو جوي : « كرونوس يلتهم أبنائه » . متحف الهراو بميلريد .
 فرانثسكو : « كيوييد بعد قوسه ويشحد سهمه » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنشسكو ميلزي : « فيرتوموس وپومونا » . متحف برلين .
 فلاكسان : « أوديسيوس يفتأ عين پوليفيموس » .
 فنان مجهول : « رأس ميدوسا بعد جُرّ عنقها » . فيلا لودويزي بروما .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . قصر الدوج بالبندقية .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . متحف الكايتولينوس .
 فيرونيزي : « پيرسيوس وأندروميديا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .
 فيرونيزي : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيرونيزي : « فينوس وفولكانوس » . متحف فيلا بورجيزي .
 فيرونيزي : « فينوس ومارس » . متحف المتروبوليتان بنيويورك .
 فيرونيزي : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيلاسكيز : « باكخوس » . متحف الهراو بميلريد .
 فيلاسكيز : « فينوس في المرأة » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 فيلاسكيز : « كور فولكانوس » . متحف الهراو بميلريد .
 فيلاسكيز : « ميركوريوس وأرجوس » . متحف الهراو بميلريد .
 فيورنتينو روسو : « ربات الفنون أو الهيريديس » . متحف اللوفر بباريس .
 كاراتشي : « پوليفيموس وأكيس وجالاطيا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « پيرسيوس وأندروميديا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « چويتير وچونو » . قصر فارنيزي بروما .
 كارافاجيو : « سبيخيه في الأوليمپ » . متحف اللوفر .
 كارافاجيو : « رأس ميدوسا » . متحف أوفيتزي بفلورنسا .
 كراناخ : « فينوس » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كراناخ : « فينوس وكيوييد » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
 كراناخ : « فينوس وكيوييد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كراناخ : « نهاية العصر الفضي وبداية العصر البرونزي » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كرسبي : « القنطور خيرون يعلم البطل أخيل الصيد » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « جانميديس والنسر » . متحف درسدن .
 كوريچيو : « چويتير وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « داناي » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كوريچيو : « زيوس وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « ميركوريوس على تعلياته على كيوييد بحضور فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .

كلودلوران : « أبوللو ومارسياس » . متحف الإرميتاج بليتنجراد .
كلودلوران : « أوروبا » . متحف قصر باكنجهام بلندن .
كلودلوران : « نارسيسوس وإكو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
كلويه : « ديانا الصيابة » . متحف روان .
كيارى : « أبوللو ودافنى » . جاليريا سيادا بروما .
لاستيان : « هيرا تكتشف علاقة زيوس بليو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
لوقا چوردانو : « أريادنى » . متحف درسدن .
لوقا چوردانو : « بيرسيوس وڤينوس » . متحف درسدن .
لوكلس : « أكيس وجالاطيا وپوليفيموس » . قصر تريانون بفرساي .
لوكليرك ده چويلان : « اختطاف أوروبا » . متحف دنكرک .
لوموان : « اختطاف أوروبا » . متحف پوشكين بموسكو .
لوموان : « هرقل وأومفالوس » . متحف اللوفر .
لوى ده بولونى : « چوپيتر وسيميليه » . متحف لومان .
ليوناردو دافنشى : « ليذا وطائر البجع » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
ماتوار : « زيوس وليو » .
ماتوار : « هيبى تصب الخمر فى كأس أبيها چوپيتر » . متحف تروا .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون وملاحو الأرجو » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يضع النبر على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلحين » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يغادر الملك أيتيس لتنفيذ ما كلفه به » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « عصر الحديد » . مكتبة پيريونت مورجان .
المدرسة الفرنسية : « مصرع أدونيس » . متحف بلوا .
مدرسة فوتتيلو : « حمام ديانا » . متحف اللوفر .
مصانع بروكسل للنسجيات المرسمة : « فيرتومونس وپومونا » . متحف بروكسل .
نيكولا پوسان : « أبوللو ودافنى » . متحف ميونخ .
نيكولا پوسان : « إكو ونارسيسوس » . متحف اللوفر بپاريس .
نيكولا پوسان : « أورفيوس ويوريلديكى » . متحف اللوفر بپاريس .
نيكولا پوسان : « حفل باكخوسى أمام تمثال لپان » : متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « سيريس إلهة الحصاد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « أنياس عند ديلو » . متحف بيزانسون .

النت

أندريا پيزانو : « دايدالوس » . متحف الكامپانيل [برج الأجراس] بفلورنسا .
أنطوان لوى بارى : « القنطور واللايث » . متحف اللوفر بپاريس .
أنطونيو كانوفا : « آچاكس » . متحف الفاتيكان بروما .
أنطونيو كانوفا : « بسخيه تسترد الحياة إثر قبلة كيبيد » . متحف اللوفر .
أنطونيو كانوفا : « ثيسوس » . حدائق الفولكسجارتن بفيينا .
أنطونيو كانوفا : « ثيسوس يصرع القنطور » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .

أنطونيو كانوفا : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 أنطونيو كانوفا : « هرقل وليشاس » . المتحف القومى بروما .
 أوتريكونى : « جوبيتر » . متحف الفاتيكان .
 برتل ثورفالدين : « أدونيس » . متحف ميونخ .
 برتل ثورفالدين : « باكخوس وأريادنى » . متحف كوينهاجن .
 برتل ثورفالدين : « جانيميدس » . متحف ثورفالدين بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدين : « فولكانوس بعد سهام كيبيد » متحف ثورفالدين بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدين : « مارس وكيبيد » . متحف ثورفالدين بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدين : « منيرفا وپروميثيوس » . نقش بارز .
 پوجيه : « هرقل يصرع الهيدرا » . متحف روان .
 جان ده بولوى : « هرقل يحمل الكون » .
 جان ده بولوى : « هرقل يقتل القنطور نيسوس » . متحف چاكمار أندريه پپاريس .
 چيمس پراديه : « ربات الحسن الثلاث » . متحف اللوفر .
 چيمس پراديه : « مصرع أولاد نبوى » . متحف اللوفر .
 جيوم كوستون : « پان يعلم أبوللو العزف على المزمار » .
 دييوا : « ليذا وطائر البجع » . متحف لوکسمبورج .
 رود : « الإله ميركوريوس [هرميس] » . متحف اللوفر .
 رينزو برنىنى : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
 رينزو برنىنى : « پلوتو وپروسپرينا » . فيلا بورجيزى بروما .
 رينزو برنىنى : « نافورة تريتون » بروما .
 سانسولينو : « باكخوس » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 سلوطز : « سقوط إيكاروس » . متحف اللوفر .
 فرانث فيل : « أورفيوس » . متحف اللوفر .
 فنان مجهول : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
 فنان مجهول : « أولاد نبوى » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
 فنان مجهول : « نبوى وطفلهما » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
 كلوديون : « مركب عابdat باكخوس » . متحف اللوفر .
 ميكلاتچلو : « أدونيس مجتصر » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 ميكلاتچلو : « باكخوس ثملا » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 نيقولا سباستيان آدم : « پروميثيوس مغلولاً والنسر ينهش كبده » . متحف اللوفر .

هذا الكتاب

أحد الشوامخ القليلة .. ولسوف يبقى في ذاكرة الأجيال القادمة ولابد طويل ، فترجمة الميتمورفوز لأوفيد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاماً خطيراً في لغة سائغة دافقة الحيوية .. هي بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع وفالغ معا ، وهو من أجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض (الأمرام ١٩٧٢/١١/٢٤)

لابد لكل قارئ مثقف أن يصر بعينه أياماً على واحد من هذه الأعمال الكبرى لأنه سوف يجد صداها في كل الآداب العالمية القديمة والحديثة . ولا بد أن د . ثروت عكاشة يجد لذته في أن يتحدث الأعمال الأدبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون إقباله على الأعمال الأدبية البعيدة عن تناول المثقفين . هذه موسوعة العذاب الإغريقي أحكمت ترجمتها وصياغتها وقدمت بكل إخلاص إلى المكتبة العربية

أيمن منصور (الأخبار ١٩٧٢/٦/١٦)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذي يعتبر من شوامخ الأدب القديم الفين من الأعوام دون أن تقدم الأقلام العربية على ترجمته إلى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الأنيق ليمسلا هذا الفراغ . لقد أقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حباً وعشقاً لما داته وإيماناً بأهميته للاكتمال والذخج الثقافي ، مضيفاً إلى معطياته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد

حسين بيكار (أخبار اليوم ١٩٧٢/١٢/١٦)

إن بلادنا بحاجة إلى مزيد من الأصول الكبرى للمكر والفن ، وهي بحاجة إلى المؤسسات الثقافية الكبرى ، وينبغي أن نستقبل الأعمال الكبيرة مثل « مسخ الكائنات » بالحب والتقدير . ومرحباً بأوفيد إمام العاشقين في المكتبة العربية مترجماً مثل هذه الترجمة الأمانة الجميلة . إن مثل هذا العمل الكبير الذي يقدمه إلينا الدكتور ثروت عكاشة يمثل معه دليلاً جديداً على ما يملكه من طموح ثقافي بالغ السمو في محاولة خلق اتصال « كهربائي » بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تنهض ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار انتخلف الفكرى .. هو أحد الكتب الأساسية في الأدب العالمى ، ومن الخطأ والتقصير أن تخلو المكتبة العربية من هذا الأثر الفنى والفكرى الهام

رجاء النفاش (الصور ١٩٧٢/١/٢٦)

لابد أن يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده أيضاً على هذا الإنتاج المتلاحق الفياض . وترجمة أوفيد بهذه الأمانة والعناية والعذوبة نموذج للترجمة التى ليست نقلاً ولكن خلقاً

محمد عوده (الجمهورية ١٩٧٢/١٢/٨)

